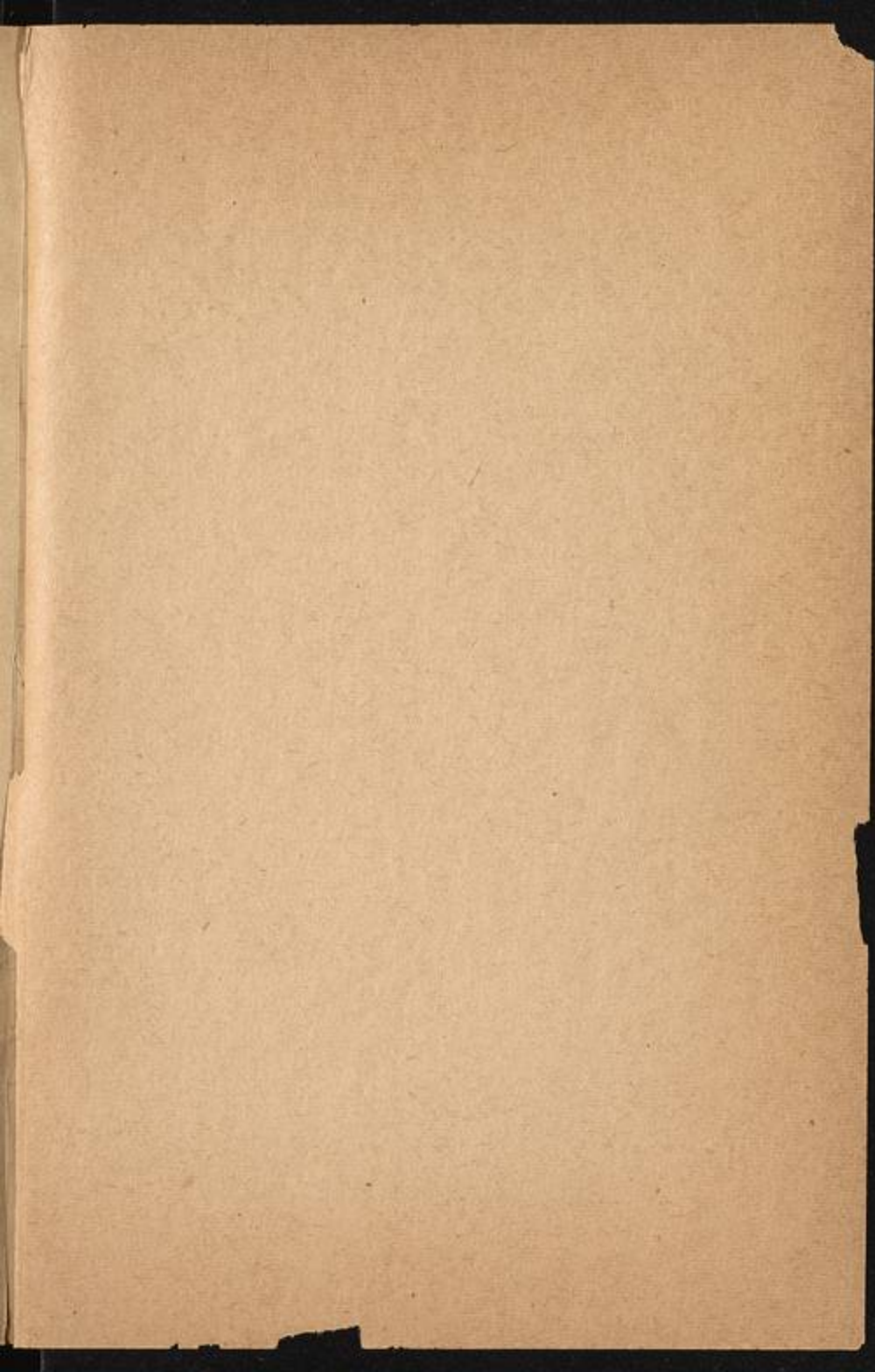


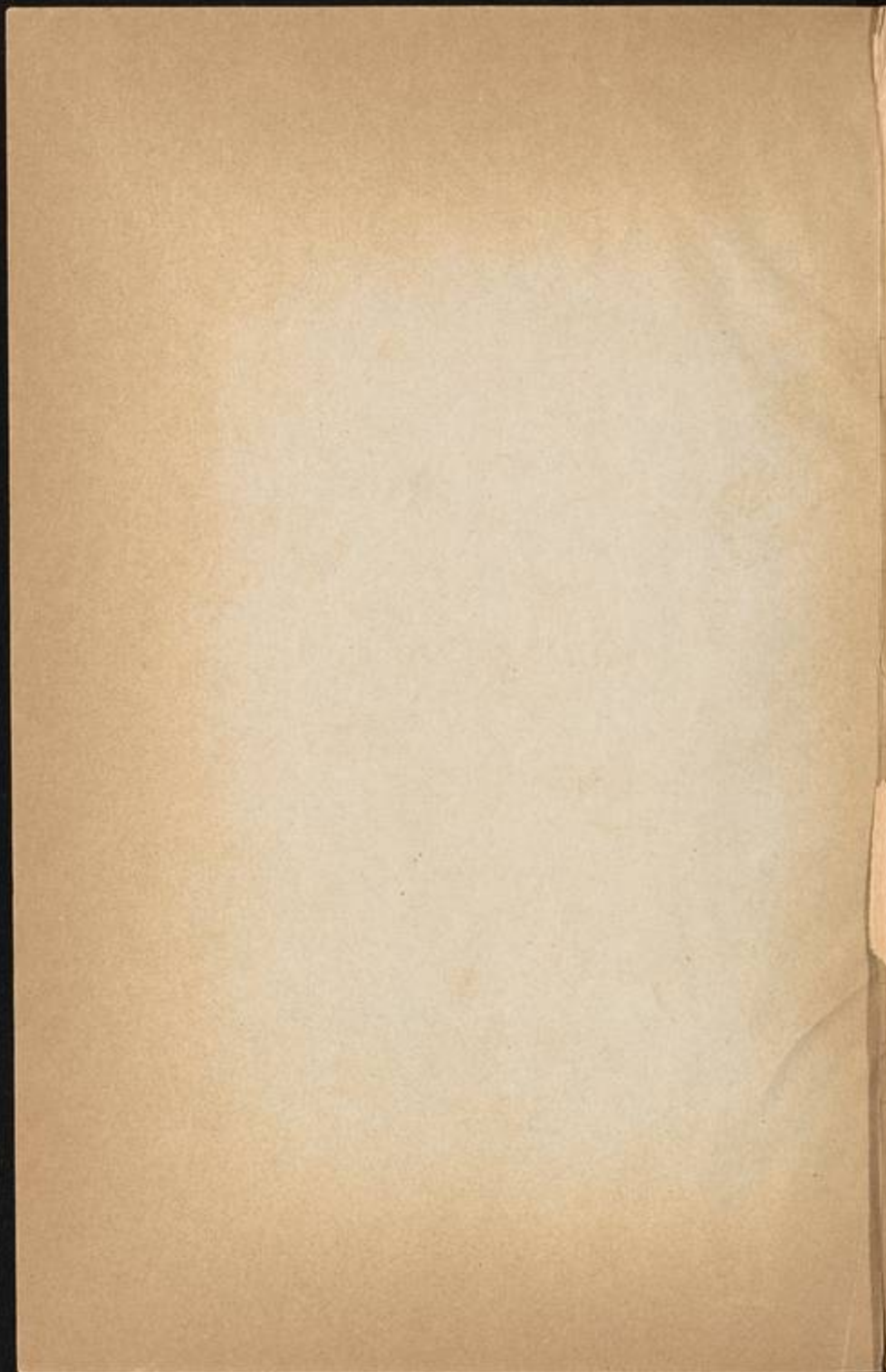
Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES









11
39141

PT 40-10% Khamisi 12/2/45

2 vols

Band 12

طَهَّ مَبِين

©

26

لِحَطَّائِشِ

١

ALIBULIO
YTEREVIMU
YRABLI

مطبعة المعارف وكتبتها بصر

45-39141
June 30 1953 PM/ME

793.7H954

S7

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

4530141 - Rome 30. 1944 IM/MLF

فهرست

صفحة		
٥	...	الأبناء والآباء
١٧	...	الحب
٣٧	...	النضال
٦٣	...	أنت وأنا
٨٣	...	دينيز
١٠٢	...	روى بلاس
١٢٣	...	أنصاف الحرائر
١٤٣	...	خياطة لونيغيل
١٥٩	...	الحارسة
١٧٧	...	الأميرجان
١٩٩	...	الرجل المغلول
٢٢٣	...	منافنا

[Faint, illegible text, possibly bleed-through from the reverse side of the page]

مقدمة

هذه لحظات أدبية ، قضيتها أيام الشباب بين أدباء الغرب وقراء الشرق . وكنت أجد فيها من رضى العقل ونعمة البال وراحة الضمير شيئاً كثيراً . فقد كنت أحس حين أقرأ هذه الآثار الأدبية وحين أعرضها على قراء العربية أنى أنهض بواجب خطير هو تحقيق الصلة العقلية بين الشرق والغرب . وكنت أنتظر للنهوض بهذا الواجب الخطير نتأجج ليست أقل منه خطراً .

كنت أنتظر إذا قرأت هذه الفصول وفهمت على وجهها أن تقرب الآماد بين الشرق والغرب ، وأن يكون ذلك وسيلة من الوسائل الى تحقيق المودة والتعاون بين طائفتين من الشعوب أفسدت أمرها الخصومات التي كان الشرق فيها مظلوماً وكان الغرب فيها ظالماً .

وكنت أقضى هذه اللحظات الأدبية الحلوة في تلك الأيام
السياسية المرة التي بلغ الصراع فيها أشده بيننا وبين الأوروبيين
في أعقاب ثورتنا الوطنية الأخيرة . فكنت أستعين بحلاوة الأدب
على مرارة السياسة ، وكنت أسلك طريق التقريب بين العقول
على حين كانت السياسة تفرق بين العواطف والقلوب .

وكنت أقضى هذه اللحظات الأدبية الممتعة في تلك الأيام
السياسية الممضة التي بلغت فيها الخصومة بين المصريين
أنفسهم أقصاها ؛ فتنكر بعضهم لبعض وأضر بعضهم لبعض كثيراً
من الحقد والبغض والعداء .

وكنت أعتقد — ولم أكن مخطئاً — أن هذه اللحظات
الأدبية ستنتج فصولا لا تمس السياسة من قريب ولا من بعيد ،
وسيقراها المصريون مهما تكن أحزابهم وسياتقون في الرضا عنها
أو السخط عليها . وسيتحدث بعضهم الى بعض بتقريظها أو الغض
منها ، وستكون وسيلة من وسائل المودة بين قوم لا ينبغي أن يكون
بينهم شيء آخر إلا المودة .

وكنت — ولا أزال — شديد الإيمان بأن الأدب
الحى لا يستطيع العزلة وإنما هو مضطر إلى أن يتصل بالآداب

الحياة الأخرى . وسبيله إلى ذلك النقل والترجمة والتلخيص
والتعريف بالأدباء من الأجانب .

وكنت أسلك إلى هذا ، الطريق التي سلكها العرب
في عصورهم القديمة وسلكها المصريون في تاريخهم الحديث .
وكنت مطمئناً إلى أن سلوك هذه الطريق سيزيد أدبنا العربي
قوة إلى قوة ويمنحه حياة إلى حياة ، وسيمنح لغتنا العربية حظاً
من المرونة فيمكنها من أن تؤدي معاني وأغراضاً لم تتعود أن
تؤديها من قبل .

وكنت — ولا أزال — مؤمناً بأن الأدب الحي لا ينبغي
أن يتهالك على الآداب الأجنبية ، ينقل منها ويترجم عنها ، ذلك
أخرى أن يفنيه فيها ويفقده هذه الحياة القوية التي تأتيه من
شخصيته الخالدة وأصوله القديمة . فليس له بد من أن يوازن
بين قوته التي تأتيه من نفسه وهذه القوة الطارئة التي تأتيه من
غيره . وكنت من أجل ذلك أنشر هذه الفصول في أيام الآحاد
وأنشر فصولاً عن الأدب العربي القديم في أيام الأربعاء . أوازن
بذلك بين إحياء الأدب القديم وإغنائه بما أقدم إليه من مادة
الأدب الأوروبي الحديث . ويخيل إلى أن شيئاً من التوفيق قد

كتب لي في هذه الخطوات التي خطوتها في تلك الأعوام
الحلوة المرة التي أذكرها الآن في كثير من الحب والحنان ،
وفي كثير من الرضى والفخر؛ لأنها كانت أعوام النهضة المصرية
الصحيحة ولأنها كانت أعوام الحرية المصرية الصادقة التي لم
تكن تخفل إلا بالحق والمنفعة العامة .

ويخيل إليّ أن الجيل الذي كتبت له هذه الفصول
منذ أكثر من خمس عشرة سنة قد انتفع بها واستفاد منها
سواء في ذلك من تلقاها راضياً ومن قرأها راعباً عنها سخطاً
عليها . وهي على كل حال قد دفعت ذلك الشباب إلى الأدب
العربي وإلى فن التمثيل منه خاصة . ولولا أحداث السياسة
وخطوبها والنكبات التي ألمت بالعقل المصري حين طغى الطغاة
وبقى البغاة وصد المصريون عن حقهم في الحرية والدستور لكان
لتلك النهضة وما أنتجت من الآثار الأدبية نتائج أقوم من
النتائج التي وصلنا إليها .

ومهما يكن من شيء فقد أدت هذه الفصول حينئذ
ما كان ينتظر منها فنفعت جيلاً من القراء المصريين والشرقيين
بوجه عام ثم أنطوت عليها الصحف التي نشرت فيها فنامت بين

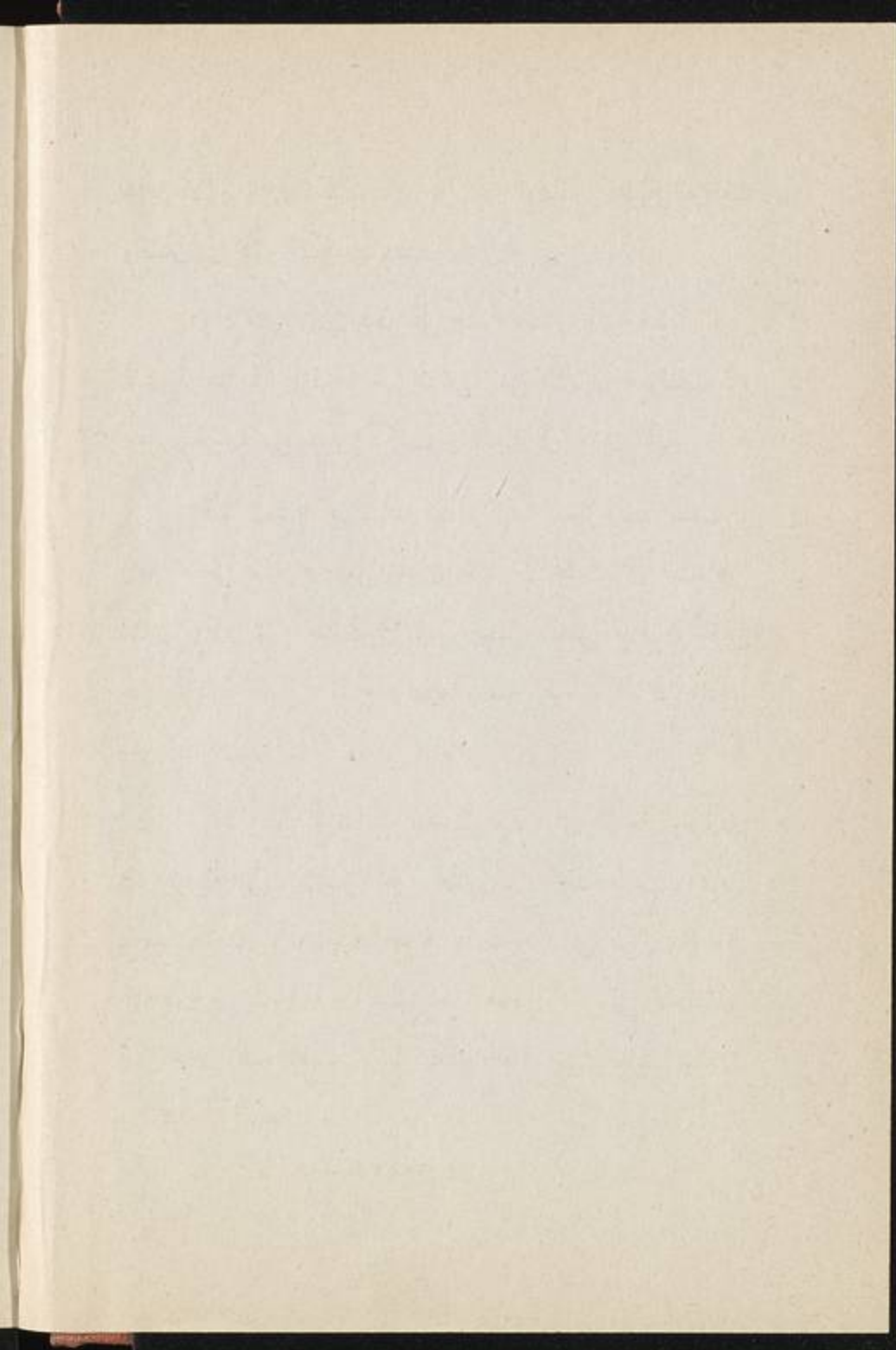
هذه الآثار التي تكتب في كل يوم وتطوى عليها الصحف
وتطمئن في دور الكتب مصادر للتاريخ .

وقد مضى الآن دهر على هذه الفصول حتى نسيها الجيل
الذي قرأها ولم يعرفها الجيل الناشئ من الشباب فلنوقظها من
نومها ونخرجها من دور الكتب ولنقدمها إلى هذين الجيلين .

فأما أحدهما فسيقراها فيذكر أياماً حلوة وعهداً سعيداً ،
وأما الآخر فسيقراها ومن يدرى لعلها أن تحدث في نفسه من
الآثار أكثر مما أحدثت في نفس الجيل الماضي فإذا هو مقبل
على الأدب العربي يقوبه وينميه وينتج فيه أكثر مما انتجنا
وخيراً مما انتجنا .

وقد أقبل القيظ بما فيه من دعاء الى الراحة وترغيب
في القراءة التي لا تشق على القارئ . وقد طالت الحرب
وتعقدت خطوبها وتتابعت أهوالها واحتاج الناس من أجل هذا
كله الى ما يشغلون به أنفسهم عن هذه الآلام التي لا تنقضى
فأقل ما في هذه الفصول إنها ستلهي القراء عن أنفسهم ساعات
من نهار أو ساعات من ليل .

يونيو سنة ١٩٤٢



الأبناء والآباء

ليس هذا عنوان القصة ، ولكنه موضوعها فإني أريد أن أحدثك عن قصة تمثيلية صغيرة مثلت في باريس منذ حين ووصل إلينا نصها آخر السنة الماضية . وهذه القصة فصل واحد ، تسمى « كبار الصبية » ، أعجب بها الجمهور في فرنسا ، وأعجب بها النقاد وعدت أثراً من أحسن الآثار الأدبية لكاتبها « بول جرالدى » .

موضوع هذه القصة ، كما قلت ، الأبناء والآباء . ويخيل إلى أن ليس من الشبان المتعلمين في مصر وغير مصر من لا يجد نفسه فيها إذا قرأها . فهي تصف شيئاً مشتركاً بين الناس جميعاً وتمثل عاطفة يشعر بها الناس جميعاً . تصف هذا الفرق العظيم الواضح بين الآباء والأبناء ، أو بين الشباب

والشيب ، أو بين هذا الجيل الناشئ الذى يستقبل الحياة وذلك الجيل الفانى الذى يودع هذه الحياة . لكل من هذين الجيلين شعوره وعواطفه ومناهجه الخاصة فى التفكير ، ومناهجه الخاصة فى العمل أيضاً . ومع ذلك فالجيل الناشئ ابن الجيل الفانى ؛ فهو فى حقيقة الأمر إستمرار له ومرآة تعكس صورة من صورهِ . وإذن فهناك تشابه ، وهناك تباين ، وإذن فهناك اتفاق وهناك افتراق .

أنظر إلى ما بينك وبين أبيك من صلة شعورية أو خلقية أو عقلية ، تجد أنه قد أورثك أشياء كثيرة فورثتها عنه . ولكن هذه الأشياء التى ورثتها وتمتتها فيك التربية الأولى لم تخضع لسلطان أبيك فى كل وقت ، بل أفلتت من هذا السلطان وخضعت لسلطان آخر أو لأنواع مختلفة من السلطان : خضعت لسلطان المدرسة وما درست فيها ، وخضعت لسلطان المعاشرة وما أحدث فى نفسك من أثر ، من هذا الأثر القوى الذى يحدثه فى النفس حب الصديق والميل إلى تقليده وبغض العدو والنفور من محاكاته . وخضعت لسلطان الحياة العاملة ، هذه الحياة التى تراها فى الشارع وفى مجالسك العامة والخاصة

وحيثما ذهبت وأينما وجَّهت . وخضعت لسلطان ما قرأت وتقرأ
في الكتب والصحف ، وما سمعت وتسمع من أحاديث .
خضعت لهذا كله فتغيرت واستحلت قليلا أو كثيراً ، وأصبحت
تشبه أباك وتخالفه . ونشأ عن هذا الشبه حب وعطف ، ونشأ
عن هذه المخالفة بعد ونفور . فلن تستطيع مهما تحاول أن تنكر
أنك تبعد من أبيك وتنفر منه وتحيا حياة خاصة تكتمه إياها
الكتمان كله وتأبى أن يظهر منها على شيء قليل أو كثير .
تسهر بأشياء لا يشعر أبوك بها ، وتحصر على أن يجهل أنك
تسهر بهذه الأشياء . تميل إلى أشياء لا يميل إليها ، وتجتهد
أن يجهل أبوك أنك تميل إلى هذه الأشياء . وتطمع في أشياء :
ينصرف هو عنها ، وتخفى على أبيك أنك تطمع في هذه الأشياء
فاذا جلس أحدهما إلى صاحبه كان الحديث بينكما عسيراً ضيقاً
محدود النواحي والأطراف . لأن وجوه الشبه بين نفسيكما أقل
مما تظنان . فلك طريقك في الشعور والتفكير والحكم على
الأشياء ، وله طريقه في الشعور والتفكير والحكم على الأشياء .
فاذا تحدثتما فقلما تتفقان ، وكثيراً ما تختلفان . وللخلاف أثر
سيء ونتائج خطيرة على ما بينكما من مودة وعلى ما للأبيرة كلها

من صلاة . وإذن فأتما تجتهدان اجتهداً خفياً لا تحسّانه ولا تشعران به ، تجتهدان في ألا تلتقيا . فاذا التقيتا اجتهدتما في ألا تتحدثا . فاذا تحدثتا اجتهدتما في ألا تتعمقا في الحديث ، وفي ألا يمس هذا الحديثُ هذا الجزء الخاص من الحياة الذي هو أعز أجزاء الحياة على الانسان . هذا الجزء الذي يمس حياة القلب والعاطفة وحياة العقل والتفكير . لا تتحدثان في ذلك إلا قليلا وحين تُتكرهان على هذا الحديث . وإنما تتحدثان في الجو والمطر وفي أخبار الناس وما يعرض لمن تعرفان من خير أو شر ، في هذه الأشياء التي ليس بينها وبين الحياة الخاصة صلة والتي ليس لها على القلب والعقل من سلطان .

أليس هذا حقاً ! أليس هذا ما يشعر به الشاب أمام أبيه الشيخ ! والأب أمام ابنه الشاب ! أليس هذا ما يشكو منه الآباء والأبناء جميعاً ! أليس هذا معنى تغير الزمان ! أليس هذا معنى قول الأب ينكر حياة أبنائه ومناهجهم فيها : « لقد أصبحنا في آخر الزمان » ! ومعنى قول الأبناء ينكرون حياة آبائهم ومناهجهم فيها : « لقد مضى بذلك الزمان » ! . نعم هو هذا ! هو الجهاد المتصل بين القديم والجديد ، وبين ما تضيئه

شمس هذا الجيل وما أضاءته شمس الجيل الماضى وما سضىته
شمس الجيل للقبل ! هو هذا ! ولكننا لا نلتفت إليه ولا
نفكر فيه ولا نحاول فهمه وتقصي أسبابه .

ولو أنا التفتنا إليه ودرسناه لأذعنَّا له وقبلناه لا ساخرين
ولا منكرين ، كما نذعن لقوانين الطبيعة المادية وما تستتبعه
من لذة وألم مجتهدين فى أن نسخر هذه القوانين فنكثر آثارها
الحسنة ونقلل آثارها السيئة ما استطعنا . نعم ! لو فكرنا
وتفهمنا لاسترحنا . ولكننا لا نفكر ولا نتفهم ، فنحن فى ألم
يعقبه ألم ، وحسرة تتبعها حسرة . ويكفى أن تجلس إلى الآباء
وتسمعهم يندبون سوء حظهم وخيبة أملهم فى أبنائهم . فهم
لا يشكون فى أن هؤلاء الأبناء قد درسوا فأحسنوا الدرس ،
وسعوا فأحسنوا السعى ، ووصلوا بعد هذا وذلك إلى المنازل
الاجتماعية التى تليق بهم وترضى نحر آبائهم ، ولكنهم برغم
هذا كله متكبرون أو مسرفون فى الصمت ، أو متفرنجون .
هم على غير ما كان الآباء ينتظرون .

الآباء راضون ؛ لأن أبنائهم قد ظفروا . والآباء ساخطون
لأن شيئاً ما يحول بين هؤلاء الآباء وأبنائهم ويمنع كل فريق
منهم أن يفهم صاحبه .

وكذلك حديث الأبناء إذا جلست إليهم . فهم يعرفون
لآبائهم الرحمة والبر وما كلفتهم الرحمة والبر من عناء وما حمّلاها
من مشقة . ويعرفون لآبائهم أنهم كدوا نهارهم وأرقوا ليلهم
ليربوهم ويعدّوهم للجهاد واحتمال أثقال الحياة ، وأنهم مدينون
لآبائهم بما بلغوا من منزلة وما ارتقوا إليه من مرتبة ، ولكن
هؤلاء الآباء يفكرون على الطريقة القديمة ، ويشعرون على الطريقة
القديمة ؛ فهم لا يفهمون ما نفهم ، ولا يشعرون بما نشعر به ، وكثيراً
ما تضيق نفوسهم بأشياء نراها نحن هينة مقبولة بل مستحبة
محمودة . تسمع ذلك وهذا إذا جلست إلى الآباء والأبناء ، بل
تشعر بهذا وذاك إذا جلست إلى أبيك ثم خلوت إلى نفسك .
وتمر الحياة وتتوالى الأيام وبينك وبين أبيك إلى جانب الحب
والمودة والعطف والبر شيء من سوء الظن ومن الاحتياط ليس إلى
محوه ولا إلى اتقائه من سبيل .

هذا هو الذي ذهب « بول جرالدى » إلى تصويره في
قصته الصغيرة فأحسن وأجاد ، ووفق التوفيق كله في اللفظ
والمعنى جميعاً .

يرتفع الستار عن شاب هو « جاك » قد جلس في غرفته التي هي غرفة نومه وغرفة عمله . جلس الى مائدته يقرأ ، فيدخل عليه صديقه « دورى » فيتحدثان في أشياء يتحدث فيها الشبان إذا خلا بعضهم إلى بعض ويكتمونها آبائهم . يذكر « دورى » أمر صاحبتة ، وأنه كان معها وأنه سيلقاها . ويذكر « جاك » أمر خطبه أو أمر التي سيخطبها وأنه قد وصل إليه منها كتاب . فيسأله متى الزواج ؟ فيجيب « جاك » بأنه ينتظر أن يجد لنفسه عملاً . فيسأله متى الخطبة الرسمية ؟ فيجيب بأن ليس الى ذلك من حاجة ، بأنه لا يريد أن يعلم أبوه بشيء من هذا . وهنا يظهر هذا الخلاف بين الأب والابن في طريقة التفكير والشعور . ذلك أن « جاك » يعلم بأن أباه في حالة مالية سيئة ، وهو يستنبط ذلك استنباطاً ، لأن أباه لم يذكر له منه شيئاً . يعلم ذلك فلا يريد أن يتزوج حتى لا يثقل على أبيه ، ولا يريد أن ينيء أباه بحبه حتى لا يتكلف هذا الأب لإسعاد ابنه ما لا يطيق ، أو حتى لا يحس هذا الأب الألم لعجزه عن إسعاد ابنه . وانهما لفي ذلك وإن « جاك » ليظهر صديقه على كتاب خطبه إذ يدخل الأب ، فيطلب

الصحف الى ابنه ، فيدفعها هذا اليه متبرماً ضيق الذرع ملحاً على
أبيه في الخروج والمشى ؛ لأنه متعب ، ولأن الأطباء قد رسموا
له الخروج والمشى . يلح الابن ويتناقل الأب فيجلس . ويشعر
الفتى بأن أباه قد قرر ألا يخرج فيضيق بذلك ذرعاً ، لا يستطيع
أن يخفي ضيق نفسه فينصرف مظهرأ شيناً من السخط ،
ويترك أباه وصديقه معاً .

يتحدث الأب والصديق . وموضوع حديثهما « جاك »
بطبيعة الحال . يسأل الأب ما بال ابنه يسخط ويتبرم ؟ ما باله
يسرف في الصمت ؟ ما باله لا يذكر له حبه ؟ فهو يعلم أن ابنه
يجب ويريد أن يزوجه . وهو يريد أن يأتي ابنه فيتحدث
اليه بأسرار نفسه وعواطف قلبه ، ولكن هذا الابن صامت بخيل
بالكلام . فينبئه الصديق بحياء الفتى ، وبأن ابنه يألم أيضاً ؛ لأن
الأب لا ينبئه بأعماله ولا يتحدث اليه بما يلقى في هذه الأعمال
من شدة أحياناً ومن لين أحياناً . فينفجر الأب بالشكوى لأنه
كثيراً ما حاول أن يتحدث الى ابنه كما يتحدث الصديق الى
الصديق ، فلم يجد منه إلا نفوراً وإعراضاً . فهو سيء الحظ ،
يشكو صمت ابنه وثرثرة ابنتيه . وهو لم يأت الى هذه الغرفة

ليطلب الصحف ، وإنما اتخذ الصحف وسيلة الى أن يتحدث الى ابنه ، فينبئه ابته بما لديه ليتبين منه أسراره ونياته في أمر حبه ، ولكنه لم يجد إلا هذا الإعراض الذي تبعه الانصراف .

فهذا المنظر الذي خلا فيه الأب الى صديق ابنه هو منظر قد خصص لشرح ما يشكو منه الابن . لأن الأب يتحدث عن نفسه ، والصديق يتحدث عن صديقه . ثم يعود « جاك » وينصرف أبوه ، فيكون الحديث بين الصديقين : يلح « دورى » على « جاك » أن يتلطف بأبيه وأن يظهر له شيئاً من العطف والمودة مكان هذا النفور والاعراض . وهذا المنظر مؤثر جداً لأن « دورى » قد فقد أباه وكان يسير معه سيرة « جاك » مع أبيه ، فهو الآن يأسف لذلك أشد الأسف ، ويندم عليه أشد الندم . وهو يفعل بعد موت أبيه ما لم يفعل في حياته ، فيتحدث الى أبيه ميتاً بكل ما يفعل وما يريد أن يفعل . ويتحدث إلى أبيه ميتاً بما يسره ويحزنه . ويؤثر هذا الحديث في نفس « جاك » وإن لم يتكلم إلا قليلاً . فاذا انصرف صاحبه أخذ « جاك » كتاب خطبه وهم بالخروج ، ليظهر الكتاب لأبيه ، وليذكر له أمر حبه . فيفتح الباب فاذا أبوه .

ويدخل الأب فيتحدث عن « دورى » ، ويحاول « جاك » أن يسأله عن أعماله الخاصة ، فكلاماً ألع عليه فى ذلك ألع الأب فى الفرار من هذه الأسئلة . فىغضب « جاك » قائلاً لأبيه : « أتكره أن أحدثك عن صديقك » .

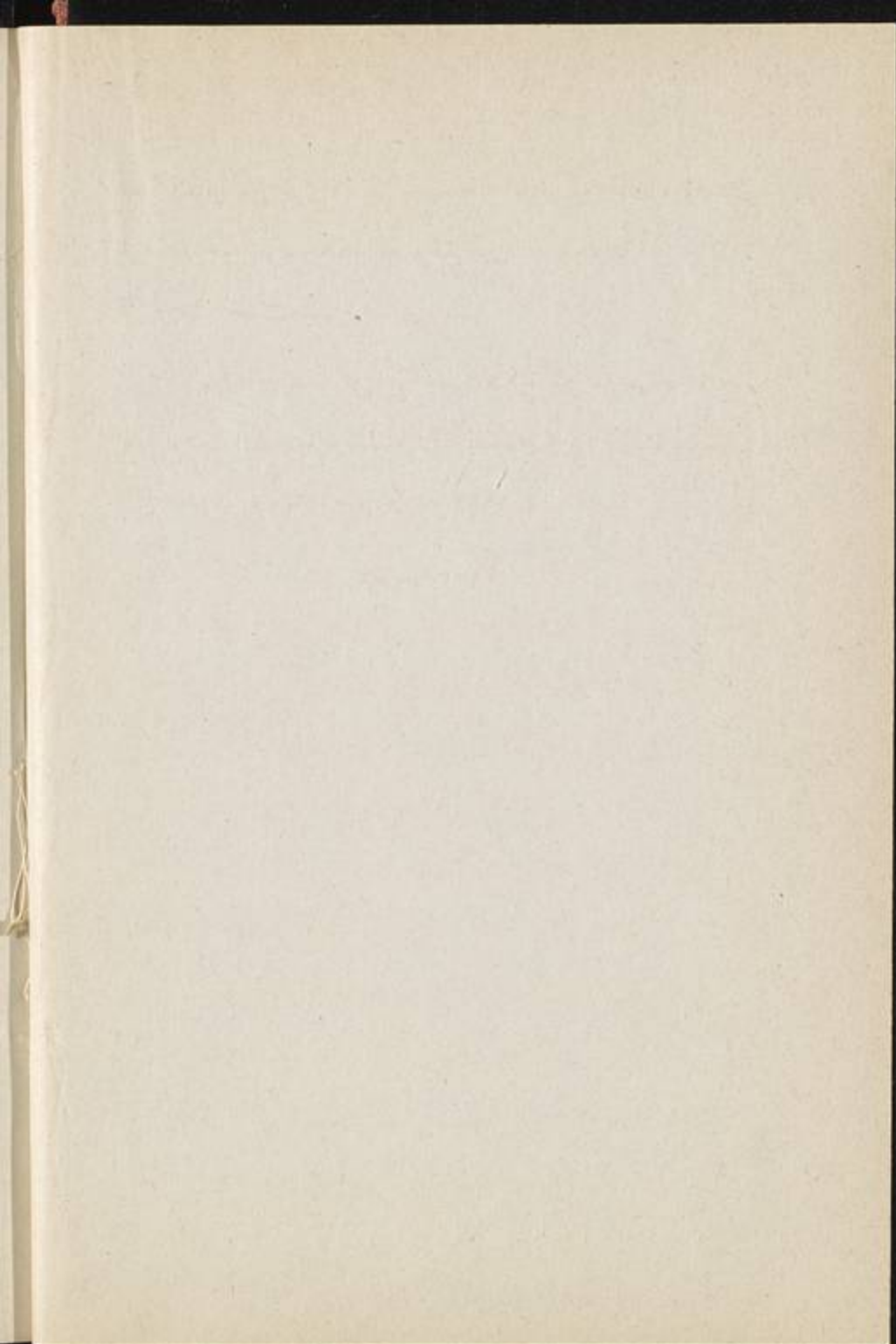
فىشكو الابن من صمت أبيه وإعراضه ، ويشكو الأب من صمت ابنه وإعراضه ، ويشتد بينهما خصام مصدره سوء الظن هذا الذى وصفناه . فىهم « جاك » بالانصراف ويطرده أبوه مغضباً . ولكنه لا يكاد يخرج حتى تنحل قوى الشيخ ويتبخر غضبه فىبكى . ويعود ابنه فجأة ، فىحاول الشيخ أن يخفى ضعفه ويستأنف غضبه ، فلا يفلح . ويحاول الابن أن يستعطف أباه فىظهر الكتاب ، ولكنه لا يجد لفظاً يعبر به عما يريد من أمر حبه ؛ لأنه لم يتعود أن يتحدث إلى أبيه فى مثل هذا الأمر . فىرى أبوه اضطرابه وحياه ووقوف لسانه ، فىفتح ذراعيه ، ويلقى « جاك » بنفسه على صدر أبيه

هذه هى القصة قد بالغنا فى تاخيصها ، وحذفنا منها أشياء كثيرة هى زينتها ، وحذفنا الحوار بين الصديقين وما فى

هذا الحوار من مزاح لزيد . وحذفنا الحوار بين الأب وصديق
ابنه وما فيه من حكمة بالغة وحق بين . وحذفنا أشياء كثيرة
لو ترجمت نخلبت نفس القارئ .

ولكننا حرصنا على أن نعطي فكرة من موضوع القصة .
فإذا أردت أن تنتفع وتستمتع فاقرا نصها في مجلة « الاستراسيون »
التي صدرت في ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

يناير سنة ١٩٢٣



الحب

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « بول جيرالدى »

ليست يسيرة التلخيص ، وليست يسيرة التمثيل . وإنما هي شاقة على من يريد أن يلخصها ، شاقة على من يريد أن يمثلها . ولعلها شاقة أيضاً على من يريد أن يفهمها . ومع ذلك فهي يسيرة التأليف ، منسقة المعاني ، صادقة الشعور ، حسنة اختيار الألفاظ ، ممتازة بكل ما تمتاز به الآثار الفنية الراقية التي قدّر لها الخلود لأنها صادقة .

هي عسيرة ويسيرة . عسيرة لأن تلخيصها وتمثيلها وفهماها ، كل ذلك يحتاج إلى جهد غير قليل ، يحتاج إلى أن نجتنب التكلف ونعود إلى طبيعتنا الصافية النقية التي لم تعقدها الحضارة ولم تكدرها مواضع الناس . ويسيرة لأن الكاتب حين كتبها

لم يستوح الحياة المعقدة ، ولم يبحث عن أشخاصه في هذه الجماعات العادية التي تنافق في الحياة ، ولا تحيا إلا متكلفة متصنعة خاضعة لضروب من النظم والأوضاع التي تسيطر على جمال الطبيعة الانسانية فتسترها وتخفي ما تمتاز به من صدق وصفاء ، ومن أمانة ووفاء .

هي يسيرة وهي عسيرة ، وهي خالدة مع هذا كله .
أعترف بأنى أعجب بها إعجاباً لا حد له . وقد أعجبت بقصص تمثيلية كثيرة ، وسأعجب بقصص تمثيلية كثيرة . ولكن إعجابى بهذه القصة له جوهر خاص وصفات خاصة ، لا أصدر فيه عن العقل ولا عن المنطق ولا عن هذا الترتيب الفنى الذى ألقه الناس وتواضعوا عليه ، وإنما أصدر فيه عن القلب وعن الشعور .
أصدر فيه عما أجد وعما أحس . أجد فيه نفسى ، وأجد فيه من أحب . وأعتقد أن كثيراً من الصادقين المخلصين سيجدون فى هذه القصة أنفسهم ، وسيجدون فيها من يحبون .

لا أعرف قصة كهذه القصة تخلو الخلو كله من التكلف والتصنع ، وتدنو الدنو كله من السذاجة والصدق . وحسبك أنك لا ترى فيها عملاً أو لا تكاد ترى فيها عملاً ولا حركة ،

مع أن التمثيل إنما يقوم على العمل والحركة . وحسبك أنك لا ترى فيها إلا أشخاصاً ثلاثة ، كل عملهم حوار : رجلان يجبان امرأة . أو امرأة تحب رجلين . هذا كل موضوع القصة . هو مجمل موجز ، ولكن تفصيله والاطناب فيه قد لا ينتهيان إلى حد .

رجلان يجبان امرأة ، وامرأة يتنازعا حب رجلين . فيجب أن تُدرس نفسُ هذه المرأة وأن تُدرس نفسا هذين الرجلين . وأحد هذين الرجلين زوج لهذه المرأة ، فيجب أن يدرس الزواج وصلاته وما فيه من حق وما فيه من واجب . وأحد هذين الرجلين رجل عمل ، والآخر ليس بالكسل ولا بالنائم ولكن له في الحياة مثلاً أعلى ، ولكن له في الواجب رأياً خاصاً ، ولكن له في كرامة الرجل وفي كرامة المرأة وفي قدر الزواج وما يكون الأسرة من صلات آراء هي الحق ، ولكن شعور الناس بها قليل . ثم هناك عواطف تتنازع هذه المرأة ، كلها صادقة ، ولكن منها الخطيء ومنها المصيب . منها ما يصدر عن الحق والواجب ، ومنها ما يصدر عن الشهوة والهوى . هناك نفس إنسانية غريبة تتنازعها آلام وآمال . هناك محنة تتمحن بها الأسرة فتعرض لخطر الانحلال ، ثم يقال عثارها ويكون

هذا الخطر نفسه وسيلة إلى تثبيت قواعدها وإحكام ما يجمعها من
صلات . كل هذا يجب أن يدرس ، وأن يدرس في هدوء
ودعة ، وفي ألفاظ مختارة وأساليب عذبة صافية .

ولكني لا أريد أن أطيل في هذه المقدمة ، وإنما أريد
أن أمضي في تلخيص هذه القصة . ولقد كنت أود أن أترجمها
لك ؛ فلن يؤدي التلخيص من حقها بعض ما يجب ؛ ولكني
أكتب في صحيفة سيارة ، فحسبي أن ألفتك إلى القصة وإلى
شيء من جملها ، ولك إن شئت أن تقرؤها أو أن تشهد تمثيلها
في فرنسا أو في مصر إن حملها إلى مصر المثلون .



الزوجان في غرفة يتحادثان ، قد وصل إليهما البريد ،
فهما يقرآنه ويتبادلان الرأي فيه ، وينتقلان من هذا إلى نفسيهما
وإلى حبهما وإلى رأى كل منهما في صاحبه . ذلك أن الزوج
« هنرى » رجل سعيد مغتبط كل الاغتباط بحياته الزوجية ،
مطمئن إليها ، واثق بمستقبلها ، ولكنه يحس من زوجه « هيلين »
شيئاً من الاضطراب ، أو قل شيئاً من السأم ، أو قل
إنه يحس من زوجه شيئاً لا يتبين حقيقته . يحس أن سعادتها

ليست من الصفو والنقاء بحيث يجب ، وبحيث يجب أن تكون . فهو يسألها عن أمرها ، فتلح في أنها سعيدة ، ويلح هو في أنه يشعر بأن هذه السعادة ليست خالصة ، ويحاول أن يتعرف الأسباب التي حالت بين سعادة زوجه وبين الصفاء . يبحث عن ذلك في أخلاقه ، ويبحث عن ذلك في مزاجه ، ويبحث عن ذلك في سيرته الزوجية ، ولا يجد من امرأته إلا إلحاحاً في أنها سعيدة ، وسخطاً عليه لأنه يتكف مثل هذا البحث السخيف . ولكن في الحق شيئاً تشعر به « هيلين » ولا يلبث أن يظهر فتبين العقدة التي يجب على القصة أن تحلها .

الزوج مطمئن إلى حياته ، سعيد لا يستزيد من سعادته . ولكن « هيلين » مطمئنة سعيدة حتى يظهر لها شيء يخيل إليها أن في سعادتها نقصاً ما ؛ فهي تشعر شعوراً غامضاً بالحاجة إلى تكميل هذا النقص . ولكنها لا تعترف بهذا الشعور ، ولا تعترف بهذا النقص ، حتى يُقبل الشخص الثالث من أشخاص القصة ، فيجعل هذا الشعور في نفسها واضحاً ، بل يجعله حاجة ، بل يجعله ضرورة لا بد من إرضائها . هذا الشخص الثالث هو رجل يسمى « شالانج » وقد كلف بالسياحة وطاف أقطار الأرض ،

وهو من أولئك الذين يؤثرون العمل المنتج على الحياة المهادنة الطمئنة ؛
ذكى ، ولكن ذكاه ليس بالعميق ، وهو مع ذلك قوى الحجة
إذا تكلم ، خلاب إذا تحدث إلى النساء ، يخلبهن بما يقص
عليهن مما رأى وسمع في سياحاته ، ويخلبهن حين يشرح لهن
رأيه في الحياة ، وأنها يجب أن تتجدد وأن تتغير أطوارها
وحوادثها لا أن تستقر وتتشابه هذا التشابه الممل . وقد أقبل هذا
الرجل منذ شهر ، فجاور الزوجين واتصل بهما واختلف إليهما ،
فما كاد يرى « هيلين » حتى كلف بها ، وما كادت تراه « هيلين »
حتى مالت إليه ، ولكنها أخفت هذا الميل على زوجها ، وأحسه
زوجها وراقبه دون أن يتحدث فيه .

فإذا كان الفصل الأول من القصة أنبأ « هنرى » زوجه
بأن « شالانج » قادم لزيارتها بعد حين ، ففتبرم بهذه الزيارة
وتنكرها ، وترى أن هذا الرجل مثل ملح في زيارته ، وأنها
تريد أن تنتحل الصداع حتى لا تراه . فينكر عليها زوجها
هذا كله ، ويأخذها بقاء هذا الرجل ، ويسألها عن الأسباب
التي تبغض إليها هذه الزيارة . فتحاول قليلاً ، ثم تعترف لزوجها

بأن هذا الرجل يتملقها ويتبعها بحبه ، فيجيبها بأنه يعلم هذا .
ويدور بينهما هذا الحوار :

هيلين - (دهشة) كيف ؟ أعرفت أنه يتبعني ؟

هنرى - طبعاً عرفت ذلك !

هيلين - لا ! أهذا حق ؟ وبأى شيء عرفت هذا ؟

هنرى - وأنت بهم عرفته ؟

هيلين - هذا غريب ! . . . ولكن متى ابتدأ هذا ؟

هنرى - ابتدأ منذ شهر يوم تناول العشاء هنا لأول مرة .

هيلين - لم يُظهر من هذا في ذلك المساء إلا شيئاً قليلاً جداً !

هنرى - نعم ! شيء قليل جداً من التلطف والابتسام . . .

هيلين - أرايت هذا ؟

هنرى - كما أراك الآن . فلما كان الأسبوع الذى ولى

هذا العشاء بالغ فى ذلك بعض المبالغة فى بيت « تنسان » .

هيلين - (شيقة لاهية) ولكن كيف استطعت أن

ترى هذا ؟

هنرى - ثم أول من أمس رأيت طائفة من الحركات وصوتاً

خاصاً حين كان يتحدث إليك وشيئاً من البلاغة فى القول ،

و بنوع خاص طريقته حين قال لك إلى اللقاء .

هيلين — (وقد خفضت عينيها) وإذن فماذا ترى في هذا؟

هنرى — وأنت ماذا ترين؟

هيلين — أنا!... لا أستطيع أن أمنع هذا .

هنرى — (في لطف) لو أردت منعه لوقفت له .

هيلين — وددت لو أعرف كيف هذا!

هنرى — أنت حسناء... نعم! أنت حسناء جداً، وتعلمين

هذا حق العلم، ومع هذا فقد ظهر الرجال ولا سيما الذين

لهم حظ عظيم من الحياة أمامك مظهر الأدب والاحتشام .

هيلين — لأنى لم أكن أعجبهم .

هنرى — كنت تعجبينهم، ولكنك كنت تُظهرين في

موقفك منهم شيئاً من النقاء والصراحة يضطر كل واحد منهم

إلى أن يفهم مسرعاً أن أية محاولة يحاولها مخالفة للذوق وغير

مجدية عليه .

هيلين — وإذن فلست الآن نقية! ولست الآن صريحة!

هنرى — أنت نقية صريحة، ولكنك لا تتشدين في ذلك .

لقد تجملت قليلاً أمام «شالانج»

هيلين — رأيت هذا أيضاً؟ ... هذا حق . لقد تجملت أمام « شالانج » سأفسر لك هذا . كنت أريد أن أعلم ... تقول لى دائماً إنى حسناء ، ولكنى أرى مدائح الرجال وتحياتهم توجه إلى غيرى من النساء .

هنرى — إن مدائح الرجال تخفى دائماً شيئاً من الميل إلى الهجوم . وأشد الرجال قوة وجرأة لا يهاجم إلا المرأة التى يظن بها الضعف .

هيلين — لا تسرف ! إن الرجال دائماً لا يضمرون هذا السوء .

هنرى — بلى يا هيلين !

هيلين — مهما يكن من شىء فان « شالانج » هو أول رجل تركنى أفهم — ولكن فى لطف لأنه حسن التربية — أنى أثير عنايته ، وأنه يجد لذة فى التحدث لى ، فظننت أول الأمر أنى مخطئة ، فقد أنبأتنى أنه رجل عظيم الخطر . فسألت نفسى لم يحفل بى رجل كهذا ؟

هنرى — إنك لشديدة التواضع !

هيلين — أعلم أنك لا تصدقنى !

هنرى — بلى أنا أصدّقك .

هيلين — كنت أرى أنه شديد التلطف ، ثم كنت ألقى
فى كل وقت لحاظه ، وكان يجتهد دائماً أن يكون إلى جانبى ...
ولكنى لا أكذبك ، لم أكن واثقة بشيء من هذا ،
فأردت ... أن أعلم ... أفهمت ؟

هنرى — أبلغت من الطفولة إلى هذا ! أوكد لك أنى لا
أستطيع أن أتصور أن أرى امرأة بلغت من القوة والشجاعة
والذكاء ما بلغت تصل أحياناً من الطفولة إلى هذا الحد !

هيلين — (فى حنان) لست مغضباً ؟

هنرى — لا ! ولكنك ترين أن من الخطر العبث بمثل
هذه الأشياء ، وأن قليلاً من الخطأ قد يخلق مواقف لا سبيل
إلى احتمالها ! أنت تشعرين بهذا الجو الثقيل الذى خلقه إهمالك !
ألست تنكرين أنى تركت شالانج ييجى ، ... ألست تشعرين
بأن من الذلة أن رجلاً دنا منك فمسه ذلك على أن يرجو
وأن يعتقد أن كان شيء ...

هيلين — أوه !

هنرى — شعر بذلك ثم لم يُردّ إلى طوره ! هذا مذل لك .

هذا مذل لي ... هذا محزن!

هيلين - ليس من شك في أني أخطأت . لم أفكر ،
ولكني لا أفهمك . كيف أحسست هذا كله ولم تكلمني فيه ؟

هنري - كنت أنتظر أن تكلميني فيه !

هيلين - وكيف عرفت موقف « شالانج » وتركته يزورنا ،
بل طلبت إليه أن يزورنا ؟

هنري - لأنني لا أقبل أن يكون « شالانج » خطراً !
ولم يكن لي أن أشعره بأنني أهابه ، أو بأنك تخشين
فاتناً ماهراً !

هيلين - يخيل لي أنني لو كنت مكانك لوجدت طريقاً
إلى إفهامه ...

هنري - هذا شيء كان خليقاً بك وحدك .

هيلين - أنت زوجي !

هنري - وإذن ... ؟

هيلين - فمن الحق عليك أن تدود عني !

هنري - ألسنت من الرشد بحيث تدفعين عن نفسك ؟
(ثم يرفع كتفيه) على أني أعرفك . ولست أشك في أني

لو تدخلت في الأمر لجمحت كبرياؤك ، ولكانت محقة في هذا الجروح . إن امرأة مثلك لا يحميها الرجال (ثم يشتد) : أتدخل في هذا الأمر ! أتصدق في أمر ينالك بشيء يشبه هذا الحق المثير حق السجنان أو حق المالك ! أتقبلين أن أدل بلفظ « الزوج » على هذا المعنى العتيق الجافي ! كلا ! يا هيلين . ليس في الحب حق ولا معاهدة ولا عقد . ليس في الحب الا الحب . وإنما سببى في حمايتك والذود عنك أن أحملك على أن تؤثرينى على غيرى ... ولقد أدهش أن أرى لك رأياً في هذا يخالف رأى .

هيلين — (مضطربة قليلا) أى إيمان ! عم تبحث ؟

هنرى — تريدن أن أذود عنك ! ولكن يا بنيتى أترين أنى أستطيع الحياة معك يوم أشعر بأنك فى حاجة إلى الحماية ! يوم أشعر بأنى لست عندك كل شيء !

هيلين — أظن أننا نضطر إلى الطلاق فى مثل هذه الحالة ؟

هنرى — نعم !

هيلين — أجادت أنت ؟

هنرى — جاد كل الجدد . لقد فقدنا ابنتنا ، فليس بيننا

صلة الآن إلا الحب . فاذا لم تحبيني فقيم الحياة معا ؟
هيلين - ماذا ... ؟ انظر إلى ... أستطيع أن تفكر
في شيء كهذا ؟

هنرى - لكل سعادة أجل !

هيلين - أرجو أن تسكت ! فلو مضيت في الحديث
لأقنعتنى بأنى اقترفت جريمة ! لتطمئن ! لقد انتهت هذه القصة
المضحكة . انتهت حقا ! فسأضع « شالانج » عند حده هذا
المساء ! لا أريد أن أغاضبك من أجل هذا الرجل ! فهو
لا يعنينى وسأرجوه ألا يأتى منذ اليوم .

هنرى - كلا ! كلا ! أنت مسرقة . ليس من الضرورى
أن تعلقى بابك فى وجهه . فليس ما يدعو إلى ذلك ؛ فهو لم
يخطئ بوجه ما ، وإنما مثل دور الرجل : رآك خليقة بعنايته
فأشعرك بهذا أكثر مما كان ينبغى . فأنت المخطئة لا هو .
فغيرى موقفك بأزائه يفهم أنه أخطأ الطريق . أظنك تشعرين
بالنتائج السيئة إذا أخذته بالعنف ، فقد تصبح الصلات بيننا
وبينه عسيرة ، وهو مستقر فى هذا البلد وهو جارنا .

هيلين - وإذن فهو متصل بنا طول الحياة !

هنرى - ذلك راجح .

هيلين - لا بأس ! وإذن فإذا أردت ألا أراه فليس

إلى ذلك سبيل ؟

هنرى - ولم لا تريدین ؟ إذا غيرت موقفك معه أصبحت

الصلوات بيننا وبينه حسنة .

هيلين - فإذا لم يغير موقفه هو ؟

هنرى - ستحمله على تغيير موقفه . ذلك شيء لا يخيفنى .

هيلين - أتظن ذلك يسيراً ؟

هنرى - إن المرأة قادرة على أن تضجل الرجل وتجعله

هزأة بابتسامة تبسما .

هيلين - هذا موقوف . . .

هنرى - نعم ! على المرأة !

هيلين - وبعد . فلو أنه يجبنى !

هنرى - (مغضباً قليلاً) أى معنى لهذا الكلام : «لو أنه يجبنى» ؟

أيعرفك ؟ ماذا يعرف منك ؟ يعرف أنك حسناء ! وأن من

اللذة أن يدنو من جمالك دنواً شديداً . فأنتبيه بأن للحب

عند أمثالك معنى آخر

ثم يمضى هذا الحوار الطويل اللذيذ القيم إلى أكثر مما تحتمل جريدة « السياسة » . ولقد كنت أود لو استطعت أن أترجمه كله ، وأن أترجم غيره من ضروب الحوار . ولكن ما ترجمته يعطيك صورة واضحة من هذين الشخصين ، وتصورهما للحب وصلات الزوجية . فإذا انقضى هذا الحوار كان الزوجان قد اتفقا على أن تغير « هيلين » موقفها في لطف ، فلا تتحجب إلى « شالانج » ولا تظهر له الجفاء الشديد .

ثم يُقبل « شالانج » ويخرج « هنرى » ، فلا تلبث « هيلين » أن تخاطبه في غلظة وجفوة ، ولكنهما متكلفتان ؛ لأنها تميل إليه وتحاول أن تخفى هذا الميل ، وهو يعلم ذلك فيهمّ بالانصراف ، فتمسكه وتتحدث إليه في لطف . تريد أن تقنعها بأنها سعيدة وبأنها تحب زوجها وبأنها راضية عن حياتها غير طامعة في تغييرها . ويريد أن يقنعها بأنها غير سعيدة ولا مطمئنة ، وبأنها لا تحب زوجها لأنها أحبته فتاة غرة ، ولا قيمة لحب الفتاة الغرة ، وإنما القيمة لحب المرأة التي استكملت عقلها وقوتها ، وأنها في حاجة إلى أن تحب من جديد وتحيا من جديد ، وتغير أطوار هذا العيش الذي ينوء بها والذي أخذت تملّه .

يقنعها ، وتفزع من هذا الإقناع فتستأنف الجفوة وتكافه الخروج فيخرج . ولكنه واثق مطمئن . ويأتي زوجها فتتكلف أمامه الأمن والثقة ، وتنبئه أنها قد وضعت صاحبها حيث ينبغي أن يوضع ، ولكن زوجها لا يكاد يطيل إليها الحديث ويسألها عما كان بينها وبين « شالانج » من حوار حتى يشعر من حديثها وقصصها وانصرافها عما يقول بأنها لم تفلح وبأنها لم تزد إلا تورطاً في هذه الفتنة .

ثم يكون الفصل الثاني ، فإذا هذه الفتنة قد بلغت أشدها ، وإذا الزوج قد يئس من زوجه واعتزم العدول عن اللين والرفق إلى العنف والشدة . فيأمرها ألا تلتق « شالانج » . ويكون بينه وبينها في ذلك حوار عنيف ينتهي بعدوله عن رأيه وقبوله للمعركة ، فيبيح لزوجه أن تلتق خصمه وأن تختار بين الرجلين ، ويعلن إليها أنه نازل عند حكمها . ثم ينصرف ويأتي « شالانج » . وهنا موقف من أجمل المواقف وأشدها تأثيراً في النفس واستهواء لللب وهزاً للعواطف : موقف تبذل

فيه المرأة كل ما تملك من قوة في البيان والعاطفة ، وكل ما تملك من دموع وضعف لتدافع عن أسرته وعن حبه لزوجها ولتخلص من هذا الحب الطارىء . ولكنها لا تفلح في هذا الدفاع ؛ لأن خصمها قوى عنيد ، ولأن هذا الخصم ليس « شالانج » وإنما هو نفسها . فهي تحب « شالانج » وتعترف له بهذا الحب وتلقى أمامه السلاح وتترك له أن يحكم فيها وفيما بينها وبين زوجها من صلة . وهما كذلك إذ يأتي الزوج ، فيلتقي الرجلان كما يلتقي الخصمان الشريفان ، لا يخفض أحد منهما رأسه ، ولا ينكر أحد منهما من موقفه قليلاً أو كثيراً . فينصرف « شالانج » . ويسأل « هنرى » زوجه ماذا اعتزمت ؟ فلا تجيبه بل تحاول الفرار منه . فيمسكها وما يزال بها حتى تنبئه بأنها تريد السفر ، فيفهم أنها آثرت صاحبه . وأحسن بموقفه حين ذلك !! موقف ملؤه المروءة والحرية والإذعان للقضاء في شرف وكبرياء . ينبئ زوجه بأنه قد فهم ، وأن لها أن تسافر متى شاءت ، وأنه سيرد إليها حريتها في أسرع وقت ممكن .

فإذا كان الفصل الثالث رأينا هيلين في إحدى الغرف تستعد للسفر ، ولكنها تنظر حولها وتقلب صوراً لابنها ، وهي كذلك إذ يدخل « شالانج » فيعرف منها حقيقة الأمر . يسعد ويعتبط ، ولكنها ليست سعيدة ولا معتبطة ، وإنما هي مستسلمة محزونة . يلح عليها صاحبها في ألا تنتظر الطلاق وأن تسرع إليه فلا تأبى . ثم يرى حزنها فيسألها عنه ، فتنبئه بأنها تنظر إلى ما حولها فتأسف وتأسى وتذكر ما كان لهذه الأشياء ولهذا البيت من أثر في حياتها ، بل تذكر أن حياتها مكونة من هذه الأشياء وأن فراق هذه الأشياء عليها عسير . يحاول تسليتها فلا يوفق . ثم تذكر طفلها المفقود فتري أن صاحبها لا يعلم من أمر هذا الطفل شيئاً ، بل لا يعلم من أمرها هي شيئاً ، وإنما كل الأمر لديه حب وهوى .

تريد أن تخرج معه فلا تستطيع ، كأن الأشياء تمسكها وتآبى عليها الخروج ، فتضرب معه موعداً إلى غد . ثم يمضى وتبقى حيناً واجمة ذاهلة . وما هي إلا أن تصيح داعية زوجها مرة ثم مرتين . فيقبل الزوج في شكل مؤلم مضطرب ، فيسألها ماذا تريد ؟

تتكلف في الجواب ، تريد أن تنبئه بأنها ستسافر دون أن تحمل شيئاً ، وأنها ستترك له صور ابنها لأنه وحده خليق أن يحتفظ بهذه الصور ولكن الزوج يجيبها بأنها تستطيع أن تحمل كل شيء . فهو لا يحفل منذ الآن بشيء ، وهو يريد أن ينسى كل شيء لأنها قد قطعت بينهما كل شيء . ثم يظهر المحبباً ، تظهر نتيجة الأزمة . يظهر أن هذه المرأة قد عرفت من أمرها ما كانت تجهل ، وشعرت بأنها لم تكن عاشقة « لشالانج » وإنما كانت مفتونة « بشالانج » وأن حبا وقلبا وحياتها وعواطفها كل ذلك موقوف على زوجها الذي عرفته وبلت سره وجهره . فهي لا تريد أن تسافر ، وإنما تريد أن تبقى . لا تريد أن تخرج من البيت ، وإنما تريد أن يمسكها زوجها فيه . لم تكن تحب « شالانج » لأنها لم تكن تعرفه . وهي تحب « هنرى » لأنها تعرفه . كانت مفتونة ، ولا ينبغي أن تسمى الفتنة حبا . فليس الحب إذن انتقاد العواطف واهتياج الشهوات وعبث الهوى بالعقل ، وإنما هو شيء آخر . هو شيء هادىء مطمئن ، للقلب فيه أثر عظيم ولكن للعقل فيه أثراً أيضاً . تلح على زوجها أن يعفو عنها .

ولكن هذا الزوج قد تألم فهو لا يجد إلى العفو سبيلاً . غير
أن هناك شيئاً فوق العفو وفوق الألم ، فوق الإساءة وفوق
الإحسان . هناك الحب ، والرجل يحب امرأته . فلا يكاد يراها
تعباً شقية حتى يأخذه الإشفاق والعطف ، فيلين ولكنه عنيف .
يطلب إليها أن تذهب لتستريح ثم يراها مضطربة قد أخذها
البرد فهي لا تكاد تثبت ، فيسرع إلى شيء من الحطب يلقيه
في الموقد ويشعل فيه النار ويجلسها أمامه .

هو واقف وسط الغرفة على بعد منها وهي أمام النار
تصطلي ، ولكن في جوفها زفرة شديدة تريد أن تكتمها فلا
تفصح فتجهش بالبكاء ، وإذا هذا الزوج الغاضب الحائق قد
أقبل في هدوء وحنان فمد يده إلى امرأته فأنهضها ، فما تكاد
تحس ذلك حتى تصيح باسم زوجها وتلقى نفسها بين ذراعيه .
وكذلك تنتهي هذه القصة .

وأحسب أني لست في حاجة إلى شرح ولا إلى نقد .
وإنما أنا في حاجة إلى الأسف لأنني لم أترجم لك منها
الشيء الكثير .

النضال

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « هنرى لفدان »

هى نضال بين عالم وقسيس ، أو هى نضال بين علم العالم ودين القسيس ، أو هى نضال بين العالم ونفسه ، وبين القسيس ونفسه ، أو هى نضال بين هذين الرجلين وبين امرأة ، أو هى نضال بين هؤلاء جميعاً وبين الحياة الاجتماعية ، أو قل — وأنت مصيب فيما تقول — إنها نضال بين هؤلاء جميعاً وبين هذه الأشياء كلها . هى نضال منذ تبتدى إلى حيث تنتهى . هى نضال فى جملتها وفى تفصيلها . ومع ذلك فهى تخلو من العنف وتخلو من القسوة ؛ لأنها نضال بين الآراء والأهواء والعواطف والشهوات . نضال لا يتجاوز هذه الآراء والعواطف والشهوات إلى الجهاد المادى ؛ ولهذا تخلو القصة من العنف والقسوة ، أو تخلو من العنف والقسوة للماديين .

أخشى ألا تعجبك هذه القصة . وليس يدهشني ألا تعجبك ؛ فهي ، كما قلت ، تخلو من كل عنف وقسوة ، وتخلو من كل نتيجة من شأنها أن تهزّ النفس وتقفها أمام الأمر الواقع الذي ليس إلى إصلاحه أو استدراكه من سبيل . وهي كما قلت ، جهاد بين آراء وأهواء وعواطف وشهوات . هي ، جهاد يلد العقل ويلد الشعور ، ولكنه لا يفجأ بكبريات الأمور وجسام الحوادث . فمن المعقول ألا تستهويك ولا تؤثر فيك هذا الأثر العظيم الذي تؤثره القصص العنيفة الخفيفة . ومع ذلك فأنا أريد أن تعجبك هذه القصة . وأريد أن تؤثر فيك هذه القصة ، وأريد أن يكون مصدر هذا الإعجاب وهذا التأثير نفس خلوها من العنف وبراءتها من الحوادث الجسام . فليس العنف شرطاً أساسياً لجمال القصة التمثيلية ، وليست الحوادث الجسام أموراً لا بد منها ليستطيع الكاتب أن يؤثر وأن يهز النفس . بل — ماذا أقول ! — العنف موجود في هذه القصة ، بل هذه القصة عنيفة كلها ، بل هذه القصة كلها حوادث جسام . ولكن يجب أن نتفق على معنى العنف ، ويجب أن نتفق على معنى الحوادث الجسيم . فليس من الحق في شيء أن العنف مقصور

على هذه الحركات المادية القوية التي تستتبع الآثار الضخمة في الحياة الخارجية . وليس من الحق أن الحوادث الجسام مقصورة على ما تراه العين وتسمعه الأذن وتلمسه اليد من حقائق الحياة ، بل قد يكون ما يحدث في النفوس وما يجري في القلوب دون أن يراه أحد ودون أن يحسه إلا صاحبه أشد عنفاً وأقرب إلى الفزع والهلع من كل ما نشهد في الحياة الخارجية من الأمور العنيفة .

وقد تكون هذه العواصف النفسية التي تستأثر بنفس الإنسان فتنسيه كل شيء ، وتلهيه عن نومه ويقظته وعن طعامه وشرابه ، بل تلهيه عن حياته كلها ، قد تكون هذه العواصف وما تحدث من الآثار ، حوادث جساما لاتعد لها الحوادث الجسام المعروفة . وعلى هذا النحو وعلى هذا التفسير للعنف وللحادث الجسيم نستطيع أن نقول إن هذه القصة ليست إلا عنفاً وليست إلا حوادث جساما . وإنما ينبغي أن نتعود هذا النحو من الفهم ونألف هذا النحو من التفسير . ينبغي أن نتعود النظر في أنفسنا ونقدر العواطف التي تدير حياتنا وحركاتنا ، ونشعر شعوراً قوياً ، بل نعلم علماً لاشك فيه ، أن هذه العواطف التي تدير نفوسنا وتسخر أجسامنا وتدير حياتنا المادية

والمعنوية هي مصدر كل شيء في هذه الحياة . هي مصدر ما يبهرنا من عنف ، وهي مصدر ما يخلبنا من ابن . هي مصدر البؤس والنعيم ، وهي مصدر السعادة والشقاء ، وهي مصدر التردد بين هذا وذلك . يجب أن ننظر في أنفسنا نظراً صحيحاً ، وأن نقدر عواطف أنفسنا وأهوائنا كما ينبغي أن نقدرها . إذن يتغير إعجابنا بالقصص التمثيلية ، ويكون كلفنا أشد بهذه القصص التي تخلو من العنف المادي منه بتلك التي يملؤها العنف المادي . يكون إعجابنا بهذه القصص أشد وأقوى لأنه إعجاب مصدره العقل والشعور والتفكير ، وليس مصدره تأثير الحواس واهتزاز الأعصاب بهذه المؤثرات الخارجية .

قلت إن هذه القصة نضال بين أشخاص وبين أشياء .
فيجب أن أبدأ فأقدم إليك أشخاص هذه القصة وهم
أربعة : امرأة ، وثلاثة رجال :

فأما المرأة فهي الدوقة « دي شاي » في ريعان شبابها ،
قد أوتيت من الجمال والفتنة حظاً عظيماً ، وهي إلى جمالها وشبابها
شديدة الذكاء ، كثيرة العلم ، قوية الإرادة إلى حد غريب ،
شديدة السلطان على نفسها ، تشعر بالشيء العنيف ، وتتأثر بالعاطفة

الحادة ، ولكنها تخفى هذا كله على الناس فلا يحسونه ولا يشعرون به .
وقد تستطيع أن تخفيه على نفسها . جميلة ذكية فاضلة عالمة ، ولكنها
مع هذا كله سيئة الحظ . سيئة الحظ منذ ولدت ، بل قبل
أن تولد . فقدت أباهما قبل أن تُقبل على هذه الحياة بيومين ،
فلما وُلدت أفقدت أمها الحياة ، فكان مهدها ، كما تقول ،
يهتز بين نعشين . ثم أخذت كلما شبت فقدت بعض أهلها
وذوى قرباها . حتى إذا استكملت قوتها وبلغت الشباب كانت
وحيدة أو كالوحيدة في الحياة . ولكنها بحكم هذا اليتيم المتصل
كانت غنية ضخمة الثروة لما ورثت عن هؤلاء الراحلين . فكان
من المعقول وقد جمعت بين الجمال والذكاء والثروة أن يكون حظها
في الزواج حسناً ، وقد خيل إليها أنه حسن . خطبها شاب غني
عظيم الاسم ماجد الأسرة أنيق رشيق هو الدوق « دى شاي »
فأحبتته ، أو خيل إليها أنها أحبتته . ولكنها لم تكد تقترن به
حتى تبينت أن حظها في الزواج ليس خيراً من حظها في
غير الزواج . فهذا الزوج الذي فتنها بجماله وثروته ومجد أسرته
كان مريضاً أو قل إنه كان مجنوناً . أسرف في اللذة وتهالك
عليها ، وافتن في ضروب الفساد حتى أصابته بلادة الحس ،
فاصطنع « المورفين » وما يشبه المورفين ، وأتت هذه المخدرات

على ما كان قد بقي من عقله وصحته . فهو الآن مجنون ، وهو يعالج في مستشفى يديره الدكتور « هنرى مورى » وهو الشخص الثانى من أشخاص هذه القصة ، عالم مشهور بمهارته فى طب المجانين ، قد نبغ فى هذا الفن ووقف حياته وقوته عليه ، حادّ العاطفة قويها ، شديد التأثر بأهوائه وشهوات نفسه ، ملحد ولكنه يؤمن بالمثل الأعلى ويطمح إلى الكمال ، ويعتقد أن فى هذه الحياة أشياء غير المادة خليفة بعناية الإنسان وإكباره ، وأهم هذه الأشياء الحب . وهو ملحد ولكنه كان شديد الإيمان قبل إلحاده . كان مسرفاً فى التعبّد وضروب النسك حتى سخط عليه أبوه الذى كان يحتقر الدين ورجال الدين ويكره أن يتصل أبناءه بالدين ورجال الدين . كان شديد الإيمان فأصبح شديد الإلحاد . وله أخ هو الشخص الثالث من أشخاص هذه القصة . كان فى شبابه فاجراً مسرفاً فى الفجور ، وكان بحكم هذا الإسراف فى الفجور قرة لعين أبيه مقرباً عنده مختصاً بإيثاره . ولكنه أسرف فى اللذة حتى عافها ومال عنها إلى شىء من الزهد اضطره إلى شىء من الدين ثم إلى الإسراف فى الدين ، حتى وقف حياته على

identical

الدين وأصبح قسيساً . فغضب عليه أبوه وطرده وحظر عليه أن يتسمى باسمه .

أما الشخص الرابع من أشخاص هذه القصة فرجل من رجال الدين أيضاً هو الأسقف « بلين » من أساقفة الصين ، رجل شيخ وقور واسع العقل راجح الحلم تسديد الإيمان ، قد وفق في نفسه بين الدين الخالص الطاهر وبين العلم وبين حاجات الحياة وضرورتها . فهي لا تتناقض في نفسه ، وهو لا يفهم مصدر تناقضها عند الناس . وهو يستطيع أن يتحدث إلى الملحدين . فإذا هم يشعرون بحاجتهم إلى اكباره وإجلاله ، وأن يتحدث إلى المؤمنين السرفين في الإيمان فإذا هم يشعرون بضعف إيمانهم . وهو يستطيع أن يتحدث إلى الأغنياء والمترفين والمفتنين في اللذات والشهوات فيحبب إليهم الخير دون أن يؤذيه ودون أن يمكنهم من أن يؤذوه . وهو مبتسم أبداً ، يقول الجذولسكن في مزاح ، ويمزح فإذا فكاهته جدّ مر . أصابه الأذى والاضطهاد في الصين فلقى ألوانا من العذاب عطف عليه قلوب الناس جميعاً ، فأعجب به المعجبون وأنعمت عليه حكومة الجمهورية بأوسمتها . وهو يسخر مما لقي من الأذى ،

ويعجب أن يكون هذا الشيء اليسير مصدرا لهذا العطف الكثير . أثر هذا الإيذاء فيه فيناله من حين إلى حين ضعف عصبي ، وهو الآن في مستشفى الدكتور « موري » يتعهد أعصابه بشيء من الراحة . ومن حول هؤلاء الأشخاص الأربعة أشخاص آخرون ليس لهم شيء من الخطر .

فإذا كان الفصل الأول رأيت الطبيب في مكتبه وقد دخلت عليه الدوقة ، فأخذ يسألها عن زوجها ، فتبين أن حاله لا بأس بها وإن لم يكن قد برئ ، وإن لم يكن ينتظر له الشفاء ، وتبين أنه سترك المستشفى هذا اليوم على أن يتعده الطبيب في قصره ، ولكنك تتبين بنوع خاص أن الطبيب يحب هذه المرأة حباً ليس يعدله حب . وهو يجاهد في كتمان هذا الحب دون أن يحرص على هذا الكتمان . يريد أن تشعر به الدوقة ولكنه لا يريد أن ينبئها به . وتبين أيضاً أن هذه الدوقة شقية سيئة الحال لكل ما قدمت لك من أمرها ، ولكنك تشعر بأن نفسها تنزع إلى شيء غير بين ، وأنها تحارب هذه النفس وتلزمها أن تطمئن إلى ما هي فيه من حال سيئة .

فإذا ذكر الحب أعلنت في شدة وعنف أنها تكرهه وتنفر منه كل النفور ؛ لأنه مصدر ألم لا حذ له . ثم إذا ذكر الدين أعلن الطبيب إلحاده ، وأنباته هي أيضاً بأنها ملحدة . وهما في هذا الحديث إذ يستأذن الأسقف ، فإذا دخل وقُدِّمت إليه الدوقة وتحدثت القوم فيما أصاب الأسقف من العذاب في الصين وحاولت المرأة أن تخرج فقَبَلت يد الأسقف قبل خروجها ، ظهرت على وجه الطبيب مظاهر تدل على شيء من الألم والامتعاض . ثم يخلو الطبيب إلى الأسقف ، فيتحدثان في أمر هذه المرأة ، يمدحها الطبيب ، فيسأله الأسقف في صوت هادئ طبيعي : أها عاشق ؟ فإذا غضب الطبيب لهذا السؤال وزعم أن هذه المرأة أظهر النساء وأشرفهن ، أجابه الأسقف : وإذا كانت كما تقول شريفة عفيفة طاهرة لا عاشق لها فما بالك تحاول أن تكون أنت عاشقها ؟ فهم الأسقف إذن حب الطبيب ، ويحاول الطبيب أن ينكر هذا الحب فلا يلح الأسقف . ثم يسأله الطبيب عن رأيه في هذه المرأة فيجيبه : هي امرأة مؤمنة خالصة للكنيسة ، فيسخر الطبيب لأن هذه المرأة قد أنباته بأنها ملحدة ، ولكن الأسقف ينبئه بأن الطبيب الماهر يستطيع أن ينظر إلى الرجل

الذى يخيل إلى الناس أنه صحيح الجسم ، فلا يكاد ينظر إليه حتى يتبين أنه مريض وحتى يشخص علته ، وكذلك المهرة من رجال الكنيسة ينظرون إلى الإنسان يخيل إليك أنه ملحد فيتبينون إيمانه وإخلاصه للدين . يقع هذا الحديث موقعاً سيئاً من نفس الطبيب ، ولكنه يخفى ذلك . وهما يتحدثان إذ يدخل الخادم ومعه بطاقة يقدمها إلى الأسقف ، فيهمّ الأسقف بالخروج لاستقبال زائره ، فيمسكه الطبيب ويعرض عليه أن يستقبله في مكتبه ويخرج . يبقى الأسقف ويدخل الزائر ، فإذا هو القسيس أخو الطبيب . وكان هذا القسيس تلميذاً للأسقف ، فكلاهما يحب صاحبه حباً شديداً . وكان القسيس قد أقبل إلى هذا المستشفى ليرى أخاه في أمر من الأمور ، فلما سمع اسم الأسقف أسرع إلى لقائه . يدهش الأسقف حين يعلم أن الطبيب أخو القسيس ، فينبئه القسيس بكل ما قدمت لك ، وينبئه بأنه مقاطع أخاه منذ عشر سنين وأنه سيراه لأول مرة منذ ماتت أمهما .

ثم يخرج الأسقف ويرافقه القسيس . فإذا عاد الطبيب إلى مكتبه ودخل عليه القسيس كانت بينهما ألفاظ فيها شيء من المودة ، ولكن المودة الجافة . ذلك أن الطبيب يكره

الدين . وإذا كان لا يستطيع أن يفرق بين الأشخاص
وأرائهم ومذاهبهم فهو يكره الأشخاص إذا كره آراءهم ، ولكنه
مع ذلك يتلطف بأخيه . أما أخوه فقد أقبل يسأله المعونة في
شيئين : الأول أن طائفة من المؤمنين في حيه قد أنشؤوا
مستوصفاً لمرضى الفقراء ، فهو يعرض على أخيه أن يعمل في
هذا المستوصف ساعة أو ساعتين في الأسبوع . ولكن الطبيب
يرفض ؛ لأنه لا يستطيع أن يعمل مع رجال الدين . الثاني أن
الطبيب يعالج الدوق « دى شاي » وامرأة هذا الدوق غنية
محسنة ، فيريد القسيس أن يتوسط له . أخوه عند هذه المرأة
لتعيينه بشيء من المال في عمله الخيري . ولكن الطبيب
يرفض أيضاً لأنه لا يريد أن يثقل على الدوقة في شيء كهذا .
وانظر إلى هذا الحوار الذي يبين موقف الأخوين كل
من الآخر :

القسيس : هذا حسن ! سأعمل وحدي ، أترى بأساً في أن
أكتب إلى الدوقة أو أزورها ؟

الطبيب : لا بأس ! ولكن على شرط ألا تعلم الدوقة أنك أخي .

القسيس : ستجهل ذلك !

الطبيب : هذه منفعتك !

القسيس : ومنفعتك أيضاً !

(يظهر الطبيب انكار ذلك)

القسيس : نعم ! أنا أضايقك ، فأنت خجل من اتسابي اليك !
الطبيب : لا يخجلني اتسابك إلى أكثر مما يخجلك اتسابي
إليك ؛ فليس لأحد منا أن يخجل من صاحبه أو أن يفاخر
به ، لقد وجهت حياتك كما أحببت ، وكذلك فعلت أنا ،
ثم انقطع التزاور بيننا !

القسيس : فهل انقطع بيننا الحب ؟

الطبيب : تأمل ! لم يجب أحد منا صاحبه قط !

القسيس : قليلا فيما مضى !

الطبيب : قليلا جداً في غير عمد ، ولكن منذ ذلك الوقت !
الآن ؟ ليس من اليسير على أن أفرق بين الأشخاص وآرائهم !
وإذن فإذا تريد ؟ أنا أكره آراءك كما تكره أنت آرائى !
أما أشخاصنا فأنت أحب إلى من الأجنبي !

القسيس : أو دون الأجنبي !

الطبيب : أظن أنى أكرهك ؟ كلا ! وإنما تبعث في
نفسى شعوراً آخر ، غضباً يمازجه الإشفاق حينما أفكر في هذه
الصنعة التى تنفق فيها حياتك فأنت لا تحيا وأنت لا تفيد . . .

القيس : لست من الجور بحيث أصفك بما تصفني به .

الطبيب : أنت مكره على ذلك يحكم البدهاة . فأنا أحارب وأنا أجاهد العلل والآلام . وربما أسرت هذه العلل والآلام وجردتها من أسلحتها . فهذا وحده يستأثر بالنفس ، وهذا وحده يجعل الحياة خليفة أن يحرص عليها صاحبها . هذا الصراع في كل لحظة صراع الألم والموت . ومن هنا أكاد أبكي حين أرى قوة كفتوك جميلة شابة تضع في تقبل الاعتراف من الخاديات .

القيس : تستطيع أن تمسح عينيك ! فهذا الكلام يدهشني من عالم ! ذكرت الاعتراف . . . ألم تفكر قط في أن قسيساً متواضعاً يقضى سنة في تقبل الاعتراف قد يعلم أمر الإنسانية أكثر مما يعلم الفلاسفة جميعاً . إذك تذكر الصراع ! ولكن ضروب الصراع التي تنفق فيها حياتك ليست إلا الأعياب أطفال مضحكة بالقياس إلى الصراع الذي أحيأ أنه فيه . صراعى أنا أشد من صراعى حدة ، وأقرب منه إلى العنف ، وأنا في كنيتى الصغيرة الخالية أحيأ منك ألف مرة في مستشفياتك ومستوصفاتك .

الطبيب : لا أفهم ! . . .

القيسيس : أنظر ! (ثم يدنو منه) اسمع ! إن بين اللاتي
أسمع لهن امرأة أستطيع أن أتحدث عنها في غير حرج . فأنا
لا أعرفها ، لم أر قط وجهها فهو مستور أبداً . وقد أسمعها
تتحدث غداً فلا أعرف من صوتها شيئاً . فكل هذه الأصوات
الهامسة التي تتحدث في الاعتراف مجهولة من القسيس . ومهما
يكثر عدد المعترفين ويبلغ المئات فنحن لا نسمع إلا رجلاً واحداً
وامرأة واحدة .

الطبيب : إذن فمعترفتك ؟ ...

القيسيس : هي متزوجة شقية ، وهي تحب رجلاً غير زوجها .
ومع أنها مضطرة إلى معاشره هذا الرجل لم تشعره قط بهذا
الحب ، مع أنها تعلم أنه يحبها . ولقد كادت شهوتها المكظومة
تنفجر عشر مرات ، فخرجت مسرعة إلى هذا الذي تسميه فيما
بينها وبين نفسها عاشقها ، ولكنها في كل مرة أسرعرت إلى
المعترف فبكت وتضرعت ثم عادت منتصرة فرحة .

الطبيب : إلى متى ؟

القيسيس : عهدي بهذا الجهاد منذ شهرين . فأنا أمسك هذه
النفس وأنا أذود عنها وأحميها من السقوط في هوة الحب . هذا
صراعى ! هذا ما أفعل !

الطبيب : هذا وحشى !

القسيس : أنا أ منع هذه المرأة من السقوط . فانظر فأندتى
فى الحياة .

الطبيب : أنت لا تمنع شيئاً لحسن الحظ ! وكل ما تفعل
انك تؤخر إلى دقائق هذا اللقاء الذى لا بد منه لهذين الشخصين ،
ولن تكون بينهما أبداً حين تهب عاصفة الرغبة . غداً أو هذا
المساء تسرع صاحبتك المنتصرة إلى عاشقها وتعترف هناك ذارفة
دموعاً أخرى ، تقول لعاشقها كل ما لم تقل لك ، ويتحابان
حباً عظيماً قوياً لأنهما انتظرا طويلا . ولن يكون عمك فى آخر
الأمر إلا ترقية لحظهما من السعادة ؟

القسيس : ستعود إلى !

الطبيب : تعود إليك بعد أن تكون قد سقطت ! .

القسيس : سأنهضها !

الطبيب : ستسقط مرة أخرى !

القسيس : لقد سقط المسيح مرات ثلاثا ، فستكون لى

الكلمة الأخيرة .

الطبيب : نعم حين تبلغ الشيخوخة . وهبك تنزعها من بين ذراعي الحب فلن تستطيع أن تمنع أنها أحببت . هذا كل ما أردت أن أثبت . فالرجال جميعاً غنيمه ولو مرة واحدة في الحياة لهذه الجذوة الملتهمه الضرورية ، جذوة الحب . تخيل إلى نفسك في سداجة أن قصتك هذه معجزة ! أنظر ! (ثم يدنو) اعف عن اعترافي هذا مقابل اعترافك . انى أحب أنا أيضاً .
القسيس : أنت ؟

الطبيب : أنا ! فأنا حر ، ولم أنذر العفة . أحب امرأة متزوجة أيضاً ، امرأة متكبرة قوية الإرادة ، تقاوم وتمانع هذا الألم اللذيذ ، ومع أننا كتمنا الأمر ولم يتحدث أحدنا إلى صاحبه بشيء فإن لحاظنا قد فضحت هذا السر ، وقد نهض بعضنا لبعض وأنذر بعضنا بعضاً ، ونحن الآن نتقدم بحكم القضاء وفي سعادة وغبطة ، وبيننا مصاعب وعقاب أشد من تلك التي تحول بين صاحبتك المؤمنة وبين عاشقها . ومع ذلك فسننتصر مثلها قبلها ، وسيملك كل واحد منا صاحبه ، فليس الأمر إلا إلى ساعات .

القسيس : ليست الساعة بيد أحد !

الطبيب : نعم أعلم !



فقد فهمت من هذا كله إلى أي حد بلغت الخصومة بين هذين الأخوين . وقف أحدهما نفسه على الدين ، ووقف الآخر نفسه على العلم . فكلاهما يزدرى صاحبه . وقد فهمت أيضاً أن الأمر بينهما قد ازداد تعقيداً ، فليست هذه المرأة التي تلتهمها جذوة الحب ، ولكنها تجاهد وتمانع وتستمد القوة على هذا الجهاد من القسيس والدين إلا الدوقة التي تحب الطبيب والتي يحبها الطبيب . وهي تنكر حبها ولكنها تصطليه ، والطبيب ينتظر أن تعترف به . يخرج القسيس وتأتي الدوقة لتنبئ الطبيب بأن زوجها قد عاد إلى القصر في خير . فما أسرع ما يصلان إلى الحب ، وما أسرع ما يعلن الطبيب إليها حبه ، فإذا هي وجلة ، وإذا هي تنفر من هذا الحب وتأباه . وإذا الطبيب يلح عليها فيه ، وإذا هو ينبئها بأنها تحبه أيضاً . تنكر وتأبى ، ولكن إلحاحها في الإنكار وإصرارها على الإباء لا يزيدان حبها إلا وضوحاً ، ولا يزيدان ميلها إلى الإذعان إلا ظهوراً . ما أسرع ما تتغلب إرادة الطبيب وما أسرع ما ينتصر الحب ، فإذا المرأة مدعنة ، وإذا هي معترفة بالحب ، وإذا هي قابلة لكل ما يطلب إليها . وماذا يطلب إليها صاحبها غير

الموعد !... هو الذى يضرب الموعد ، ويحدد مكانه وساعته ،
وهى قد فمّدت كل إرادة وكل قوة على المقاومة فلا تستطيع
أن تجاوب إلا بالرضا . . .

فاذا كان الفصل الثانى فنحن فى بيت القسيس ، وهذا
القسيس قد جلس إلى مكتبه فى غرفة فقيرة ولكنها لا تخلو
من جمال فنى ، لأن هذا القسيس يحب الفن ويكلف بالجمال ،
بل هو لا يعبد الله ولا يحبه إلا لأنه يرى الدين مظهراً من
مظاهر الفن والجمال . هو يتحدث إلى خادمه ، وإذا الباب
يطرق ، فينكر القسيس نفسه ، ولكن الطارق يلح ويعلن أنه
سينتظر عودته . فإذا أذن له فى الدخول رأيت الدوقة قد
أقبلت إلى القسيس تستغيثه وتستنجده . ذلك أن القسيس
كتب إليها وهو لا يعرفها . كتب يطلب معوتها على عمله
الخيرى ، فلما قرأت كتابه ، وكانت لا تفكر إلا فى الحب ولا
تنتظر إلا الموعد ، ذكرت الدين وذكرت القسيس فأسرعت إلى
الكنيسة لا إلى الموعد . ولكنها لم تجد القسيس فى الكنيسة
فأسرعت إليه فى بيته . وماذا تريد من القسيس فى هذا البيت

وهو لا يملك قبول الاعتراف إلا في الكنيسة ، وهو لا يستطيع أن يذهب معها إلى الكنيسة لسمع إعرافها وينزل عليها رحمة الله ! لا يستطيع لأنه مدعو لعيادة مريض يشرف على الموت ، وهذا المريض أحوج إلى كلمة الله من هذه التي تجاهد الإثم . لا يستطيع أن يذهب معها فلتنتظر إلى غد . وهو يتركها الآن ولها أن تجثو أمام هذه الصور ، صور القديسين وأمام هذا الصليب فستمد القوة والمعونة . ولكن القسيس لا يكاد يخرج حتى يطرق الباب فإذا أخوه الطبيب ، ذلك أنه انتظر صاحبه فأبطأت عليه نفرج يترقبها فرآها تنحو نحو الكنيسة فتبعها ، ثم رآها تنحو نحو بيت القسيس فتبعها ، ثم رآها تدخل فدخل . . . وقد علم الآن أن أخاه إنما ينازعه حبيته ، وقد علم الآن أن هذه الحبيبة قد خدعته حين زعمت له أنها ملحدة ، وقد علم الآن أن الأسقف كان موقفاً حين زعم أنها مؤمنة . يريد أن يأخذها فتأبى ، ويمانع القسيس ويأخذها بالخروج ، ولكنه يأبى أن يخرج حتى يتحدث إلى صاحبه في خلوة . يمانع القسيس ، ولكن المرأة تقبل ذلك فيتركهما . فإذا موقف عنيف مؤثر فيه الجهاد بين الحب الذي لا يعرف رحمة ولا ليناً

وبين الحرص على الشرف القديم والوفاء للفضيلة الموروثة .
فليست هذه المرأة مؤمنة ولكنها تكره الإثم ، وقد دافعت
نفسها عن هذا الإثم ، وقد دافعت هذا الإثم ما استطاعت ،
ففقدت كل سلاح ولم يبق لها إلا الدين ، فهي تتعلق به وتهالك
عليه رجاء أن يعصمها من النقيصة . ولم تكن تعلم أن هذا
القسيس أخو الطبيب . أما الآن فقد علمته وتغير كل شيء .
ليست أشد ميلا إلى الحب ، بل هي أشد نفورا مما كانت .
ولكن الحب قوى عنيف وما يزال صاحبها بها حتى يغلب
إرادتها مرة أخرى ، وحتى يستهويها ويأخذها . وهما يخرجان
إذ يدخل القسيس فينقض كل شيء ، وتظهر بشاعة الأمر
لهذه المرأة واضحة جليلة ، فتنصرف وتترك الأخوين يتنازعان .
عنيف جداً هذا النزاع بين الأخوين ، كنت أود لو ترجمته
لك لأنى لن أستطيع أن أبلغه بالتلخيص والتحليل .

يتهم الطبيب أخاه ؛ لأنه ليس مخلصاً في دينه ، وأنه
لا يدفع هذه المرأة عن الإثم ابتغاء مرضاة الله وإنما هو يشتهيها .
هو لا يفرق بين دينه وبين نفسه ، هو يزعم أنه يستخلص
هذه المرأة للدين ، والحق أنه يريد أن يستخلصها لنفسه . ليس

قسيماً ولكنه رجل فاجر . وعماً قليل سينزع ثوب القسيس ،
وعماً قليل سيعود إلى ما كان فيه من الإثم . يلح الطبيب على
أخيه في هذا الحاحاً شديداً ، ويدافع القسيس فيخيل إلى
نفسه أن أخاه يريد أن يؤثر فيه وأن يخيفه من الإثم . ولكنه
كلما ازداد الحاحاً في الدفاع إزدادت الصورة وضوحاً في نفسه ،
فهو لا يدافع حقاً عن الدين منذ عرف هذه المرأة ، وإنما هو
أعوبة في يد طائف من الطوائف . هو أعوبة في يد الحب
لأنه يحب هذه المرأة وإن أنكر ذلك . يحبها ويمجّب بها ،
وإلا لما ذكر قصتها لأخيه ! هو يحبها ، وهو أعوبة في يد
الحب ، وهو أعوبة في يد الغيرة أيضاً منذ عرف أن هذه المرأة
تحب أخاه . هو يحب هذه المرأة ، ويكره أن تكون لأخيه .
وهو لا يستطيع أن تكون له ، فهو يريد أن تكون للفضيلة
وأن تكون لله . ليس إذن مخلصاً ، وقد أحس ذلك وشعر به
فجثاً أمام الصليب مستغيثاً متضرعاً بعد أن تركه أخوه .

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في دار المرسلين من القسس
ينزلون فيها كلما أقبلوا إلى باريس . والأسقف في هذه الدار

يستعد لرحلته إلى الصين ، وقد أقبل خادم فأنبأه بأن الدوقة قد خرجت تريد زيارته ، ولكن زوجها ألقى بنفسه من النافذة فهو محتضر والطبيب عنده ، وقد أقبل هذا الخادم يطلب إليه أن يرفق بالدوقة وأن ينبئها بالأمر في لطف . ينصرف الخادم وتقبل الدوقة فلا تتحدث عن زوجها وإنما تتحدث عن نفسها وعن صاحبها . فإذا هي ما زالت تحب الطبيب حباً شديداً ولكنها تكره هذا الحب وتنفر منه نفوراً عظيماً لأنها عرفت أمر القسيس .

وأحست أنها موضوع النزاع بين أخوين ، فكرهت الحب وكرهت الحياة وأقبلت تستشير الأسقف في أن تترك الحب وتترك الحياة وتذهب إلى الدير متى مات زوجها . ولكن الأسقف يضحك منها وينبئها بأنها لم تخلق للدير ، وأن واجبها ليس في الدير وإنما هو في قصرها . واجبها أن تحيا ، وأن تحب ، وأن تكون مصدراً للسعادة . وها كذلك وإذا القسيس يستأذن ، فتختبئ المرأة ويدخل القسيس ، فإذا هو مستيقن بإثمه مؤمن بأنه ليس أهلاً لمركزه الديني . وإذا هو يريد أن يخلع ثوب القسيس ؛ لأنه يجب ؛ ولأنه يغار ، ولأن الحب

والغيرة لا يتفقان مع الدين ، والدين في نفس التسييس . ولكنه لم يأثم بالفعل . ولعله لا يحب بالفعل ، وإنما يخيل إليه أنه يحب ، ويخيل إليه أنه يغار ، ويخيل إليه أنه آثم . هو إذن يستطيع أن يجاهد . ذلك حديث الأسقف يريد أن يعصم صاحبه من الاتقياد للهوى والتأثر بالعاطفة ، وما يزال به حتى يقنعه بأنه يستطيع أن يظل قسيماً .

« إذن فيجب أن أترك هذه الحياة التي أخالط فيها الناس وأن أذهب إلى الدير » .

« كلا ! يجب أن تظل قسيماً » .

« لا أستطيع » .

« كلا ! تستطيع ويجب أن تستطيع » .

« إذن تغذني معك إلى الصين هناك حيث أستطيع أن

أعالج المجذومين الذين تعنى بهم » .

وهنا حديث لزيد مؤثر بين الأستاذ وتلميذه تفهم منه أن الإيمان بالله والوفاء للدين ليسا في حاجة إلى التكلف وإجهاد النفس والتفنن في احتمال الآلام وتذوق المسكروه المادى ، وإنما هما شيئان يسيران يجب أن يصدرا عن القلب في هدوء وسلام ،

كما يصدر الماء عن الينبوع . فإذا لم يكن بد من العنف فيجب ألا يكون هذا العنف مادياً ، يجب أن يكون نفسياً ، يجب أن يكون في أخذ النفس بالخير وصرافها عن الشر .

« سأخذك الى الصين ولكني أشترط لذلك شرطاً هو أن تلتقي هذه المرأة قبل سفرك ، وأن تخلو إليها ، وأن تعف منها موقف القسيس حقاً وأنا واثق بأنك قادر على ذلك ، وأنا واثق بأنك تظلم نفسك حين تزعم أنك غير قادر ، وستثبت لك التجربة صدق ما أقول . نعم ستلتقي هذه المرأة وسأتركها وأذهب لأرى زوجها الذي يموت . لا تمنع فليس من هذا بد » . ثم يتركه ويعود ومعه الدوقة : سيدتي إن هذا القسيس يريد أن يودعك قبل أن يسافر سافراً طويلاً جداً ، ثم ينصرف . ويخلو القسيس إلى هذه المرأة فإذا هما وجلان ، وإذا هما ضيقا الصبر . ولكن المرأة تبتدىء الحديث فتسأله عن السفر ومتى ، وهو يجد من الحديث وسيلة إلى أمرها . فإذا الأسقف لم يخطيء ، وإذا النفس الانسانية ضعيفة قوية حقاً . أليس الطبيب قد أستطاع أن يؤثر في نفس القسيس حتى أقنعه بأنه فاجر ، وبأنه سيخلع ثوب الدين ! ألم يكن هذا القسيس معتزماً

منذ لحظة مفارقة الحياة الدينية ! انظر اليه الآن ! لقد استطاع
الأسقف أن يعيث به عبثاً جديداً ، وأن يؤثر فيه تأثيراً جديداً .
أقنعه بأنه قسيس ، وبأنه بر بدينه وربه ، وبأنه يستطيع ،
ويجب ، أن يقف من هذه للمرأة موقف القسيس . انظر اليه
وقد جرد نفسه من كل حياتها المادية حتى أصبحت جوهرًا نقيًا
صافيًا ، فهو يعظ هذه المرأة ويأمرها أن تحب وأن تسعد ،
فإذا ذكرت الدير أنكره وحثها على الحياة الدنيا : على أن تألم
وتلد ، على أن تفرح وتحزن ، على أن تسعد وتشقى .

ثم حدّد أغراضه وأوضح نصيحته فأمرها بأن تحب ،
وأمرها بأن تحب أخاه وأن تكون له زوجًا . وهما كذلك إذ
يقبل الأسقف والطبيب فيستمعان ثم يظهران . فينبئان بموت
الزوج والمرأة واجمة ولكنها متأثرة بموقف هذا القسيس ، متأثرة
بمنظر هذا الطبيب الذي يحبها والذي تحبه . وإذا هي تنبئ
الطبيب بسفر أخيه وتطلب إليه أن يودعه فما أسرع ما يفهم
الطبيب تضحية أخيه ! وما أسرع ما يتعاقب الاخوان وأحدهما
ملحد مسرف في الإلحاد ، والآخر مؤمن متشدد في الإيمان .

فما مصدر هذا التعاقب بين الإلحاد والإيمان ؟ وكيف انتهت

هذه الضروب المختلفة من الجهاد العنيف الى هذا الاتفاق بل الى هذا التعاقب ؟ أمران فيما أعتقد يفسران هذا كله . أحدهما معقول ، والآخر تكلفه الفن . فأما الأول فهو هذا الأسقف الذى بينت لك خلاله فى أول هذا الفصل والذى هو رمز السلام والوفاق بين الناس وأهوائهم وعواطفهم لو استطاعوا أن يتدبروا وأن يفهم بعضهم بعضاً ، وأن يجتهد كل منهم فى أن يفهم نفسه . وقف هذا الأسقف جهده على أن يوفق بين هؤلاء المختلفين بل بينهم وبين أنفسهم فأفلح وأعانه التكلف الفنى : أعانه موت هذا الدوق الذى حل المشكلة وجعل تدخله ممكناً ، فقد أصبح يستطيع أن ينصح لهذين العاشقين بالزواج ، ولم يكن يستطيع أن ينصح لها بالإثم . استطاع أن ينصح لها بالزواج ، وأن يبين للتيسس أنه من حيث هو قسيس يجب أن يؤيد هذا الزواج ويبارك عليه ، وأن جهاده فى حماية هذه المرأة لم يبق له نفع ولا فائدة ، فهو بين اثنتين : أما أن يكون قسيساً حقاً ، وإما أن يكون رجلاً قد ازدرى الدين وازدرى نفسه وازدرى الفضيلة . وقد آثر القسيس أن يكون قسيساً ، ولكن بعد جهاد عنيف ، وبعد تضحية هى سفره الى الصين .

اكتوبر سنة ١٩٢٣

أنت وأنا

للشاعر الفرنسي « بول جرالدي »

ولكنك تخطيء الخطأ كله إذا ظننت أني جاد في هذا الحديث
وأني أريد أن أكتب فصلاً يبق . وتخطيء الخطأ كله إذا
ظننت أني مزاح في هذا الحديث وأني أريد أن أضحك ليس غير .
وإنما أريد أن أجدّ وأريد أن أمزح ، أو — بعبارة أوضح — أريد
أن أضحك ضحكاً لا يخلو من فائدة . فقد سئمت الجد ، وأحسب
أنك سئمته أيضاً . ومن حقك ومن حق أن نمزح ولو قليلاً ،
ولو يوماً في الشهر ، على ألا يخلو هذا المزح من نفع ، وعلى
ألا يكون كلاماً يقال ثم ينسى كأن لم يقل .

وقد حدثتك وسأحدثك عن أبي نواس ، فأضحكت في
نفع وفائدة ، وخالطت بين المزح والجد ، فرضى قوم وغضب
آخرون . وأريد اليوم أن أحدثك عن شاعر فرنسي أو عن

ديوان لهذا الشاعر يشبه من بعض الوجوه شعر أبي نواس
في الغزل .

ليس في هذا الديوان إلا غزل ، وليس في هذا الديوان
إلا غزل كغزل أبي نواس ، موضوعه العبث والمداعبة . ليس
فيه شيء من وصف العواطف القوية ، وليس فيه شيء من
التحدث إلى الحرائر اللاتي يأخذنك بالإكبار والإجلال لأنهن
كبيرات جليات . . . وإنما هو عبث ووصف لطائفة من العواطف
الدقيقة الهادئة الباسمة ، وتحدث إلى امرأة أو إلى طائفة من النساء
كأولئك اللاتي كان يتحدث إليهن أبي نواس . ومع ذلك فهذا
الديوان يخلو من الإثم وفاحش القول . كله ألقاظ مألوفة لمعان
منها المألوف ومنها غير المألوف ، ولكنها كلها صحيحة صادقة .
وهي لا تخلو من فلسفة ، أو قل إنها كلها فلسفة . غير أنها نظمت
في سذاجة ويسر ، دون تكلف وتعسف ، بل لم يتقيد الشاعر
فيها باختيار الألقاظ المتينة أو التراكيب الرصينة ، أو بتكلف
ما يتكلفه الشعراء المتفلسفون ، وإنما تحدث إلى صاحبتة باللغة
التي تفهمها صاحبتة . وليست صاحبتة أديبة بارعة في الأدب ،
ولا فيلسوفة متعمقة في الفلسفة ، وإنما هي امرأة عادية تشعر وتلد

وتألم وتفهم الحياة على ألا تكون الحياة معقدة . فمن الحق أن يتحدث إليها الشاعر بهذه اللغة السهلة التي يألفها الناس جميعاً ويفهمها الناس جميعاً . بل هو قد ذهب إلى أبعد من هذا فلم يتقيد في شعره بما يتقيد به الشعراء من ضروب التضيق في القافية والوزن ، وإنما أرسل نفسه إرسالاً ، واصطنع ضروباً من الحرية يغضب لها « بوالو » وأمثال « بوالو » . والحق أن لهذا الديوان مكانة عظيمة في نفس الشباب الفرنسي وفي نفس الفتيات الفرنسيات بنوع خاص . فهو على يسره وسداجة موضوعه ومعانيه وألفاظه غنى بالمعاني الطريفة ، غنى بوصف المعاني التي تشعر بها في نفسك في كثير من الظروف والأحيان . وأنا أزعم أنك لا تكاد تقرأ هذا الديوان القصير حتى ترى نفسك فيه غير مرة ، وحتى تمر بالمعنى من معانيه فتضطر أن تقول : هذا حق لأنك شعرت به في ظرف من الظروف ولأنك مستعد للشعور به إذا تجدد هذا الظرف .

ليس الديوان إذن هزلاً من الهزل ، وليس ضرباً من ضروب العبث ، وإنما هو طائفة من المقطوعات الشعرية الحلوة التي تقرؤها فتسبغها ثم تعيد قراءتها وتعيدها حتى تستظبرها

استظهاراً . وقد كنت أستطيع أن أتحدث إليك فيه جاداً ،
وأن أترجم لك منه ترجمة عربية صحيحة لا تخلو من متانة وإن
كان هذا عسيراً . ولكنني مع ذلك تعمدت أن أتحدث إليك فيه
مازحاً ، وأن أتكلف الترجمة الحرفية التي يابها الذوق العربي
وآباها أنا أيضاً أشد الإباء ؛ لأنني أردت من هذا الخلط بين
الجد والمزح أن تعرف هذا الشاعر من جهة ، وتعرف كيف
يفكر القوم وكيف يتحدثون من جهة أخرى ، وتشعر بأن
الترجمة الحرفية في الأدب قد تكون نافعة وقد تكون قيمة ولكنها
مفسدة للجمال الأدبي في كثير من الأحيان . ثم أردت أن أبين
لك مصدر هذا الأسلوب الغريب الذي يصطنعه طائفة من
الشباب عندنا لأنهم يقرؤون الشعراء والكتاب من الفرنسيين
والانجليز ولم يقرؤوا الشعراء والكتاب من العرب ، فيحاولون
أن يكتبوا كما يقرءون ويحاولون أن يقلدوا أساتذتهم من الفرنسيين
والانجليز فيأتون بالأعاجيب ويحاولون بينك وبين أن تفهم
ما أرادوا أن يقولوا . ومن يدري ؟ لعلمهم لم يريدوا أن يقولوا
شيئاً ، وإنما أعجبهم الأسلوب فقلدوه .

أنا أترجم إذن ترجمة حرفية خالصة ، وأتكلف الأسلوب

الفرنسي في اللغة العربية ، وأعرف أن هذا الأسلوب قد يُغضب كثيراً من الناس فأسارع بأن أعلن أنه يعضني أيضاً . وأعرف أنه قد يعجب كثيراً من الناس فأسارع بأن أعلن أنه يعجبني أيضاً . فهو يعضني حين أريد الجد وهو يعجبني حين أريد الضحك

وانظر إلى هذه المقطوعة التي سماها الشاعر « تبسطاً »
والتي أراد أن يتحدث فيها إلى صاحبتة بأن الحب أدق وأعظم
من أن تصفه الألفاظ ولا سيما إذا ألفها الناس وابتذلها الاستعمال ،
وأنه مع ذلك عاجز عن أن ينبئها بحبه من طريق غير طريق
الألفاظ ، بل هو عاجز عن أن يحيا بغير الألفاظ ، وأنه مهما يقل
ومهما يفعل فلن يستطيع أن يقول أو يعرب عن شعور أقوى من هذا
الشعور الذي يجده حين يخاطب صاحبتة وقد أخذ رأسها بين يديه
فيقول لها : « أنت » ويختصر بهذا الضمير جمالها ومكاتها من
قلبه وكل ما يحيط به وبها من حب وعاطفة وإعجاب

تنسبط

آه ! أحبك ! أحبك ! أسمعين ؟ أنا هائم بك . أنا هائم
أردد أبدأ كلمات بعينها . . . ولكني أحبك ! أحبك ! . . .
أحبك ، أفهمين ! تضحكين ! ترينيني سخيلاً ؟ ولكن كيف
أعمل إذن لتعرفي حقاً ولتشعري حقاً ! فالألفاظ لا تدل على شيء !
إني لأبحث ، إني لأبحث عن وسيلة . . . ليس من الحق أن
القبل تغنى . إن شيئاً يخفى هنا كأنه الزفرة . أنا في حاجة إلى أن
أعرب ، أنا في حاجة إلى أن أفسر ، إلى أن لا أترجم . فلن
يشعر الإنسان حقاً إلا بما أحسن الإفصاح عنه . وإنما نحن قليلاً
أو كثيراً في الألفاظ . أنا في حاجة إلى الألفاظ ، إلى التحليل ،
يجب ، أن أقول لك . . . يجب أن تعلمي . . . ولكن ماذا !
احبي ! لو عرفت أن أصل إلى ما يجد الشعراء أفتظنين أني
أستطيع أن أقول لك أكثر من هذه الكلمة التي أرددها وأرددها
مائة مرة وألف مرة وأرددها في هيام وقد أخذت بين يدي هذا
الرأس الصغير : أنت ! أنت ! أنت ! أنت ! . . .

وأنظر إلى هذه المقطوعة التي سماها الشاعر « حزنًا »
والتي هي في الحق حزن شديد تشعر به إذا أحببت حقًا وفكرت
فيمن أحببت ، وفي هذا الوقت الذي فاتك ممن تحب ، وفي
هذه الضروب المختلفة من الشعور الذي وجده من تحب دون
أن تشاركه فيه . ألسنت إذا أحببت قاسمت هواك لذته وأمله
ويأسه وأمله؟ ألسنت إذا أحببت وددت لو أنك استأثرت بحياة
من تحب وبكل ما يقع من هذه الحياة من الأحداث !

حزن

ماضيك ! ... فإن لك ماضيًا أنت أيضًا ! ماضيًا
عظيمًا ، مليئًا بالسعادة ومليئًا بالألم ... أليس عجيبًا أن يتملأ
هذا الرأس بالأفراح القديمة والهموم القديمة ، وبالظلال العظيمة
والضئيلة ، وبألف صورة لست منها في شيء ! أعيدى على
كل هذه الأشياء التي قلتها مائة مرة . ذكرياتك ، لست
أعرفها جيدًا . آه ! هذا الليل وهذا اللغز دون عينيك ! إذن
فمن الحق أن قد مضى عليك عصر من العصور كنت فيه
تسبين تحت الضوء وقد انتثر شعرك الطويل كما أرى على هذه

الصورة ! . قُصَى على ، أهذا حق ؟ أكنت كهذه الصورة
التي لا أراك فيها جميلة ؟ قولى . فى ذلك الزمان ماذا كنت
تصنعين ؟ ماذا كنت تفكرين ؟ ماذا كنت تقولين ؟ ماذا
كان يحدث فى حياتك ؟ أوجدت هذه الحديقة الواسعة التي
تلمح ، وأين كان منها مكان الباب ؟ أوأثقة أنت بأن صورة
هذه الصبية القبيحة تمثلك حقاً ؟ وهذه القلنسوة التي بعد بها
العهد أكانت قلنسوتك ؟ أوأثقة أنت ؟ وكل هذه الوجوه
الفانية أهى وجوه الذين عرفوك من قبلى ؟ أنت مدينة لهؤلاء
الناس بأول سياحة لك ، بأول ليلة فى القطار ، بأول غابة
رأيتها ، بأول ساحل لعبت فيه ؟ الذين أعطوك يدهم وأعاروك
أكتافهم ، وقالوا لك : « أنظرى هنا . . » والهفتاه ! ما بال
هؤلاء الناس لم يتركوا لى هذا المقام ؟ ما كان أحب إلى أن
أحملك وحدك إلى بعيد وأن أبتدع لك أسفاراً عجيبة ! إذن
لأظهرتك على جمال المساء والصيف ، إذن لحببت إليك الطرق
الطوال الخالية ، إذن لعلمتك أسماء القرى الجميلة التي نلمحها
من بعيد ، إذن لقدمت إليك الأرض . وأظن أنى كنت
أحسن ذلك الأحسان كله . وإذن لأمكن أن تفيض هذه

الآفاق الرائمة وهذه المدن والبلاد شيئاً من المجد ولو قليلا على
الدليل آه ! هؤلاء الناس جميعاً ، أيتها العزيزة على ،
أيقدرون ما حرموني ؟ لقد قضى الأمر وليس الى استدراكه من
سبيل : ومع هذا فقد أرى هؤلاء الناس جميعاً كأنهم قوم
عاديون لا يميزهم شيء . ثقي بأننا إذا أحسننا شيئاً من الفرق
والخلاف فيما بيننا فهم مصدر هذا الفرق والخلاف . نعم . هم
مصدره ، هم الذين تعللوا بأيام الراحة فأخذوا ينقلونك من مكان
إلى مكان وطبعوا حياتك بطابعهم قبلي . . . لا تفكر في شيء
من هذا . خبئ عني هذه الصور . . .

* * *

وهذه المقطوعة الأخرى التي سماها الشاعر « مصباحاً »
والتي تضحك إذا قرأتها بالعربية وتعجبك إذا قرأتها بالفرنسية ،
والتي تمثل الحياة تمثيلاً صحيحاً لا مرية في أنه صادق .

انظر إلى الشاعر قد خلا إلى صاحبتة وقدم قبل المساء
فشملتها الظلمة لولا المصباح . . . أقبل المساء ومعه هذا النوع
من الحزن العميق الشامل الذي ينال العاشقين إذا ولت الشمس
وأقبل الليل ، والذي يبعث فيهم شيئاً عظيماً من الحاجة إلى الحنان

ولليل إلى الشعور بآثار الحب ، فإذا قلوبهم تحقق ، وإذا هم
يمسكون أعينهم أن تفيض بعبراتها ، وإذا هم يتمنون ألا يحسوا
إلا الحنان وألا يشعروا إلا بالحنان ، وإذا هم يتهالكون على
الحب والحنان . وهم في ذلك مستمتعين بلذته إذ حركة من
حركات الحياة العادية قد نهتهم من الحلم ، فشعروا أنهم أناس
كغيرهم من الناس . أنظر إلى الشاعر يحس هذا كله ويطلب
هذا كله ، ويبدأ بالاستمتاع بشيء من هذا وإذا الخادم تحمل
القهوة فيحس الشاعر أنه جسم يأكل ويشرب ويلد ويألم .
وهل الحياة إلا هذا !

مصباح

تسألين مالى لا أقول شيئاً ! ذلك أننا في اللحظة القيمة ،
في ساعة الحظ والابتسام ، في المساء وأنا أحبك هذا المساء حباً
لا حد له ! ضميني إليك أنا في حاجة إلى الملاحظة . لو تعلمين
كل ما يصعد في هذا المساء من طمع ، وكبرياء ، من رغبة ،
وحنان وخير ! ... كلا تستطيعين أن تعلمي ! ... إخفضي
المصباح قليلاً ، أتريدين ! ذلك خير . ففي الظلام وحده تحسن

القلوب الحديث ، وإنما تتراءى الأعين حقاً حين لا ترى الأشياء إلا قليلاً . أنا أحبك هذا المساء أكثر من أن أتحدث إليك في الحب . ضميني إلى صدرك ؛ أحب أن أكون أنا موضع الملاحظة الآن . . . اخفضي المصباح قليلاً أيضاً . هذا حسن . لنصمت لنهدأ ، لنسكن . ما ألد يديك الدافئتين على وجهي ! . . . ولكن ماذا ! ماذا يراد منا ! آه ! إنهم يحملون القهوة ! إذن ضعي القهوة هنا ! اسرعى ! . . . واغلقى الباب ! . . . ماذا كنت أقول لك ؟ نشرب القهوة الآن ؟ تفضلين ذلك ! نعم فأنت تحبينها حارة . أتريدين أن أصبها لك ؟ انتظري . دعيني أفعل . هي قوية اليوم ! تريدين سكرًا ؟ قطعة واحدة ؟ أيكفى هذا ؟ تريدين أن أذوق ! دونك ! هذه قهوتك أيتها الحبيبة . . . ولكن ما أشد الظلمة فلسنا نكاد نرى شيئًا . . . ارفعي المصباح قليلاً . . .

ثم اقرأ هذه المقطوعة وحدثني أليست صادقة ؟ أليس هذا الحكم الذى تشتمل عليه مع أنه جميل ومع أنه قد أورد فى لفظ شعرى وفى صورة شعرية موافق كل الموافقة لأصح نتائج الفلسفة

وأصدق نظريات العلم ؟ تلقى من تحب ، فهل قدرت أنك ستنتقاه ؟ أليس يخيل إليك أنك لقيته مصادفة ، ومع ذلك فليس للمصادفة وجود ، وإنما لكل شيء علته ، ولكل علة نتيجتها . وقد تعاونت الأسباب وتظاهرت العلة منذ كان العالم على أن تلقى من أحببت فتسعدا معاً ، وتشقيا معاً . والأمر ليس مقصوراً على الحب وإنما يتناول مع الحب كل شيء .

حظ

ومع ذلك فقد كان من الممكن ألا تتعارف ! تخيلي أيتها الحبيبة كل ما يجب أن يأذن به الحظ لنجتمع هنا ، وليحب كل صاحبه ، ولنكون إيانا !

تقولين : « خلق كل منا لصاحبه » . ولكن فكري في كل ما كان يجب من حظ ، ومن تعاون ، ومن أسباب ، ومن مصادفات ، لتحقيق هذا الشيء اليسير : حبنا ! فكري في أننا قبل أن نجتمع بين رأسينا الهائمين قد عشنا منفردين ، منفصلين ، ضالين ، وفي أن الزمن طويل ، وأن الأرض واسعة ، وأنه كان من الممكن ألا نلتقي . أفكرت قط أيتها المخاطرة

الجميلة في هذا الخطر الذي تعرضت له سعادتنا حين كان قلبانا يتجاذبان سرّاً في أعماق الطبيعة التي لا حد لها ؟ أتعلمين أن قد كان مشكوكاً فيه ذلك الشوط الذي كان يدفعنا إلى اللقاء ، وأن عناداً أو صداعاً كانا نستطيعان أن نفرقا بيننا أبداً ؟ لم أقل لك قط ، هذا الشيء العجيب : لمحتك لأول مرة ، فلم أربأديء الأمر أنك جميلة ، ولم أكد ألفت اليك . فقد كانت صاحبتك تشغلني عنك بضحكها . وإنما التقت لحاظنا في وقت متأخر ، متأخر جداً . فكري فقد كان من الممكن ألا تفهمي ، وكان من الممكن ألا أجرؤ .

أين كنا نكون هذه الليلة لو أن أمك عجبت العودة بك في تلك الليلة ، ولو أن وجهك لم يمر تحت الضوء حينما أردت أن أعينك على لبس المعطف ؟

تذكرى ! فقد كانت كل هذه الأسباب . ولو كان شيء من التأخير ، ولو عرض مانع من الموانع لما أحسنا شيئاً من هذه النشوة العزيزة ولا من هذا التحول اللذيذ . لقد كان من الممكن ألا يوجد حبنا أبداً ! وكان من الممكن ألا تكوني في حياتي اليوم !

وأنظر إلى هذه « المحنة » أليست تترجم ما يقع بين
العاشقين ! أليس من الحق أن العاشق كثيراً ما يتكلف إيذاء
صاحبه امتحاناً له وفتنة ؟

محنة

تنبئيني بأنك في هذا المرقص ضحكت ، ضحكت كمجنونة .
وتشكين إذ يظهر لك أن ألفاظك تؤذيني . وددت لو لم أظهر
حزيناً ، ولكني محزون ، هذا حق . تقولين إنى أثر ، ومع
ذلك فقد تعمدت ما فعلت . هذا الحزن الذي أحسه أيتها
القاسية لقد كانت عينك تلتسمه في عيني ، ولو أنى ظهرت
مبتهجاً لما كنت أنت راضية .

وهذه « الهزيمة » . ألم يكن الرجل في كل وقت
منهزماً أمام المرأة ! يظهر القوة والبأس ويتكلف أنواع الغيظ
والغضب ولكن لحظة واحدة ممن يجب وإذا قوته وبأسه
وغضبه وغيظه كأن لم تكن . أيهما القوى حقاً ؛ الرجل أم
المرأة الساحرة ؟

هزيمة

وبعد فليس هذا عدلا ! أنا شديد التأثر . تسيئين إلى
فأحاول أحيانا أن أجزيك بالشر شرًا . ولكن هذا مستحيل
أبدأ ، فأنا ألم دائما أكثر مما تألمين .

أنت تعلمين كيف تحتلمين الإعراض الطويل ، واللحاظ
القاسية والصمت المتصل . . . آه لا تقسى على أيتها الحبيبة إلى !
فأنا مسرف في الحزن حين أحزن . . .

ولكنني مجنون ! لا تسمعي لي ! فأنا أعترف لك في
سذاجة بحقائق خطيرة . . . أنت تعرفين الآن ضعفي : ولعلك
تستغلينه . . .

واقرا هذه المقطوعة وحدثني عن الجملة الأخيرة منها وهي
بيت القصيد ، أليس من الحق أن الصلات الجنسية هي
وحدها التي تكاد توجد الحب ؟

تفكير

مع أن كلا منا يجب صاحبه ، ومع أننا نتقسم الألم ،
فنحن في الحق لا تشابه إلا قليلا جداً . يكفي أن يشجر
بيننا خلاف ولو كان ضئيلا ليظهر أن بيننا هوات عميقة !
يخيل إلينا أننا نهم أحياناً ، ولكن لا نكاد نفرغ
من الملاحظة حتى نشعر بأن بعضنا لا يكاد يفهم بعضاً ...
لو أنك رجل أكنا نكون صديقين ؟

* * *

وانظر إلى نهاية ما بين العاشقين كيف سُم كل منهما
عشرة صاحبه . فاعتزما أن يفترقا وودع بعضهما بعضا وهمت
أن تنصرف ، فإذا السماء تمطر ، وإذا هو يريد أن يمسكها حتى
يقلع المطر ، وإذا هو يتهمز هذه الفرصة فيذكر حبهما : كيف
نشأ وكيف نمى وكيف أخذ يضمحل وكيف انتهى إلى السأم ،
وإذا هو يذكر ما سيصيران إليه من الجفوة وعدم الاكتراث ،
وإذا يشعر بأن حياة الإنسان غرور ، وأن قلب الإنسان ضعيف ،
وإذا هو يحس العجز عن احتمال هذه الفرقة ، فينظر فإذا المطر

لم يقلع ، فيتخذ المطر تلة فيمسك صاحبه ويدعوها إلى البقاء ،
على أن يحتملها وعلى أن تحتمله في غير حب ولا كلف ولكن
خضوعاً للعادة واطمئناناً إليها .

نهاية !

إذن فالوداع ألا تنسين شيئاً ؟ ... حسن . انطلق .
فليس لدينا ما نقول . أتركيني . تريدان أن تمضى ... ومع
ذلك فانتظري قليلاً ، انظري ... إن السماء تمطر ... انتظري
حتى ينقطع المطر . استري نفسك جيداً ! إن البرد شديد خارج
البيت . لقد كان يجب أن تتخذى معطف الشتاء ... لقد
رددت إليك كل شيء ولم يبق لك عندى شيء . هل أخذت
صورتك ورسائلك ؟ ...

إذن فانظري إلى ما دمنا سنفترق ... ولكن احذري !
لا تبك ! فذلك سخيف . ما أشد الجهد الذى يجب أن نبذله
لنذكر عشقنا القديم . لقد منح كل منا صاحبه حياته كلها
منحاً دائماً . وها نحن أولاء نسترد هذه الحياة ! وسيذهب
كل منا باسمه إلى حيث يستأنف حياته ، إلى كل شيء
وإلى حيث ينبه ، وإلى حيث يحيا ... قد نألم حيناً ...

ثم ماذا ! ثم يأتي النسيان هو الشيء الوحيد الذي يعفو . . .
ثم توجد في ناحية أخرى ونكون بين الناس شخصين وإذن
فستدخلين في حياتي الماضية ! وقد نلتقي مصادفة في الطريق
فأنظر اليك من بعيد دون أن أعبر اليك ، تمرين في ثياب
لا أعرفها ونظال أشهراً لا نلتقي ، ويتحدث إليك أصحابي بانباتي ،
وأسأل عنك وقد كنت حياتي ، عنك وقد كنت سعادتي
ولذتي فأقول : « كيف هي ؟ »

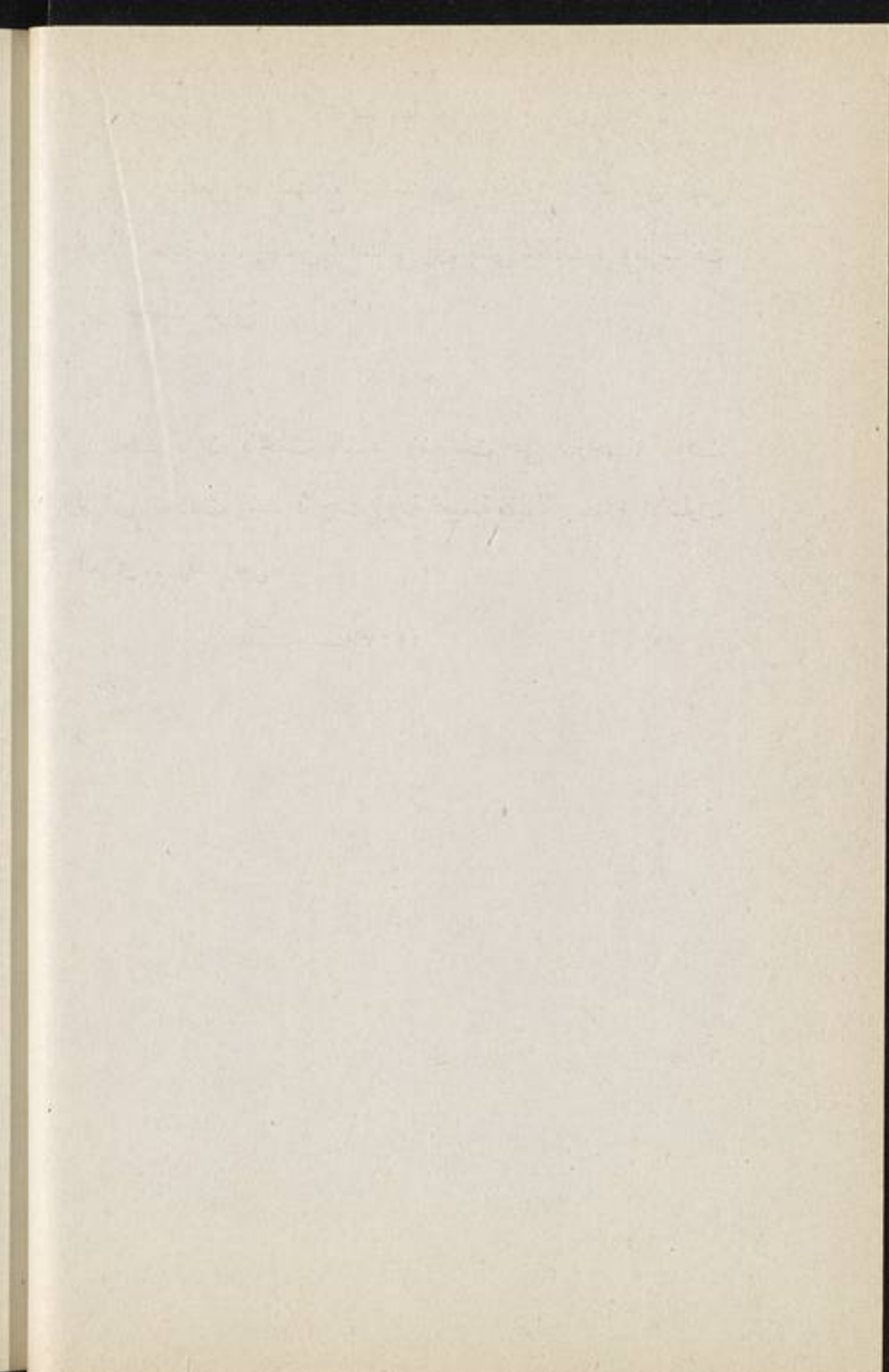
إذن فقلبنا العظيم كان هذا الشيء الحقيق ؟ ومع ذلك
أكننا مجنونين في أيامنا الأولى ؟ أتذكرين سعادة ؟ أتذكرين
رقينا إلى السماء ؟ أكننا عاشقين ! . . . أنظري ! كذلك كان
حبنا ! إذن ! نحن ، نحن أنفسنا حين نقول : « أحبك » لا تدل
هذه الكلمة على أكثر مما نرى الآن . يا لله ! حقاً إن هذا
مخجل . إذن فالناس جميعاً متشابهون ونحن كغيرنا من الناس ! . . .
ما أشد المطر ! لا تستطيعين أن تخرجي تحت هذا
الجو . . . أقيمي ! نعم أقيمي ! سنجتهد في أن نعش . من
يدري فقلبانا وأن تغيرا سيستلذان حركاتنا المألوفة .

سنفعل ما نستطيع . سنكون اختياراً . ثم مها نقل
فهناك العادة . . . اجلسي ! استأنفي إلى جانبي شقائك ، وأسأتأنف
إلى جانبك عزاتي .

* * *

لعلك قرأت فأعجبت بالشاعر وسخطت على المترجم ، وودت
لو أني تكلفت الجهد فترجمت ترجمة صحيحة مقبولة يسميها الأسلوب
العربي . وقد أفعل .

أكتوبر سنة ١٩٢٣



« دينيز »

« قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى السكندر دوما الصغير »

أريد منذ اليوم أن أقف هذا الحديث على الأوبرا الملكية وما يمثل فيها من آيات التمثيل . ويخيل إلى أن الأوبرا الملكية خليفة بهذه العناية ؛ فنحن لا نشهد آيات الفن كل يوم . ومن الحق إذا أتيج لنا أن نشهد هذه الآيات فى بلادنا يمثلها قوم مهرة بارعون أن نبتهج لذلك ، ونشجع هؤلاء الممثلين ، ونحمد لهم وللذين دعوهم إلى مصر نعمتهم على المشغوفين به المشوقين إليه . وقد يكون من الحق علينا أن نذيع أمر هذا التمثيل وما فيه من منفعة ولذة ؛ ليقصد إلى الأوبرا من استطاع أن يفهم اللغة الفرنسية ويتذوق جمال الفن الفرنسى . فقد آن لنا ألا ننظر إلى التمثيل كأنه فن من فنون اللهو والسمر ليس غير ، بل أن نسعى إليه كما يسعى الإنسان إلى مدرسة يجد فيها ما يشتهى من علم

وفلسفة ، ومن أدب وفن ، ويجد فيها ما لا يوجد في المدارس عادة من هو لا يصرف عن الجد ، وفكاهة لا تلهي عن نفع .
ولقد كانت القصة التي مثلت في الأوبرا الملكية مساء يوم الاثنين جامعة لهذه الخلال كلها ؛ فهي درس في الأخلاق والتاريخ ، يمثل نظاماً اجتماعياً خاصاً كان له سلطانه في عصر من العصور ، ويمثل نظاماً اجتماعياً جديداً كان الكاتب يود لو انبسط سلطانه على حياة الناس ، ولا يخلو مع ذلك مما يلد ويعجب ويعين على إساعة الجد والانتفاع به .

« أندريه باردان » شاب غني ، فقد أبويه منذ عشر سنين ، له ثروة ضخمة ولكنه لم يحسن تدبيرها ، وإنما أخذ يعبت بها ويبددها تبديداً حتى فسد أمره وأشرف على الفقر . وله أخت فتاة في الدير اسمها « مارت » لا يستطيع أن يضمها إليه لأنه لا يحسن تدبير أمورها فيتركها في الدير عشر سنين ينتظر أن تتاح له فرصة تمكنه من أن يخرجها من الدير . ولكن هذه الفرصة لا تتاح له إلا بعد مشقة ، وبعد أن تركت حياة الدير في أخته آثاراً قوية ، فنزعت بها إلى شيء من التصوف والميل

الى الرهبانية من جهة ، وملأت نفسها سخطاً على الناس واتهاما لهم من جهة أخرى .

صادف أخوها رجلاً من الشعب ، عاملاً ، شديد النشاط ، قوى الذكاء ، عظيم الأمل فى المستقبل ، ولكنه فقير . واسمه « توفنان » ، فأعانه بقليل من المال . وجد هذا الرجل حتى أصبح من أكبر المشرفين على الصناعة المتصرفين فى تدبير الثروة العامة . وبينما كان هذا الرجل يثرى وتضخم ثروته كان المحسن اليه يدنو من العدم قليلاً قليلاً ، حتى فكر فى أن يبيع الأرض الواسعة التى ورثها عن أبويه . فأشار عليه صاحبه أن يفرغ لتدبير ثروته واستغلال أرضه ، وأن يلتمس له معيناً شريفاً . فبحث عن هذا المعين ودلته عليه صديقة له اسمها « مدام دى توزيت » وهى امرأة فى السادسة والأربعين من عمرها ، بارعة الجمال ، فتانة المنطق ، قد ابتمت لها الحياة ، وابتسمت هى للحياة ؛ فهى لا تعرف إلى الحزن سبيلاً ، قوية الجسم ، محتفظة بشبابها ، مزعمة أن تستمتع به ما استطاعت ، لا تضيع لحظة منه فى غير لذة . متزوجة ولكن جمالها وشبابها وكلفها باللذة حرمتها الوفاء لزوجها ، فهى تنتقل من خليل إلى خليل ، أو قل إنها

تستبدل خليلاً من خليل . وكان صاحبنا رفيقاً لابنها في المدرسة ، فلما رآها وهو غلام حدث لا علم له بالحياة فتن بها ، وراته هي فلم تكره حدائته وجهله فاتخذته خليلاً حيناً ، ثم أعرضت عنه إلى غيره . فكان هذا الإعراض مصدر ألم الشاب ويأسه وتهالكه على اللهيات ، حتى بلغ من سوء الحال ما قدمت . بحث إذن عن رجل شريف يدبر ثروته ، فدلته صاحبتة هذه على رجل كان صديقاً لزوجها الذي مات منذ حين واسمه « بريسو » كان ضابطاً بالجيش ، ولكنه أحب فتاة وأراد أن يتزوجها ، وكانت فقيرة فاضطر إلى أن يترك الجيش ، لأن القانون لا يبيح للضباط أن يتزوجوا من الفقيرات . ترك الجيش وعاش مع امرأته عيشة ضيقة مؤلمة ، ورزق منها طفلة هي « دينيز » نشأت نشأة الفقيرات ، ولكنها تعلمت ، وكانت ذكية فانتفعت بعلمها وأخذت تستعين به على الحياة . وكانت تستعد بنوع خاص للموسيقى والتمثيل ، ولكنها صادفت في طريقها غلاماً كان يقاربه في السن وهو « فرناند » ابن هذه المرأة التي وصفتها لك ، فأتلف الصبيان وتحابا ، وأزمعت الأسرتان أن تصلا بينهما بالزواج . فلما بلغا سن الزواج أثرى أبو الفتى وظل

أبو الفتاة فقيراً ، فانصرف الغلام عن صاحبتة ، فأصابها من ذلك
يأس كاد يبلغ بها الموت ، وانقطعت الصلة بين الأسرتين حتى
مات أبو الفتى ودلت أمه صاحبها على أبي الفتاة فاتخذته مديراً
لأمرة . وما هي إلا أشهر حتى أخذ الأمر يستقيم لهذا الشاب
فنقص دينه وزاد دخله ، واطمأن إلى هذا المدير ، فكلف
زوجه أن تشرف على القصر ، وأخرج أخته من الدير ، وكلف
دينيز أن تقوم على إرشادها .

فإذا كان الفصل الأول رأيت « اندريه باردان » في
قصره قد دعا إليه طائفة من أصحابه يقضون عنده أياماً . فأقبل
صديقه « توفنان » وأقبلت صاحبتة « مدام دي توزيت »
وابنها فرناند ، وأقبل جار له يزوره مع امرأته ، وأقبلت « مدام
بريسو » أم « دينيز » وأزمع هؤلاء جميعاً أن يجتمعوا إلى
العشاء إلى مأدئة القصر . وترى في هذا الفصل اغتباط صاحب
القصر بحسن حاله وانتظام ثروته ، وإعجابه الذي لا حد له
« بدينيز » ، ثم ترى أن صاحبتة القديمة تدور حول أخته
تريد أن تتخذها زوجاً لابنها ، وأخذ هذا الفتى يمثل للفتاة

فصل العاشق الولهان حتى فتنها فالت إليه ، وأخذ يكتب إليها رسائل الغرام فتقرؤها وترد عليها . وقد اعتزمت في هذا اليوم أن تخرج معه ومع أمه للتروض على ظهور الخيل . فتقبل « دينيز » إلى أخيها فتنبئه بهذا وتتحدث إليه بأن الفتاة متعبة مغضبة هذا اليوم ، وبأن الخير ألا تخرج وحدها مع هذين الرفيقين لأنها ليست ماهرة في الفروسية وبأنها ستكلف أباهما أن يرافقتها في هذه النزهة . تنصح لصاحب القصر أن يتلطف باخته ويكسب ثقتها لأنها توشك أن تتورط فيما لا يليق بها ولا به . وتخرج « دينيز » وإذا « مدام دي توزيت » قد أقبلت في زى الفارس تريد أن تتحدث إلى صاحبها في أمر ذى بال ، فيذكر أن حبهما القديم في غير ألم ولا لوعة ، ثم تخطب المرأة إلى صاحبها أخته لتكون زوجاً لابنها ، وكانت تقدر أن ذكرى الماضى وإحياء الأمل في المستقبل يكفلان رضاه ، وكانت تقول له فيما تقول : إذا تم هذا الزواج استطعت أن أعيش معك في القصر دون أن يرى الناس في ذلك شيئاً ، حتى إذا كان ما لا بد منه فاتخذت لك زوجاً لزمتم غرفتي ووقفت شيخوختي الباسمة على تربية أبنائك وأبناء ابني ، فكنت جدة جميلة خفيفة الظل كما

أنا الآن رفيقة حلوة لذينة المحضر . ولكنه رفض الخطبة لأن
ابنها لا يليق بأخته ، رفض الخطبة وانتهى الحديث بهما إلى
« دينيز » ، فظهر أن إعجابها بها مصدره حبه لها . ولم تكذب
تشعر المرأة بهذا الحب حتى اضطربت في نفسها نار الغيرة
فاتهمته بإغوائها وزعمت له أنه ليس أول من أغواها ، وانصرفت
وقد تركت في نفسه من الغيرة جرحاً دائماً لا يشفيه إلا أن
يستكشف من أمر « دينيز » كل ما خفي عليه .

* * *

فإذا كان الفصل الثاني رأيته يسأل « بريسو » عن
ماضيه وماضى ابنته وما كان بينها وبين فرناند من صلة ،
فينبئه الرجل بما قدمت لك في صراحة وهدوء . فإذا أنبأه بأن
قد كان بين الغلامين حب ، عظم الشك في نفسه حتى بلغ
اليأس أو كاد ، فاعتزم السفر لينسى .

وتراه يتحدث إلى صديقه « توفنان » فينبئه نبأه
ويعرب له عن شكه . أما صديقه فينصح له أن يعلن إلى
الفتاة حبه ويطلب إليها أن تكون له زوجاً فإنها إن تكن
طاهرة السيرة نقيه الماضي قبلت في غير تردد وإلا فسترفض ؛

لأنه يثق بأنها أشرف وأنبى من أن تخدعه عن نفسها .
ولكن صاحب القصر لا يزداد إلا شكاً ، ولا يزيده الشك
إلا احتياجاً ، فإذا هو مضطرب ، وإذا هو نار تتلظى ، وإذا
هو يصيح بلعن المرأة واستئزال السخط عليها ، وإذا هو يلعن
في يأس ساخر أنه لا يستطيع أن يطمئن إلى شيء . أليس
من أشد الأشياء تكرراً أن تنظر إلى هذا الرأس الجميل الذى
تعبده وأنت تعلم أن فيه سرّاً مكنوناً ولكنك مهما تفعل فلن
تبين من هذا السر شيئاً ، ولقد يملكك حب الاستطلاع
فتحطم هذا الرأس تحطياً تريد أن تظفر بما فيه فلا تظفر إلا
بعظم وعصب ودم ! .

أريد أن أعرف الحقيقة ، ويجب أن أعرفها ، وسأعرفها .
ولكن صاحبه يلح عليه فى ألا يسلك إلى هذه الحقيقة إلا
هذه الطريق التى وصفها له : طريق إعلان الحب وعرض
الزواج ، حتى لا تتعرض حياة الفتاة للافتضاح فىكون مصدر
الشقاء لقوم لا يستحقون الشقاء .

ثم تدخل أخته ، فلا يكاد يتحدث إليها حتى يشعر
بأنها ساخطة عليه وعلى « دينيز » وبأنها تكره الحياة معهما ،

وبأنها تحب « فرناند » وتريد أن تتزوجه مهما يكن رأى أخيها . فيغضب أخوها وينبئها بأنها عائدة إلى الدير فقيمة فيه حتى تبلغ الرشد ويومئذ تستطيع أن تقترن بمن تشاء . يتركها ، وتدخل « دينيز » فلا تكاد توجه إليها القول حتى تشعر منها بالسخط ثم بالإهانة ، وحتى تسمع منها أنها لن تقيم في هذا القصر لأنها تكره أن تخضع لهذه المراقبة الدينية وهذا التجسس المرذول . ألسنتِ كلفت أباك أن يراقبنا في النزهة ليكون على رقيباً ؟ بلى ! لأنى أرى ذلك محتوماً ولا آمن عليك هذا الشاب الذى أعرف سوء سيرته مع الفتيات ، والذى يعرضك للشقاء ، والذى يجب على أن أحملك من شره وسأحملك رضيت أو كرهت .

ثم تتركها ويقبل « فرناند » ، فيسألها عن كتاب كتبه إليها : أقرأته ؟ ويتحدثان فى أمرها ، فتنبئه برفض أخيها وإصرارها هى وما كان من عزمها على العودة إلى الدير . ثم تسأله عن شىء فتحس منه ميلاً إلى الكذب فتنذره بأنها لا تكره شيئاً كما تكره الكذب ، وبأنها إن أخذته بكذبة فستقطع بينها وبينه كل صلة حتى لو كانت زوجه .

فإذا كان الفصل الثالث رأيت « مدام بريسو » أم « دينيز » وقد دخلت عليها « مدام توزيت » فأنبأتها بأنها إن تكن سعيدة اليوم فتظفر غداً بسعادة لا حد لها ، فتجزع المرأة لهذا النبأ لأنها سيئة الظن بالأيام وبالناس وبهذه المرأة بنوع خاص . وتستنبىء صاحبتهما فتنبئها بأن صاحب القصر يحب ابنتها ، ويريد أن يتخذها له زوجاً ، فلا ترداد لذلك إلا جزعاً حتى يأخذها شيء من الدوار ، وتشعر أنت بأنها تشفق من أمر عظيم . ولكن « مدام دي توزيت » تلاحظها وتزين لها أمر هذا الزواج لأن فيه سعادة كثيرين ، فيه سعادة « دينيز » التي ستصبح « كوتس » وقد كانت بأئسة ، وفيه سعادة « مارت » أخته التي تحب « فرناند » وتريد أن تقترن به ولن تظفر بذلك إلا إذا أشارت به « دينيز » على صاحب القصر لأنه لا يرى إلا بعينها ، تتحدث إليها بهذا كله فلا ترداد إلا وجلاً وإشفاقاً كأنها تعلم شيئاً تخشاه .

ثم يقبل صاحب القصر فمتلقاه « مدام دي توزيت » وقد تكلفت الحزن والغضب وتستأذنه في الانصراف والعودة إلى باريس . ولكنهما يتحدثان ، فيسألها عما تعلم من أمر « دينيز »

فتقسم له أنها لا تعلم من أمرها شيئاً ، وإنما اتهمتها غيره
وحسداً . ويظهر هذا كله معقولاً لصاحب القصر فيطمئن إليه ،
ويقبل « فرناند » مستأذناً في السفر ، فإذا كان كل شيء
قد تغير ، وإذا صاحب القصر يلح عليه في البقاء ويقبله زوجاً
لأخته ، ولكنه يستحلفه بالشرف أن ينبئه : أكان خليلاً
« لدينيز » ؟ فيجيبه كلاً ! ويقسم على ذلك ، فإذا هم جميعاً
سعداء . أليس يستطيع أن يقتن « بدينيز » ! أليس الآخر
يستطيع أن يقتن « بمارت » ! أليس الأمر قد انتهى إلى
ما كانوا يحبون جميعاً ؟

يخطب صاحب القصر الفتاة إلى أبيها ، فيتردد الأب ثم
يرضى . أما الأم فسعيدة ولكنها جزعة ، وهي تشير بأن يتحدث
صاحب القصر إلى بنتها . فإذا خلا صاحب القصر إلى « دينيز »
أنبأها بحبه إياها ، وأنبأته بحبها إياه ، ثم يطلب إليها أن تكون
زوجة فتجيب كلاً !

— لماذا

— لأنني من اللاتي يحببن دون أن يكن للزواج أهلاً ،
ثم تنبئه بأنها مسافرة غداً بعد أن تعود أخته إلى الدير .

ولكن أختي لن تعود إلى الدير ، فقد رضيت أن تقترن
« بفرناند » .

فإذا سمعت ذلك جزعت له جزعاً شديداً وأنبأته بأنها
كانت خليلة لهذا الشاب ، خدعها عن نفسها فرزقت منه
طفلاً ، ثم أعرض عنها أثناء الحمل وبعد الميلاد ومات هذا
الطفل وجهل أبوها الأمر كله فلا ينبغي أن يكون هذا الشاب
مصدر شقاء لفتاة بريئة « كمارت » . إنه لا يريد أن يتزوجها
وإنما يريد أن يتزوج ثروتها ! .

الموقف هنا مؤلم جداً ، فليس من اليسير أن تملك
نفسك أمام جزع هذه الفتاة وهي تفضح أمرها لمن أحبها وأحبته
وأمام صاحب القصر يبكي رحمة لها وحزناً على حبه ! ولكن
أبا الفتاة قد سمع الحديث فأقبل وقد جن جنونه فطرد الفتاة
طرداً عنيفاً وأعلن إلى صاحب القصر أنه مرتحل لساعته ليظهر
هذا القصر من هذه الأسرة الدنسة ، ثم يرتب أوراقه . وهو
في ذلك إذ يقبل « فرناند » فلا يكاد يراه حتى يهجم عليه
يريد أن يقتله ، ثم يتردد أمام الجريمة فيرسله قائلاً : اذهب
إلى أمك فأنبئها بأني انتظرها هنا لتخطب إلي ابنتي على أن

تكون زوجاً لك ، فإذا لم تتم هذه الخطبة في ساعة فأنا قاتلك ! .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع رأيت الأبوين محزونين يتحدثان .
أما الأم فكلومة مستسلمة وكأنها مرتاحة إلى هذه النكبة التي
أباحت سرها لزوجها وأخفتها من الحذر والكتان . وأما الأب
فمحزون ولكن ثورته لم تبدأ بعد ، فهو يلعن ابنته وينكر
إخفاء الأمر عليه وزوجه تستعطفه وتترضاه دون أن تجد إلى
العطف في قلبه سبيلاً . وهي تكره أن تقترن ابنتها بهذا الفتى ،
والفتاة تكره ذلك ؛ ولكن الرجل يلح فيه مهما يكن شراً !
لقد اشتركا في الإثم فيجب أن يحتملاه معاً .

تقبل أم الفتى فتخطب الفتاة إلى أبيها أمام صاحب
القصر وصديقه توفنان ، ويقبل الأب وتقبل الفتاة ، ويستعد
هؤلاء للسفر إلى باريس . ويخلو الصديقان ، فإذا صاحب
القصر محزون ولكنه مطمئن لأنه عرف ما كان يبحث عنه .
أما صاحبه فيشبعه لوماً وتأنيباً لأنه جنى هذه الجناية المنكرة
على هذه الفتاة التي يحبها وتحبه والتي ضحت بشرفها وكرامتها في
سبيله وفي سبيل أخته . ثم من المعلوم في هذا كله ؟ أنت

لأنك عشقت أم الفتى فعرفت أختك وحببت إليها ابنها ، وهي التي دلتك على هؤلاء الناس جميعاً فاستخدمتهم ، ولولا هذا العشق القديم وهذا الحب الجديد وما نشأ عنهما من الغيرة لما نال هذه الأسرة ما هي فيه الآن من شقاء . وليس لك أن تسخط على الفتى لأنك سألته أمراً فأخفاه عليك ، فمثل هذا السر لا يباح . أتستطيع أنت أن تنبئه بأنك كنت خليل أمه لو سألك ؟ ولم لا تقترن بالفتاة ؟ ألم تعترف لك بخطيئتها ! ألم تر جزعها لهذه الخطيئة ! ألم تبك معها على هذه الخطيئة ! ألم تغسل دموعك آثارها ! ؟ . أنت تحبها ولن تتعزى عنها ، وأنت الآن تتركها لما ينتظرها من شقاء ، فاحذر عاقبة هذا الجبن وهذه القسوة فقد تندم حين لا ينفع الندم .

وتقبل أخته ، فإذا عرفت كل ما كان أخذها ندم شديد لما قدمت من الإساءة إلى « دنييز » فدعتها وأخذت تضمها إليها وتسألها عفوها ومغفرتها . لقد خانك هذا الفتى وخانني أيضاً فكانت خيائته دليلاً على أنا لا تصلح للزواج . أحببنا هذا الفتى الخائن ، فلنبراً من حبه ولنقدم حبنا إلى من لا يخون . لنذهب معاً إلى الدير ، ثم تنطلقان فلا تكادان

تبلغان الباب حتى يصيح صاحب القصر : « دينيز » لا أستطيع !!
وإذا هي بين ذراعيه ، وإذا أخته فرحة مبهجة تفكر في
العشاء ومن دعوا إليه ، فإذا سئلت عن الدير أجابت بعد أن
تنزوج « دينيز » .

* * *

والآن وقد لخصت لك هذه القصة لا أجد بدأً من أن
ألاحظ أنها لذيدة ممتعة إذا قرأتها ، ولكنك لا تكاد تشهدها
في ملعب التمثيل حتى يأخذك شيء من الدهش ، ولا أريد
أن أقول من خيبة الأمل ، فقد يكون اللفظ أشد مما ينبغي .
بعد العهد بهذه القصة فقد مثلت في آخر القرن الماضي .
وما أسرع ما تطورت أخلاق الناس وعاداتهم وأوضاعهم
الاجتماعية منذ ثلاثين سنة ولا سيما في فرنسا ولا سيما بعد
الحرب ! .

ولهذا تشعر في كثير من المواقف بأنك تشهد شيئاً ليس
بينك وبينه صلة ، وهو إلى التاريخ أقرب منه إلى تمثيل
الحياة التي تحياها .

أضف إلى هذا شيئاً آخر ليس أقل منه خطراً ، وهو

أن الكاتب يطيل في حوارهِ حتى إنك لتنسى في كثير من
المواقف أنك تسمع ممثلاً ، ولتشك في أنك تسمع خطيباً .
ولقد يتكلم الممثل ربع ساعة أو نحو ذلك أو أكثر من دون
أن ينقطع عن الكلام أو يسمع جواباً من محاوره .

فإذا اجتمع هذان الأمران في قصة كالتى مثلت مساء
الاثنين لم تجد بداً من أن تعذر الممثلين يمثلون آيات الفن الحديث
وآيات التمثيل في القرن السابع عشر .

بل أنا أعترف بأنى كنت أعجب بمسيو البير لامبير إعجاباً
لا حد له ولكن يشوبه شيء من الرفق به والإشفاق عليه ، فقد
كَلَّف نفسه عناء كثيراً في تمثيل المواقف التى وقفها أندريه باردان
واستطاع أن يخلب الجمهور غير مرة .

وكان المسيو شارل جرفال بارعا في تمثيل فرناند ، وأحسبه
أمر الممثلين بعد مسيو البير لامبير في هذه القصة .

وهل أسمح لنفسي بأن ألاحظ أنى لم أجد ما كنت
أنتظر من الآنسة « دى لوك » التى كانت تمثل « دينيز »
فربما نقصها في هذا الموقف شيء من الشباب .

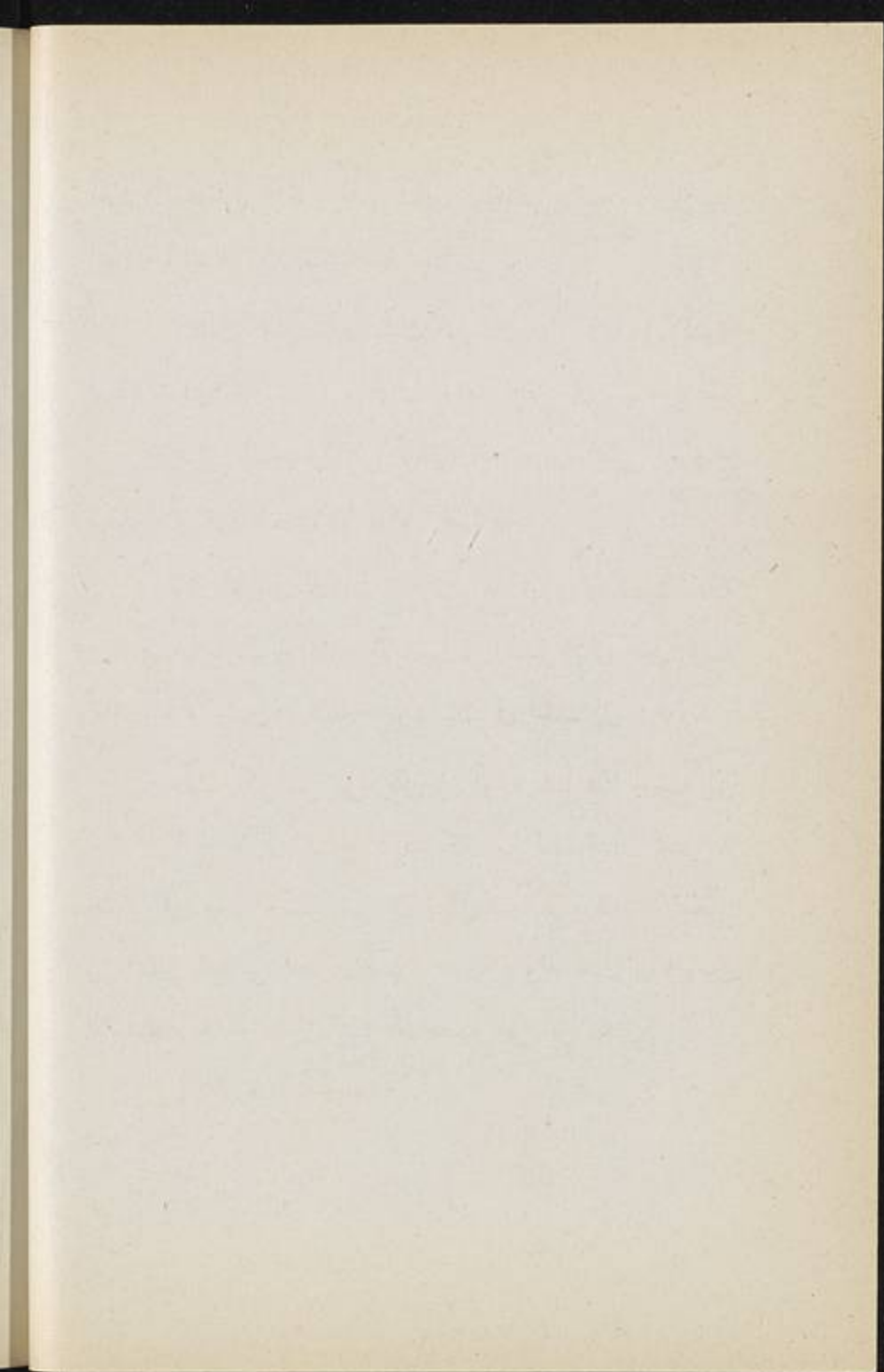
ولست أدري كيف أثنى على السيدة سوزان فرنيل ،

فهى الوحيدة التى أنستنى أنها ممثلة ، ووقفت موقف الأم الرفيعة
المحزونة والزوج الشفيقة المؤاسية حقاً .

وكانت السيدة « مارت مارسان » خلافة فى تمثيلها
« مدام دى توزيت » فكنت تراها تنتقل فى سهولة ويسر
من التمثيل الصحيح المتقن للخليلة الفتانة إلى التمثيل الصحيح
المتقن للأم التى لا تحيا إلا ليكون ابنها سعيداً .

وقد أظهرت السيدة « بلانش جاكسون » مقدرة غريبة
فى موقف « مارت باردان » ولا سيما فى الفصل الثانى حين كانت
تعاب أخاها وتهين « دينيز » وتتحدث فى الحب إلى « فرناند »
ومهما يكن من شىء فإنى إن أوجه تقدماً فإما أوجهه إلى
لجنة البرنامج لا إلى الممثلين ؛ فقد كان من الميسور أن تختار لنا
قصص غير هذه القصص التى إن تكن ممتعة قيمة فقد لا تعطينا
من التمثيل الفرنسى العصرى صورة صحيحة ، وقد تحول بيننا وبين
الاستمتاع ببراعة الممثلين كلهم أو بعضهم على أقل تقدير .

نوفبر سنة ١٩٢٣



روى بلاس

قصة تمثيلية شعرية لفكتور هوجو

كانت لذيذة قيمة تلك الساعات التي قضيناها مساء الاثنين في الأوبرا الملكية ، نسمع أمهر الممثلين الفرنسيين ينشدون ويمثلون شعر أنبغ الشعراء الفرنسيين . كانت تلك الساعات لذيدة ممتعة ، وربما استطعت أن أقول إنها كانت ساحرة تستهوى اللب وتخاب العقل وتنسى النظارة أنهم في ملعب من ملاعب التمثيل يسمعون قوماً يلقون الشعر ، أو يرون قوماً يذهبون ويحيثون ويختصمون ويتفقون ، تنسيهم هذا كله ويخيّل اليهم أنهم في عالم آخر ليس من الميسور وصفه أو تحديده ، وإنما أستطيع أن أقول أنه عالم كله تأثر ، كله ألم ولذة يكادان يتجردان من الحياة المادية . وليس في ذلك شيء من العجب ؛ فقد كان « البيرلمبير » يفسر « فكتور هوجو » .

كانت لذيذة قيمة تلك الساعات . والغريب من أمرها أنها لم تكن لتلك لفكرة فلسفية أو نظرية من نظريات العلم أو قضية من قضايا الاجتماع ، وإنما كانت للفن وحده . كانت لتلك لأن الممثل نابغة في التمثيل ، ولأن الشاعر نابغة في الشعر ، ولأن الشاعر قد استطاع بقوته التي تشبه قوة المردة أن ينتزعك من هذا العالم انتزاعاً ، وأن يصعد بك في سماء من الجمال الفني لا تجد فيها إلا بهجة واستبشاراً ، وإلانة واغتناباً مهما تكن البيئة التي يمر بك فيها الشاعر ، ومهما يختلف على نفسك من لذة وألم ومن أمل ويأس . واستطاع الممثل أن ينفخ في هذا الشعر القوى الحى روحاً آخر قوياً حياً منحه من القوة والحياة حظاً ليس الى وصفه من سبيل .

قلت إن هذه القصة لا تستهويك لفكرة فلسفية أو نظرية من نظريات العلم . وآية ذلك أنك تقرأ القصة من أولها إلى آخرها فيبهرك جمالها الفني ، وجمالها الفني وحده ، وتشهد هذه القصة في ملعب التمثيل فيبهرك نبوغ الشاعر ومهارة الممثل ولا تكاد تفكر في شيء غير هذا . ومع ذلك فإن « فكتور هوجو » كان يعتقد حين وضع هذه القصة إنها قصة فلسفية

تاريخية ، وأنه لم يقصد بها الى الفن وحده وإنما قصد بها إلى
الفن وإلى العلم قصد بها إلى أن يرضى العقل ، وإلى أن يرضى
الشعور . ماذا أقول ! ؟ بل قصد بها إن يرضى الحس أيضاً .
وأستميحك المذرة في أن أتحدث اليك في هذا الفصل عن
« فيكتور هوجو » أكثر مما أتحدث اليك عن القصة نفسها .
فسترى أن الحديث عن القصة ليس بالأمر اليسير ، وإني مهما
أبذل من جهد وأنفق من قوة فلن أظهر على شيء من
جمالها الفنى . وأين السبيل إلى ترجمة الشعر ولا سيما شعر
« فيكتور هوجو ! » وإلى اعطاء صورة صادقة من التمثيل المتقن
ولا سيما تمثيل « البيرلمبير »

أريد إذن أن أتحدث اليك عن فيكتور هوجو فقد
وضع فيكتور هوجو لهذه القصة مقدمة لا تخلو من لذة ، بل لا تخلو
من شيء يحمل المؤرخ الحديث على الابتسام .

« فيكتور هوجو » يرى أن النظارة منقسمون بطبيعتهم
إلى طبقات ثلاث ، تختلف أغراضها حين تذهب إلى دار التمثيل
إختلافاً شديداً .

الطبقة الأولى النساء ، وهن حين يذهبن إلى دار التمثيل
إنما يردن ارضاء العاطفة والشعور ، يردن أن يجدن من اختلاف

الأهواء وتنازعها ، ومن جهاد الشهوات واصطدامها ، ما يؤثر في شعورهن ؛ لأنهن إنما يحيين بالشعور .

الطبقة الثانية طبقة المفكرين . وهؤلاء يريدون حين يذهبون إلى دار التمثيل أن يروا في الملعب خلافاً تستحق أن تدرس ، وأن يفكر فيها الباحث ، وأن يجد من درسها والتفكير فيها علماً جديداً يدلّه على شيء جديد

الطبقة الثالثة طبقة الجمهور أو طبقة العامة . وهؤلاء يذهبون إلى دار التمثيل لأنهم يريدون أن يروا حركة تمثيلية تستهوى أعينهم وتخلب حسهم وتتيح لهم ما هم في حاجة إليه من اللهو .

النساء إذن يريدن أن يتأثرن . والمفكرون يريدون أن يتعلموا . والجمهور أو العامة يريدون أن يلهوا . ولقد يشعر فكتور هوجو بأن في هذا التقسيم شيئاً من الغلو ، فيعتذر ويعترف بأن تقسيمه غير دقيق ، وبأن من الممكن بل من الحق الواقع أن تطلب المرأة شيئاً غير التأثر فتطمع في اللهو وفي لذة العقل ، وأن يطلب المفكر شيئاً غير التعلم فيطمح إلى التأثر واهتزاز العاطفة ، وأن يكون في جمهور النظارة من يجمع بين هذه الخلال جميعاً فيلهو ويتأثر ويفكر . . . ويعترف بهذا ، ولكنه

يلح في أن هذه الخصال الثلاث هي الخصال التي لا بد من أن تشمل عليها قصة تمثيلية متقنة . وهذه القصة التي تشمل على هذه الخصال كلها هي عنده المثل الأعلى في التمثيل ، هي خير من « التراجيديا » لأن التراجيديا تؤثر في الشعور وحده ولهذا يجبها النساء . وهي خير من « الكوميديا » لأن الكوميديا تلذ العقل وحده ولهذا يجبها المفكرون . وهي خير من قصص الهزل والحركة لأن هذه القصص تعجب الحس وحده ولهذا يكلف بها عامة الناس

هذه القصة التي يكلف بها فكتور هوجو تجمع بين هذين النوعين العظيمين من أنواع التمثيل ، أو قل بين هذه الأنواع الثلاثة التي تقدمت الإشارة إليها . ويقول إن « كورنيل » زعيم التراجيديا « وموليير » زعيم الكوميديا يستطيعان أن يعيشا مستقلين وألا يلتقيا أبداً لولا أن « شكسبير » يستطيع أن يمسك أحدهما بيسراه والآخر بيمناه وأن يجمع بين فنيهما جميعاً فتكون قصته تراجيديا وكوميديا معاً .

على هذا النحو تصور فكتور هوجو القصة التمثيلية ، وعلى هذا النحو ، أنشأها . فسترى في هذه القصة التي نحن بأزائها

ما يؤثر في الشعور ، وما يلذ العقل ، وما يلهي . أى إنك سترى فيها ما يرضى الطبقات الثلاث التى تؤلف النظارة فى ملعب من ملاعب التمثيل . فإذا سألت فكتور هوجو عن موضوع هذه القصة أو عن الفكرة التى صدرت عنها هذه القصة أجابك بأن هذا الموضوع يختلف باختلاف الناحية التى تنظر منها إلى القصة . فقد تستطيع أن تنظر إليها من الناحية الإنسانية العامة ، وقد تستطيع أن تنظر إليها من الناحية الأدبية الخالصة . فإذا نظرت إليها من ناحية فلسفة التاريخ فموضوعها عظيم الخطر جداً لأنه يمثل لك حال الدولة الملكية العظمى قد أسرفت على الانحلال ، ثم يعرض عليك صورة جميلة مؤثرة لهذا الانحلال لا عيب فيها إلا أن فكتور هوجو قد أسرف فى تعميمها واتخذها قاعدة . وربما تكون هذه الصورة صحيحة فى أسبانيا ، وربما تكون صحيحة فى بعض الدول الملكية ، ولكن الشئ الذى لا شك فيه هو أنها لا تصلح قاعدة من قواعد التاريخ ولا أصلاً من أصول الفلسفة الاجتماعية . ولكن لا تنس أن فكتور هوجو كان يكتب هذه القصة ومقدمتها فى أوائل الثلث الثانى للقرن الماضى ، أى فى العصر الذى أخذت تظهر فيه فلسفة التاريخ

ظهوراً قوياً وتبسط سلطانها على كل شيء ، وتزعم أنها قادرة على أن تفسر الحياة الإنسانية على اختلاف صورها وأشكالها . أفلست فلسفة التاريخ في أواخر القرن الماضي

فليس عجيباً أن نبتسم نحن مع شيء من العطف لهذه القواعد العامة التي كان يضعها فكتور هوجو متأثراً بهؤلاء الفلاسفة المؤرخين الذين كانوا يعاصرونه ويتسلطون على عقول المفكرين . وليس عجيباً أن ينظر المفكرون . ولا سيما الشبان منهم ، في عصر فكتور هوجو إلى هذه القواعد نظرة المعجب المفتون الذي كان قوى الإيمان بفلسفة « أوجست كومت » و « سان سيمون » وغيرهما من الذين كانوا يريدون أن يفسدوا الحياة الاجتماعية الماضية ويضعوا أساس الحياة الاجتماعية المقبلة .

يظهر أن الدولة إذا أشرفت على الانحلال ظهر الفساد ظهوراً قوياً في أشرفها ؛ لأن الدولة إذا مرضت فرضها في الرأس ، والأشرف رأس الدولة . ولهذا الفساد مظهران : أحدهما الأثرة والإسراف في حب المنفعة والتهالك عليها والتضحية بكل شيء في سبيلها . والآخر الأزدراء والسخرية والتهالك على

اللذة دون تضحية للشرف والكرامة . ويقول فكتور هوجو إن الأشراف ينقسمون أيام فساد الدولة قسمين : قسم شعر بالضعف واستيقن السقوط ، فهو ينتهز الفرصة ويريد أن ينتفع ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وإذن فأموال الدولة ومرافقها نهب لمنافعه يسخرها كما يجب . وقسم شعر بهذا الضعف واستيقن الانحلال أيضاً ، ولكنه شريف نقي ، فيعتزل الأعمال ويفرغ للذاته وأهوائه يستمتع منها بما استطاع أن يستمتع به قبل أن تنزل النازلة .

فأما القسم الأول فهو قسم الدس والكيد والاختلاس والإفساد . وأما القسم الثاني فهو قسم اللهو واللذة والاسراف ، لا يزال بما لديه من المال يتلفه ويبدده حتى يعدم فينحط من منزلته العليا إلى حيث يعايش عامة الناس . كان في القمة فأصبح في الخضيض ، لا يحتفظ من ماضيه ، كما يقول فكتور هوجو ، إلا بشرفه ، واسمه الذي يخفيه ، وسيفه الذي يظهره . وهو يرى القسم الآخر من أقربائه وذوى عمومته مستأثراً بالعزة والشرف منتفعاً بالمناصب وثروة الدولة ، فلا يدفعه ذلك إلا إلى الازدراء والسخرية . وكذلك كانت الحال في أسبانيا آخر

القرن السابع عشر وهو العصر الذي تمثله قصة « رى بلاس » .
وقد يكون هذا صحيحاً من بعض الوجوه ، ولكنى لا أشك
فى أن الشاعر العظيم لا يصور لنا فى هذا الفصل إلا صورة خيالية
هى التى ملكت عليه أمره فحملته على إنشاء هذه القصة . فسترى
أن لهذه القصة بطلين من أسرة واحدة ، كلاهما شريف ، ولكن
أحدهما قد فقد شرفه الخلقى ونحى بكل شىء فى سبيل منفعته ، فهو
يدس ويكيد ويأتمر . والآخر قد فقد مظهر شرفه المادى فهو فقير
مشرّد يعاشر اللصوص والجرمين ، ولكنه محتفظ بخلقه ومروءته ،
فهو لا يؤثر نفسه وإنما يؤثر عليها .

إلى جانب هؤلاء الأشراف ، الذين أخذوا يضعفون وينحلون ،
توجد قوة أخرى عظيمة عنيفة تملؤها الصحة ، ذاقت من الذل ألواناً
ولكنها ينعشها الأمل ؛ فهى تطمح فى المستقبل وتطمح إلى الرقى ،
وهذه القوة هى الشعب ، يقوى ويشتد أيدُهُ فى حين يضعف سادته
وينحلون . فأنت ترى من هذا نفسه أنك فى عصر الثورة الفرنسية ،
وأن الذى يتحدث إليك هو ابن من أبناء هذه الثورة ، متأثر
بالديمقراطية ، قد آمن بها إيماناً شديداً ، واجتهد فى أن يوفق بين
إيمانه وبين عقله ، وفى أن يصطنع مذهب الفلاسفة المعاصرين

له الذين كانوا يتحدثون دائماً عن عصر مضى هو عصر
الارستقراطية ، وعصر مقبل هو عصر الشعب ! .

وما أيسر ما خيل إلى الشاعر أنه يمثل في قصته إلى
جانب هؤلاء الأشراف المنحلين قوة الشعب ناهضة مصعدة في
السماء في حين يهوى الأشراف إلى الأرض . ذلك أنك ستري في
هذه القصة بطلاً باسمه سميت القصة . كان خادماً ، فسيما إلى ما لا يسمو
إليه الخادم ، ومثل بذلك طموح الشعب إلى الرقي والفوز . . .

ثم هناك غير بعيد من هاتين القوتين المتناهضتين قوة أخرى
هادئة باسمه كلها رحمة ورفق ، وكلها عطف وإحسان ، وكلها حب
وجمال ، يكيد لها أولئك ويطمح إليها هؤلاء ، يآتمر بها الأشراف
ويسمو إليها الشعب . هذه القوة التي تمثل الفضيلة ، التي تمثل المثل
الأعلى للحياة الانسانية الصالحة ، هي السلطان ممثلاً في شخص الملكة .
فستري في هذه القصة بطلة هي ملكة اسبانيا الوديدة الرؤوم البائسة ،
يآتمر بها الأشراف ، ويكاف بها ممثل الشعب .

فأنت ترى أن لهذه القصة موضوعاً فلسفياً تاريخياً عميقاً .
ولكني أعترف لك بأنك لا تحس هذا الموضوع ولا تتأثر به إلا
حين تقرأ مقدمة الشاعر . فإذا قرأت القصة أو شهدتها في دار

التمثيل لم تفكر في شيء من هذا إلا في موقف واحد يضطرك الشاعر إلى أن تفكر فيه ؛ لأنه يتحدث إليك في عنف وقوة عن انحطاط أسبانيا وإشرافها على الفناء . ولولا هذا لما فكرت إلا في أن شريفاً ياتمر ، وشريفاً آخر يلهو ، وفتى من أبناء الشعب يجب للملكة فإذا نظرت إلى هذه القصة من الناحية الإنسانية الخالصة رأيت لها موضوعاً آخر أرق من موضوعها الأول ؛ لأن أحد أبطالها وهو هذا الشريف المؤتمر ، يمثل الأثرة العنيفة التي لا تحفل بشيء والآخر ، وهو هذا الشريف الساخر اللاهي ، يمثل الإيثار والانصراف عن المنفعة . والثالث يمثل النبوغ الذي أخذت ناره تصعد في الجب دون أن تحفل بمقاومة ، وهو هذا الفتى الذي يمثل الشعب . أما البطل الرابع فيمثل الفضيلة مهضومة وهي الملكة .

فإذا نظرت إلى القصة من الوجهة الأدبية الخالصة رأيت مظهراً آخر واجتمعت لك فيها صور التمثيل الثلاث ، فرأيت الشريف المؤتمر يمثل « الدراما » وهو هذا النوع من التمثيل الذي لا يخلص للكوميديا ولا للتراجيديا وإنما يؤلف بينهما . ورأيت الشريف الساخر يمثل الكوميديا ، ورأيت ابن الشعب يمثل التراجيديا ، وكانت هذه القصة مجتمعاً صادقاً لصور التمثيل .

أترى أن موضوع القصة وقيمتها يختلفان باختلاف
الناحية التي تنظر منها إلى هذه القصة . ولهذا يمثل فكتور
هوجو الفكرة بالجبل الشامخ يختلف منظره باختلاف المكان
الذي تطلع عليه منه . ثم يرى أن في هذه القصة أشياء كثيرة
وأغراضاً متباينة ، وأن لكل فرد أو فردين من النظارة أن
يأخذ من هذه الأشياء والأغراض ما أراد . ثم يعترف بحقيقة
لا شك فيها ؛ لأنها تخلو من كل فلسفة أو محاولة للفلسفة ،
وهي أن الذي يعنى جمهور النظارة من هذه القصة بنوع خاص
إنما هو هذا الخادم الذي يحب الملكة ويلقى في حبها ما يلقي
من أسى .

هناك شيء في هذه المقدمة لا يخلو كما قلت من لذة
ولا مما يبعث على الابتسام ، وهو تأثر فكتور هوجو بطائفة من
المصادفات ، أو قل بطائفة من الحوادث خليفة أن تؤثر في نفس
العامة فتبعث فيها العجب ، وخليقة أن تؤثر في نفس الشاعر
فتخرج منها الشعر . فقد ولد « شارل كان » سنة (١٥٠٠)
ومات شارل الثاني آخر سلالته سنة (١٧٠٠) ، ثم ورث لويس
الرابع عشر « شارل كان » سنة (١٧٠٠) ، وورث نابليون

لويس الرابع عشر سنة (١٨٠٠) . ففوق هذه الحوادث في هذه السنين التي تفتتح العصور شىء من شأنه أن يبهر العامة ، كما أن من شأنه أن يبهر الشعراء . ويظهر أنه بهر فكتور هوجو فعمله على أن يفكر في أمر هذه المملكة الاسبانية العظيمة فوصل الى هذه الصيغة البديعة وهي أن شمس هذه الأسرة النمساوية التي ملكت إسبانيا قد أشرقت سنة (١٥٠٠) وغربت سنة (١٧٠٠) . وكان من نتائج هذا التفكير في اسبانيا وملوكها وأشرفها آيتان من آيات الفن : الأولى هرنانى تمثل فجر العظمة الاسبانية . والأخرى « رى بلاس » تمثل أصيل هذه العظمة .

وأظن أنه قد حان لى أن أخلص لك هذه القصة . ولن يكون تلخيصها طويلا ، فقد قلت إنى مهما أفعل فلن أظهرك من جمالها على قليل أو كثير .

إذا كان الفصل الأول رأيت دون سالوست وهو رجل شريف من عطاء الدولة وذوى المكانة الممتازة فى القصر ، مغضباً محتقاً ، لأن الملكة قد غضبت عليه فكلف أن يعادى القصر والعاصمة ، وأن يعود إلى أرضه . وهو يريد أن ينتقم

لنفسه ، ويبحث عن وسيلة لهذا الانتقام . فيدخل عليه ابن عم له هو دون سيزار ، كان غنياً فأعدم لكثرة ما عكف على اللهو ثم استخفى ؛ فتحدّث الناس عنه الأحاديث ، فمنهم من زعم أنه ارتحل . ولكنه ما زال في مدريد مستخفياً يعاشر المشرّدين والصوص . فإذا دخل على ابن عمه أخذ هذا يومه ويذكر سيئاته ، فيدفع عن نفسه ضاحكاً معترفاً بآثامه مفاخرأ بها ساخرأ من كل شيء ، لا يشكو إلا الفقر وكثرة الدين . فيعهده ابن عمه بالمعونة وأداء دينه ، بل يعد بأكثر من هذا بأن يجعله عظيماً . ولكنه يشترط لذلك شروطاً لا يكاد يعلمها صاحبه حتى يرفضها رفضاً عنيفاً ملؤه النذير ؛ لأنه يحس منها الاتّمار بامرأة ، فتأبى نفسه هذا ويؤثر حياة الاجرام والفجور على الكيد لامرأة ضعيفة مهما يكن مكانها . ولكن ابن عمه لم يتحدّث اليه في هذا كله إلا ضاحكاً متنكراً ، فما أسرع ما يقنعه بأنه كان يعبت ، ثم يتركه ليأتى له بشيء من المال . وبينما هذا الشريف المدم ينتظر ابن عمه إذ يدخل عليه « رى بلاس » ، وهو خادم دون سالوست . فلا يتراءى الرجلان حتى يتعارفا لأنهما كانا رفيقياً بؤس ، ويقص كل منهما على صاحبه

ما كان من أمره . فإذا هذا الخادم شاب قد أحسن تعليمه ، فكلف بالفلسفة ، وأسرف في هذا الكلف حتى صرفه عن الحياة العاملة ، فتكلف ضرورياً من البؤس والشقاء وانتهى إلى خدمة دون سالوست . ولكن حياته الأليمة ليست شيئاً بالقياس إلى هم يفعم قلبه وينغص عليه أيامه ، وهو يحاول أن يجد له اسماً فلا يوفق . وهذا الهم هو أنه يحب ويفار . يحب الملكة ويفار من الملك ، وهو في كل يوم يقطع فراسخ ليحمل أزهاراً تحبها الملكة ، فإذا كان الليل تسلق سور القصر واندس حتى يضع أزهاره بحيث تستطيع الملكة أن تراها . وقد أسرف في الجنون حتى أضاف اليوم إلى طاقة رسالة غرام لم يمضها . وكان سيده قد سمع لهذا الحديث ، فيدخل هادئاً ويدفع إلى ابن عمه المال وقد أوصى به من يتبعه ، حتى إذا خرج من القصر عدا عليه وحمله إلى البحر فباعه من قرصان أفريقيا . ثم يخلو إلى خادمه فيكلفه أن ينزع ثياب الخادم ويلبس ثياب الرجل الشريف ، ويملي عليه رسالة غرامية ، فإذا كتبها أخذها منه واحتفظ بها ، ثم يملي عليه كتاباً آخر فيه عهد على نفسه بأنه خادم مولاه وأنه سيخلص له أبداً ، يأمره فيمضى الكتاب

ويدفعه إليه . ثم يعلن إليه ما يريد ، فهو يريد أن يجعبه رجلاً شريفاً لما آس فيه من الكفاية والشرف والوفاء . وما هي إلا أن يقبل أشراف القصر فيقدمه إليهم على أنه ابن عمه « دون سيزار » ويوصيهم به خيراً عند الملك .

فإذا كان الفصل الثاني رأيت الملكة قد جلست إلى وصائفها يتحدثن ويطرزن ، وهي تنتقل من حديث إلى حديث ، ولكن السأم عليها ظاهر ، لأن الملك يهجرها منصرفاً عنها إلى الصيد . ثم هي لا تجد في الحياة لذة ولا سبيلاً إلى اللهو ، تريد أن تخرج فتلقها رئيسة قصرها إلى أنها لن تستطيع أن تخرج ما دام الملك غائباً . تريد أن تنظر إلى النافذة فتلقها إلى أن ذلك لا يباح للملكة . تريد أن تأكل مع وصائفها فتلقها إلى أن الملكة يجب أن تأكل وحدها ما دام الملك غائباً . تريد أن تلاعب وصائفها بالورق فتلقها إلى أن الملكة يجب أن لا تلاعب إلا أسرة الملك ، ثم لا تسمح حتى بالحديث فتأمر الوصائف بالانصراف لتخلو الملكة إلى نفسها وتفكر فيما بينها وبين الله حيناً .

فإذا خلت الملكة إلى نفسها فكرت في المسيح والعذراء
ولكن لتستعينها على الحب . فهي تحب هذا الشخص المجهول
الذي يحمل الزهر وهي لا تعرفه والذي ترك لها كتاباً منذ أيام
والذي يظهر أنه خرج وهو يسلق غرفتها فتمزقت ثيابه وبقيت
منها قطعة معلقة وترك أثراً من دمه على الحائط فهي تضم إلى
صدرها كتابة وما بقي من ثوبه ، وتنظر الى هذا الدم ،
وتحاول أن تنصرف عن هذا كله فلا تستطيع . تحب هذا
الفتى ، ولكن حبها غير آثم . ولولا أن الملك منصرف عنها
لما فكرت في غيره .

ثم يدخل عليها الوصائف ورئيسة قصرها وغللمان يحملان
كتاباً على وسادة نخمة ، فإذا بالكتاب من الملك قد حمله إلى
الملكة بعض أتباعه . تتبجح الملكة ، وتحاول أن تقرأ الكتاب
ولكن رئيسة قصرها تلفتها إلى أن التقاليد تقضى بأن تقرأ هي
الكتاب أولاً . تفضُّ الرئيسة الكتاب وتقرأ ، فإذا الملك
يقول : سيدتى الريح عاصفة وأنا أصيد وقد قتلت ستة ذئاب .
ثم يمضى . ولا تسل عما أصاب الملكة من يأس وقد كانت
تنظر كتاب حب . ولكنها لا تكاد تنظر في الكتاب حتى

تدهش . إن الملك لم يكتبه وإنما أمضاه ! وخط الكتاب يشبه خط كتاب آخر تضمنه إلى صدرها . تسأل عن حامل الكتاب ، فتقدم إليها الرئيسة رى بلاس ، وتنبئها بأن الملك قد ألحق هذا الشاب بخدمتها ، فلا تكاد تنظر إليه حتى يظهر عليها الافتتان به .

أما الشاب فاضطرابه لا يخفى على أحد . وفي ناحية من نواحي الغرفة وقف شيخ قوى مفتون بالملكة ، ولكنه يقنع من حبه بالابتسام والتحية . فإذا رأى هذا الشاب واضطرابه وتبين ميل الملكة إليه أراد أن يمتحن الشاب ، فأقبل يئبئته بأن عمله هو أن يقف في هذه الغرفة ، حتى إذا أقبل الملك هذه الليلة وأراد أن يدخل على الملكة فتح له الباب ثم أغلقه دونه . فلا يكاد الشاب يسمع هذا الحديث حتى تأخذه الغيرة ، فإذا رأسه يدور ، وإذا هو يوشك أن يفقد الصواب .

وترى الملكة ووصائفها منه هذا فيقبلن عليه يردن إسعافه فلا تكاد تدنو الملكة منه حتى تتبين الجرح في ذراعه فلا تشك في أنه صاحبها .

ثم يكون بين هذا الشاب وبين ممتحنه الشيخ خصام عنيف

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضى على هذا الشهر ،
وارتقى الشاب حتى أصبح زعيم الدولة ورئيس الوزارة ، والوزراء
يتحدثون عنه ويحقدون عليه وعلى الملكة ، وهم يذكرون منافعهم
فيقتسمون فيما بينهم ثروة الدولة . ولكنهم يجهلون مكان رى بلاس
الذى يسمعون ويراهم دون أن يروه . فما هى إلا أن يقبل
عليهم فيزجرهم زجراً عنيفاً ، هو آية من آيات الشعر الوطنى .
ثم إذا خلا إلى نفسه أقبلت الملكة فهنأته بما سمعت من زجره
للوزراء ، وتحدثا فى الحب وتعاهدا عليه ، وهو سعيد مغتبط
يكاد يجن فرحاً . ولكن أمد سعادته قصير فإن سيده القديم
يدخل عليه فيشبعه لوماً وتأنيباً لأنه أهمله وأغضب عطاء الدولة
حرصاً على منفعة أسبانيا وتديير ثروتها وحياطة كرامتها . ثم لا يزال
به يأمره ويهينه حتى يثور الشاب ، ولكن سيده يذكره من
هو ، ويذكره العهد الذى أعطاه على نفسه ، وينذره بإظهار
الملكة على هذا كله . ثم يأمره أن يلزم بيته غداً ، وأن ينتظر
هناك ما سيصدر إليه من أمر .

يخس الشاب أن هناك اثماً بالملكة فيتضرع إلى سيده

ألا يعرض لحبيبتة بسوء وألا يتخذة وسيلة لهذه الإساءة . ولكن سيده يسخر منه ومن حبيبتة ومن حبه .

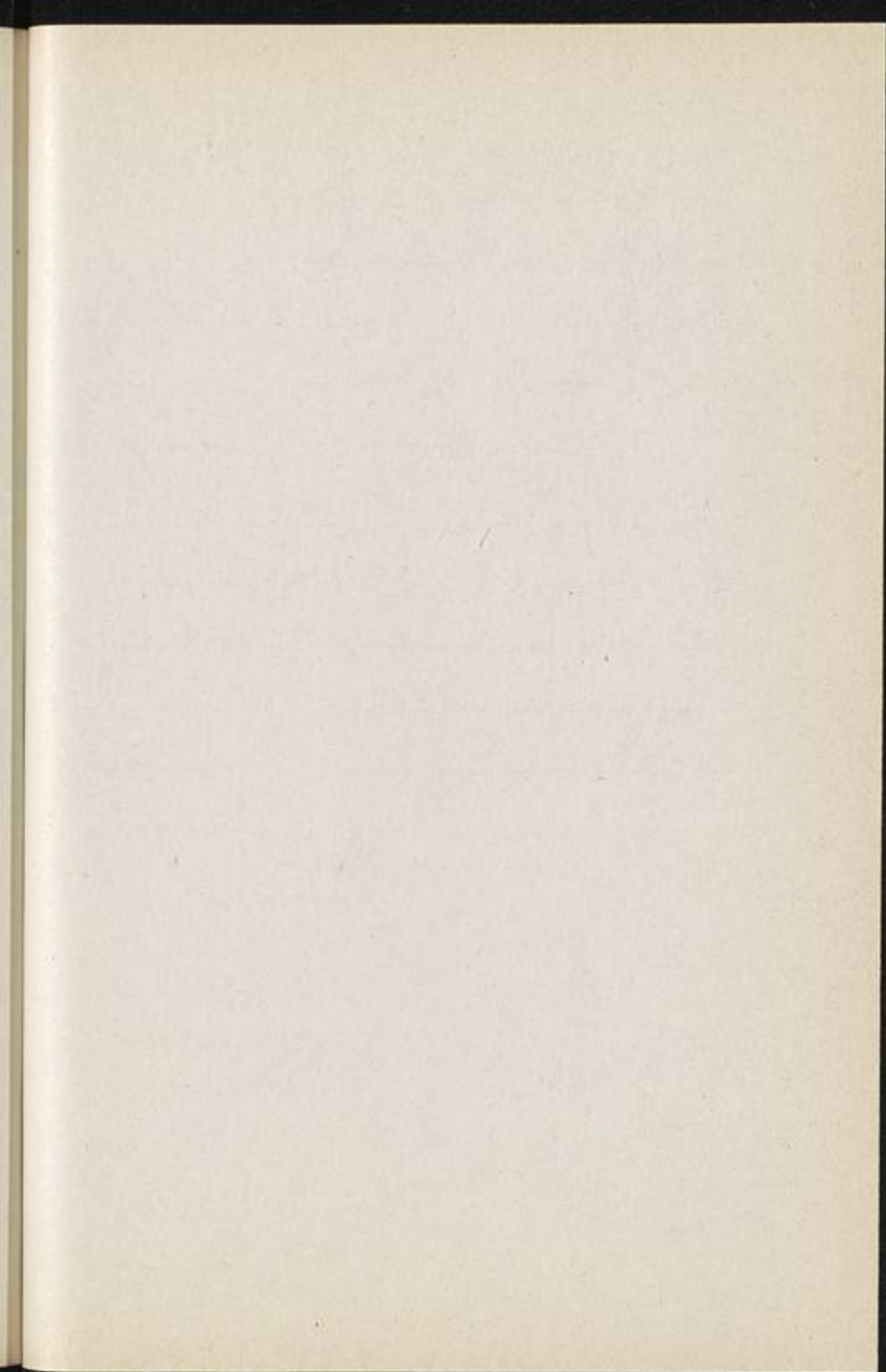
فإذا كان الفصل الرابع رأيت « رى بلاس » في بيته ولهان جزعاً مشفقاً على الملكة ، ثم ينفذ إلى الملكة كتاباً يدعوها فيه ألا تترك القصر أياماً . ويخرج ليسلّي عن نفسه ، ولا يكاد يخرج حتى يظهر في البيت ذلك الشريف المعدم الذي رأيناه في الفصل الأول وقد بيع ، فما زال يجد حتى خلس وعاد إلى العاصمة ورأته الشرطة فتبعته ، فما زال يعدو حتى التجأ إلى هذا البيت وهذا الفصل كله مضحك متقن .

فإذا كان الفصل الخامس رأيت « رى بلاس » قد عاد إلى البيت وهو هادىء مطمئن ؛ لأن الملكة لن تخرج . أما هو فيريد أن يقتل نفسه قبل أن تعرف الملكة حقيقة أمره . وهو في لوعة إذ تدخل الملكة لأن كتابه لم يصل إليها وإنما وصل إليها كتاب آخر هو الذي أملاه دون سالوست على « رى بلاس » في الفصل الأول فأقبلت .

يلج عليها رى بلاس فى أن تعود أدراجها ، ويكاد ينبئها بكل شىء ، ولكن دون سالوست يدخل فيعلن إليها أنها ليست ملكة أسبانيا منذ الآن لأن خلوتها إلى هذا الشاب تكفى للطلاق ويطلب إليها أن تمضى اعترافاً بهذه الخلوة سيرفعه إلى الملك . أما هي فتستطيع أن ترحل مع حبيبها إلى حيث تشاء .

تكاد الملكة تمضى لولا أن رى بلاس ينبئها بكل شىء ، وبأنه خادم لا شريف . ثم تكون بين الملكة وبين دون سالوست خصومة تهان فيها الملكة إهانة شديدة يغضب لها رى بلاس فيقتل مولاه انتقاماً لمولاته . ثم يسألها : أتعفو عنه فتجيبه ناجبة ، ويشرب السم ، فإذا رأت الملكة أقبلت عليه جزعة فأعلنت إليه حبا وعفوها ومات بين يديها .

ديسمبر سنة ١٩٢٣



أنصاف الحرائر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «دوماس الصغير»

دوماس الصغير نَقِلَ^(١) لدوماس الكبير ، ولد له في ٢٩ يونيه سنة ١٨٢٤ من رابطة لم يحلها القانون . وقد ربّي في حجر ظئر ظل عندها بعد فظامه زمنًا . وفي الخامسة من عمره انتقل إلى مدرسة يقوم بأمرها أحد أصدقاء أبيه ، ومنها انتقل إلى مدرسة أرقى ، ثم ترك الدراسة في السادسة عشرة من عمره ، وظل إلى الحادية والعشرين لا صناعة له إلا التنقل بين الأوساط التي يتردد إليها أمثاله من الشبان . وأثقل الدين كاهله في تلك الفترة ، فلم يجد سبيلا للخلاص منه إلا أن يلجأ للتحرير مستفيداً من اسم أبيه . وتلك مصادفة من المصادفات السعيدة التي تفيد صاحبها وتفيد الإنسانية كلها ؛ لأنها

(١) ولد غير شرعي .

مصادفة أصابت روحاً قوياً ، ونفساً طموحاً ، وقلباً كبيراً ،
وعقلاً نامياً ، وخيالاً خصباً ، وأعصاباً حساسة ، وفؤاداً عرف
الآلم فامتلاً بالأمل وأحاطت به عظمة أبيه ، فلم يتردد لحظة في
أنه مصيب من العظمة ما أصاب أبوه .

على أن هذه القوى الكبيرة والملكات الجمّة لم تلق
النجاح لأول ما عاجلت سبيله . ذلك بأن دوماس أراد أن
يسلك في الكتابة طريق أبيه . ودوماس لم يكن صاحب
تلك النفس الضعيفة التي تآتم بأمام لها ، بل كان قوة لذاته .
فلم يفده ضغط نفسه إلا ضياع مجهوده . ورأى هو ذلك رأى
العين ، فأطلق نفسه من كل قيد ، وأراد أن يغامر في الحياة
بكل ما فيه من قوى الحياة . أراد أن يكون سيداً لا أسيراً .
أراد أن ينشر على الحياة المحيطة به لونه نفسه . فكتب لأول
ما كتب في هذا النوع قصته الكبيرة « غادة الكاميليا » ،
وحكى في الفصلين الأولين من هذه القصة صورة نفسه والمحيطات
التي أحاطت به أيام صباه ؛ فكان فيما كتب صادق التصوير
قويه . فلم تلبث روايته حين نشرت أن لقيت ما قدر لها من
نجاح لا يزال إلى اليوم في حدّته ؛ فما تزال « غادة الكاميليا »

غادة على المسرح رغم تعاقب السنين ، وما تزال النفوس تشتاق إليها كما تشتاق إلى كل شيء محبوب .

وصف دوماس في « غادة الكاميليا » بعض صور حياته . وحياته ، كما رأيت ، شاذة ، خارجة على متعارف الناس في الحياة . ولد في وسط غير شرعى ، وعاش في جماعة الأدباء والكتاب والمفكرين . وهؤلاء لا يعيشون عيشاً عادياً أغلب الأمر . لذلك كان ما جاء في غادة الكاميليا خارجاً على تعارف الناس في الحياة ؛ لأنه جعل بطلة روايته إحدى أولئك الجميلات اللاتي ولدن في أحضان الفقر والفاقة ، وفي وسط من الأوساط الوضيعة المقام . ولكن هذه البطلة امتازت بجمال فتان يرفع المرأة إلى ذروة لا يتسامى إليها المال ولا يتسامى إليها الألقاب . وإذن كان الجمال ثروة لذاته ، وكان ثروة طبيعية . ثم إذ كان الفقر وكانت ضعة القدر لا تتنافى مع العواطف السامية ، فقد جعل دوماس لمرجريت حظاً من هذه العواطف يعدل حظها من الجمال . وأسمى العواطف الحب . الحب عاطفة قوية تأسر القلب ، وتتحكم في الفؤاد ، وتدفع صاحبها لكل صور التضحية . انتهت هذه العاطفة بغادة الكاميليا إلى الموت .

هذه القصة الأولى لدوماس لقيت من الناس إعجاباً ؛
ولكنها لقيت كذلك اعتراضاً عليها وتبرماً بها . وكيف
لا يعترض الناس على قصة تضع قواعد الخلق المتعارفة موضع
الشك ! . وكيف يقر الناس رجلاً يرى في بغي موضعاً لفضيلة ! .
وهل قام نظام الاجتماع إلا على الفضيلة القاسية الضيقة التي
تأخذ الناس بخطاياهم فتجزئهم عنها أشد الجزاء ! . ولو أبيع
لأمثال دوماس أن يكتبوا فيسوغوا ما تنكره الجماعة من بعض
صور الحياة لما ظلت الجماعة قائمة قوية متينة الأساس .

كذلك اعترض غير جماعة على دوماس . لكن للكتاب
ورجال الفن ردّهم على هذا الاعتراض ؛ وليس أبلغ من كلمة
دوماس نفسه في التعبير عن هذا الرد . قال :

« أول شرائط العبقرية الصدق . وكل ما كان
صادقاً كان طاهراً . والزهرة العذراء عريانة وهي مع ذلك
عذراء . والاشتغال الذي يحدث عن تصوير عاطفة من
العواطف تصويراً تعبر عنه لغة جميلة وحركة جميلة كذلك
هو أيا كان نوع تلك العاطفة خير ألف مرة من تلك
التدابير الموضوعية التي تطلبون إلينا كتابتها مقابل رضاكم

عنا ، على نحو ما توضع تلك المناقصات التي تقرر في أعمال
البلديات . وتلك الانفعالات أبعد أثراً في تقويم أخلاق
الإنسان بما تدفعه إليه من النظر في أعماق نفسه ومن تحريك
غرائز الطبع الإنساني تحريكاً يدفع بنخبايا الفؤاد إلى الظهور أمام
بصيرته . »

إذن فهؤلاء الفنانون من الكتاب لا يريدون أن يقف
الكتاب عند تكرار ما تعارف الناس عليه في ألفاظ براءة وجل
خلابة ، ولكنهم يريدون أن يبحث في مختلف صور الحياة مما
صادفه ، وأن يحلل ما وقع تحت حسه من هذه الصور ، وأن
يسبر غورها ويحلو حقيقتها ، وأن يعرضها على الناس كما يراها ،
حتى يعرف الناس دخائلها وحتى يحيطوا بكل ما في الحياة ، يجب
ألا يبقى الكثير من زوايا الجماعة مظلمة لا يعرفه إلا بعض الناس
ممن دفعتهم إليها صروف القدر . بل يجب على الذين احتكوا بها
وعرفوا جوانبها وبحوثها أن يطلعوا الناس على كل ما وجدوه فيها .
يجب أن يطلعوهم على الطريف في جماله ، وعلى الطريف في وحشته ،
والطريف في نفعه ، والطريف في ضره . يجب أن تكون
غاية صاحب الفن ، مصوراً كان أو رساماً أو شاعراً أو كاتباً ،

أن يقصد إلى الحقيقة يجلوها مهما كانت هذه الحقيقة مرعبة مخفية . ولكن صاحب الفن إنما يقصد إلى تجميل الحسن وتقبيح القبيح . وإنما يكون ذلك بصدق الوصف صدقاً يجعلك تحس بالصورة وكأنها الشيء انتقل كل ما فيه من المعاني إلى نفسك فأحدث فيها كل ما يمكن أن يحدثه من الانفعالات .

وحياة دوماس الصغير شاذة كما رأيت . هو قد عرف من حياة الجماعة تلك الزوايا المظلمة التي لا يتاح لكثيرين أن يعرفوها ، عرف مرارة إحساس الابن الذي يولد من علاقة غير مشروعة . وعرف صور الحياة التي يلجأ هذا النفل إلى أن يعيشها . عرف حياة الإماء وأشباه الإماء ، وعرف ما يدفع إلى هذه الحياة من النضال بين هبات الطبيعة وتقاليد الجماعة ، وعرف معاذير الأشخاص الذين ينزلون إلى هذا النضال ، وعرف النتائج السيئة التي تعلق بهم منه ، والآثار الخطيرة التي تترتب على ذلك في حياة الاجتماع ؛ فكان من ذلك كله موضع بحث وتفكير عميق عنده .

وقد تطورت استنباطاته في هذه المسائل تطوراً عجيباً . فقد كان في صباه رءوفاً بالمرأة الساقطة ، وكان يجد لها من

جمالها ومن إحاطة الناس بها عذراً عما قد ترتكبه من هفوات .
ورأيه هذا أبداه في « غادة الكاميليا » . ثم إنه تحوّل عن هذا
الرأى بعد ذلك ، ورأى في وجود هذا الصنف من الساقطات
أذى للجماعة وإضراراً بها يجب معه تجنبها ومحاذرتها . ورأيه
هذا أبداه في أنصاف الخرائر .

ثم انتقل إلى أبعد مدى من هذا ، فلم ير مجرمًا من
يقتل المرأة الخائنة . وهذا هو رأيه في قصته « قضية كلنسو »

قد مثلت روايته « أنصاف الخرائر » في دار الأوبرا
الملكية مساء الاثنين الماضي . وكانت واحدة من الروايات
القليلة التي قامت بتمثيلها الممثلة الفرنسية البارعة الآنسة سيسيل
سوريل . وكانت من بين الروايات التي نالت نجاحاً باهراً .
فحق علينا وقد شهدناها أن ثبت أمرها في « السياسة » ، وأن
نعرضها للقراء .

موضوع هذه القصة بسيط كل البساطة . خلاصته أن
جماعة من النساء اللاتي أوتين حظاً من الجمال ، وكن طُمُحًا
(٩)

إلى ما حلّ وحرّم من نعم الحياة ، جماعة من النساء اللاتي يجدن في المدن وفي اجتماعاتها من صور الاستمتاع ما يجيب إليهن اتباع هواهن والخروج على متعارف قواعد الاجتماع اجتمعن . وهذا الطراز من النساء المولعات بنعم الحياة وأنواع الاستمتاع فيها يوجد في كل مدينة من المدائن الكبرى ، حيث لا يعرف الناس بعضهم بعضاً ، وحيث لا يقف الواحد من شؤون جاره على الكثير ولا القليل ، وحيث يتاح لكل أن يحاذي الجريمة أو يقارفها وهو مرتد برداء المجد والشرف . وهو طراز يمتاز بأن النساء من أهله كلهن متزوجات ، ولا يرى واحد لإحداهن زوجاً ؛ لأن زوج واحدة منهن منقطع عنها لوفاة أو لغربة . وهن لذلك في انتظار الزوج لا يأتين المتعة ، وفي يد كل واحدة عصمتها . وعقد هذه المتعة الحب أو دعوى الحب . وهي تدوم ما دام عقدها .

اجتمع إذن جماعة من هذا الطراز من النساء . إحداهن سوزان التي أسمت نفسها البارونة دانج نسبة الى زوج لم تعرفه حياتها ، ولكن اسمه يجعل لها في الحياة بريقاً محبوباً . و « الفيكونتس دفرينير » وإبنة أختها « مارسل » ،

وابنة الأخت هذه فتاة طيبة القلب ، لم تعرف حراماً في الحياة ،
ولسكنها ولدت ، ثم سارع إليها اليتيم ، فلم يكن بد من أن تلجأ
إلى خالتها وأن تبقى في جماعتها . وإلى جانب هؤلاء الثلاث
« فالنتين دسانتيس » وهي زوج من يدعى « فرنان شاربان »
الذى هجرها منذ عشر سنوات أى من بعد زواجهما بقليل ، إذ
ثبت لديه أنها خاتمه . ولم يك عجباً أن تخونه ، فقد ولدت في
بيئة كهذه البيئة التى وصفناها ، وعاشت فيها ثم ابتعدت عنها
زمناً حتى تزوجت ، فكان طبيعياً بعد ذلك أن تعود إلى مثل
أخلاق البيئة التى خرجت منها .

وكانت « سوزان » رفيقة « المركيز تومران » زمناً ،
فحصلت منه على ثروة كانت تدر عليها خمسة عشر ألف فرنك
كل سنة ، فلما هجرته أحبت شاباً من ذوى النبل يدعى « أولفييه
دجانى » زمناً ثم بدا لها أن تهجر هذه الحياة التى عاشتها إلى
الثامنة والعشرين من عمرها وفكرت فى الزواج من شاب مستقيم
غنى كريم المحتد . ولم يكن ذلك الشاب ميسوراً لها بين من
عرفتهم وعرفوها . لذلك انتظرت تتحين الفرص . فلما عاد

« ريمون دمانجك » من أفريقيا وكان جندياً قضى بها عشر سنوات أقبلت عليه وجعلت الزواج منه غايتها وهما .

وإذ خشيت إن هي بقيت معه في بازيس أن يقف على حقيقة أمرها فيتداعى ما تدبره ، فكرت في أن تسافر معه بعيداً عن فرنسا إذا اقتضى الحال . ورأت أن تخبر « أولفييه » بعزمها وبانقطاع ما كان بينهما من صلة وأن تودعه قبل سفرها . وإنها لتدخل إلى بيته فتجد عنده « الفيكوتس دفرنيير » ، وكانت قد جاءت تحدّثه في شأن ابنة أختها « مارسل » التي تهواه ، وتساءله لم لا يتزوجها ؟ . فيرفض ؛ لأنه قد يعتقد بطهارة مارسل ، ولكن أمامه مدام دسانتيس مثلاً حياً على أن المرأة تعود إلى بيتها وإن خرجت منها أول خروجها نقيّة طاهرة . تدخل سوزان عند أولفييه وتخرج دفرنيير ، وتخبر سوزان صاحبها بانقطاع ما بينهما وبعزمها على السفر وبإحلال الصداقة المخلصة محل ما كان بينهما من علاقة قديمة . وإنهما ليتحدّثان إذ يعلن الخادم مقدم المسيو ريمون دمنجك . فتضطرب سوزان ؛ لأنها لم تكن تريد أن يعرف واحداً ممن يعرفونها . وبعد هنيهة من روية تأمر الخادم أن يدخل ريمون . ولا تبقى هي في حضرة الرجلين طويلاً بل تدعهما وتنصرف .

ولم يكن ريمون يعرف أولفيميه من قبل . وإنما جاء من قبل صديق له يتحدث في أمر مبارزة تقع بين صديقه وصديق لأولفيميه . وقد أخذ حين رأى البارونة دنج (سوزان) عنده ؛ لذلك كان حديثه أول الأمر حاداً قاسياً ؛ فكان يقف في سبيل كل حل يتقدم به أولفيميه لمنع المبارزة . وقد أبدى له أولفيميه دهشته عند ذلك ، فسأله عما يمكن أن يكون بينه وبين سوزان من علاقة . فلما علم منه أنها الصداقة ليس غير ، ولما اقتنع حين أخبره أولفيميه بأنه كان يستطيع أن يخبئها في أى غرفة من غرف الدار لو أن في الأمر شيئاً ، اتفق على ما ارتآه أولفيميه من منع تلك المبارزة ، وأصبح الرجلان صديقين . وأفضى ريمون إلى أولفيميه بعزمه على التزوج من سوزان ، وبما بينهما من حب جاوز حدود العقل . هنا ينتهى الفصل الأول .

فإذا كان الفصل الثانى فقد اعتزم أولفيميه أن يحول دون زواج سوزان بريمون . وهو يزعم خلال القصة كلها ، ويتابعه فى زعمه نقاد الرواية أنه أخذ نفسه بذلك كشرىف يريد أن

يحقّق لصديق شريف معنى الشرف ، وأن يجبط أباطيل هذه المرأة الساقطة . وقد يكون ما يزعمه أولقييه من ذلك صحيحاً . قد يكون الدافع له على العمل للحيولة دون هذا الزواج هو هذه الصداقة الجديدة التي تمت بينه وبين ريمون وحبّه لطبقة الأشراف التي هو منها . ولكني أحسب أن ثمت دافعاً آخر . فقد كان أولقييه يحب سوزان ، وهو لم يزل يحبها . وهي التي أرادت أن تقطع ما بينه وبينها من حب . وهي التي أرادت أن تستبدل به رجلاً آخر . وهي التي أعلنت ذلك إليه حين أخبرته بعزمها على السفر ، وحين أفضى إليه صديقه الجديد بأنه سيتزوج من سوزان . فالغيرة التي حركت نفسه والتي حركت عوامل الحقد على سوزان لأنها ستتركه وحرصه على أن تبقى إلى جانبه وأن لا يستأثر بها رجل سواه . هذه الغيرة وهذا الحرص هما اللذان دفعا إلى نفسه هذا العزم ، وهما اللذان حرّكاه بقية فصول الرواية ، وهما اللذان هوّنا عليه المخاطرة بحياته في آخرها .

اعتزم أولقييه إذن أن يحول دون زواج سوزان بريمون . وقد تهيأت له أول فرصة لذلك حين كان معه في منزل الكونتس دفنير ، وكانت هناك سوزان ، وفالنتين وسانتيس ،

ومارسل . فقد جعل يقص على صاحبه من حياة أولئك النسوة
ويصف له طرازهن ونوع حياتهن وصورة مجتمعهن هذا المجتمع
الوہیء الذى تهوى إليه كل زوجة لا تجرص على الوفاء لزوجها ،
والذى ترتفع إليه كل ساقطة عافت الهوى وسيلة للكسب
وتعلقت به سبباً للاستمتاع بلذات الحياة . صور له هذا المجتمع ،
وأشهبه ما يدور من حوار بين السيدات فيه . وقد تنهت
سوزان إلى الحديث فأسرعت إلى منعه . ولما سألت أولئقيه
كيف يعدها الصداقة بالأمس ثم يطعن عليها اليوم — ولو بالطنن
على بيتها — أجابها بأن الصداقة لا تمنع الرجل من المحافظة
على شرف الشريف ؛ وكذلك أعلنت الحرب بينهما .

على أن هذا الحديث الذى جرى بين أولئقيه وريمون
لم يفتح عين هذا الأخير بعد ، إذ غشى عليها الحب الذى نصبت
سوزان له حباته ، وكانت لا تقتأ تغذوه بدعوى الحب من جانبها
وبما تظهره من عواطف ملتبته . وكل ما فعله أن خاطب سوزان
فيا قاله صاحبه : فكفى أن تظهر الصد والعدول عن فكرتها
ليعود هو إليها خاضعاً ذليلاً .

لم يغير ذلك من نفس أوفقييه ولم يثنيه عن عزمه .
بل تراه في الفصل الثالث أكثر إمعاناً في تنفيذ ما اعتمزه ،
وأشد إقداماً على اقتحام كل العقبات . تراه وقد منعت سوزان
عليه بابها يتهمز فرصة دخول ريمون فيستأذن هو الآخر ويتساءل
عن ربة البيت ، فيعلم أنها خرجت ، فيهمم بالانصراف ويطلب
إلى ريمون أن يبلغها أنه كان يحمل إليها رسالة . ولكنه يعود
فيخاطب ريمون في أمر سوزان من جديد ويطلب إليه أن يسألها
عن زوجها الأول . فإذا انتهى من حديثه وهم بالانصراف سأله
صاحبه عن الرسالة التي يريد أن يحمله إياها لخطوبته . فيتردد ،
ثم يسلمه الرسالة بعد أن يأخذ عليه عهداً ألا يفضها ، وبعد أن
يخبره أنها خطابات غرام كانت ترسلها إليه سوزان . هنالك يغلى
الدم في عروق ريمون ، وينتظر عودة سوزان بصبر ذاهب .
فإذا عادت قدّمت إليه شهادة ميلادها وعقد زواجها وشهادة
وفاة زوجها . وأنت لاشك تعلم أن هذه الأوراق الرسمية الثلاث
مزورة كلها . ولكن الرجل الساذج الذي قضى عشر سنوات
في أفريقيا الذي يحسب أن كل برّاق ذهب لا يلتفت إلى هذا
التزوير ، ويضعف أمام هذه الماكرة الماهرة ، ولكنه يظل

مأخوذاً بفكرة الخطابات التي تبودلت بين سوزان وأولثييه ،
فيطلب إلى سوزان أن تكتب خطاباً بخطها ثم يحضر الرسائل
ويفضها ويقارن الخط ، فإذا كل شبهة ساقطة ؛ إذ ليس بين
خطها وخط هذه الرسائل شبه . حينذاك يقتنع ويستغفر لها عن
سوء ظنه بها ، ويكرر لها أحر عبارات الحب وأقواها .

وعاد أولثييه وقابل سوزان ، فسخرت منه وأخبرته بأنها
عرفت كيف أسلم رسائلها ريمون ، وأنها لم تكن مكتوبة بخطها ،
وإنما كانت تملئها على مدام دسانتيس كما أخبرته بأنها قدمت
شهادة ميلادها وعقد زواجها وشهادة وفاة زوجها ، وتحدثه إن
استطاع أن ينقض ما أبرمت .

فلما كان الفصل الرابع عاد أولثييه إلى حيث صديقه
ورفيقته ، وذكر ريمون ما عرفه من أمر الخطابات ومن تزييف
الأوراق التي قدمتها سوزان ، فطرده ريمون . ولما لم يخرج اتبها
إلى أنهما سيتبارزان . فلما رأت سوزان عظيم الخطر الذي يتهدد
رفيقها القديم وزوجها جاهدت تريد أن تمنع هذه المباراة ،
فتوسلت لريمون فلم يُجِدْ توسلها . وأخيراً قابلت « مارسل »

وأخبرتها بما سيكون . ومارسل ، كما رأيت ، مولعة ولهي بأولثييه ، فذهبت إليه أول الفصل الخامس تريد منعه . فأبدى أنه نازل على إرادتها . لكنه تركها وخرج من باب آخر . وجاءتها سوزان فذكرت لها أن أولثييه الذي يبدي أنه يحبها يقول لها هي أيضاً أنه يحبها . فترددت مارسل في تصديق الخبر ، فطلبت إليها أن تخرج وتدع لها المكان . وعاد أولثييه من المباراة جريماً . فلما رأى سوزان ذكر سابق حبه ولاعج غرامه . وعند ذلك دخل ريمون فوجدهما على هذه الحال ، فانفتحت عينه وأيقن أن ما ذكره أولثييه له عن سوزان صحيح ، فألقى إليها بعقد لها . فأخذته فمزقته مغضبة حانقة أن أخفق كل ما كانت ترجوه . ودخلت مارسل ، فاستقبلها أولثييه في حفاوة وترحاب ، وطلب يدها ، ومدحها له ريمون ، وتم زواجهما . وانتهت الرواية .

هذه القصة — أنصاف الحرائر — هي الدور الثاني من تطورات تفكير دوماس الصغير في أمر أنصاف الحرائر . فقد رأيت أنه كان يعطف عليهن حين كتب « غادة الكاميليا . »

فلما كتب أنصاف الحرائر كان قد بدأ يتحدث عليهن . وقد تم تطوره حين كتب « قضية كلنسو » فإنه جعل موضوعها داتراً حول امرأة تزوجت ، فخانت زوجها ، فقتلها زوجها وأبرأه القضاء .

ولعلك ترى مافى قصة أنصاف الحرائر من بعض أوجه النقد . فهذا جانل ينعى على مدام دسانتيس سيرها ، ويرد سوءه إلى نشأته ، ويجعل ذلك سبباً لرفض التزوج من مارسل أول الرواية ، ثم هو يعود فيقبل زواجها في آخر الرواية ولم يحدث ما يدعو إلى تغيير رأيه . وهذا دمانجك يظل الأيام والأسابيع تتتالى عنده الشبهات ، فإذا الحب قد غشى على بصره فلا يرى . وهذا قد لا يكون عيباً ، ولكن هذه سوزان اعترمت السفر حتى لا يقف أحد من أمرها على شيء . وهى أشد ما تكون رغبة في الفرار بعيداً عن أولقييه جانل . وهى تطيق هذا الفرار ولكنها على الرغم من ذلك تبقى ، والحرب بينها وبينه حرب ضروس لن تنتهى إلى حين .

لكن مواضع النقد هذه ليست ذات خطر إلى جانب قيمة الرواية وقوتها . وقد وضعنا دومانس أمام مشاهد بلغت من

الإبداع في الفن غاية . مشاهد ليست مما يراه الكثيرون في الحياة ، وقد يرى بعض الخلقين عرضها في غير مصلحة الأخلاق . ولكنها مشاهد تمثل حياة طائفة كبيرة من أهل المدن ، وقد يكون من الخير أن تعرض حتى يعرف الناس موضع المرض فيتقوا جرثومته .

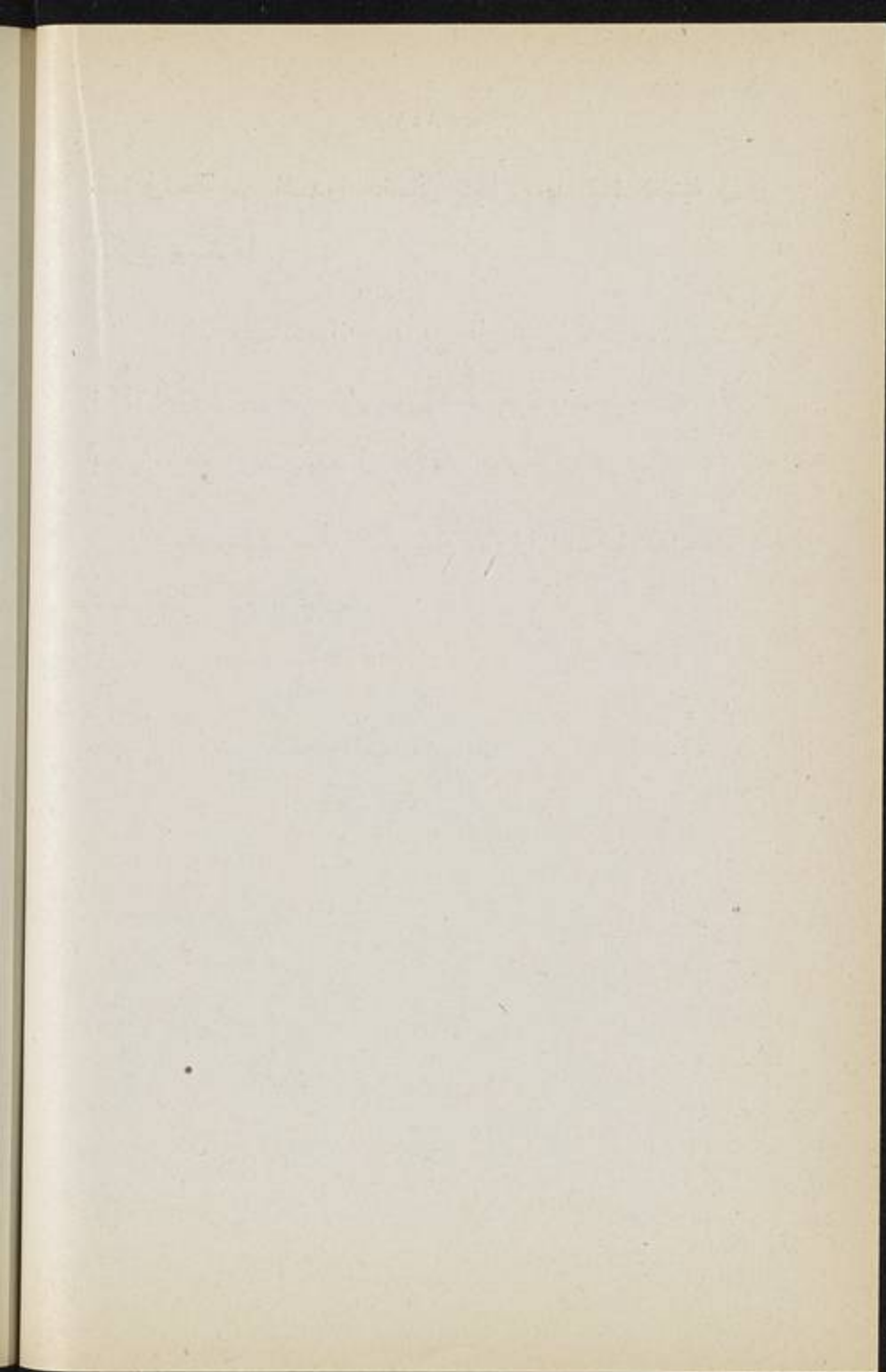
وقد مثلت جوقة الكوميدي بالأوبرا الملكية هذه القصة خير تمثيل . ولسنا بحاجة للثناء على مدموازل سيسيل سوريل في تمثيلها دور « سوزان » فقد كانت هذه الحرب بينها وبين أوليئيه وحرصها على أن تصل إلى الفوز وإلى تحقيق ما اعتزمته من الزواج من ريمون دمانجك تحتاج إلى قوة في بعض المواقف ورقة في البعض الآخر وضعف في مواقف أخرى . فلم يكن صوت سوريل وحده هو الذي يعبر عن القوة وعن الرقة وعن الضعف ، بل كانت مقدرتها في العبارة راجعة إلى كل كيائها وإنك لتستعبر في بعض المواقف حين تراها ، وقد رأت نفس ريمون يداخلها الريب ، قد صارت كلها حياً واستعطافاً ورقة وضعفاً ، ثم إذا بك تراها أمام أوليئيه وقد ملكت كل وسائل

القوة في حالة من الهدوء النفساني تتجلى معها القوة القاسية في
سكيتها وسخرها .

وقد نفتت مدموازل سوريل على الرواية من روحها قوة .
وكان المثلون إلى جانبها يزيدون هذه القوة وضوحا وجلاء لولا
بعض مواضع كانت تبدو في الأدوار الثانوية .

وقد مثلت جوقة الكوميديا بالأوبرا الملكية هذا العام
تمثيلا حاز أكبر الإعجاب .

ديسمبر سنة ١٩٢٣



« خياطة لونيڤيل »

للكتاب الفرنسى « الفريد سڤوار »

لا تقل إنها امرأة ذكية حادة الذكاء ، ولكن قل
إنها جذوة من الذكاء . ولا تقل إنها ماهرة فى الفن ،
ولكن قل إنها الفن يحيا ويتحرك . فأنت إذا شهدتها لم
تستطع أن تفرق بين الذكاء والذكى ولا بين الفن والفنان ،
وإنما أختلط عليك الأمر اختلاطاً ، ثم اقتنعت بأنك تشهد الذكاء
والفن يضطربان ويترددان فى ملعب التمثيل فيستأثران بهواك ،
ويخلبان لباك ، وينسيانك نفسك وما يحيط بك ، ويقصران حياتك
على ما تسمع وعلى ما ترى . فأنت معلق بألفاظ الممثلة ، وأنت معلق
بحركاتها . وغريب جداً ما تشعر به حين يلقى الستار . وتعود الى نفسك
فتشعر بها وتفكر فيما يحيط بك . وأنا زعيم بأن هذه العودة لن تكون يسيرة

عليك ولا محبة اليك ، فستظل بعد أن تقارق ملعب التمثيل أسير
الملعب ، وستسمع صوت الممثلة ، وسترى حركاتها ، وستحب هذا
الأسر وترغب فيه ، وتكره أن تصرفك عنه صارفات الحياة .
ستتصل نفسك بما سمعت لأنه جميل . وستتصل نفسك بما رأيت
لأنه جميل . وستستعذب هذا الاتصال وتستتقل الحديث الذي
يصرفك عنه وتبهرم بغير الحديث من شؤون الحياة التي تضطرك
إلى أن تفكر في غير ما رأيت أو سمعت . وستمنى حين تخرج
من ملعب التمثيل أن تخلو الى نفسك ، أو أن تخلو إلى ما سمعت
وإلى ما رأيت ، أو أن تخلو ليتاح لك أن تستعذب الفن
وتسيغه ، وأن تستعذبه وتسيغه الى غير حد . وبم يمتاز الجمال
الفنى ؟ وبم يمتاز أثر الجمال الفنى فى نفسك ؟ أليس يمتاز بأنك
لا تنال منه حظاً إلا استعذبتة وتمنيت منه المزيد ، ومهما أتيت
لك منه فلن يثقل عليك ، ولن تنصرف عنه نفسك ، ولن
تزداد إلا اتصالاً به وفناء فيه !

أنا زعيم لك بهذا كله إذا شهدت هذه الممثلة فسمعتها
تقول ورأيتها تلعب . وقد أطيل القول فلا أقول شيئاً . وقد
أتكلف تخير الألفاظ فلا أجد ما أودى به شيئاً مما أجد فى

نفسى . من ذا الذى يستطيع أن يصور بالألفاظ ما يحس فى نفسه من جمال الفن ! ومن ذا الذى يستطيع أن يترجم الموسيقى ترجمة صادقة الى الكلام ! أستطيع أن أقرأ كتاباً من كتب العلم أو الأدب أو الفلسفة فأعجب به ، ثم أنقل اليك خلاصة ما قرأت ، وأصف لك لذتى بما قرأت ، وأشركك فى هذه اللذة . ولكنى أعترف ، وأظن أن غيرى من الكتاب يعترفون ، بالعجز كل العجز عن أن نشهد آية من آيات الفن ثم ننقل اليك منها صورة صادقة أو قريبة من الصدق ، ثم نصف لك لذتنا بهذه الآية واغترباطنا بها ، ونشركك فى هذه اللذة وفى هذا الاغترباط . نحن عاجزون عن هذا العجز كله ؛ لأن استعدادنا للشعور أعظم من قدرتنا على الوصف ، ولأن الألفاظ التى أتيتنا لنا حين نحاول الوصف أقل عدداً وأضيق نطاقاً من هذه العواطف والأهواء التى لا تحصى والتى تثيرها فى أنفسنا آيات الفن على اختلافه . وإذا ضاقت اللغة بالعلم والفلسفة فهى بالفن أشد ضيقاً . وأحسب أن اللغة لم تخلق لتعبر عن الفن . وإن تكن قد خلقت لتعبر عن الفن فأنا أعتقد أن بينها وبين تحقيق هذه الغاية التى خلقت لها أمداً لا يزال بعيداً .

لقد رأيت السيدة سيمون في مواقف مختلفة الاختلاف كله ، متباينة أشد التباين ، وحاولت أن أفاضل بينها في هذه المواقف المختلفة المتباينة وأفضلها على نفسها في موقف دون موقف ، فما وجدت الى ذلك سبيلا . ومع ذلك فإن اختلاف هذه الموقف عظيم ، عظيم بحيث لا تكاد تتصور أن يوفق فرد إلى إتقانها جميعاً . انظر إلى هذه الممثلة في موقف كله لعب وفتنة ، وكله لذة وهو ، انظر اليها فإذا هي تأخذ بحظها من ذلك موفوراً كأنها لم تعرف في حياتها إلا اللعب والفتنة وإلا اللذة واللهو ، وكأنها خلقت لهذا الموقف ، وخلق لها هذا الموقف ! ولكن احذر أن تحكم عليها مثل هذا الحكم ، فما أسرع ما تراها قد انتقلت من هذا الموقف الى أشد المواقف بعداً عنه ومناقضة له : إلى الحزن والكآبة ، إلى البؤس العميق الذي امتزج باللحم والدم وصور النفس على صورته ، فإذا هي بؤس وكآبة . تنتقل الى هذا الموقف في سرعة مدهشة ، فانظر اليها فيه فستشعر بأنها ليست أقل اطمئناناً اليه وقدرة عليه وبراعة في تمثيله مما كانت في الموقف الأول . ثم دع هذين الموقفين وانظر اليها في موقف آخر ، في موقف يزدري اللذة واللهو ، كما يزدري الحزن والبؤس . في موقف

يشرف منه الإنسان على الحياة ولذاتها وآلامها إشراف الفيلسوف
يزدريها ويبتسم لها ابتسامة لا تستطيع أن تتبين أهي ابتسامة
سخط أم رضا . انظر إليها في هذا الموقف فستضطر إلى الحكم
بأنها قد خلقت له وخلق لها . وليس العجب أنها تستطيع أن
تتقن هذه المواقف وتبرع في تمثيلها فحسب ، وإنما العجب كل العجب
أنها تستطيع أن تنتقل بين هذه المواقف في غير هدنة ولا مهلة
وفي غير تكلف ولا تصنع .

ماذا أقول ! هي إلى التأثير فيك أسرع منك إلى
التأثر بها . فبينما أنت مفرق في الضحك لأنها بعثتك على
الضحك ، وبينما أنت في حاجة إلى شيء من المهلة لتقضى العجب .
وتأخذ بحظك من هذا الضحك ، إذا هي مفرقة في حزن لا أول
له ولا آخر ، وإذا هي اختطفتك في عنف وخفة من الابتهاج
والسرور إلى الابتئاس والعبوس ، وإذا أنت لعبة في يدها ،
تضحك لأنها أرادت أن تضحكك ، وتبكي لأنها أرادت أن
تبكيك ، وقد نسيت نفسك فما تدري لم تضحك ولم تبكي !
وكيف تنتقل من ذلك الضحك إلى هذا البكاء !

شهدتها تمثل قصتين : إحداهما التي أحدثك عنها اليوم .
وأعترف بأن هاتين القصتين في نفسيهما لم تعجباني ولم تتركاني في نفسي
من الأثر القوي ما كنت أنتظر أن تتركاني ، ولكنني مع ذلك لم
أعجب قط بقصة تمثيلية قرأتها أو شهدتها إعجابي بهاتين القصتين حين
شهدتهما في الأوبرا الملكية ، لا أستثنى من ذلك إلا قصة
« بيرنيس » لراسين حين كانت تمثلها « بارتيه » ، وإلا
قصة « الحب » لبول جيرلدي حين تمثلها « بييرا » . لا أستثنى غير
هاتين القصتين ، على أني شهدت قصصاً تمثيلية كثيرة وحظها من
الإبداع الفنى عظيم ، وشهدت ممثلات كثيرات فيهن « سيسيل
سوريل » ونظائرهما .

وقد أستطيع أن أحدثك فلا أفرغ من الحديث دون
أن آتى بشيء مما أشعر به من الحق للسيدة « سيمون » فلأرحك ،
ولأرح نفسي من هذا العناء غير المفيد ، ولأنخلص لك القصتين
تلخيصاً موجزاً .

« خياطة لونيثيل » قصة غريبة في نفسها ، كلها أشياء
غير منتظرة . ويكفي لإثبات ذلك أن تعلم أن التلخيص الذي وضع

لها ليقراء الجمهور قبل التمثيل لا يشتمل إلا على خلاصة الفصل الأول ، فأما الفصول الثلاثة الباقية فقد أشير إليها بأصفار ، وهذا يبين مقدار اعتماد الكاتب على المثلة وأمله فيها ، فقد أنشأ القصة لها وحدها .

يرفع الستار فإذا مطعم من مطاعم باريس الفرحة المبتهجة يختلف إليه آخر الليل أولئك الذين استمتعوا بما أتيج لهم من اللذة في ملاعب التمثيل والموسيقى ، فلما قضوا حظهم من ذلك أقبلوا يأكلون ويشربون ويتمون الليل في لهو ولعب . وهذه الليلة من ليالى الرقص فى الأوبرا . فالزدهون على هذه المطاعم كثيرون تضيق بهم غرفاتها الخاصة والعامه . وقد أقبل فيمن أقبل على هذا المطعم فتى فرح مبتهج ، ومعه امرأة جميلة فتنته ، أو قل إنه فتنها ، أو قل إنها تعبت به . هذا الفتى هو « بيير رولون » وهذه المرأة هى « ايرين سلفاجو » كانت فى أحد ألواج الأوبرا ، فلحظت هذا الشاب فأشارت إليه ، فسعى إليها ، فأقبلا يتان ليلتهما فى اللهو بهذا المطعم . فلا تكاد تسمع حديثهما حتى تتبين أن هذه المرأة أجنبية ، وحتى تتبين من صوتها وحديثها أنها غامضة شديدة الغموض ، مبهمه إبهاماً لا حد له ، شديدة

الانتقال من طور إلى طور في عبث وتحكم ، مالكة أمر نفسها ،
لا تأكل ولا تشرب ولا تلهو إلا بمقدار ما تريد . أما الفتى فعلى
عكس هذا كله ، سمح ، طلق ، سهل القياد ، لم يكد يخلو إلى
صاحبه وتدفعه إلى الحديث حتى أخذ يتحدث ويتحدث ويقول
عن نفسه ما يقال وما لا يقال ، وهو نشوان ، ثم لا يلبث أن يسكر
ويندفع في القول . وقد زعم لصاحبه أنه يحبها ويهيم بها حباً وهيئاً
لا عهد له بمثلهما ، وأنه حر لا يقيد به حب آخر . ولكن نظرة في
صحيفة من الصحف تظهر صاحبه على أنه سيتزوج غداً ، أو قل
سيتزوج ظهر اليوم ، فنحن في الساعة الثالثة صباحاً . هذه المرأة
روسية معروفة ، تلعب في السينما توغراف ، فإذا علمت أمر صاحبها
وإنه سيتزوج بعد ساعات ، وعلمت من قصته في ماضيه أنه كان
ضابطاً في الجيش وأنه رابط في مدينة لونيثيل غاظها خداعه وكذبه
وإخفاؤه أمر الزواج ، فأضمرت في نفسها شيئاً ، فأقبلت عليه
تلاطفه وتلهيه وتكلف الشرب وتعريه به ، فيشرب حتى يفقد
صوابه ، وحينئذ تدعو سائق سيارتها وتكلفه أن يحمل هذا
السكران إلى لونيثيل وأن يعزله في قهوة هناك بالقرب من القلعة
ثم يعود . وهي إنما تريد بذلك أن تقوت عليه ميعاد الزواج .

فإذا كان الفصل الثاني رأيت صاحبنا في باريس وقد مضى على قصته هذه ستة أشهر. وكان مالياً يعمل في المصارف والبورصة ، فما زالت به صاحبتة الروسية هذه حتى بدد ثروته وانصرف إليها عن كل شيء . وماهى إلا أن أسرع إليه الإفلاس ففقد ما كان عنده وأضاع ثقة الناس به ، واعتزم أن يترك باريس وأن يذهب إلى حيث تقيم أمه في الأقاليم . وهو مع ذلك كلف بهذه المرأة التي حملته كل هذه الأعباء دون أن يظفر منها بشيء . كلف بها حتى إنه ليرجو من خادمه أن يبعث إليها بأزهار ، وأن يدفع ثمن هذه الأزهار من دين له على سيده . يخرج الخادم ولكنه يعود مسرعاً لأنه يرى هذه المرأة مقبلة . فلا يكاد ينبىء سيده بمقدمها حتى يهيم هذا فرحاً ، فيأذن لخادمه في أن ينصرف ، ويلهو طول يومه ، يريد أن يخلو إلى صاحبتة . فإذا دخلت عليه أنها ولامها لوماً عنيفاً ، فتظهر له أنها قد أقبلت لتتيله ما يريد ، وأنها إنما امتحنته طول هذه المدة فاطمأنت إليه ، وأقبلت تريد أن تعيش معه . ولكنها جائعة فهي تريد أن تأكل ، وعطشى فهي تريد أن تشرب . وقد انصرف الخادم ، فصاحبنا مضطر إلى أن يذهب

ليحمل طعاماً وشراباً . ولكنه لا يكاد يخرج حتى تتغير هذه المرأة
تغيراً غريباً ، فإذا شكها ولباسها أبرد الأشياء عن شكها ولباسها
حين دخلت . ويعود صاحبها ، فلا يكاد يراها حتى يدesh
ويبحث عن صاحبه ويناديها ، فتجيبه هذه المرأة في حركة جنونية
وصوت ملامم لهذه الحركة حتى يتخيل إلى الرجل أنه أمام مجنونة .
وهو حائق على هذه المرأة لأنه لا يجد صاحبه . وما هي إلا دقائق
حتى يتبين أمر هذه المرأة التي أمامه ، فإذا هي امرأة من لونيقييل
كانت بنت رجل يبيع التبغ . وعرفها صاحبنا حين كان مرابطاً في
هذه المدينة فأغواها ثم هجرها ، وعرف أبوها الأمر فطردها . وكانت
حاملًا فولد لها طفل لم يلبث أن مات . وقد مضت على هذه القصة
أعوام طوال حتى نسيها صاحبنا نسياناً تاماً . أما هي فلم تنسها ولم
تفكر إلا في هذا الفتى الذي أغواها وهجرها ، والذي تحبه هي حباً
شديداً وتريد أن تلاقه . عاشت وحدها ، فاتخذت حرفة الخياطة ،
ثم انتقلت إلى باريس فوصلت إلى ملاعب السينما توغراف ،
ولكنها لا تقص على صاحبنا تفصيل أمرها وإنما تنبئه منه بما يكفي
فإذا علم بأنها كانت حاملًا وأنها فقدت طفلها ذكر ماضيه وماضيها
ورق لابنها وعطف على الفتاة ، وسألها ماذا تريد ، فتنبئه بأنها

اقتصدت وأن لديها ١٠٠٠٠٠٠ فرنك تريد أن تثمرها وهي تأتمنه على هذا المقدار لأنه يعمل في المصارف . صاحبنا سعيد بهذا ؛ لأن هذا المال سيصلح من أمره وسيرد إليه ثقة الناس به ، فهو مغتبط ، وصاحبته هذه كلفة به ، فهي تعرض عليه حبها وتعزيتها ، وما أسرع ما يطمئن إليها الفتى فيقضيان الليل معاً ! . . .

فإذا كان الفصل الثالث أصبح الفتى فلم يجد صاحبته ، فيفترض أنها خرجت . وهو سعيد لأنه سيصلح من أمره المالى سيبقى في باريس وسيستأنف عمله . ولكن الروسية تقبل مغضبة ، فترزم له أنها بينما كانت منتظرة حين ذهب ليأتى بالطعام دخلت امرأة اسمها « أناتريبييه » وعرفت هي أن هذه المرأة صاحبته فانصرفت مغضبة . يجتهد صاحبنا في إقناعها بأن هذه المرأة ليست صاحبته الآن ، وإنما عرفها قديماً حين كان في الجيش وهجرها منذ أعوام طوال ، وقد أقبلت إليه لحاجة ! :

ولكنك قضيت الليل معها ! . . . وما تزال به حتى يعترف ، ولكنه إنما قضى الليل معها فرقت له وواسته ثم عرضت نفسها عليه . ثم لا تزال به صاحبته حتى تكرهه على أن يصف

لها ليلته وصفاً مفصلاً فيفعل . . . ولكنه يكذب كثيراً ، فيصف نفسه بالبراءة ، ويصف صاحبتة بالمكر والخديعة . وقد لا يكتفى بذلك فيذم جسم صاحبتة ذماً يغضب هذه المرأة لأنها هي بعينها . حتى إذا أتم لها وصف الليلة أظهرت عفوها عنه وسماحها له ولكنها تطلب إليه ١٠٠.٠٠٠ فرنك لأنها محتاجة إلى هذا المقدار احتياجاً شديداً ، ولأنها إذا لم تظفر به فستضطر إلى أن تبيع خاتماً في يدها وهي حريصة على هذا الخاتم . يعتذر فتلح ، فيعترف بقره وإفلاسه ، فلا تصدقه ، ثم تعمد إلى خزائنه فتفتتحها وتبحث فيها فإذا المال الذي أودعته « أنا » . تحصيه وتريده فيأبى ، وينبئها أنه لا يملك هذا المال ولا يستطيع أن يعرضه ، ولكنها تلح وتنذر وتعلن أنها ستسلم نفسها إلى شريكه القديم ، وما تزال به حتى يفقد صوابه فيدفع إليها المال فتصرف فرحة .

أما هو فتعس محزون ، لأنه أضاع ما لا يملك ، وأضاعه في شهوة دينئة ، ليرضى امرأة ، يشتهيها ولا يحبها ، بل هو يمتقها لأنها تعبت به وتسخر منه . وهو في حزنه إذ تقبل « أنا » فرحة مبتهجة وقد حملت إليه متاعاً ، ونظرت في شئونه ، فهي تريد أن تصلح الفاسد منها ، هي فرحة مبتهجة وهو تعس

حزين . وقد أحضرت صحيفة مالية ، فيسألها ما هذه الصحيفة ؟
أحضرتها لنبعث معاً عن أحسن مورد نستغل فيه مائة ألف
الفرنك . ما رأيك في مناجم الذهب ؟ يعترف لها بجريمته فتبكي
ويبكي ، ثم يريد أن يصلح ما أفسد فيعرض عليها أن يتخذها
زوجاً لأنه عرفها فقيرة ثم هجرها ، ثم عرفها غنية فأضاع ثروتها
وهو فقير فيستطيعان أن يفترا وسيحبها وسيغني لها . أما هي
فتظهر الشك ثم تمتحنه فتسأله أعندك رسائل لهذه المرأة ؟ نعم !
إذن فهايتها واحرقها . . . يتردد ثم يستطيع أن يحضر هذه الرسائل
فإذا عاد أنباته بأن هذه المرأة تحدثت في التليفون فقالت إنها
تنتظره نصف الليل . فلا يكاد يسمع هذا الحديث حتى يجن
جنونه فينسى كل شيء إلا هذه المرأة وميعادها وتحذره هي
وتنهاه أن يذهب .

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في بيت هذه المرأة الروسية
بل في غرفة نومها . وهي تتحدث إلى نفسها وبين يديها رسالة
تنظر فيها . كتبت هذه الرسالة منذ أعوام إلى « أنا » في لونيغيل
وكاتبها هذا الفتى « بييرولون » يعلن فيها القطيعة إلى صاحبه .

تحدث إلى نفسها بأن هذا القتي إن لم يردّها فقد تاب وصلاح أمره فهو إذن يحبها وهي إذن تستطيع أن تظهر له حقيقة أمرها وأن تقترن به وأن تسعد بالحياة معه لأنها تحبه إلى غير حد، وهي تتكلف ما يتكلف ويؤلمها ما يؤلمه، لأنها تحبه وتريد أن يحبها. وهي الآن أمام مسألة دقيقة أي المرأتين يجب؟ يجب هذه المرأة القاسية اللعوب أم يجب تلك المرأة الهادئة الصريحة؟ يجب الرحمة أم يجب العنف؟ يجب الشرف أم يجب الإثم؟ إن لم يأت فأسعد بالحياة معه، فإن أتى فهي تضر في نفسها أموراً عظيماً تفهمها من حديثها إلى الخادم، فهي تذكر لها صوت المسدس، وأنها قد تسمعه وأنها قد تدعو الطيب. وهي إذ يدق الجرس. إذن فقد أقبل، إذن فهو لا يجب الرحمة ولا الشرف، وإنما يضحى بهما في سبيل القسوة والإثم. يدخل فإذا هي في سريرها فيهجم عليها فتلقاه عابثة مقطبة ولكنها مقصية. ثم يكون بينهما حديث فتشترط عليه ليظفر بما يريد أن يقطع، بينه وبين «أنا» فيقبل! إذن فاكتب الآن إليها رسالة القطيعة. يريد أن يؤجل فتأبى. يمانع فتلح وتأمره أن يجلس ويكتب ما تملى عليه نص الرسالة التي كانت تنظر فيها أول

هذا الفصل والتي كتبها منذ أعوام طوال إلى « أنا » حين
مجرها في « لونيثيل » .

يكتب كارها ولكنه لا يكاد يتوسط الرسالة حتى يكف
عن الكتابة . تأمره فيأبى . ثم يشتد بينهما الخصام ، فإذا هو
قد أطلق عليها المسدس ولكنه قد أخطأها !
إذن فقد كنت تريد أن تقتلني !

نعم !

في سبيل « أنا » ! ؟

نعم ! ثم يعترف لها بأنه لا يحبها وإنما يشتهيها عناداً
ويريد أن ينتقم لنفسه من هذا العبث الطويل . أما حبه
فقصور على « أنا » ثم يريد أن ينصرف ولكنها تدعوه . إذن
فتعال ! يلتفت فإذا « أنا » أمامه ! من أنت أكنت اثنتين ؟
من أنت ؟ أنت « أنا » ؟ أنت إيرين ؟ من أنت ؟ فتجيبه :
أنا « أنا » التي تحبك ، وأنا « إيرين » التي تفتنك ! يجيبها
إني لأحبك « أنا » وإني لأحبك إيرين ! .

... ..
... ..

... ..
... ..
... ..

... ..
... ..

... ..
... ..

... ..
... ..

... ..
... ..

... ..
... ..

... ..
... ..

الحارسة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « بيير فروندى »

أريد اليوم أن أحدثك عن قصة أختلفت فيها آراء النقاد اختلافاً عظيماً ؛ فمنهم من أكبرها حتى كاد يقرنها إلى آيات الفن في القرن السابع عشر . ومنهم من أصغرها حتى أشفق منها على صاحبها . بل إن الاختلاف في أمر هذه القصة لم يقتصر على النقاد وحدهم ، بل تجاوزهم إلى الجمهور . ويمكن أن يقال إن هذه القصة أخفقت أمام الجمهور ، فلم تمثل إلا مرات قليلة آخر السنة الماضية . بل نستطيع أن نقول إن الخلاف تجاوز النقاد والجمهور إلى الممثلين أنفسهم ، فقد وقع الخلاف في أمور تفصيلية من هذه القصة بين السيدة سيمون التي كانت تلعب دور البطلة وبين الكاتب نفسه ؛ فألغت المثلة أثناء التمثيل مناظر وحذفت جملاً طوالاً ، وحرص الكاتب على هذه المناظر وهذه الجمل عند

ما نشر قصته . وفي الحق أن كل هذا الخلاف يفهم إذا قرأت
القصة بامعان وتدبر . فقد أراد الكاتب أن يجمع في قصته بين
مذهبين مختلفين من مذاهب التمثيل ، أو قل بين مذاهب مختلفة
في التمثيل . أراد أن يتأثر بما رسم ارستطاليس من مناهج
« التراجيديا » ، وأن يتأثر أيضاً بما رسم القرن السابع عشر من
هذه المناهج . ثم أراد مع ذلك أن يكون ملائماً للعصر الذي
يعيش فيه والذوق الذي يحيط به ، وأن يكون متأثراً بالحوادث
التي خضعت لها الإنسانية في هذه الأعوام الأخيرة . ثم أراد مع
هذا وذلك ألا تكون قصته خالصة لأحد المذهبين أو خالصة لهما
معاً ، وإنما حرص على أن تكون قصته فلسفية ، فيها فكرة أساسية
تقوم عليها وتنتهي إلى ما تنتهي إليه من النتائج . وإذن فهو أراد
أن تكون قصته ساذجة سهلة على نحو قصص القدماء ، مركبة
معقدة على نحو قصص المحدثين ، وفلسفية غنية بالآراء على نحو
ما كتب « فرنسوا دي كوريل » . ومن الواضح أن التوفيق بين
هذه المذاهب المختلفة ، والجمع بين هذه الأنحاء المتباينة ، ليس
بالأمر الهين ولا اليسير .

لست أدري بم كان يشعر النظارة الذين شهدوا تمثيل

هذه القصة في باريس ! ولكنني أعلم أنك إذا قرأت هذه القصة شعرت بأشياء مختلفة ، وشعرت بهذه الأشياء المختلفة بانتقالك من فصل إلى فصل . فإذا قرأت الفصل الأول أعجبتك اللغة وراقك الأسلوب الكتابي وما فيه من دقة ومهارة ، ولكنك تحس شيئاً من البطء والفتور ، وتتمنى لو انتهى هذا الفصل لتعلم ماذا يريد الكاتب أن يقول وماذا يريد أن يفعل . ثم إذا انتهى هذا الفصل لم تتبين شيئاً ، أو تبينت شيئاً ولكنه غير ما أراد الكاتب ، أو لمحت ما أراد الكاتب لمحا دون أن تبينه أو تستيقنه . فأنت مشوق كل الشوق إلى الفصل الثاني ، وأنت في الوقت نفسه مشفق كل الإشفاق أن تكون قراءة الفصل الثاني كقراءة الفصل الأول لا تخلو من شعور بالبطء ومن إحساس بالملل ، ولكنك لا تكاد تقرأ هذا الفصل الثاني حتى يأخذك دهش ليس بعده دهش ، لأنك تشهد تغيراً عظيماً في موقف الأشخاص وسيرتهم ، تغيراً كنت تتوهمه في الفصل الأول ، ولكنك كنت تستبعده الاستبعاد كله ، فإذا وقع لم تستطع أن تقول أنه سيء وإنما اضطرت إلى أن تقف موقف الدهش الحائر . فإذا قرأت الفصل الثالث فلاحد لما تشعر به من خوف وإشفاق ، ثم لاحد لما تشعر به من ألم

ويأس . فإذا انتهيت من قراءة هذا الفصل لم تشك في أن القصة تستطيع أن تنتهي باتهاؤه ، وأنها إن وقفت عند هذا الحد فقد حققت ما كان يريد أرسططاليس والممثلون القدماء من اليونان وممثلو القرن السابع عشر من الفرنسيين حين يذكرون « التراجيديا » أو يعمدون إليها . ولكن القصة لا تنتهي ، وإنما هناك فصل رابع هو أقوى وأشد عنفاً من الفصل الثالث ، وهو أدق وأبعد أثراً في التحليل ، وهو في الوقت نفسه يجمع بين مذهب القدماء ومذهب المحدثين من فلاسفة الكتاب التمثيليين . حتى إذا أتممت قراءة هذه القصة استيقنت أنها قوية عنيقة ، ولكنك نحس مع هذا اليقين أن شيئاً ينقص هذه القصة لا تدرى ما هو ، وأن هذه القصة على جمالها وقوتها وقدرتها على أن تؤثر في نفسك أعظم تأثير وتثير فيها الجهاد بين طائفة من العواطف العنيقة لم تلامس هواك ، ولم ترضك كل الرضا . ولكنني قد قطعت بك كل الطريق التي قطعتها القصة دون أن أنبئك من أمرها بشيء . فلأبدأ في تحليلها ، فسيكون هذا التحليل دليلاً صادقاً على ما قدمت .

« أودلف دي كوبورج » أمير شاب ، فيه ما في الشباب

والأمراء من ضعف وطمع ، ومن استراحة إلى الأمل وإشفاق
من الجهد ، من حب للهو وحرص على الاستمتاع بالحياة وكلف
باسترداد الحق الضائع على أن يرد إليه غيره ، وعلى ألا يكلفه
ذلك عناء . وهو ضحية من ضحايا الحرب ؛ فقد مملكته في ثورة
من هذه الثورات التي بدلت أمور أوروبا الشرقية . فهو منفي ،
يقيم في سويسرا مع أخته « ماريابيا » وهي أميرة شابة ، ولكنها
تخالف أخاها الخلاف كله ، فهي تظهر قوية أبية شديدة الإيمان
بجتها ، شديدة الحرص على أن تسترد هذا الحق . وقد انصرفت
إلى العمل لاسترداد الملك الضائع ، فهي تدبر وتآمر ، وقد شغلها
التدبير والانتهاز عن جمالها وقلبها وأهوائها وعن الحياة وما فيها من
لذة ، فانصرفت إلى ذلك ، وانصرفت معه إلى الدين والتقوى ،
وشاع ذلك عنها حتى فتن بها أهل مملكتها فأجلّوها إجلالاً عظيماً
ولقبوها بالقديسة . ويعيش معها ومع أخيها مرب لها من رجال
الدين هو أسقف « فرتنبرج » . وهو مثال هؤلاء الأساقفة الذين
يجمعون بين الدين والسياسة ، فهم يمثلون الله في الأرض ولكنهم
يمثلون حقوق الملك أيضاً . وهم لا يتصورون الفرق بين حقوق
الله وحقوق الملك ، بل هم يؤمنون بهذه الحقوق جميعها إيماناً واحداً ،

وهم مهرة في فهم هذه الحقوق ، يؤلفون بين متناقضاتها ، ويوفقون بين متبايناتها ، ويجدون الحل لكل شكل منها . فهم يجدون للملوك وسيلة يجمعون بها بين رضا الله ورضا لذاتهم وشهواتهم . وهم قادرون على الائتار وما يتصل به من الكيد والدس

* * *

فإذا كان الفصل الأول رأيت الأمير الشاب جاثيا بين يدي الأسقف يعترف ويستغفر الله خطاياہ ، ثم يغفر له الأسقف باسم الله ويحثه على رغم هذه التوبة على أن يظهر هذا المساء في مرقص سيكون لهوا كله . ويجري بينهما حديث قصير ، تشعر منه بأن الأسقف يعمل في رد الملك إلى الأمير ، وأن الأمير يريد ذلك ويرجوه ولكن أمله ضعيف . ثم يدخل عليهما رجل قد اتخذ صورة الكناديين وأسماءهم ، وما هو في الحقيقة إلا ضابط من ضباط الأمير قد أقبل إلى سويسرا ليتم المؤامرة بعد أن أحسن لها التمهيد في أرض المملكة . واسم هذا الضابط « ميشيل زوريس » . وهو شاب جميل الطلعة ، حسن الخلق ، قوى الإرادة ، لا يعنى بالتفكير وإنما يعنى بالعمل والمضى فيه ، وهو شجاع قد امتحنته الحرب فأحسننت امتحانه ، وقد خلص

أميره مرة من مخالِب الموت . وهو معجب بالأميرة أو قل إنه مفتون بها ، لأنه رآها في صباه فأحبها ، ولكنه كتم هذا الحب لأنه يأس من الفوز . فتدخل الأميرة فيقدم إليها هذا الشاب ، فتحس أن الأميرة تعجب به . ثم تدخل طائفة من الصحفيين يريدون أن يتحدثوا إلى الأمير والأميرة وقد استعدا لهذا الحديث . فأما الأمير فقد تكلف اللهو والعبث حتى لا يحس أحد أنه يريد استرجاع ملكه وقد أتقن هذا التكلف . أما الأميرة فلم تتكلف شيئاً ، وإنما ظهرت بطبيعتها ميالة كل الميل إلى أن تسترد الملك وتنتقم لأبيها وتجلس أختها على العرش . فإذا انصرف الصحفيون وخلا الشاب الضابط إلى الأميرة لحظة أحسست أنه يتعجب إليها وإنما لا تكره منه ذلك . ثم ينصرف كل هؤلاء الناس ، وتخلو الأميرة إلى نفسها تريد أن تعمل استعداداً لحادث قريب سيرد الملك إلى أهله ، ولكنها لا تجد من نفسها ميلاً إلى العمل وإنما هي متأثرة متأثراً غريباً ، وتذهب إلى كتاب تريد أن تقرأ فيه فلا تستطيع أن تقرأ . تذهب إلى الموسيقى فلا تستطيع أن تسمع . هي نائرة مضطربة لأن شيئاً غريباً قد ملك عليها أمرها .

* * *

فإذا كان الفصل الثاني فأنت في البيت الذي يقيم فيه الضابط منذ أشهر ، وقد أعدت في هذا البيت أسباب اللهو وأدواته من شراب وطعام وزهر . ثم يدخل الضابط ويتبعه الأسقف ، فتشعر من الحديث بينهما أن الضابط قد اعتزم السفر فجأة ، وأن الأسقف يريد أن يثنيه عن هذا السفر . فإذا استمر الحديث عرفت أن هذا الضابط إنما يريد السفر لأنه يحب الأميرة ، وهو يعلم أن هذا الحب عقيم ، ويشعر أنه يهين الأميرة بهذا الحب ، وقد حاول أن يكتم هذا الحب وأن يقتله فلم يوفق ، وإذن فهو يريد أن يفارق الأميرة أبداً . يحاول الأسقف صرفه عن السفر ثم عن الحب فلا يوفق ، فيحاول أن يقنعه بأن الواجب عليه إنما هو أن يعمل لمن يحب وأن يكتم هذا الحب ويضحي به في سبيل الواجب ، ولكن الضابط كما قدمنا لا يحب التفكير ولا الفلسفة ، وإنما هو رجل عمل ، وليس له في الحياة غاية إلا أن يحارب ، ويحب ، وهو لا يعرف الحب العذرى ولا يطمئن إليه ، وإنما للحب عنده نتائج لا بد أن ينتهي إليها . وإذا كان يأساً من هذه النتائج فهو يريد أن

يسلى عن نفسه بالسفر . ينصرف الأسقف ويبقى الضابط لحظة مضطرباً ثم يقبل عليه قوم دعاهم للهو ، وفيه نساء ورجال ومن بينهم امرأة مغنية اسمها « مارت سوريكى » قد أحبها الضابط حباً يسليه عن حبه الآخر ؛ لأنه ينسيه باللهو واللذة ما يجد من ألم ووحشة . يتحدثون ويمزحون وينصرفون إلى المائدة . ولكن جرس التليفون يدق ، فلا يكاد الضابط يتحدث فى التليفون قليلا حتى يضطرب ويدعو خادمه فيعلن إليه أنه سيصرف من عنده من الناس ، وأن زائراً سيأتى ، فعليه أن يدخله دون أن يسأله عن اسمه ودون أن يدخل بعده أحداً . ثم يذهب فيصرف أصحابه معذراً إليهم وينتظر ، فإذا الأميرة قد أقبلت ، وإذا هى مضطربة اضطراباً شديداً لا تستطيع معه أن تقف دون أن تعتمد على شيء . فإذا جلست وقف الضابط بين يديها كما يقف الرعية بين يدى مولاه . وتكلف أن يسألها عن مصدر هذه الزيارة الغربية فلا يجد منها إلا اضطراباً وتردداً ، ثم تنبئه بأنها كانت تريد أن تقول له شيئاً كثيراً ولكنها نسيت كل ما كانت تريد ، وأنها عرفت أنه اعتزم السفر فأقبلت لتراه قبل أن يسافر ، ثم ينتهى بهما هذا الحديث المضطرب إلى ما لم

يكن بد من أن ينتهي إليه ؛ لأن الأميرة تحب هذا الضابط كما يحبها ، وقد كتمت هذا الحب ما استطاعت . فلما علمت أنه مسافر لم تستطع صبراً ، فأقبلت إليه ونسيت منزلتها وآمالها ومطامعها وسمعتها ، ولم تفكر إلا في الحب . فإذا صرحت له بذلك كانت كأنها قد خلعت كل عذار وقد تجردت من شخصيتها الأولى ، فلم تصبح أميرة ولا قديسة ، وإنما أصبحت امرأة تملكها العاطفة وتستأثر بها الحاجة إلى اللذة . وهي بين ذراعي حبيبها فانية ، تناجيه مناجاة حلوة هادئة حيناً ، ثم مرة عنيفة حيناً آخر . وقد سحر الحبيبان فنسيا من حولهما كل شيء ، ثم يستيقظان فإذا هي تريد أن تعود ، وإذا هو يأبى عليها هذه العودة . ولم تكن الأميرة قد فكرت في نتائج زيارتها هذه ، ولم تكن قد أرادت إلا أن ترى صاحبها ، ولكنها الآن تشعر بأنها لن تستطيع أن تعود ، فما أسرع ما يحملها صاحبها بين ذراعيه .

ذلك أن هذه المرأة التي كانت منصرفه إلى الملك والدين قد جاهدت جهاداً عنيفاً في إنكار نفسها وعواطفها وفي الانصراف إلى الزهد والتقوى ، وكان الناس من حولها قد

أحسوا منها ذلك فقدسوها ، فلم توجه إليها كلمة حب ولا نظرة غرام . ولكنها لم تكذب ترى هذا الضابط حتى تنبتهت فيها تلك العواطف المكثومة كظلمة عنيماً فانفجرت انفجاراً عنيفاً .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فقد انتهى الحب إلى نتائجه بين هذين العاشقين ، ولكنه ظل أمراً مكتوماً لا يكاد يعلم به أحد إلا أثنان : أحدهما تلك المرأة الغنية التي تركت سويسرا ثم عادت إليها لا مغنية فحسب بل مغنية وجاسوسة أيضاً ، وهي تحب هذا الضابط . فما زالت به حتى خدعته واضطرته إليها مرات واسترقت سره كله ، فعرفت مكانه من الأميرة ومن الأمير . والثاني رجل عدو للأمير وملكه ، وقد أوفد إلى سويسرا ليتتبع الأمير ويخلص منه الدولة . وقد اتفق هذان الشخصان ، فتراهما في أول الفصل يعملان معاً في بيت الضابط يفتشان أدراجه ويفحصان أوراقه ويسخران من الأميرة القديسة ويتحدثان بقتل الأمير ، ثم ينظر الرجل من النافذة فإذا الضابط مقبلاً فيرتاع ويطلب إلى المرأة أن تخفيه ، فتضطره المرأة إلى محباً يلجأ إليه ويدخل الضابط فينكر مكان هذه المرأة ، ولكنها

تلاطفه وتعرض نفسها عليه ، فينصرف ويأبى لأنه مشغول الليلة
ولأنه ينتظر الأمير ، فتلح المرأة في أن ترى الأمير ، وتنتظر حتى
يأتى الأمير ثم تنصرف . ويتحدث الأمير إلى ضابطه ، فاذا
اثمارها قد نجح ، وإذا هما يريدان أن يسافرا الليلة في طيارة
إلى حيث ينتظرها أنصارها وقد أعلنت الثورة في المملكة وتم
الأمر على ما كانا يريدان . وتأتى الأميرة فيتحدثون في هذا
وهم سعداء مغتبطون ثم ينصرف الأمير حيناً ليغير ثيابه ويتنكر
فينتهز العاشقان هذه الفرصة ليتحدثا في الحب ، فقتبين أنهما
قد اعتزما الزواج بعد أن يتم رد الملك الى الأمير . ولكنهما
يريدان أن يخلوا لحظة قبل هذا السفر الذى سيكون بعد ساعتين
فيدبران بهذه الخلوة أمرهما ويتفقان على أن ينتظرا الأمير ، حتى
إذا أقبل انصرف الضابط لحاجة ، ثم تنصرف الأميرة بعده بقليل
ثم تعترف الأميرة لأخيها بكل ما كان بينها وبين صاحبها ، فلا
يسع الأمير إلا أن يقتبط بذلك ، ويعهد بأنه سيعرف لهذا
الضابط حقه . ولكن الأميرة تطلب إليه أن يأذن لها بالزواج
وبالمعيشة الهادئة بعيداً عن الملك ومناصبه . ثم تستأذن أباها
في الغيبة حيناً فيفهم ويأذن لها كارهاً لأنه مشفق من الوحدة .

فاذا خلا الأمير إلى نفسه اضطرب خوفاً وتردد في الغرفة قليلاً ثم يشتد اضطرابه فيحاول أن يخرج ليشى في الشارع حيناً ، ولا يكاد يخرج حتى يظهر الرجل من مخبئه ويقبل إلى النافذة ويطلق مسدسه على الأمير فاذا هو قتيل

* * *

إلى هنا يمكن أن تنتهى القصة فقد استوفيت كل الشروط اللازمة لتكوين قصة قوية لذيذة ، وانتهت هذه الشروط إلى نيتها العملية والفلسفية ، فقتل الأمير وقتل حين كان يستعد لاسترجاع عرشه ، قتل في الساعة التي تحقق فيها أمره وذهبت مساعيه ومساعى أخته ومساعى الأسقف هباء . ثم قتل الأمير وكان مصدر قتله هذا الحب الذى وصل بين أخته وبين الضابط . فلولا أن هذين العاشقين حرصا على أن يخلوا لحظة قبل السفر لما وجد الأمير منفرداً ، ولما استطاع هذا القاتل أن يظهر من مخبئه . وإذن فهذه الأميرة التي انفقت من القوة والجهد شيئاً كثيراً لتجعل أخاها ملكاً هي التي قتلت أخاها لا لشيء إلا لأنها سمحت لنفسها بأن تعيش كما يعيش الناس ، وبأن تحب كما يحب الناس . فأنت ترى أن هذا التصور أشبه

لأشياء بما كان يتصور للقدماء اليونان في قصصهم التمثيلية الحزنة .
ولكن القصة لم تنته بعد ، وهي لم تنته لأن الكاتب لا يكتب
بما وصل إليه من الحوادث . وإنما يريد أن يصل إلى أكثر
من هذا ، يريد أن يصل إلى نتائج هذه الحوادث . على أننا
نحن الذين يعلمون إلى الآن بمقتل الأمير ومصدره .
أما أخته والضابط فيسمعان حين يعودان أن الأمير قد قتل ،
ولكنهما سيجهلان مصدر هذا القتل ، ولا بد من أن يعلماه ؛
وهذا هو موضوع الفصل الرابع .

فإذا ابتدأ هذا الفصل فنحن في إيطاليا لا في سويسرا ،
ونحن في مدينة « فينز » وقد جلست الأميرة إلى أسقفها وهما
يتحدثان وفي صوت الأميرة نبرات الحزن والأسى . ولكن هذا
الحديث غريب ؛ فنحن نفهم منه أن الأميرة قد يئست من كل
شيء ، فهي لا تطالب بملك ولا تطمع فيه ، وهي لا تفكر في
أن تتأثر لأخيها ، وإنما انصرفت عن كل شيء إلا عن شيء
واحد وهو حبها . ذلك أن صاحبها الضابط الذي كان يظهر
لها قبل المحنة حباً لا يعدله حب ولكنه حب شهوة وحرص

على اللذة ، قد استطاع بعد المحنة أن يظهر لها حياً لا يعدله حب ، ولكنه حب رحمة وعطف وإشفاق . فهو لا يطمع إلا في شيء واحد هو أن يغزيها ويهون عليها احتمال الحياة . وقد أثر هذا في نفس الأميرة ، فعرفت أنها تستطيع أن تعتمد أيام المحنة على صديق لذتها أيام السعادة ، فاعتزمت أن تترك كل شيء وكل إنسان لتعيش مع صاحبها هذا بعيدين عن أوربا وما فيها ومما يذكرهما الآلام والآمال . وهما يريدان أن يهاجرا إلى أميركا . أما الأسقف فبذل ما يستطيع من قوة ليقنع الأميرة بالعدول عن هذا الجنون ولكنها لا تسمع له . فإذا طال الحديث بينهما رأيت أن هذه الأميرة القديسة لم تكتف باليأس من كل شيء ، بل تجاوزت ذلك فجدت الدين فهي لا تؤمن بالله . وكيف تؤمن به وقد اضطرها إلى هذه المظلمة الفادحة ففتح لها باب الأمل واللذة لحظة قصيرة ريثما تذوقهما وتحرص عليهما ثم أسرع فأغلق أمامها هذا الباب ! هي لا تؤمن بالله لأنه لو وُجد لكان أعدل من هذا . وإذا ذكر لها الأسقف ضابطها أجابت بأن وجود هذا الضابط ورحمته لها وبره بها أكد وأثبت من وجود الله ورحمته وبره ! . يؤس منها الأسقف وأراد

أن يودعها ، فينبئها بأنه سيقم في روما أشهراً ، وأنه مستعد لإجابتها متى دعته . ثم يلقى إليها في خفة أنها لو بحثت قليلاً لتعرفت السبب في مقتل أخيها ، لأنه بحث فعرف أن هناك جاسوسة مغنية ترددت إلى المدينة التي كانوا يقيمون فيها في سويسرا ، وأن هذه الجاسوسة كانت تعرف الضابط . ينصرف ، ويدخل الضابط فيتحدثان في سفرهما وما ينتظر كل منهما من صاحبه من مودة وعطف وحنان ، ويتعزيان عن فقرهما وآلامهما ولكنهما يذكران القتل ، فتقص على صاحبها ما سمعت من الأسقف ، فلا يكاد هذا الضابط يسمع ذكر المرأة المغنية التي ترددت على سويسرا حتى يذكرها ، ثم لا يكاد يفكر حتى يبدو له الأمر واضحاً جلياً ولكنه فظيع منكر : أما الأميرة فكانت تفترض أن هذه الجاسوسة كانت صديقة أخيها فإذا الضابط ينبئها بأنها لم تكن صديقة الأمير وإنما كانت صديقتته هو . نعم ! كانت صديقتي فأنا الذي قتلت الأمير ! إذن فقد ارتكبت إثمين : قتل ملكه وخان عشيقته : وهو يعترف بهذا كله في صوت المروّع الذي فقد رشده أو كاد ، وهو يعترف على نفسه بهاتين الجريمةتين وبجرائم أخرى ؛ فقد كان مقتل الأمير مصدرًا لنكبات ألت

بأنصاره الذين أعلنوا الثورة ففقد الحياة خلق كثير، وفقد الحرية خلق أكثر. وهو مصدر هذا كله لأنه لها بجاسوسة، ولها بها خانناً عهد الحب. أما الأميرة فلا تسلم عن روعها وغضبها حين تعلم هذا، فهي ساخطة على هذا الضابط تطرده، ثم تعمد إلى مسدس تريد أن تقتله فيكف يدها قائلاً: لا تفعل فإنا فعل ذلك أنا، ولكن كفى عن البكاء واجتهدى في أن تعيش وأن تكونى أقل شقاء منك الآن، ثم يحاول أن يتركها فإذا هي لا تزال متصلة به، لا تزال حريصة على حبه. ولكن ليس من سبيل إلى الحياة معه، فقد قتل أخاها، قتل الملك، وقد خانها ولم يخنها إلا حباً للاستطلاع، وإلا لأنه يجب المرأة من حيث هي امرأة. وإذن فليست هي بالقياس إليه إلا امرأة كغيرها من النساء! نعم! ما زالت تحبه وتوشك أن تعلن إليه ذلك. ولكن قتل الملك والخيانة أمامها يعقدان لسانها، فتمسك صاحبها قبل أن ينصرف، ولا تطلب إليه إلا شيئاً واحداً هو أن يصلى وأن يذكر الله ويؤمن بالدين. إذن فقد عادت هي إلى إيمانها. أما الضابط فقد أرسل يطلب الأسقف ثم انصرف، ولا يكاد ينصرف حتى يدخل الأسقف، فإذا الأميرة قد نال منها الدهول

فما تكاد تعي شيئاً ، والأسقف يببالغ في تعزيتها فلا يصل إلى شيء : هلم ! تعالى ! إن أنصار الملك قرييون وهم يريدون أن يروك ، فاستجمعي قواك واطهري لهم كما تعودت أن تطوري . وهو يقول لها ذلك إذ يسمع طلق مسدس فتقول : هذا ميشيل يقتل نفسه . يجيها الضابط : سأفعل ما يجب أن أفعل . ولكن تعالى واذكري أنك تمثلين الملك ، فتتبعه ، وكأنها آلة تتحرك بلا إرادة .

فأنت ترى أن هذه القصة تجمع بين السذاجة والتعقيد ، وتجمع بين العمل والفلسفة ، وتجمع بين أساليب القدماء وأساليب المحدثين في التمثيل . وما أحسب أني في حاجة إلى أن أطيل القول أو إلى أن أقول شيئاً في تعليل ما شجر حولها من الخلاف بين النقاد

الأمير جان

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « شارل ميري »

أما أنا فأعترف بأن هذه القصة لم تعجبني ، ولو خيرت لتحدثت إليك هذا الأسبوع في قصة أخرى . ولكن أمرين اضطراني إلى أن أتحدث إليك فيها دون غيرها : الأول أني أجتهد في أن يلم قراء هذه الصحيفة لا بفن التمثيل من حيث هو فحسب ، بل بالحركة التمثيلية المعاصرة أيضاً ، أي أني أريد أن يعلم قراء هذه الصحيفة شيئاً ولو قليلاً من أمر القصص التمثيلية المستحدثة في فرنسا في هذا الفصل الذي تستحدث فيه القصص عادة . الثاني أني قرأت من هذه القصص في هذا الأسبوع الماضي طائفة لم تعجبني وكانت هذه القصة التي أخلصها اليوم آخر ما قرأت . وهي لم تعجبني أيضاً فكنت بين اثنتين : إما أن أعدل عن الكتابة هذا الأسبوع ، وإما أن أحدثك عن خير ما قرأت ، فأثرت الثانية . ولم أوترها عبثاً ولا رغبة

في الكتابة ، وإنما آثرتها لأن النقاد كادوا يجمعون على استحسانها والرضا عنها ، ولأن جمهور الفرنسيين قطن بها إلى غير حد ، حتى أن بعض النقاد تنبأ بأنها ستمثل مائتي مرة ، ومع ذلك لم تعجبني . لم تعجبني لأنني حين أقرأ قصة تمثيلية إنما أبحث فيها عن فكرة أو رأى أو مسألة فلسفية أو خلقية أو اجتماعية . فأنا لا أقرأ قصص التمثيل من حيث هي قصص وإنما أقرأها من حيث هي غنية بما يغذو العقل أو يغذو الشعور أو يغذوهما معاً . ولا أكاد أنصور الفن الأدبي منفصلاً عن اللذة العقلية الفلسفية ، فأنا أكلف بنوع خاص بقصص التمثيل ، وليست هذه القصة التي أخلصها اليوم من هذه القصص . فهي لا تقصد إلى إثبات فكرة بعينها ولا إلى تحقيق نظرية من نظريات الاجتماع والفلسفة والأخلاق ، وإنما هي تقصد إلى شيء آخر : تقصد إلى إلهاء الجمهور والتأثير فيه دون أن يكون هذا اللهو مناقضاً لما ألف الناس من أخلاق وعادات ومن نظم وأساليب للحياة . هي قصة يراد بها القصص لا أكثر ولا أقل . ويظهر أن هذا مصدر فوزها وكلف الجمهور بها ؛ فإن الجمهور يريد أن يلهو وأن ينفق في ملعب التمثيل جزءاً من

وقته يخضع فيه لطائفة من المؤثرات القوية ، فيحس فيه اللذة القوية مرة والألم القوي مرة أخرى ، يستشعر فيه الخوف حيناً والرجاء حيناً آخر ، وهو لا يكره في بعض الأحيان أن يخلى بينه وبين اللذة والألم والخوف والرجاء دون أن يضطر إلى التفكير العقلي للحكم على قضية من القضايا أو تمحيص نظرية من النظريات . يريد الجمهور في بعض الأحيان أن يكون طفلاً يلهو بالتقصص والأحاديث لأنها قصص وأحاديث لا لأنها تفسر مذهباً من مذاهب الفلسفة أو تشرح رأياً من آراء العلماء في الاجتماع . وفي هذا النحو من القصص يعتمد الكاتب على الخيال وحده ، ويطلق لنفسه من الحرية ما لا يملك لو أنه تقيد برأى أو نظرية . وهو بهذه الحرية نفسها أقدر على أن يلهي الجمهور ويلذه . وهذا ما يقصد إليه كاتبنا الذي نتحدث عنه اليوم في طائفة غير قليلة من قصصه ، فهو أشبه بالذين يضعون قصص التمثيل أو يلعبون بها للسنيما توغراف ، فلا ينبغي أن تقارب بينه وبين « فرنسوا دي كوريل » أو « هنرى بتايل » أو « هنرى فدان » أو « برنستين » . وإنما ينبغي أن تقارن بينه وبين كاتب آخر فتن به الجمهور الفرنسى حيناً وهو

« ساردو » . ومن غريب أمر هذا الكاتب أنه يجتهد في أن يوفق بين خياله وبين حياته ، أو بعبارة أصح يجتهد في أن يحقق خياله ، فهو يتخيل موضوعه ، ويخلق أشخاصه ، وينظم قصته ، ولكنه لا يبدأ في الكتابة حتى يمثل بنفسه تمثيلاً عملياً أهم أشخاصه وأجلهم خطراً ، ويجتهد في أن ينشئ لنفسه الحوادث التي يريد أن يضيفها إلى شخص قصته أو إلى أشخاصها . فسترى في قصة اليوم أن البطل شاب تكلف الأسفار ، واقتحم طائفة من الخطوب ، ونزل في بيئات مختلفة متباينة . ويحدثنا بعض النقاد أن الكاتب بعد أن ابتكر هذا البطل تكلف أسفاراً ، واقتحم خطوباً ، ونزل في بيئات مختلفة متباينة ، ثم بدأ في كتابة قصته ، ثم دفعها إلى الممثلين ، فنالت ما نالت من الفوز .

في مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا أسرة غنية ممتازة ، لأنها من أسرة الأمراء ، هي أسرة « داكسيل » ، تأتلف هذه الأسرة من زعيمها الشيخ وولده الثلاثة : جان ، وليوبولد ، وإيزابيل . فاما أكبرهم وأحقهم بوراثة اللقب وزعامة الأسرة

فهو جان . وهو شاب ، قوى ، حسن الطلعة ، ولكنه مشغوف بالحركة والإسراف فيها ، فهو لا يستقر على حال ، وهو كلف بالهوى وفنونه ، وبالعمل وضروبه ، فهو يندفع بالهوى إلى غير حد ، ويتكلف طائفة من الأعمال يبدوها في نشاط وقوة ، ثم لا يلبث أن ينصرف عنها وقد أصابه الإخفاق أو ما هو شر من الإخفاق . وقد جرت عليه هذه الخصال طائفة من المحن ، فهو مقامر مسرف في القمار ، يخسر كثيراً ولا يربح شيئاً ، وهو مع ذلك ملح في اللعب . وقد بدأ طائفة من الأعمال فأخفق فيها ، وأضاع مقادير ضخمة من المال كان قد اقترضها أو أؤتمن عليها ، وأراد أن يكسب ما أضاع من الميسر فلم ينله التوفيق ، فبلغ به اليأس ذات ليلة أن حاول الغش ، وأخذ وهو يحاوله ، فافتضح أمره وضاع شرفه ، وأكره على أن يستقيل من النادي الذى كان يختلف إليه ، ولم يجد وسيلة للنجاة من السجن والفضيحة إلا أن يهرب ، فترك المدينة من ليلته ، وكان يحب فيها امرأة جميلة تحبه هى أيضاً ، وهى « كلير دارلون » . فلما نزلت به هذه النازلة استحميا أن يراها ، فهاجر دون أن يودعها وانقطعت أخباره عن أهله وحبيبته ومواطنيه ، حتى شاع فى الناس أنه

قد مات ، ودبرت أسرته أمرها على أنه قد مات ، فاجتهدت في إرضاء الدائنين . ولما مات أبوه ورث أخوه الأصغر لقب الإمارة وزعامة الأسرة وأخذ يتصرف في الأمر كما لو كان حراً لا يشاركه فيه شريك . ولكن « جان » هذا لم يمت ، وأسرته تعلم أنه لم يمت لأنها ترقبه وتتبعه بالعيون والجواسيس ، وهي حريصة كل الحرص على أن يعتقد الناس أنه قد مات أو أنه قد غاب غيبة منقطعة . وحقيقة أمره أنه هاجر إلى فرنسا ، فتطوع في فرقة الأجانب من الجيش ، ثم أعلنت الحرب الكبرى فاقتتل وجرح ونال وساماً ، ثم أرسل في فرقته إلى سلانيك ، ثم أرسل في فرقته أيضاً إلى أفريقيا الشمالية ، فاقتتل في مراکش وأصاب عناء كثيراً . وقد انتهت الحرب وأبلي في قمع ثورة من الثورات في مراکش بلاء حسناً ، ثم ردت إليه حريته فغادر الجيش . وقد اتخذ لنفسه اسماً غير اسمه الحقيقي فتسمى « لوسيان جيرو » .

* * *

فإذا كان الفصل الأول من القصة فنحن في مرسيليا في فندق من فنادقها مشرف على البحر وفي قاعة هذا الفندق

رجال ونساء يلهون ويلعبون ينتظرون السفن التي ستقلهم إلى
وجوه من السفر مختلفة . وهم كذلك إذ يدخل شاب غريب
الطوار ، تردد قبل الدخول ثم صحت عزيمته فدخل ، فتلقاه
صاحب الفندق مبتسماً يسأله عما يريد ، فإذا الشاب كان قد نزل
في هذا الفندق منذ خمس سنين ثم سافر وترك في الفندق
متاعاً له ، وهو الآن يريد هذا المتاع . أما صاحب الفندق
فيتردد ، لأنه لم يكن يملك الفندق حين نزل فيه هذا الشاب ،
وإنما اشتراه منذ عهد قريب ، فلا يكاد ينيء الشاب بذلك حتى
يشور هذا الشاب فينذر ويهدد مرة بالعصا وأخرى بالمسدس ، فيضطرب
صاحب الفندق ويجزع ويذهب للبحث عن هذه الأمتعة . أما الشاب
فقد جلس إلى مائدة ودعا بأجود الشراب فقدم إليه فهو يشرب ،
وما أسرع ما يتعرف إلى سيدات فيشار بهن ويداعبهن . ويأتي صاحب
الفندق فينبئه بأنه قد وجد المتاع ، ولكن إحدى هذه الختائب
مفتوحة وقد فتحت بأمره . ثم يقدم إليه كتاباً أرسله هو إلى
صاحبه أن يخلى بين الذين يحملون هذا الكتاب وبين متاعه
يأخذون منه ما يشاءون ، فلا يكاد يظهر على الكتاب حتى

يشور نأثره ، ويعلم أن الكتاب مزور ، ويهدد بالقتل ويهدد بالشكوى إلى الشرطة ويهدد بشيء كثير . وهو كلما بلغ منه الغضب أقصاه استطاع بشيء من الجهد أن يملك نفسه ويعود إلى صوابه . أما من حوله من الناس فمضطربون يبلغ الخوف بهم أقصاه أحياناً ، ثم يتهمون إلى الضحك والإغراق فيه أحياناً أخرى ، ثم يتركهم هذا الشاب ويصعد إلى غرفة طلب أن تهيأ له . وإنهم ليتحدثون في أمره بعد أن فارقهم إذ يدخل رجلان يظهر عليهما أنهما أقبلا من سفر بعيد فيسألان عن « لوسيان جيرو » . فإذا أجيبا أنه في الفندق اطأنا وجلسا ينتظرانه . يشك صاحب الفندق ومن معه في أن الشاب لص وفي أن هذين الرجلين أقبلا يلتمسانه وها من الشرطة . ثم يأتي الفتى ، فإذا لمح الرجلين اضطرب وجلس ناحية وأخفى وجهه في صحيفة يتكلف قراءتها ، ولكنه لا يكاد يستقر حتى ينهض إليه أحد الرجلين فيدنومنه وصاحب الفندق ينظر هذا في لذة وانتظار للحدث العظيم . فإذا بلغ الرجل الشاب حياه وانصرف عنه الشاب ورده رداً عنيفاً ، فيلح الرجل في التحية والملاطفة ويلح

الشاب في الكف والانصراف . ولكن الرجل يستطيع أن يكرهه على الكلام فيتحدثان ، فإذا هذا الرجل ليس شرطياً ، وإنما هو رجل من أهل بروكسل كلف مراقبة الشاب والاجتهاد في منعه من العودة إلى المدينة ، وقد أقبل يعرض عليه بلسان أخيه أن يختار من بلاد الله ما شاء أن يقيم فيها ناعماً موفوراً تدر عليه الأرزاق في سعة وسخاء على ألا يعود إلى بروكسل لأن الناس في بروكسل لا يشكون في موته ، ولأن عودته إلى المدينة ستذكر الناس بما كان من آثامه ومخازيه ، فيضيع شرف الأسرة في غير نفع ولا فائدة ، أما هو فلا ينتظره في المدينة إلا السجن والعار . يسمع الفتى هذا كله مغضباً مرة ، مازحاً مرة أخرى ، معلناً عزمه على العودة ولا سيما حين يعلم أن أباه قد مات وأنه يستطيع أن يرث اللقب وحظاً ضخماً من الثروة . وإذن فليس ما يمنعه من أن يعود فيصبح أميراً ويؤدي دينه ويسترد مكانته وشرفه . ولكن أخاه قد ورث اللقب واقتسم الثروة مع أخته ، وهو لا يريد أن يعود هذا الغائب فيفسد عليه ما يستمتع به من نعيم .

وبلغ اليأس والاشمئزاز من نفس الشاب أن كره الحياة

وازدرى الأحياء وأسرته بنوع خاص ، فافتنع بألا يعود ،
ورفض ما يعرض عليه من رزق ، ولكنه سأل صاحبه قبل
انصرافه عن حبيبته ما خطبها ؟ فينبئه صاحبه بأنها سعيدة ناعمة
البال ، يفارقها زوجها أكثر الأحيان لأعماله وقد اتخذت لها
عشيقةً جديداً ، فهي تلقاه وتستقبله لا تخشى في ذلك رقيباً
ولا حسيباً ، وهو « البارون درانيم » . ينصرف الرجل وقد
ألقى في قلب الفتى هذا النبأ ، فوقع منه موقع الجدوة من
المهشم ، فإذا نار الغيرة قد تأججت ، وإذا الاضطراب قد ملك
على الفتى أمره ، ففسى كل شيء ، ولم يذكر إلا شيئاً واحداً
وهو السفر إلى بروكسل ، ليرى حبيبته الخائنة ، ولينتقم من
عشيقتها الجديد .

فإذا كان الفصل الثانى فنحن فى مدينة بروكسل فى منزل
هذه الحسناء « كلير دارلون » ، وقد أقبل المساء وهى تستقبل
هذه الليلة . فإذا امرأة صديقة لها قد أقبلت قبل ميعاد الزيارة
تريد أن تلقاها وتلح فى ذلك . ويذهب الخادم لينبئها ويدخل
أثناء ذلك « درانيم » العشيق الجديد . فيكون بينه وبين هذه

المرأة حديث تفهم منه أنهما متباغضان ، ثم تقبل صاحبة البيت وينصرف الفتى فتتحدث إلى صديقتها فتنبئها هذه بعودة صاحبها القديم وبأنه يريد أن يراها . أما « كليز » فلا تكاد تسمع ذلك حتى تضطرب ويملكها الغضب ، وتذكر ما لقيت في ذلك الحب القديم من ألم ، وتعلن أنها لا تريد أن ترى هذا الذي هجرها هجراً غير جميل ، فلم يسمع لها ولم يودعها ولم يكتب لها أثناء غيبته ، وهي لا تريد أن تستأنف الألم الذي لقيته . أما صاحبها فتتعطفها وترضاها ولكن في غير نفع . فإذا يئست منها عمدت إلى التليفون تريد أن تأمر الفتى بالألا يجيء ، فتمسكها صاحبها . وإذن فهي تألم ، ولكنها ما زالت تحب ونفسها تواقفة إلى أن ترى هذا الشاب . وهما في هذا التردد إذ يقبل الزائرون جماعات وفيهم أخو الشاب وأخته وهما يطلبان إليها سرّاً ألا تستقبل هذا الفتى في بيتها ؛ لأنها إن استقبلته حبيت إليه المقام ، وإن أبت استقبله يئس من كل شيء وعاد أدراجه . فيتم عزمها على ألا تستقبله مخافة الفضيحة ، وهم بأن تكلف صاحبها إبلاغه ذلك ، ولكن صاحبها تتلكأ وتتشاغل بالزائرين ، تتحدث إلى هذا وإلى ذلك . وفي أثناء

ذلك يخلو إلى الفتاة عاشقها الجديد ، فيتحدث إليها في حبه .
ويطلب إليها الوفاء ويلح في ذلك ، فنفهم أن حبهما على
قوته لم ينته إلى نتيجته ولم يتجاوز الأمانى والآمال ... يلح
الفتى وتجيبه المرأة في ازدراء وإباء ولكن الفتى مشفق بعد
أن علم بعودة العاشق القديم ، فهو يندرها ويخوفها نتيجة
الأصرار على الإباء . وبينما هى مترددة فى أمر صاحبها القديم
ألتقاه أم ترده إذ يقبل هذا صاحب ، فلا تكاد تراه حتى
تضطرب ، ولا تكاد تتحدث إليه وتستمع له حتى يزول ترددها ،
فإذا هى عشيقته كما كانت ، وإذا هو عشيقها كما كان ، وإذا
هو قد اكتسب من هذا الفوز قوة يلقي بها ما سينزل به من
الحن وما يدبر له أخوه وأصحابه من كيد . وهى تنصح له أن
يكتفى الليلة بهذا اللقاء وأن ينصرف ، ولكنه أبى ويتردد ،
وإذا القوم قد أقبلوا وفيهم أخوه وأخته فرأياه ، ولم يبق بد
من أن يبقى ويثبت لأعدائه وخصومه . وفى هؤلاء الناس
خال له يحبه حباً جما ويعطف عليه عطفاً شديداً ، فتكون بين
الشاب وهؤلاء الناس على اختلافهم ضروب من الحوار المؤلم المر
لا حاجة بنا إلى تفصيله ، وإنما نذكر منها حوارا بينه وبين أخيه .
يدعوه أخوه إلى أن يستخفى فيأبى ، ويشتد الخصام بينهما

فيقول له أخوه كلاماً فيه تعريض بصحة نسبه لأبيه . فلا يكاد
الفتى يسمع هذا التعريض حتى يشتد اللجاج بينه وبين أخيه ،
ويكاد الأمر ينتهي بينهما الى الشر لولا أن يدخل بينهما خالهما
فيصرفهما عما كادا يتورطان فيه . وتنتهى الليلة انتهاء سيئاً ،
تنتهى بخصوصة عنيفة بين هذا الشاب وخصمه العاشق الجديد .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت على هذه الليلة أيام ،
وما زال الفتى مقيماً في بروكسل ، وقد استأنف حبه القديم ،
وأخذت أسرته وخصومه ودائنه يكيّدون له يريدون أن يقفوه
بين يدي القضاء . ونحن في بيت هذه الصديقة التي توسطت بين
الفتى وبين صاحبه . ذلك أن هذين العاشقين قد اتخذوا بيت
صديقتهما هذه مأوى لهما فهما يلتقيان فيه . فترى « كلير » قد
أقبلت لموعدها فانصرفت صاحبة البيت ، وأخذت هذه تنتظر
عاشقها ، وإذا بالباب يطرق ثم يفتح ويدخل عاشقها الجديد :
معدرة ! لقد زرتك غير مرة فأبيت استقبالي ولا بد من أن
أراك وأحدث اليك وقد ترقبتك حتى إذا خرجت من البيت
تبعتك الى هذا المكان فلا بد أن تستمعي لى .

فإذا استمعت له أعاد عليها إلحاحه القديم فرفضت
مزدرية ، ولكنه يندرها فهو يملك في يده سلاحاً قوياً . فإذا
تبينت أمر هذا السلاح أظهر لها كتباً كتبها إلى عاشقها الأول
وفيها ما يثبت أنه سارق ، وأنه مبدد لما لا يملك ، ثم ينبئها
بأن هذه الكتب ستدفع إلى القاضي ثم تنشر ، وهي تكفي
لسجن الفتى ولتلويث اسمها واضطرار زوجها إلى الطلاق . وهو
يطلب إليها شيئين : الأول لا بد منه إذا كانت ترضى بصاحبها
على السجن وبنفسها على العار ، وهو أن تقطع الصلة بينها وبين
هذا العاشق وأن تقنعه بمفارقة بروكسل . والثاني اختياري
تستطيع أن تطمئن إليه وأن ترفضه ، ذلك أنه سيحتفظ بهذه
الرسائل ، فإذا كانت تريد أن تستردها لتأمن شرها فلا بد لها
من أن ترضى له بما يريد فإذا سمعت هذا تضرعت إليه
واستعطفته ليرد إليها هذه الرسائل ولكنه يأبى إلا أن ترضى
له فتغضب وتطرده طرداً عنيفاً . أما هو فينصرف منذراً
وقد أجلها إلى غد .

ثم يقبل الفتى عاشقها الأول ، فإذا هو مضطرب قد أخذ
منه السكر ، فهو يهذى ويتكلف الفرح والابتهاج . تشك في

أمره وتساله فلا تتبين منه شيئاً . ولكنه يشهد اضطرابها . فإذا
قصت عليه ما كان من أمر الرسائل أفاق من سكره وظهر عليه
حزن شديد ؛ لأنه يشعر بأنه لن يهوى وحده وإنما ستهوى معه
هذه المرأة البريئة إذا ظلت هذه الكتب في يد هذا الخصم .
وهو يفكر في ذلك إذ يدق جرس التليفون ، فإذا سألت
الخادم عرفت أن أخا الفتى يسأل عنه يريد أن يراه فيأمرها أن
تنبئه بأنه ينتظره . وتخرج صاحبتة « كليز » مضطربة ، أما
هو فيأمر الخادم أن تدعو خصمه « درانيم » باسم صاحبتة
ليزورها الآن في هذا البيت فتفعل . ويقبل أخوه فينصح له
بالفرار ؛ لأن النائب العمومي أمضى أمر القبض عليه فيأبى ،
ويكون بينهما جدال عنيف ينتهي بأن يظهر الفتى من أخيه على
أنه ينكر نسبه إلى أبيه ، وهو لا يقول هذا عفواً وإنما يقوله
لأنه سمعه من أبيه ، ولولا ثقته بأن نسبه غير صحيح وأنه ليس
أخاه حقاً لما نازعه ولما كاد له ، ولكنه يعلم أنه مدسوس في
الأسرة ، وأنه قد أساء إلى هذه الأسرة ، فهو يريد أن يخلص
شرف هذه الأسرة من فتى ليس منها في شيء ، ثم ينصرف .
ويظل الفتى محزوناً وقد شك في أمره وأصبح يتساءل أهو أمير

حقاً؟ أهو وارث لأبيه شرعاً؟ وأخذ ينظر في المرأة فيتين ملامح تخالف ملامح الأسرة. ثم تدخل صاحبته فينتها بأنه دعا عاشقها الثاني وأنه مقبل الآن، فعليها أن تتلقاه وسيستخفي هو لحظة حتى إذا جلس خصمه ظهر هو؛ فعليها إذن أن تتركهما حيناً، ويأتي «درانيم» فيستخفي الشاب. فإذا دخل «درانيم» تلقته المرأة مضطربة خافتة الصوت، فيجلس إليها ويستأنف إلحاحه وانذاره، ولكن الفتى يظهر من مخبئه، وتتركهما المرأة وجهاً لوجه وقد عمد الفتى إلى الأبواب فأحكم إغلاقها. فإذا خلا الخصمان طلب الفتى إلى خصمه الرسائل، فيتأبى فيخرج مسدسه ويقسم ليردن الرسائل أو ليقتلن! يشك الخصم في هذا النذير، ولكن الفتى ينبئه بأنه سيقتل نفسه بعد قليل فهو لا يخشى القضاء ولا العقاب ولا ما سيقول الناس، وبمهله دقيقة لرد الرسائل إليه فلا يكاد خصمه يمانع لأنه يرى المسدس قد صوب إليه، فيدفع إليه الرسائل وينصرف... أما هو فقد أخذ الرسائل ووضعها على مائدة ودعا صاحبته فيجيبه من وراء الباب المغلق وتدعوه إلى أن يفتح لها وتلح،

ولكنه لا يفتح ولا يجيب إلا بكلمة الوداع . . . ثم ينصرف مسرعاً ! وتأتى صاحبتة فإذا لم تجده خرجت جزعة .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في الريف في مكان موحش ، وقد قام فيه قصر نغم تحيط به غابة موحشة ، وفي هذا القصر يقيم خال القتي ، وهو شيخ فيلسوف قد كره الناس وحضارتهم وأخلاقهم ، واحتقر الحياة الاجتماعية كلها لأنها تفسد على الفرد حرите وتجعله كالكلب المستأنس لا يمتاز من غيره الا بقلادة في عنقه . هو اذن يحتقر الحياة والأحياء من الناس ، ويؤثر عشرة الحيوان . وهو كلف بالصيد ومعاشرة الحيوان ، يربى بعضه ويقتل بعضه كما يقول ، وله لذة هي المزاجية بين الكلاب والذئاب . وقد أقبل إلى هذا القصر ذلك الرجل الذي رأيناه في الفصل الأول يتحدث إلى الشاب في مرسليليا يطلب إليه ألا يعود ، أقبل لأن صاحب القصر دعاه وقد علم ما كان من أمر ابن أخته ومن أنه مقبوض عليه إذا لم يؤد دينه ، فهو يريد أن يؤدي عنه هذا الدين وأن يصلح من أمره ، وقد دعا إليه أيضاً أخوا القتي وأخته ، وهو يريد أن يصلح بين هؤلاء

جميعاً ، وقد أبرق إلى النائب العمومي يعلن إليه أنه مؤد دين ابن أخته . وهو في هذا الحديث إذ يقبل الفتى مضطرباً ذاهلاً فيخلو إلى خاله يسأله أمره وماذا يعرف من نسبه . فيحاول الشيخ أن ينكر أو يفر ، ولكن الفتى يلح فيجيبه الشيخ بأنه لا يعرف من هذا الأمر شيئاً إلا أن أخته تزوجت كارهة من زوجها فلم تحبه يوماً ، وعاشت معه سنين ثم فارقتها زوجها أعواماً لمهمة سياسية في الخارج وكانت في الخامسة والعشرين من عمرها ، وكانت جميلة خلابة وكان المفتونون بها كثيرين ، ولكن لم يدع أحد عنها قالة سوء . وهو يعلم أن أباه لم يكن يحبه ولا يميل إليه ، وأنه كان يشك في نسبه . ثم ما يزال الفتى بخاله حتى يذكر له طائفة من الذين فتنوا بأمه ، فإذا ذكر منهم ضابطاً فرنسياً ألح في ذكره وأشار إلى تشابه بينه وبين الفتى ، فقد كان هذا الضابط جسوراً مخاطراً مسرفاً في حب الحركة كارهاً للنظام ، حتى أنه استقال من الجيش وذهب إلى افريقيا الشمالية يستكشف الصحراء ، فقتله هناك أهل البادية . لا يشك الفتى في أنه ابن هذا الضابط . وإذن فقد تغير كل شيء في نفسه ، فهو ليس خصماً لأخيه

لأنه ليس أخاه ، ولأنه لا يستحق لقب أبيه ولا يستحق ميراثه . وهو يريد أن يقتل نفسه ليتخلص من هذا الشقاء . وإذ ليتحدث إلى خاله إذ تدخل « كلير » لأنها عندما افتقدته فلم تجده جزعت كما رأينا وانصرفت تبحث عنه ، فأقبلت تلتمسه عند خاله فوجدته . فتركهما الشيخ وينصرف إلى مكتبه ليدبر أمر هذا الدين وما بين الأخوين من الخلاف . ويخلو العاشقان فيكون بينهما حوار مؤثر حقاً ، يعلن إليها أنه مجرم ، فتجيبه بأنها تحبه ، ويعلن إليها أنه ليس لأبيه ، فتجيبه بأنها تحبه ، ويعلن إليها أنه فقد كل شيء : فقد الثروة وفقد الشرف وفقد اللقب وفقد حتى النسب الصحيح ، فتجيبه ولكنك لم تفقدني فلم تفقد الحب !!

ثم تعلن إليه أنها قد نظمت حياتها ، فقطعت صلتها الزوجية واعتزمت أن تعيش معه وأن تراقبه إلى حيث يريد . وهما في هذا إذ يقبل خاله ومعه أخوه وأخته وزوجها والرجل الآخر الذين رأيناه أول هذا الفصل . فتتصرف للمرأة ، ويعلن خال الفتى إليه أنه قد تم كل شيء . فأما دينه فقد أدى عنه . وأما لقبه فقد رد إليه واعترف بذلك أخوه . أما هو فلا يكاد

يسمع هذا حتى ياباه ويجيب مبتسماً : « هذا ما دبرتم ،
انتظروا فسأكتب لكم وصيتي » وينصرف . فإذا طالت غيبته
على القوم افتقدوه فلم يجدوه فيأخذ الشيخ جزعاً شديداً ويدعو
ابن أخته بصوت عال تسمعه « كبير » فتقبل جزعة وقد اشتد
اضطراب القوم ، فهم يدعون الخدم يسألونهم ويأمرونهم بالبحث
ويقبل غلام معه كتابان يدفع أحدهما إلى الشيخ والآخر إلى
أخي الفتى . فيفرض هذا كتابه ويقرؤه ، فإذا الفتى يعلن إلى
أخيه أنه قاتل نفسه وقاذف بها في هوة عميقة بعيدة عن القصر
يسميا ، فلا يكاد القوم يسمعون هذا حتى يأخذهم الهلع .

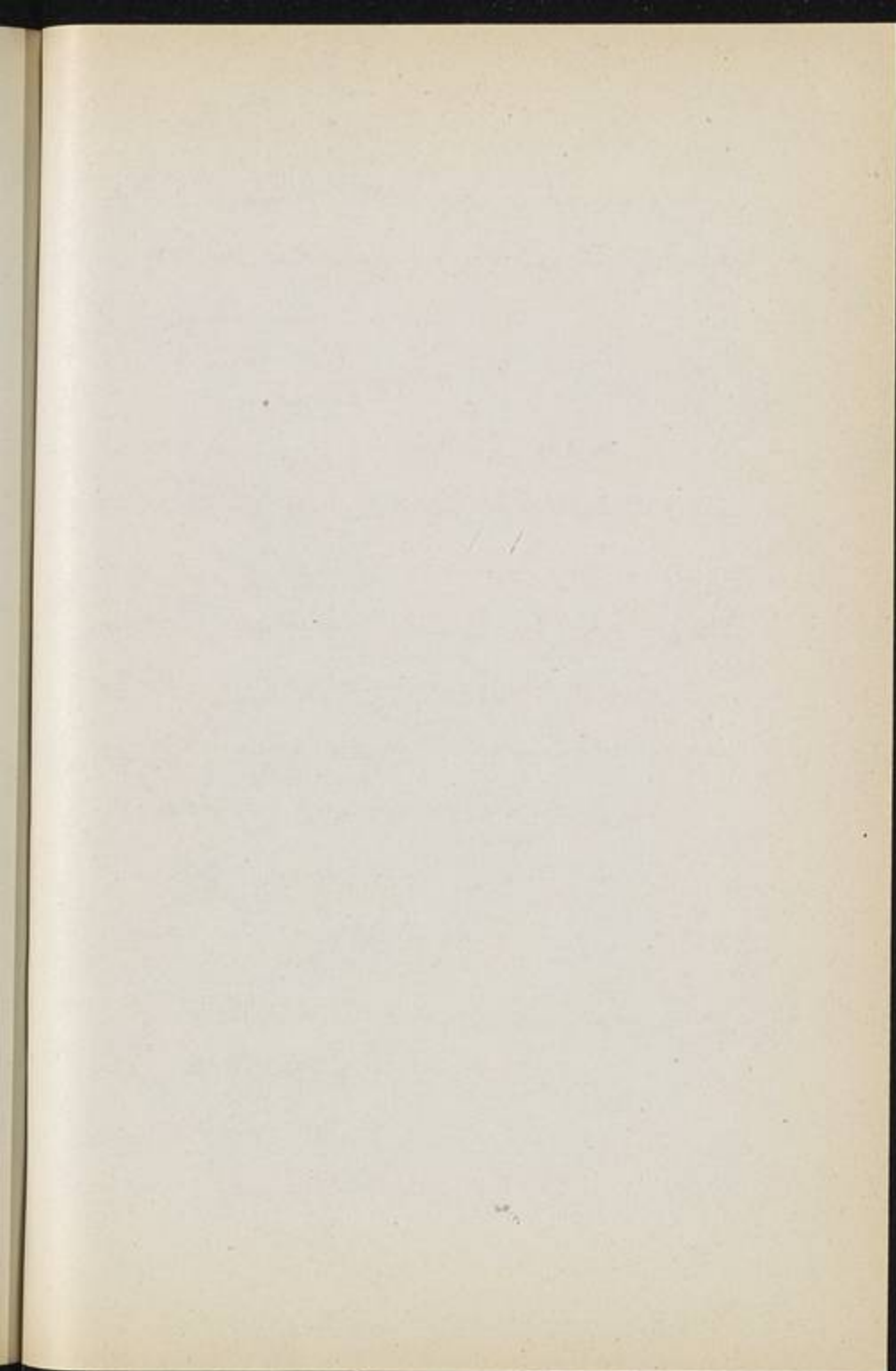
أما المرأة فقد أغمى عليها . وأما الشيخ فما زال هادئاً
ولكن تبدو عليه مظاهر اليأس . حتى إذا انصرف القوم جميعاً
يريدون أدراج الفتى دفع الشيخ إلى المرأة ، وقد أفاق ، كتابه
مبتسماً وخرج فلحق بالقوم . أما المرأة فتتظر في الكتاب ولكنها
لا تسكاد تمضي في القراءة حتى يدخل عليها الفتى فتلقى بنفسها بين
ذراعيه وتدعوه باسمه « جان » فيجيب : لا تذكرى هذا الاسم
فإن « جان » قد مات وقد ألقى بنفسه في تلك الهوة . أما هذا
الذي أمامك فاسمه « لوسيان جيرو » وقد تركت على هذه الورقة

عنوانى فى باريس . فإذا كنت تريد أن تشاطرينى ما بقى لى
من هذه الحياة السيئة فألحق بى وإلا فكونى سعيدة ، ولكن
لا تقولى شيئاً . تحببته سألحق بك غداً . . .

فأنت ترى إلى هذه القصة وإلى خلوها من كل فكرة
قيمة أو رأى ذى خطر وإلى امتلائها بالحركة والأحداث والمواقف
العنيفة التى تخلع القلوب فرقاً وترقصها أملاً . وأنت ترى إلى
هذه القصة كيف استطاع الكاتب أن يصور الجزع حتى ملك
على هؤلاء القوم وعلى الجمهور نفوسهم وأهواءهم فلم يشكوا فى أن
الفتى قد قتل نفسه ، وهم فى هذا الجزع العنيف وإذا الفتى يظهر
مبتسماً هادئاً فأنعاً من الحياة بما قسم له ، وإذا شئ من الأمل
الهادى المتواضع يقوم مقام ذلك الأمل الضخم الذى لاحد له ،
ومقام ذلك اليأس الذى كاد يأبى على كل شئ .

أعترف بأن هذه القصة مما يلهى الجمهور ويرضيه ولكنى
أعترف أيضاً بأنها لم تلهنى ولم ترضنى .

يناير ١٩٢٤



الرجل المغلول

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « ادوار بورديه »

أما اليوم فسأحدثك عن قصة تمثيلية بالمعنى الصحيح ،
بالمعنى الذى أعجب به وأرتاح اليه ؛ لأن فيها ما يرضى الخاصة
والعامة معاً . فيها ما يسر الفيلسوف الباحث ، وفيها ما يتتهج له
النظارة الذين يختلفون إلى ملاعب التمثيل ليقضوا فيها جزءاً من
الوقت ، وليجدوا فيها شيئاً من هذه اللذة المقدسة التى يخلقها
الفن فينال بها العقول والقلوب .

ليست هذه القصة درساً فى الفلسفة ، أو فضلاً من
فصول العلم لا يفهمه إلا الإخصائيون . وليست هذه القصة بناء
شاعراً كثير الحنايا والتعارج ، من هذه الأبنية التى يشيدها الخيال
دون أن يسيطر عليه العقل أو تشرف عليه الفلسفة ، وإنما
هى قصة ، للفلسفة فيها حظ وللخيال منها قسط . فهى كما قلت
ترضى العقل لما فيها من فكرة وصدق تحليل ، وترضى القلب
لما فيها من جهاد بين العواطف المختلفة المتناقضة . وهى

من هاتين الناحيتين مرضية للعامة والخاصة . ولقد تبحث عن الفكرة التي قامت عليها هذه القصة فلا تكاد تجدها ، أو لا تكاد تشعر بأنها فكرة جديدة أو غريبة . ومع ذلك فالقصة لذيدة ممتعة للعقل ، لا لأنها تشتمل على شيء جديد ، ولا لأنها تفصل رأياً من آراء العلماء أو نظرية من نظريات الفلسفة ، بل لأنها تتناول نفسين أو نفوساً ثلاثاً بشيء من التحليل الدقيق يظهر خفاياها ويعلن ما كمن فيها من عاطفة أو شعور . ثم هي إلى هذا التحليل قد وقفت إلى طائفة من المواقف الدقيقة الرقيقة التي تؤثر في نفسك أقوى التأثير دون أن تصدمك صدمة قوية أو تهزك هزة عنيفة ، وإنما هي تحدث في نفسك هذا التأثير قليلاً قليلاً ، وترقى بك في الألم شيئاً فشيئاً حتى تصل بك إلى أقصاه ؛ مثلك في ذلك مثل الذي يصعد في جبل شاهق دون أن يلتقي في تصعيده عناء ، لأن طريقه إلى القمة سهلة معبدة . فالكتاب لا يجذبك إلى ما يريد جذباً ، وإنما يمشيك إليه ويقودك في لطف ورفق ، كأنه يسرقك أو يختلسك . ذلك إلى حلاوة في اللفظ ، وسحر في البيان ، وتجنب للتكلف ، واقتصاد في الحركة . والغريب من أمر هذه القصة أنك تشهدها أو تقرؤها فلا تكاد تشعر بأنك تشهد قصة أو تقرؤها ، وإنما

يملكك شعور قوى هادىء لأنك تشهد فصلا من فصول الحياة أو تطلع على صورة من صور الحياة . ومن هنا كان ما تشعر به من لذة أو ألم صادقا ، لأنه لم يُتكاف ولم يُتعمد ، وإنما نشأ فى نفسك كما نشأ فيها الذات والآلام اليومية أمام هذه المظاهر الفطرية التى تبعث فى النفس اللذة والألم . ومن هنا لم يختلف النقاد فى أمر هذه القصة ، وإنما اجتمعت كلمتهم على الإعجاب بها والثناء على كاتبها وانتظار الخير الكثير منه . ولعل مصدر هذا الإتيان الذى أجمع النقاد عليه أن الكاتب هادىء محب للأناة ، لا يتعجل الفوز ، ولا يتهاك على التصفيق ، ولا يحرص على كثرة الإنتاج . هو بطيء فى إنتاجه يتصور القصة ، ثم لا يكتبها حتى تطول العشرة بينه وبين الصورة التى يتصورها ، فإذا أصبحت هذه الصورة كأنها جزء من نفسه أقبل على قلمه فرسم هذه الصورة فى هدوء وبعد عن التكاف . فإذا تم له من ذلك ما أراد ونالت قصته حقها من الفوز ، لم يطعمه ذلك ، ولم يدخل إلى نفسه الغرور ، ولم يبعثه على أن يستزيد من الفوز ، وإنما يبعثه على أن يتمهل ويستأنى ويتيح لنفسه الفرصة التى تمكنها من الراحة والتجدد ، فيمكث الستين والسنين لا يكتب ولا يفكر فى الكتابة وإنما يستريح ويقرأ ويشاهد وينتقل فى

مظاهر الحياة ، متفهماً لها محللاً إياها ، حتى تعرض له صورة أخرى ، وإذا هو يسلك معها سبيله مع القصة الأولى . فهو من أقل الكتاب المثلين إنتاجاً ، ولكنه من أغزرهم مادة ، وأحسنهم أثراً وهو ينال على ذلك من الفوز والمكافأة أكثر مما يناله غيره من المتعجلين .

« ميشيل فردييه » محام معروف ، عظيم الشهرة ، بعيد الصوت ، كثير العمل ، لا تكاد تسمع لحديثه حتى تشعر بأنه ذكى القلب ، رقيق العاطفة ، حاد المزاج ، قوى الحس . وهو متزوج من امرأة يحبها حباً لا حد له ، وتجه هي كذلك حباً لا يعدله حب ، واسمها « هيلين » . لا تكاد تسمع لحديثها حتى تتبين فيها مثلاً للمرأة التي تراها ، فإذا أنت مأخوذ بأكبارها وإجلالها ، لأنها جمعت إلى الجمال والفتنة نفساً عالية ، وقلبا ملؤه الحنان ، وأخلاقاً مستقيمة فطرت على الطهارة والوفاء . وهي كزوجها رقيقة العاطفة ولكنها قوية الحس . تراها في الفصل الأول يتحدثان عن سياحة يعتزمان أن يسيحها في أسبانيا .

أما هي فمتهجة مغتبطة لأنها ستري ما لم تر ، ولأنها ستخلوا إلى زوجها أسابيع لا يشاركها فيه شريك ، وأما هو فسهيد ولكنه يتعجل العودة ؛ لأن عمله كثير ، ولأنه لا يستطيع أن يؤجل هذا العمل إلا قليلا . وتقيم من حديثهما أنهما قد تزوجا منذ ثلاث سنين ، وأنهما تحابا قبل أن يتزوجا ، وأنها أسلمت نفسها له قبل الزواج . أنكرته أسرته كلها ، وما زالت تنكره وتزدرى امرأته إلا أختا له هي « جنيفيف » وهي أرملة لا ولد لها ، تحب أخاها وتكبر زوجها وتضمر لها مودة قوية . يسألها ماذا تصنع هذا اليوم فتنبئه بأنها تنتظر جماعة من الزائرين سيتناولون عندها الشاي . فإذا سألتها عن مصدر هذا أنباته بأن أخته تفكر في أن تعرف فتاة إلى شاب ، وهي تريد أن يكون بينهما زواج . أما هذه الفتاة فاسمها « كلودين أرفو » جميلة ذكية مثرية ، ولكنها فقدت أمها ، وهي تعيش مع أبيها الذي لا يخل بها ولا يلتفت إليها ، وإنما ينصرف عنها إلى لذاته وشهواته . فمن الخير أن تتغير حياتها ، وأن تجد في الزواج ما ينقذها من شر هذه الوحدة التي تعيش فيها . وأما الشاب فهو « فيليب دارتيز » وهو صديق هذه الأسرة ، وهو جميل حسن الطلعة ، غني ، اشتغل بالحمامة فتفوق فيها وكاد يبلغ

مكانة عالية لولا أن عرضت له امرأة نَصَفٌ ولكنها غنية جداً ، فأحبها وأحبته وعاشا حيناً ، فما هي إلا أن صرفته عن العمل ، فأصبح لا يعيش إلا لها ، وأصبح يضحي بملكاته ومكانته في سبيل هذه المرأة ، ومن الخير أن يتركها إلى حياة الزوجية للمنظمة التي تمكنه من إحياء ملكاته واسترداد مكانته في الحمامة . أما زوجها فلا يكاد يسمع هذا حتى يسخر منها ومن أخته ومن عنايتهما بتزويج الناس بعضهم من بعض . ثم تقبل أخته فينصرف . ويقبل الزائرون قليلاً قليلاً حتى يتم اجتماعهم إلا الشاب فإنه لا يحضر ، ومع ذلك فقد وعد بالحضور ، وصاحبة البيت تنتظره وقد أعلنت مقدمه إلى الزائرين .

وهنا قسم لذيذ من القصة ، فيه ضروب من الحوار مختلفة ، كل واحد منها على قصره يصور لك تصويراً صادقاً دقيقاً نفساً إنسانية أو شخصاً من أشخاص هذه الحياة الخاصة حياة الأغنياء والمترفين . فهناك في ناحية من نواحي الغرفة رجل وامرأة يتحدثان ، يتحجب الرجل إلى المرأة ويغريها بالحب ولداته . فتجيبه بأنها تفهم ذلك وتميل إليه فلا تنفر منه ، ولكنها مع ذلك لا تورط نفسها فيه ؛ لأنها تعودت ألا تكلم زوجها سرّاً ، فهي

تقص عليه أمر يومها إذا اجتمعا إلى مائدة العشاء ، وهي تخشى إن اتخذت لها عاشقاً أن تقص أمره على زوجها لما تعودت من ذلك . ولكنه يغريها ويهون عليها الأمر ، ويفتح لها أبواب الحيل ، وما يزال بها حتى يظهر أنه قد ملك عليها أمرها ، فيخرجان بعد أن يقسم لها أنها تستطيع أن تقص على زوجها كل ما سيحدثها به في الطريق . وهذه المرأة نفسها مشهورة بالتورط في طائفة من الأغلاط المنكرة كلما ظهرت في جماعة . ولم تخطيء حظها من ذلك هذا اليوم . فبينما هم إلى الشاي يذكرون « فيليب » وانتظاره إذ ذكرت صلته بتلك المرأة التي يحبها وتحبه . فسمعت الفتاة ذلك وتكلفت صاحبة البيت مشقة لتصرف الحديث عن هذا الوجه .

وهناك في ناحيه أخرى أبو الفتاة ، وهو رجل قد كاد يتقدم في السن ، ولكنه شاب أو يتكلف الشباب ، مكب على لذته لا يعدل بها شيئاً آخر . وهو حريص على أن يزوج ابنته ليخلص منها ويفرغ للذاته . وحرصه هذا على تزويج ابنته ينسيه واجبه ، فهو لا يتحرى من أمر الشاب الذي يعرض عليه شيئاً وإنما يكل الأمر في خفة إلى « هيلين » و « جنثيف » . فإذا أبطأ الشاب انصرف وترك ابنته بين هاتين الصديقتين .

وهناك الفتاة « كلودين » يظهر عليها أنها قد بلغت من السذاجة والبراءة خطأً عظيماً ، ولكنها ليست بالساذجة ولا الجاهلة ، فهي تعلم لم دعيت إلى هذا الشاي وإن أخفوا ذلك عليها . وهي تفتن لكل ما تسمع من حديث ، وهي تعلم من أمر هذا الشاب الذي يراد تقديمه إليها كل شيء ، وهي تميل إليه لأن خلقه جميل ، وتنفر منه لمكانه من تلك المرأة . ولكن انتظار هذا الشاب يطول ، فتتصرف « جنثيف » والفتاة ، وتبقى « هيلين » وحدها لحظة . ثم يدخل الخادم فينبئها بأن « فيليب » قد جاء حين كان عندها الزائرون ، فلما عرف مكانهم انصرف على أن يعود بعد قليل . وقد عاد ، فدخل ففتلقاه « هيلين » ساخطة مغضبة لأنها دعته إلى الشاي وكانت تريد أن تقدم إليه ناساً . أما هو فيجبب بأنه أقبل ليراها لا يرى غيرها لأن رؤية غيرها تؤذيه ، ورؤيتها هي تسره ، وقد أقبل ليسراً لا ليتأذى . ثم يكون بينهما حديث تظهر فيه قيمة القصة ، وتبدأ فيه المعضلة التي سيعالجها الكاتب في الفصلين الآخرين يتحدثان ، فتذكر له قصة الزائرين وقصة الفتاة ، وأنها تريد أن تقدمها إليه فيتخذها له زوجاً ، فيجيبها بأنه لا يريد أن يتزوج ،

فإذا ألحت عليه ، أجابها في تبرم وسخط بأن ذلك لا يعينها ،
وليس من حقها أن تفكر في أمره الآن أو تحرص على سعادته
بعد أن ازدرت هذه السعادة وضحت بها منذ ثلاث سنين .
وإذن فقد كان بينهما حب قبل زواج « هيلين » ، وقد ضحت
هيلين بهذا الحب وتزوجت . ولكن الحديث يستمر بينهما
فيوضح لنا هذه القصة ، فنفهم أن « فيليب » عرف هيلين
هذه فأحبها ولم تحبه ، ثم قدم إليها صديقه « ميشيل » فأحبها أيضاً
وأحبهته أو قل مالت إليه وكانت بينهما صلات العاشقين ، فتألم
« فيليب » لذلك ، ولكنه أخفى ألمه . ثم أصبحوا ذات يوم
فإذا ميشيل قد سافر فجاء إلى أمريكا وانقطعت أخباره ورسائله
حيناً ، فاتهز فيليب هذه الفرصة واستأنف ملاطفة « هيلين »
والتحجب إليها ، وما زال يتبعها بحبه وإلحاحه حتى رضيت له .
ومضت على ذلك أشهر ، ثم أقبل « ميشيل » من أمريكا ،
فإذا هو لم يسافر إلا لبحث عن الثروة وليضمن مستقبلاً سعيداً .
فلما ظفر بذلك عاد فعرض على « هيلين » الزواج . وكانت
تريد أن تنبئه بخيانتها إياه ، ولكنها رأته سعيداً مبتهجاً
فأشفقت عليه من الألم ، ورأت أن المستقبل أمامها مبتمس سعيد ،

فأشفتت على نفسها من الحرمان ، وكتمت خياتها وقبلت الزواج
وكتبت إلى « فيليب » تقطع ما بينهما من الصلة ، وتعاهد فيليب
وهيلين على أن يجهدا في نسيان هذه الصلة .

ومضت على ذلك أعوام ثلاثة . أما هي فنسيت كل
شئ ؛ لأنها أحبت زوجها ، ولأن زوجها عرف كيف يضمن
لها السعادة . وأما هو فلم ينس شيئاً لأنه مازال يحبها ، وما
زال يألم لهذه القطيعة . فإذا سألت عن هذا الحب كيف يستطيع
« فيليب » أن يجمع بينه وبين معاشرته لتلك المرأة التي قدمنا
الإشارة إليها قلنا لك إن هذا هو سر القصة ، وستظهر عليه
في الفصل الثاني .

فإذا كان هذا الفصل الثاني فقد عاد الزوجان من سياحتهما
في أسبانيا ، وقد أقبلت « جنثيف » تريد أن تلتق « هيلين »
لتحييها بعد العودة ، فإذا رأتها وحيثها أنبثتها بأنها لم تياس
من الزواج بين « فيليب » و « كلودين » ، وأنها قد عملت
لذلك وجدّت فيه فوقت لشيء كثير . ذلك أنها مازالت تحتال
حتى قدمت الفتاة إلى الفتى في ملعب من الملاعب الرياضية ،

وكانت بين الفتاة والفتى مسابقات ومغالبات في هذه الألعاب الرياضية انتصرت فيها الفتاة غير مرة ، ثم نشأ بينهما شيء من الميل ظاهر ، ولكنه في نفس الفتاة قوى يكاد يبلغ الحب الذي تهمل من أجله العبرات ، وهي تريد الآن أن تعلم علم فيليب وما اعتزم في أمر هذا الزواج ، وقد احتاطت لذلك فتحدثت صباح اليوم في التليفون إلى « فيليب » باسم « هيلين » تنبئه بعودتها وتدعوه لزيارتها فوعد بهذه الزيارة في الساعة الثانية بعد الظهر ، وهو قادم من غير شك بعد قليل . أما « هيلين » فتتكر عليها سعيها هذا ، وتلومها لوماً شديداً . ولكن « فيليب » يقبل فستخفي « جنثيف » وتتلقاه « هيلين » . فيكون بينهما حديث نفهم منه أنه معجب بالفتاة ميال إليها ، يود لو استطاع أن يقترب منها ، ولكنه لن يفعل . فإذا سألته عن سر هذا لج في كتابه ، وهي تتضرع إليه وتذكر له حب الفتاة وألمها ، فلا يحفل بشيء من ذلك ، ثم ينصرف . وتعود « جنثيف » فتنبئها « هيلين » بأن لا أمل في الزواج . وهما تتحدثان إذ يدخل الخادم فينبئ بأن « سيمون » وهي عشيقه « فيليب » قد أقبلت تريد أن ترى « هيلين » . فتتشاءم المرأتان لهذه الزيارة وتنصرف

« جنيف » وتدخل « سيمون » . فيبدأ بينها وبين « هيلين » حديث ملؤه التورية والتعريض ، وملؤه الغمز واللمز ، ولكنه ينتهي إلى جزء هو عقدة القصة ومشكلتها الحقيقية . ذلك أن « سيمون » تصارح « هيلين » بأنها تريد أن تزوج من « فيليب » وتطلب معوتها على ذلك . فإذا أظهرت « هيلين » شيئاً من التردد جاهرتها سيمون في عنف وقسوة بأنها مدينة لها بهذه المعونة ، وأنها إذا لم تعنها فستلحق من ذلك شراً ليس فوقه شر لأن « سيمون » تعلم ما كان بينها وبين « فيليب » من الخيانة ، وأنها إنما علمت ذلك لأنها كانت تحب « فيليب » فانصرف عنها حين فتن « بهيلين » ، فما زالت تبين أسباب هذا الانصراف حتى عرفتها . وإذن « هيلين » عدوتها قد أساءت إليها حين فتن « فيليب » ، وما زال « فيليب » متأثراً بهذه الفتنة ، فيكفي أن تأمره « هيلين » بشيء ليفعله . وإذن فهي تطلب إلى هيلين أن ترغبه في هذا الزواج ، فإن لم تفعل فستقص أمرها على ميشيل زوجها ، وستكون شقية مثلها . ثم تنصرف ، فإذا هيلين جزعة مضطربة يتنازعها أمران كلاهما شر ، فهي لا تريد أن تعلم زوجها بما كان من حياتها إياه ، وهي لا تريد أن يقترن « فيليب » بهذه المرأة

التي يكرهها ويزدريها ، فتسرع إلى التليفون وتدعو « فيليب » لزيارتها . وهي في انتظاره واجمة جزعة إذ يقبل زوجها ، فتجزع لرؤيته ، وكلما تल्प لها زادها ذلك ألمًا وحسرة . فإذا سأها زوجها عن ذلك اعتذرت بتعب السفر ، وما يزال بها حتى تطمئن إليه قليلًا فيتحدثان ، ثم يتركها لعمله . ويأتي فيليب ، فتقص عليه من أمر « سيمون » ما قدمنا . ويظهر لنا أن هذا هو الذي يحول بين الفتى وبين الزواج . ذلك أن « سيمون » أخذت كما أحست ميلًا من « فيليب » إلى أن ينصرف عنها تنذره بأنها ستقص أمره على « ميشيل » فتقضى على سعادة « هيلين » . وإذن فهو يعيش مع هذه المرأة التي يكرهها ويزدريها لا لشيء إلا الحرص على أن تظل « هيلين » سعيدة ، وعلى أن يظل سرها مكتومًا . أما الآن وقد ظهر أنها لا تكتفى منه بالعشرة ، وإنما تريد منه الزواج ، فأمره مضطرب كأمر « هيلين » . وهما يتشاوران إذ يدخل « ميشيل » فيحكي صديقه القديم ويتحدث إليه بأن الناس يذكرون عشرته لهذه المرأة فينكرونها ويسخطون عليها ، ويلومون « فيليب » لومًا عنيفًا ، ويتهمونه بأنه إنما يعاشرها لثروتها ، وينصح له بأن يقطع هذه الصلة . فيجيبه

« فيليب » بأنه لن يقطعها بل هو سيزيدها قوة ومثانة لأنه سيتخذ « سيمون » زوجاً له . ثم ينصرف ويترك هيلين في حال من الوجوم غريبة . وينصرف ميشيل إلى عمله . أما هيلين فتظل واجمة حيناً ، ثم يظهر عليها أنها قد اعتزمت أمراً ذا خطر فتعمد إلى منضدة وتكتب كتاباً ، وتدعو خادمها فتأمرها أن تنصرف بهذا الكتاب إلى « فيليب » فتدفعه إليه وتعود . فإذا انصرفت الخادم نهضت هي في ذهول ووجوم إلى مكتب زوجها فطرقت الباب ودعت « ميشيل » : « أستطيع أن أتحدث إليك ؟ فتسمع من وراء الباب صوتاً يجيبها : أن نعم ! فتستخفي وراء الباب ويسدل الستار .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في مكتب ميشيل والمسرح خال لحظة . ثم يقبل ميشيل مضطرباً ، فيدعو الخادم ويطلب إليه التليفون ، فإذا حمله إليه دعا الطبيب . ثم تدخل أخته جنثيف ، فتفهم من حديثهما أن هيلين مريضة ، وأنها أقبلت إليه تحدّثه ، وكانت أمارات التعب والاضطراب ظاهرة على وجهها ، فسألته أن يجتهد في منع هذا الزواج بين فيليب وصاحبته .

ثم أخذتها نوبة عصبية عنيفة ، فإذا هي ترتعد ارتعاداً قوياً ، وإذا
دموعها تنهل ، وإذا زفراتها متصلة ، وإذا هي ترفع من وقت
إلى آخر يدها إلى رأسها كأنها تحس الماء فيه ، فحملها إلى
مضجعها ، وتعهدتها بشيء من العناية حتى هدأت قليلاً ، وهي الآن
في سنة من النوم . فإذا قص ذلك على أخته حزننت له وأخذت
تهديء من روع أخيها . ولكن أخاها مضطرب يفترض الفروض ،
ويخشى على زوجه كل مكروه . ولكنه يسأل أخته فيم أقبلت ؟
فتقص عليه كل ما قدمت لك في الفصل الماضي . فإذا علم أن
فيليب قد زار زوجه مرتين وأن سيمون قد زارتها أيضاً دخله
شيء من الخوف والتخون وعبثت بنفسه الشكوك ؛ لأن زوجته
لم تحدثه بشيء من ذلك ، فأخذ يسأل عن هذه الزيارات ، وأخذ
يفهم ما بال زوجه كانت مضطربة متعبة حين دخل عليها في
الفصل الثاني ، وأخذ يسأل عن مقدم سيمون ، وأخذت أخته
تزيل من نفسه هذه الشكوك والأوهام . ولكنه كان قد دعا
خادم زوجه فأخبر أنها غائبة . وقد عادت هذه الخادم فأقبلت ،
فيسألها أين كانت ، فتنبئه أن سيدتها كلفتها أن تحمل كتاباً إلى
فيليب فحملته وسلمته إياه ، فلا يزيد هذا النبأ إلا شكاً أو قلاً

إلا يقيناً بأن امرأته تحب هذا الرجل . وما أسرع ما يتمثل تفسيراً لحال امرأته ، فهي تحب فيليب وتكره هذا الزواج ، وقد اجتهدت في أن تصرفه عنه ، وهي تجتهد في ذلك إذ دخل هو عليهما فانقطع الحديث ، فلما انصرف فيليب كتبت إليه تعزم عليه ألا يتم هذا الزواج . وقد اشتد يقينه وقوى حتى كاد يجن جنونه . ولكن أخته تسأله : ولم تجتهد زوجك في أن تمنع هذا الزواج ؟ وماذا عسى أن يغير هذا الزواج من حبهما إن كان بينهما حب ؟ فهي كانت تعلم أنه كان يعيش مع هذه المرأة عيشة الزوج ، أفنظن أنها تعلم ذلك وتطمئن إليه ثم تجتهد في أن تمنع إقراره رسمياً ! ألسنت تعلم أنها كانت تجتهد معي في تزويج فيليب من هذه الفتاة كلودين ؟ وإذن فكيف تستطيع أن تفسر ذلك وأن تفترض أن بينهما حباً . . . فيظهر لميشيل أنه مسرف متعجل في افتراضه ، ولكنه يظل مضطرباً لأنه لا يفهم أمر هذا الكتاب . فتهدئه أخته وتطلب إليه أن ينتظر حتى إذا أبلت هيلين من مرضها سألتها عن هذا الكتاب فأجابته بما يرضيه ويريد . وتعلن إليه أنها ذاهبة تتعجل الطبيب . فإذا خرجت تبعها ، وظل المسرح خالياً حيناً ، وإذا هيلين قد أقبلت وهي

شاحبة ممتعة عليها آثار التعب والعدة . فإذا دخلت ولم تر زوجها
أقبلت إلى التليفون تريد أن تتحدث . ولكن زوجها يدخل
فتنصرف عن التليفون ولما يتمكن من أن يراها . ثم يسألها
كيف هي وما بالها خرجت من غرفتها ؟ فتنبئه بأنها بخير وأنها
تسترد قوتها بعض الشيء . ولكن صاحبنا مضطرب ، وهو أشد
اضطراباً من أن يصبر على زوجه ويجنبها الأسئلة المؤلة ، فيسألها
عن زيارة فيليب ، وعن زيارة سيمون ، وعن هذا الكتاب
الذي بعثت به إلى فيليب . وهو كلما ألقى عليها سؤالاً لم يرمها
إلا اضطراباً وارتباكاً ، ولم يحس منها إلا تورطاً في الكذب
والتلفيق ، ولم يشهد منها إلا ضعفاً وإسراعاً إلى استئناف التوبة
العصبية التي شهدتها منذ حين ، فلا يبقى في نفسه مكان للشك
في أنها خاتمه ، وفي أنها تحب فيليب ، فيصرفها إلى غرفتها وهي
ضعيفة لا تقاوم إلا قليلاً فتنصرف وتتركه ذاهلاً قد بهت .
وتدخل أخته فتنبئه بأن الطبيب غائب عن باريس . فيجيبها :
لسنا في حاجة إلى الطبيب ، فليست مريضة ، وقد ظهر لي
كل شيء . ثم يطلب إلى أخته أن تلحق بهيلين في غرفتها ،
وأن تلازمها وتحول بينها وبين مفارقة هذه الغرفة حيناً ، وأن تمنعها

من المحاق به لأنه ينتظر رجلا ويريد أن يخاو إليه ، فتطيع أخته مشفقة . أما هو فقد عمد إلى التليفون ودعا فيليب ، فوعده أن يقدم حالا ، ويأمر الخادم ألا يدخل عليه أحداً غير فيليب . فإذا أقبل فيليب أجلسه و عمد إلى أبواب المكتب فأحكم إغلاقها ، ثم جلس وقال لصاحبه : لقد عرفت كل شيء ؛ فقد أنبأتني هيلين بما كان بينكما . وهو إنما قال ذلك ليمتحن صاحبه وبيتليه . ولكن صاحبه يجيبه في هدوء . أعلم ذلك ! وكيف تعلمه ؟ فقد كتبت إلى تنبئني به ! تنبئك بماذا ؟ تنبئني بأنها ستقص عليك كل شيء . . . ثم يجتهد فيليب في أن يفسر له هذا الأمر فيذكره بتقديمه إياه إلى هيلين وبأنه كان يحبها ، فلم يحفل ميشيل بهذا الحب ولم يلتفت إليه أو لم يشعر به ، وما زال يتملق هيلين ويتلطف لها حتى كان منها مكان العاشق . فهو إذن قد خان فيليب أو اعتدى عليه ، ثم سافر فجأة دون أن ينبئ بسفوره ، وكان فيليب لا يفكر إلا في شيء واحد وهو أن ينتقم من هذا الاعتداء ، وكان يحب هيلين فأخذ يتبعها ويلح عليها ويتهمز ضعفها ووحدتها حتى ظفر منها بما أراد ، ثم كانت عودة ميشيل من أمريكا وعرضه الزواج على هيلين فسكتبت هيلين الى فيليب

تقطع ما بينهما من صلة وكان هذا كل شيء . أما ميشيل فقد استمع لهذا الحديث والغضب مالك عليه أمره ، وهو لا يكاد يصدق أن الأمر قد انتهى بالعاشقين إلى هذا الحد ، وإنما هو موقن أنهما قد مضيا في الحياة بعد الزواج ، ولكنه يحس من صاحبه الصدق فلا يفعل هذا الإحساس في نفسه شيئاً ، وإنما هو متأثر بالغضب والإهانة وقد اعتزم أن يطرد زوجته وأن يقطع ما بينهما من صلة ، وهو يعلن إلى صاحبه أنه يستطيع أن يسافر معها إلى حيث أراد . ثم يسأله :

« ولكنك تكره هذا السفر فسيحول بينك وبين الاقتران بهذه المرأة الغنية . »

يجيبه صاحبه : لا تكلف نفسك عناء ، فلم يبق من سبب لهذا الزواج .

« وكيف ذلك ؟ »

لأنى كنت مقدماً على هذا الزواج وأنا كاره له . كنت أضحي بنفسى فى سبيلك وفى سبيل هيلين ، وفى سبيل سعادتكما كانت هذه المرأة قد عرفت كل شيء ، وأمستنى ثلاث سنين ، كلما حاولت فراقها أُنذرتنى بأنها ستقص عليك ما تعلم فأبقى ،

ثم خطر لها الزواج فأندرتني وأندرت هيلين نفس النذير فأشفقت عليها وعليك وقبلت الزواج . أما الآن وقد علمت كل شيء ، فليس ما يدعو إلى هذا الزواج . ثم أريد أن أقول لك قبل أن أنصرف أنك ستعفو عن زوجك ، وأن هذا العفو هو أجدر الأشياء بك . ولقد أعلم أنك تألم كثيراً ، ولكني أعلم أن أملك هذا سيزول لأنها تحبك . أما أنا فألم كثيراً منذ سنين ، ولن يزول هذا الألم لأنها لا تحبني . وهو في هذا الحديث إذ تقبل جنيف تدعو أباها . فينصرف فيليب وتبنيء جنيف أباها أن هيلين مضطربة قد عاودتها النوبة ، فهي تدعوه صائحة باكية مرتعدة باسطة ذراعها كالطفل . ولكنه يأبى أن يذهب إليها ويصرف أخته ويجلس وقد وضع رأسه بين يديه مفكراً . ويلبث كذلك حيناً ، وإذا هيلين قد أقبلت فتدعوه ، فإذا رفع إليها رأسه أخذت تحدثه بصوت متهدج وهي تدافع عبراتها : لقد سألتني فأخفيت عليك ، وأنا الآن أريد أن أبتك بالحق ، فلست أجد من ذلك بدا . لا تكلفي نفسك ذلك فقد علمت كل شيء . دعوته فسألته فأنبأني ثم انصرف . وإذا هي جاثية بين يديه تستغفره وتساله العفو !

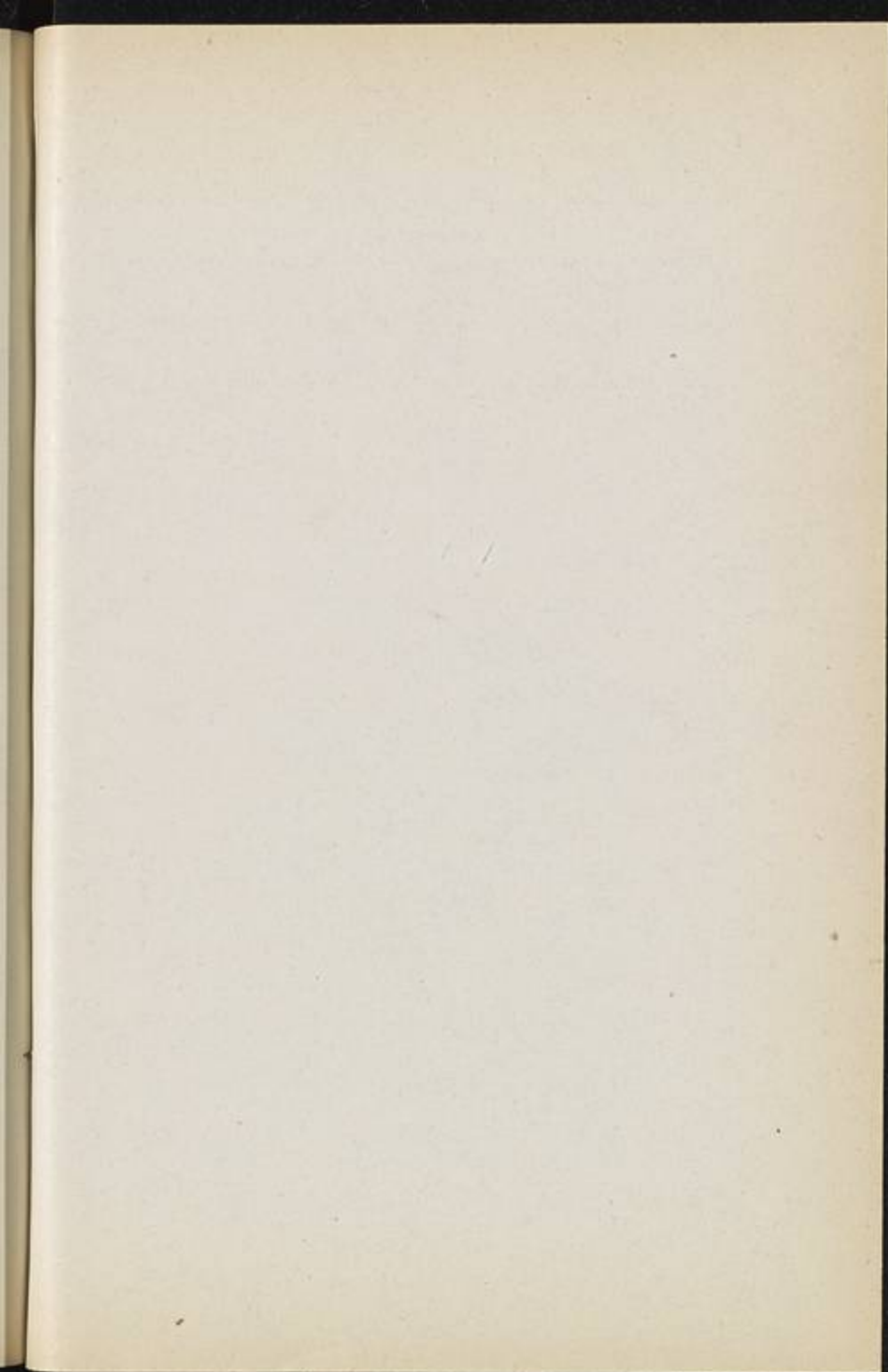
وهنا موقف أقل ما يوصف به أنه آية من آيات الدقة الفنية في وصف العاطفة الرقيقة المؤثرة . انظر إلى هذه المرأة تقدر خطيئتها وتشعر بهول هذه الخطيئة ، ولكنها تحب زوجها حباً لا حد له ، وهي لا تستطيع أن تعيش بدونه ، وهي لا تستطيع أن تطمع في عفوه لأنها تعلم أن هذا العفو عسير ، فهي تعتذر وترضى وتضرع ولا تطلب إلى زوجها إلا أن ينتظر ، وأن يكون شجاعاً على احتمال الألم . وانظر إلى هذا الرجل يحب زوجته حباً لا حد له ، ويشق بها ثقته بنفسه ، وقد كان يؤمن بالإيمان كله بأنها فوق ما يتورط فيه النساء من الضعف ، وفوق ما يتعرض له النساء من الشك . فما هي إلا لحظة حتى انهدم هذا البناء الفخم ، وأصبحت امرأته أمامه امرأة كغيرها من عامة النساء ، وهو على هذه الخيبة يحب امرأته وهو يحاول أن يخفي هذا الحب ، ولكنه لا يجد سبيلاً إلى ذلك . وهو يلتمس وسيلة يستأنف بها الإيمان بزوجه ، وهو يكلف نفسه المشقة في تلمس هذه الوسيلة ، فكلما فتحت له امرأته باباً من أبواب الأمل نهض شبح الشك الفظيع فأغلق هذا الباب إغلاقاً عنيفاً . وكيف يستطيع أن يؤمن بامرأته وقد خانتته وكذبت عليه واستطاعت أن تخفي هذه الخيانة وهذا الكذب

ثلاث سنين دون أن يحس من ذلك شيئاً أو يتوهمه ! كيف يستطيع أن يؤمن لها ؟ أليست قادرة على أن تستأنف الكذب والخيانة وإخفاءها ؟ كلا ! لا أستطيع ! إنك تحبين هذا الرجل ، وإلا فما بالك قد كرهت هذا الزواج واجتهدت في منعه حتى أظهرت ما خفي من أمرك أمامي ووصمت نفسك أمامي هذه الوصمة الخزية المنكرة ؟ أليست هذه تضحية ؟ أفكان يحملك على هذه التضحية شيء إلا الحب ؟

— ولكنك رجل تفهم معنى الشرف ومعنى الواجب خيراً مما أفهمه . وما أشك في أني لم أقدم هذه التضحية متأثرة بالشرف والواجب . رأيت هذا الرجل وقد ضحى بنفسه في سبيلي ثلاث سنين ، وهو يريد أن يضحي بما بقي له في سبيلي أيضاً ، فككرهت ذلك وأبيته . وآية حبي لك أني وجدت نفسي أمام أمر شاق هو منع هذا الزواج فلم أستعن إلا بك . أفتراني كنت أستعين بك لولا أن لي بك ثقة عظيمة ، وإذا جرس التليفون يدق . فتعمد إليه هيلين وتبئ زوجها أن أخته تريد أن تتحدث إليه ، فيأبى ، فتحجب عنه ، وتفهم من الحديث أن جنثيف تسأل عن المريضة وعن أمر الزوجين ، وهي قلقة وتريد

أن تطمئن ، فتبذل لها هيلين ما يبعث في نفسها الطمأنينة .
ثم تسمع هيلين تقول نعم أعدك بأني سأفعل ذلك ، ثم تنصرف
عن التليفون مترددة ، فتقبل على زوجها : « ميشيل إن جنفئيف
تكلفني أن أقبلك » ! ولا ترى من زوجها انصرافاً عنها
فتطوقه بذراعها . . .

فبراير سنة ١٩٢٤



منا فنا

للكاتب البلجيكي « مورييس ماترلانك »

مثلت منذ عشرين سنة ففتن بها الناس ، وكان النقاد يجمعون على إكبارها ، وغلا بعضهم في ذلك فذهب إلى أنها آية من آيات الفن ، ولم يتردد « إميل فاجيه » في أن يثنى عليها أجمل الثناء . ثم تناساها الناس في فرنسا ، ولكنها طافت أقطار أوروبا وأمريكا ثم عادت في السنة الماضية إلى فرنسا فثلت في بيت « مولير » . ولم يتردد أحد من النقاد المعاصرين في باريس في أن يثنى عليها ويحمد « لبيت مولير » اتخاذه إياها بين قصصه التمثيلية . ذلك أنها خليفة بهذا الثناء ، بل نستطيع أن نقول إنها خليفة بالإعجاب الذي لا حد له ؛ ففيها كل ما تمتاز به القصة التمثيلية المتقنة ، فيها الفكرة التي تغزو العقل ، وفيها العاطفة التي تغزو الشعور ، وفيها الحركة التي تلذ الحس . ثم هي فوق هذا كله جميلة لأنها تمثل فصلا

من فصول التاريخ . وليس من شك في أنها ليست من الدقة التاريخية بحيث ترضى المؤرخ الحريص على الصدق والإصابة . ولست أقصد إلى هذا النحو حين أذكر أنها تمثل التاريخ ، وإنما أريد أنها لا تمثل الحياة العصرية التي نحن فيها ولا تمثل عصرًا قريباً من العصر الذي نعيش فيه وإنما تمثل شيئاً بعد العهد به فاشتد الميل إليه لا لشيء إلا أنه قديم ، بل لشيء آخر غير أنه قديم . هو أن هذا العصر الذي تقع فيه القصة كثيراً ما تشتد الرغبة في درسه وتعرف أخباره وآثاره ، لأنه عصر النهضة الأوروبية يوم كانت هذه النهضة حديثة العهد لا يتاح العلم بها والتنبؤ بمستقبلها إلا للأقلين عدداً . ثم تقع هذه القصة في إيطاليا مهد النهضة . فليس عجيباً أن نجد شيئاً من اللذة حين نرى هؤلاء الإيطاليين الذين يتفاوتون في رقي العقل تفاوتاً شديداً ، فمنهم من مسته النهضة فقرأ آثار الفلاسفة من اليونان وتأثر بما قرأ حتى أصبح فيلسوفاً يزدري ما حوله ويكره الحياة التي يحياها ، ويتخذ للحياة مثلاً آخر غير المثل الذي يتخذه الناس ، وأكثرهم لا يزال محتفظاً بما ورث من نظم الحياة في القرون الوسطى ، فهو يجهل الفلسفة أو يزدريها ،

وهو يكره هذه المثل العليا التي يسعى إليها الفلاسفة ويحرصون عليها . ثم نجد نفس هذه الحياة ، حياة القرون الوسطى ، ممثلة أمامنا بما فيها من عادات وأخلاق ونظم ننكرها فتقع من أنفسنا موقع العجب . كل ذلك يحجب إلينا هذه القصة . ولكن موضوعها نفسه خلاف مستهو للألباب ، لأنه قديم وجديد معاً ، ولأنه من هذه الموضوعات التي قد تختلف الأزمنة دون أن تنالها الشيخوخة أو ينقص حظها من الشباب ، فهي حية أبداً ، قوية أبداً ، مؤثرة أبداً في نفوس الناس . ولقد قرأ الناس في تاريخ الرومان وفي تاريخ بني إسرائيل شيئاً يشبه هذا الموضوع شهباً قوياً ، فكان مؤثراً في نفوس شعرائهم وكتابهم وأهل الفن منهم ، وتناولوه بالشعر والكتابة والتصوير فلم يزدوا هذا إلا قوة وشباباً وقدرة على التأثير في النفوس .

الموضوع في نفسه يسير : رجل قوى جبار ، ينتهك حرمة الآداب والأخلاق والديانات ، ويستغل قوته وجبروته ليرضى لذة منكورة أو شهوة مرذولة ، فيغتصب امرأة من الحق لها أن ترعى حرمتها . وقد روت أساطير الرومان شيئاً من هذا كان من شأنه أن تثل عرش الملوك في روما وأقام مكانه الحكم (١٥)

الجمهورى . وروى تاريخ بنى اسرائيل شيئاً من هذا كان من شأنه أن أنقذ مدينة اليهود المقدسة من الفناء والدمار ؛ لأن فاتحاً أغار عليها فحصرها وألح عليها فى الحصار حتى لم يبق لها بد من التسليم ، ولكن امرأة جميلة كان الشعب بها مفتوناً ولها محبباً ، وكانت آية فى الجمال والروعة ، ذهبت إلى هذا الفاتح ، فما زالت به تلاطفه وتداعبه حتى فتنته وأغوته ثم قتلته ، فارتد الجيش عن المدينة خاسراً . وقد أعجبت الشعوب بمثل هذه الأساطير ، وتناقلت أخبار هؤلاء النساء على أنها تمثل البطولة . فانت ترى أن الموضوع ليس فى نفسه شيئاً جديداً ، وأن الكاتب لم يخترعه اختراعاً . وسواء أحمق قصته من الوجهة التاريخية أم لم تصح ، فليس من شك فى أنه أحسن استناره وتناوله على وجه أرضى العقل وأرضى الشعور وأرضى جمهور النظارة . ولقد مثلت سنة ١٩٢٣ قصة هذه المرأة الإسرائيلية التى قدمت الإشارة إليها ، وكان واضع القصة « برنستين » الكاتب الفرنسى المشهور ، فلم تنل ما كان ينتظره الكاتب من الفوز ؛ لأنه لم يوفق فيها لمثل ما وفق له « ماترلانك » من الجمال والصدق والإتقان . ولقد يكون من النافع أن نوازن بين

هاتين القصتين لولا أننا لم نلخص لك قصة « برنستين » :
فلنتكلف اليوم بتلخيص القصة التي نحن بإزائها . ولعلنا نعود
إلى قصة « برنستين » في يوم آخر .

* * *

نحن في أواخر القرن الخامس عشر في إيطاليا ، والحرب
قائمة بين مدينتين عظيمتين ، إحداهما مدينة « فلورنسا »
والأخرى مدينة « بيز » . وقد اشتدت هذه الحرب حتى
بلغت أقصى ما كان يمكن أن تبلغ من القسوة والعنف ، وأتيح
النصر « لفلورنسا » ، فهي تحاصر مدينة « بيز » وتضيق
عليها الحصار حتى استنفدت ما كان فيها من قوة ومؤونة
وذخيرة وصبر . فالمدينة مشرفة على التسليم ، وهي ترسل الوفود
تلو الوفود إلى القائد المنتصر تريد أن تفاوضه في شروط التسليم
فلا تعود هذه الوفود . وقد ضاق الشعب بالأمر ، وسئم الجند
هذا الموقف . فالجند يندرون بالفرار ، والشعب يستعد للثورة ، وقائد
الجيش المحصور واسمه « جويدو » يدبر أمره مع اثنين من
ضباطه . ينبئه الضابطان بما قدمنا من فشل الجيش وإفلاس
المدينة واستعداد الأمر للفساد ، وبأن جيشاً من مدينة « فينيس »

كان مقبلاً لنجدة المدينة ، ولكن جيشاً من « فلورنسا »
لقيه فهزمه ، وكان الشعب والجيش المحصوران ينتظران الخير من
هذه النجدة ، وهما يجهلان ما أصابهما . فبينهما القائد بأنه قد
بذل كل ما كان يستطيع ليتفق مع المنتصر على الإذعان
والتسليم ، ولكن هذا المنتصر لم يجبه ولم يرد عليه ، فهو في
حيرة من أمره ، وقد انتهت به هذه الحيرة إلى أن أرسل
أباه يفاوض هذا القائد ، وهو ينتظر أباه من حين إلى حين ،
ويخشى أن يكون قد أصابه ما أصاب الوفود التي سبقته .
على أنه سيء الظن بمدينة « فلورنسا » ، لا ينتظر منها إلا
الشر كله . وهو يرى الخير لجنده ومواطنيه في أن يعرفوا
الحقيقة كلها ويموتوا كراماً . وهم يتحدثون في ذلك إذ يقبل
الشيخ أبو القائد ، واسمه « ماركو » ، فيسرع إليه ابنه
وصاحبه يسألونه عن المفاوضة ونتائجها ويسأله ابنه ماذا لقي من
القائد المنتصر « برترز فالى » ، فيجيبه بأنه لم يلق منه إلا
خيراً وإجلالاً . ذلك لأن هذا القائد المنتصر الذي يختلف
الناس في أمره ليس فظاً ولا متوحشاً ، وإنما هو رجل رقيق
الخاصية مهذب متعلم ، قد قرأ كثيراً ، وكان مما قرأ كتب

هذا الشيخ ، فهو إذن قد لقيه في إجلال وإكبار ، كما يليق
التلميذ أستاذه . ثم يتحدث الشيخ إلى ابنه وصاحبيه بأنه لقي
فلاناً عند القائد وأنه كان سعيداً بهذا اللقاء ؛ لأن فلاناً هذا
من الذين استكشفوا فلسفة أفلاطون واعتنقوها وأذاعوها ،
فكان أفلاطون قد بعث بعثاً جديداً . ويمضى الشيخ في حديثه
عن أفلاطون وفلسفته ، وفي حديثه عما يستكشف الباحثون
من آثار الأولين فيحدثهم عن تمثال من تماثيل الآلهة وجد في
غابة من الغابات ، وكأنه قد نسى أنه أرسل ليفاوض في التسليم ،
وأن من ورائه شعباً يموت جوعاً ، وجيشاً ينذر بالفرار والثورة .
فيذكره ابنه بهذا كله ، فيذكر ويحجب : نعم ! لقد نسيت
أنكم في حرب ، على أني أحمل إليكم السلامة والعافية . ثم
يسألونه عما يحمل ، فتحس أنه يتكلف تأخير الجواب ، ويقدم
بين يديه كثيراً من النصيح والموعظة والتزهيد في لذات الحياة
والترغيب في التضحية . ثم يضيق ابنه بهذه الفلسفة فيلج عليه
فيظهر الشيخ أنه سيحجب ، ويمضى في فلسفته مبيناً أن سعادة
الفرد ليست شيئاً بالقياس إلى حياة رجل واحد فكيف بحياة
شعب بأسره . وكما مضى في هذا الحديث لم يزد الأمر إلا

غموضاً على السامعين . فيلح ابنه وقد كاد يفقد الصبر ، فيجيبه
أبوه بأنه يحمل السلامة والعافية للناس جميعاً ، ولكنه يحمل
الشقاء لأحب الناس إليه وأكرمهم عليه ، وهو قد قبل وواعد
بتنفيذ ما شرط المنتصر ، فإن لم يوفق لهذا التنفيذ ، فقد وعد
بأن يعود إلى هذا المنتصر ليلقى عنده ما أعد له من العذاب ،
وهو بار بوعده ، فيلح ابنه في تبين الأمر ، فينبئه به وإذا هو
منكر فظيع . ذلك أن القائد قد ينس من الحياة فهو متهم في
فلورنسا بالخيانة وهو مقتول إن عاد إليها ، وهو لا يريد أن
يعود ، ولكنه يريد أن ينتقم ، فهو يريد أن يبعث إلى
المدينة المحصورة بكل ما تحتاج إليه من قوة ومؤونة وذخيرة ،
لتصبح بين اليوم والغد قادرة على أن تستأنف الحرب وتنتصر
فيها ، وهو لا يشترط لذلك إلا شرطاً واحداً . ولكن الشيخ
قبل أن ينبئهم بهذا الشرط ينبئهم بأن مدينة « فلورنسا »
المنتصرة قد أزمعت أن تمحو هذه المدينة المحصورة محواً لا تقوم
بعده . فإذا تعجلوه في ذكر ما يشترط المنتصر أنبأهم بأن
المنتصر يطلب أن ترسل إليه « منافنا » زوج ابنه « جويدو »
عارية لا يسترها إلا معطفها ، فتمضى هذه الليلة . فإن قبل

أهل المدينة هذا الشرط وأرسلوا إليه هذه المرأة ، فهو مرسل إليهم كل ما وعد به من مؤونة وذخيرة في الليلة نفسها ، وإن أبوا فالحرب وتدمير المدينة . لا يكاد القائد الشاب يسمع هذا الشرط حتى يثور ثأره ويبلغ الغيظ منه أقصاه ، وإذا هو مقتنع بأن أباه يرى رأيه ، وإذا هو يهنيء أباه بهذه الشجاعة التي سيصطنعها حين يعود إلى القائد فيلقى عنده الموت ، وإذا هو يزعم أن يذهب إلى الأسوار مع جيشه فيثبت لهجمة هذا الطاغية حتى يموت كريماً ويموت أصحابه كراماً . ولكن أباه ينبئه في هدوء وفلسفة أنه قبل الشرط ، وأنه ينصح بقبوله وإن كان يراه عسيراً أليماً ، لأن فيه حياة شعب وجيش . وليس من الحق لفرد مهما يكن أن يؤثر سعادته على حياة آلاف من الناس . هنا حوار بين الأب وابنه مهما أقل فلن أستطيع أن أصف لك رفته وصدقه وجماله . هناك الشيخ يجب ابنه ويعطف عليه ويرثي له ويرى أنه شقى مظلوم ، ولكنه يحب الشعب ويعطف عليه ويرثي له من الجوع اليوم ، ومن الموت والتشريد غداً ، وهو يقدر الحياة الإنسانية والحرية الإنسانية ، ويرى أن سعادة ابنه مهما تكن ليست شيئاً أو لا

ينبغي أن تكون شيئاً بالقياس إلى حياة فرد فضلاً عن شعب بأسره . وهناك الشاب قوياً شريفاً محتفظاً بشرفه مؤثراً أباه على كل شيء ، محباً لزوجته شديد الغيرة عليها ، فهو لا يسمع لأبيه إلا سخطاً عليه ، وهو لا يحفل بالشعب ولا بحياته ولا بألامه ، وهو لا يرى أن من حق الجماعة على الفرد أن تكلفه مثل هذه التضحية التي لا يستطيع أن يحتملها الإنسان . فقد ضحى بقوته ودمه ، وهو مستعد لأن يضحي بحياته دفاعاً عن مدينته ، ولكنه لا يستطيع أن يضحي ولا يريد أن يضحي وليس لأحد أن يطلب إليه أن يضحي بشرفه وحبه وسعادته دفاعاً عن هذه المدينة . فيجيبه أبوه بأن هذا كله قد يكون حقاً في نظر الشباب ، ولكنه إذا فكر وروى استيقن أن التضحية بالحياة على ما فيها من جمال ليست شيئاً بالقياس إلى التضحية بالشرف التي تطلب إليه الآن . على أن شيئاً من العقل والروية يهون عليه احتمال هذه التضحية . فالشر واقع من غير شك وستصبح امرأته في يد المنتصر غداً إن لم تذهب إليه اليوم . ولكن الفرق أنها إن ذهبت إليه اليوم أحييت آلافاً من النفوس ، وإن لم تذهب أضاعت شرفها وشرف

زوجها ، وأهلكت المدينة بأسرها . أما الفتى فقد جن جنونه حتى اعتقد أن أباه مجنون وأن الشيخوخة والإشفاق من الموت هما اللذان اتبها به إلى هذه الضعة ، وقد اعتزم ألا يسمع لأبيه وهو يشفق إن ترك أباه حراً أن يتحدث أباه بشيء من هذا إلى الناس فيغيريهم به . أليس الناس حريصين على الحياة ! . فهو يأمر إذن صاحبه بأن يتخذ أباه سجيناً ، ولكن أباه يجيبه بأن ليس في ذلك خير ولا نفع ، لأن الناس يعلمون من ذلك أنه تحدث إلى مجلس الحكم بما يشترط المنتصر قبل أن يتحدث به إلى ابنه القائد ، وإذن فليس الأمر سراً . فإذا سأله عن رأى مجلس الحكم في هذا الشرط أجابه بأن مجلس الحكم لم يرد أن يقبل أو يرفض دون أن يسأل في ذلك « منا فنا » نفسها . يزداد سخط الفتى حين يعلم أن شيئاً من ذلك قد يلقي على مسامع امرأته ، فهو مشفق على حياتها وعفتها وشرفها ، ثم هو مع ذلك واثق بجوابها قابل له مطمئن إليه . فينبئه أبوه بأنه سعيد بهذا الرضا . ذلك أن « منا فنا » قد قبلت ما اشترط المنتصر وأزمنت أن تذهب إليه الليلة . وهم في ذلك إذ تقبل « منا فنا » شاحبة ممتعة فيتلقاها زوجها متلفهاً

يسألها ويعلن أنها رافضة ، ولكنها تجيبه في هدوء : « سأذهب » !
ومهما يلح ومهما يضرع ومهما يغضب ومهما ينذر فهو لا يجد
منها إلا جواباً واحداً : « سأذهب » !

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في خيمة القائد المنتصر
« برزفال » وهو بين اليأس والأمل ، ينتظر الساعة الموقوتة
لا يدري أتقبل إليه المرأة التي ينتظرها أم يقبل إليه الشيخ .
وقد دخل عليه كاتبه يحمل إليه رسالة من ممثل حكومة
« فلورنسا » في الجيش ، وفي هذه الرسالة أمر بمهاجمة المدينة
غداً وإنذار بالقبض عليه إذا لم ينفذ هذا الأمر . فيسخر القائد
من هذا الكتاب ، فيظهر سخطه على ممثل الحكومة في الجيش
وعلى مدينة « فلورنسا » . وتفهم منه أن هذا الممثل كان قد
كاد للقائد في « فلورنسا » وأن القائد عليم بهذا الكيد ، ولكنه
لا يريد أن يموت دون أن ينتقم ودون أن يقضى ألد ساعة من
ساعات حياته وأسعد وقت من أوقاته بقاء هذه المرأة . ثم يدخل
عليه ممثل حكومة « فلورنسا » فترى شخصاً قد بلغ الكاتب
أقصى ما يمكن أن يبلغ من الاتقان في تصويره ، هو ماهر في

المكر والدهاء ، هو النفاق ممثلاً . يتحدث إلى القائد ، فإذا حديثه حلو خلاب ، وإذا هو كأنه أحرص الناس عليه وأشدهم رغبة في استبقاء مودته ورفع شأنه . ولكنك تشعر بأنه لا يقول هذا كله إلا كذباً ورياء . ويشدد الحوار بين الرجلين فإذا النفاق قد أزيل ، وإذا هما يتصارحان ، وإذا القائد ينيء صاحبه بأنه على بصيرة بكل شيء ، وأنه منتقم منه ومن « فلورنسا » وأن مدينة « بيز » ستصبح غداً قوية منيعة عزيزة الجانب ، وهو يتحدث بذلك إلى صاحبه ، وإذا هذا الرجل الضعيف الذي لا يمثل إلا الخداع والمكر قد نهض إليه بخنجره يريد أن يقتله ، ولكن الضربة أخطأت صدر القائد وأصابت وجهه ، ثم يعفو القائد عن هذا الرجل ويأمر به ، فيؤخذ سجيناً دون أن يصيبه أذى . وتقبل « منافنا » فإذا دخلت تلقاها القائد في شيء من الاضطراب . أما هي فهادئة ثابتة مطمئنة لا تتكلم إلا قليلاً . تجيب « نعم » أو « لا » حين تسأل . وهي تعلم ما ينتظرها . وهي مزمعة أن تكون عند ما يريد القائد . أليست قد أقبلت لهذا !

أراضية أنت به ؟ نعم !

ألا تأسفين له ؟

أ كنت تريدني على ألا آسف !

أ تريدن أن ترى ما سأرسله إلى المدينة من مؤونة

وذخيرة ؟

نعم !

فيأخذ بيدها ويخرج أمام الخيمة ويشهدان معاً انطلاق
العربات تحمل ما يرسل به إلى المدينة ثم يعودان وقد أدى ما عليه ،
فيجب أن تؤدي هي ما عليها . يقودها في لين ورفق إلى سرير
غليظ جاف فتجلس ، وإذا هو قد جثا بين يديها وإذا هو
يدعوها باسمها الذي لا يعرفه إلا زوجها وأهلها ، وإذا هو يتحدث
إليها في صوت عذب ، وإذا حديثه رقيق برىء من كل غلظة
أو جفاء ، وإذا هو ليس المنتصر الذي يريد أن يلهو وإنما هو
محب يعبد حبيبته .

— من أنت ؟ أتعرفني ؟ ثم يستمر بينهما حديث آية في الرقة
والطهارة والعفة . ذلك أنهما كانا صديقين ، كانت هي تعيش مع
أما في مدينة « فينيز » في قصر نخم عيشة الأغنياء ، وكان هو
يعيش مع أبيه الصانع عيشة التجار . فأقبل أبوه ذات يوم إلى
القصر يحمل إلى أما عقداً ورافق أباه وانتظره في الحديقة ، فرأى

عند فسقية طفلة في الثامنة من عمرها تنتحب ، لأن خاتمها سقط في الماء ، فألقى بنفسه في الماء يلتقط الخاتم ، وكاد يفقد الحياة ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، ولكنه استطاع أن يلتقط الخاتم وأن يضعه في إصبع الطفلة ، قبلته وكانت بينهما مودة اتصلت حيناً .

— إذن ! فأنت « جانلو » ؟

— نعم !

— وكيف عبثت بك صروف الحياة ؟ وكيف انقطعت بك الغيبة عنى ؟

— سافرت مع أبى إلى أفريقيا فضلنا الطريق في الصحراء ثم وقعت أسيراً في يد العرب ثم في يد الاسبانيين ، ثم عدت إلى إيطاليا فالتستك في « فينيز » فعرفت أن أمك فقدت ثروتها وماتت فقيرة ، وأنت تزوجت من رجل غنى عظيم الجاه في مدينة « بيز » وكنت أحبك حباً لا أستطيع أن أصفه .

— وكيف لم تسع في أن تلحق بى ؟

— كنت سعيدة ، وكنت شقياً . فأثرت لك السعادة ، ولنفسى الشقاء . ولقد طفت حول هذه المدينة ووقفت على أبوابها واجتهدت في أن أراك فلم أوفق لذلك . ثم حاربت وانتصرت وأجرت نفسى

للمدن ، وأجرت نفسى لمدينة فلورنسا ، فانتصرت لها فى حرب
أو حريين ، وإذا أنا قائدها أمام هذه المدينة ، وإذا أنا أستطيع
أن أراك !

هذه هى القصة .

هنا حوار لذيذ بينهما فى قيمة هذا الحب الذى أضمره لها الشاب .
ترى هى أن هذا الشاب لم يف للحب بحقه ، فقد كان يجب عليه
أن يسعى إليها ويلج فى السعى حتى يصل إليها ويرى أنه قد وفى
للحب بحقه لأنه إنما أحبها لنفسها لا لنفسه .

— وإذن فأنت تضحى بشرفك وماضيك ووطنك لترانى ؟
يجب أن أعترف بأن هذه التضحية عظيمة جداً .

— يجب أن أبتك بأنى لم أضح بشيء ، فليس لى وطن .
ولو أن لى وطناً لما ضحيت به فى سبيل الحب ، وإنما أنا أجير ، وقد
استيقنت إنى مقتول فى فلورنسا ، فأنت ترين أنى لم أخسر شيئاً
بهذه الخيانة ، ولم أشر هذه السعادة التى أذوقها الآن بشمن
قليل أو كثير .

فإذا اعترف لها بهذا فى هذه الصراحة وهذا الصدق كان
قد وصل من قلبها إلى كل شيء ، فإذا هى تحبه ، وإذا هى كانت

تجبه ، وإذ هي كانت تتكلف إخفاء هذا الحب ، ولكنها وفيه
لزوجها تجبه أيضاً وتعطف عليه . وهو يحبها ولكنه يحبها حباً
شريعياً نقياً ، فهو لا يريد لها على سوء ، وهو يتعفف حتى عن تقبيل
يدها ، وهي تترك له يدها لا تضن عليه بشيء لأنها تعلم أنه لا يطمع
منها في شيء . وإذا هما يستكشfan معاً هذا الحب العظيم الذي
لا يعدله شيء في الحياة عظمة وطهارة وقوة . وإنهما لفي هذه النجوى
الطاهرة الحلوة التي تتجاوز بهما حدود الإنسانية إذ يذكران من
ينتظرها في المدينة ، وهو شقى بهذا الانتظار ، فتمهم بالعودة لأن
الفجر قد أقبل . ولكن كاتب القائد يدخل مضطرباً ينبىء بأن
مثلاً آخر لحكومة « فلورنسا » قد أقبل وقد انتصر على جيش
« فنيز » . وهذا الممثل يتهم القائد بالخيانة ، ويريد القبض عليه ،
فيجب أن يفر القائد وأن ينجو بنفسه . وهو يتحدث بهذا وإذا
جلبة تسمع خارج الخيمة على بعد كأن الجيش يشور بقائده ،
أما القائد فهادئ مطمئن لأنه ينتظر الموت دون أن يكرهه أو
يخافه بعد هذه الليلة السعيدة التي قضاها مع من يحب . ولكنها
جزعة مشفقة تريد أن تنجي صاحبها .

— تعال معي إلى المدينة . فأنت في ذمتي ، ولن يكون زوجي

أقل شرفاً وكرامة منك ، فساقص عليه كل شيء وسيعرف
لك مكانك منى . . .

يتردد القائد قليلاً ثم يقبل ويخرجان أمام الخيمة وينظران
في الأفق ، فإذا مدينة « بيز » مضيئة ، وإذا آيات الابتهاج
والغبطة ظاهرة تملأ الأفق ، وإذا هما مسحوران بهذه الزينة
مبتهجان لما بعثا في هذه المدينة من حياة .

وإذا الحب والابتهاج قد بلغا من هذه المرأة أقصاهما فضعفت
لشدة ما قاومت ولشدة ما كظمت من عواطفها ، فهي تضرب
الآن ، وهي محتاجة إلى أن تعتمد على صاحبها لتمشى .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في مدينة « بيز » في
قصر « جويدو » والصبح قد أخذ يشرق « وجويدو » يتحدث
إلى أبيه وإلى صاحبيه فهو مثقل بما احتمل من هم وما لقي من
ضيم ، وهو يذكر أن قد تم البيع والشراء ، فأكلت المدينة
وشربت وفرحت وابتهجت وأخذت بحظها من السعادة ، وأخذ هو
بحظه من الشقاء ، وقد تمت إرادة المدينة فيجب أن تتم إرادته .
أما أبوه فيرثي له ويعطف عليه ، وينصح له بالاناة والروية ،

ويعترف بأن مصابه عظيم ، ولكنه يعترف بأن الأمر لو استؤنف لما تردد في أن يسلك السبيل التي سلكها من قبل . ويشد الحوار بينهما ، فإذا القائد مغضب يريد أن ينتقم لنفسه ، وإذا هو ساخط على أبيه يحقره ويبغضه ولا يريد أن يراه . ولكن أصواتاً تسمع خارج القصر ولا تلبث أن تدنو ، فإذا ضجيج وعجيج ، وإذا صياح وهتاف . فإذا تبين القوم ذلك عرفوا أن « منافنا » قد أقبلت وأن الشعب يحياها ويحتفل بها نائراً عليها الأزهار باذلاً ما يستطيع لإجلالها وإكبارها ، حتى إذا دخلت القصر ودخلت معها الجماعات المحتشدة ظهرت فرحة مبهجة وتلقاها الشيخ فضمها إليه وقادها يريد أن يضمها إلى ابنه قبل أن ينصرف لأن ابنه كان قد طرده . ولكن القائد لا يكاد يرى زوجه مقبلة إليه حتى يدفعها دفعاً عنيفاً ، وحتى يصيح بهذه الجماعات المحتشدة يطردها ويزجرها .

— ماذا تريدون ؟ لقد أكلتم وشربتم وتستطيعون أن تأكلوا وتشربوا فانصرفوا إلى ما تريدون . إن في عيني دموعاً لستم أهلاً لأن تروها ! .

يدفعهم في عنف ويفرى بهم الحرس فينصرفون إلا شخصاً واحداً

هو « برزفال » يدفعه وينذره ويهجم عليه يريد أن يؤذيه ، فإذا امرأته قد قامت من دونه تحميه :

- دعه :

ثم ما تزال به حتى تنبئه بأن هذا هو « برزفال » . فإذا سمع اسمه تغير في نفسه كل شيء ، فابتهج ابتهاجاً لا حد له ، وأقبل إلى الناس يدعوهم ويستعيدهم ليستمعوا النبا العظيم . ذلك أنه استيقن أن امرأته قد أسلمت نفسها لهذا القائد الوحشي ولكنها ما زالت به تخادعه حتى قادته إلى المدينة لينتقم لها زوجها منه . وزوجها سعيد ، فهو لم يكن يريد إلا أن يقتل هذا الرجل ، وهو كان يعتقد أنه سيلقى في ذلك عناء ، وسيتكلفه حيناً طويلاً ، فكيف به وقد أصبح عدوه بين يديه ! .

يلعن هذا إلى الجماهير ويقبل على امرأته يريد أن يضمها ويقبأها شاكراً مغتبطاً ، ولكنها تدفعه وما تزال به وبالناس حتى تسمعهم صوتها عالياً : ألا أن هذا الرجل لم يمسنى . لقد قضيت الليل عنده وحيدة عارية لا يسترنى إلا معطى ، ثم خرجت من عنده وكأني خرجت من عند أخي . ولقد دعوته إلى المدينة على أنه جار لاجئ . فله ذمتي وله ذمتكم جميعاً .

أما زوجها فلا يكاد يسمع هذا حتى يسقط في يده ،
وكأنه قد فقد رشده وصوابه ، فهو لا يصدق ما يسمع . وكيف
يصدق ما يسمع ! وهل مثل هذا الحديث يلائم طباع الناس !
وكيف يستطيع أن يؤمن بأن هذا القائد قد أمسك عنده هذه
المرأة الجميلة نخلا إليها وهي وحيدة عارية ثم لم يمسها ولم ينلها
بأذى ! . . . ومن الذى يستطيع أن يصدق ذلك ! ؟ وفى الحق
أن أحداً من هذه الجماهير لا يصدق ذلك ولا يؤمن له إلا الشيخ ،
فإنه يخرج من الصفوف ويعلن أن المرأة صادقة ، فلا يلبث ابنه
أن يتهمه بأنه يشارك هذين المجرمين فى جريمتها

إذن فقد عجز عقل الزوج وعجزت معه عقول هذه الجماهير
عن تصديق هذه القصة فهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بأن الإنسان
يستطيع أن يصل من الطهارة والعفة والسمو إلى هذا الحد ، وإذا
هذا الزوج يلاطف زوجته ويصطنع ما يملك من حيلة ليحملها على
الاعتراف بالإثم ، وإذا شئ من الجنون قد أصابه فهو لا يستطيع
أن يطمئن ولا أن يهدأ إلا إذا سمع من امرأته أن هذا الرجل
قد نالها بما يكره . . . وتيأس من تصديق زوجها وتيأس من
تصديق الجمهور وهي واثقة بأن صاحبها مقتول إذا لم تكذب ولم

تعترف بأنه قد نالها بالأذى . فما أسرع ما تتغير ، وما أسرع ما تعترف كاذبة وهي تعلم أنها كاذبة بأن الرجل قد اقرت الإثم وأنها قد خدعته ولاطفته حتى قادته إلى المدينة لينتقم لها منه . ولكنها هي تريد أن تنتقم ، هي تريد أن تعذب هذا الرجل وأن تقيس تعذيبها إياه بما منحته من لذة هناك حيث خلا إليها . هي تطلب وتلح في الطلب إلا يناله أحد بالأذى وأن يوضع في غرفة من غرف السجن ، وأن يكون إليها وحدها مفتاح هذه الغرفة لتفتن في تعذيبه ! فما أسرع ما يطمئن زوجها وطمئن معه الجماهير إلى هذا الحديث ، وإذا هم جميعاً مقتنعون بأنها الآن صادقة وهي تكذب ، وبأنها كانت كاذبة حين كانت تصطنع الصدق .

خدعوا جميعاً إلا الشيخ فقد فطن لكل شيء ، وأقبل إلى المرأة وقد أخذ ينالها شيء من الإغماء ، أقبل إليها يشجعها همساً ويحثها على أن تمضي في الكذب ، فالكذب وحده وسيلة النجاة لهذا الرجل الوفي الشريف . أما هي ففاضية في الكذب ولكن حبها لصاحبها قد تجاوز كل حد ، وأصبح لا يعدله إلا شيء واحد هو احتقار هؤلاء الناس الذين لا تستطيع عقولهم ولا نفوسهم أن تؤمن للحق إلا إذا صاغته على مثالها .

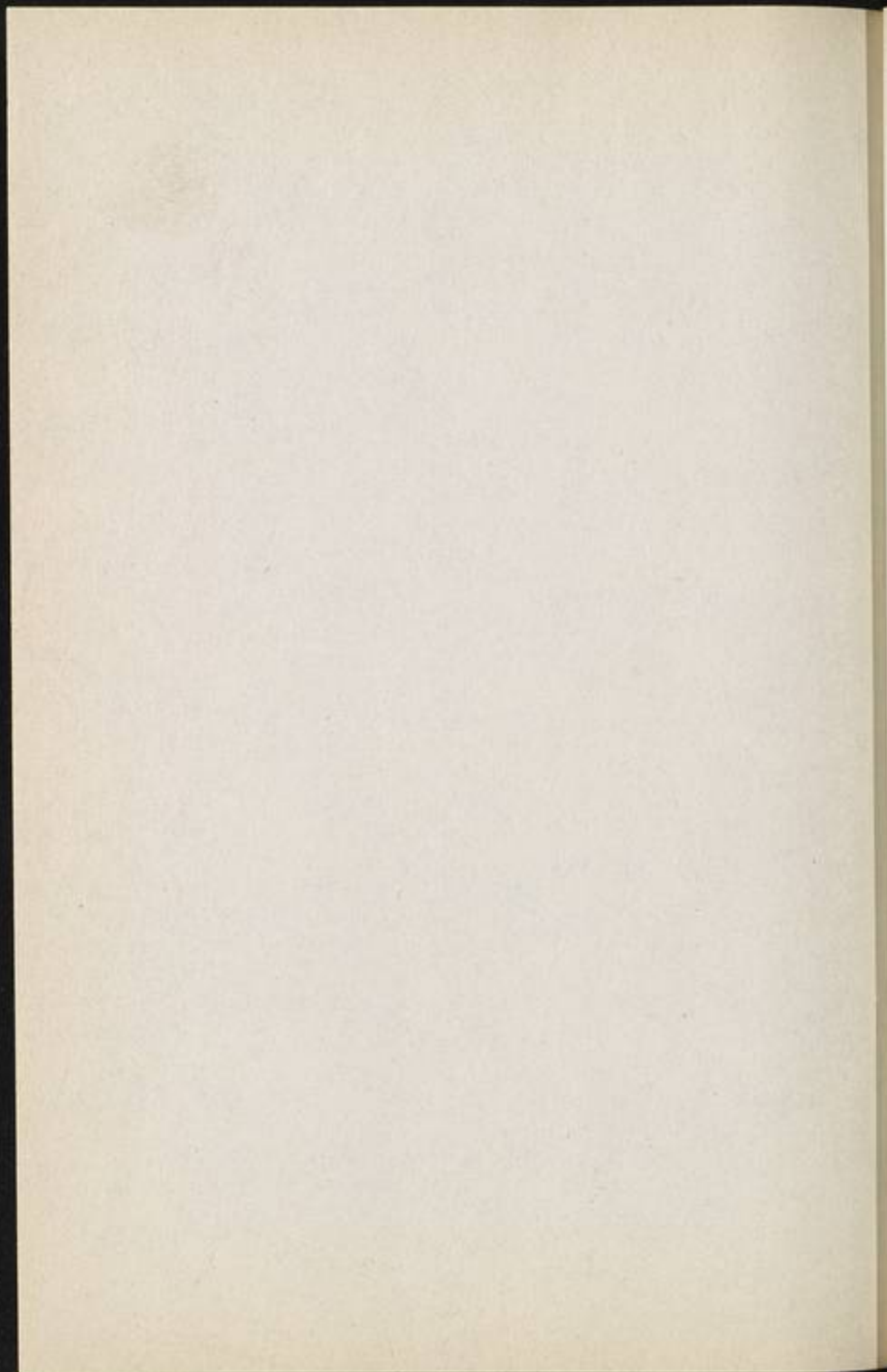
فانظر إلى هذه القصة وإلى فصولها الثلاثة . فأما الفصل الأول منها فآية في تمثيل البطولة والتضحية والأثرة ، وهو يمثل هذا كله في صدق ودقة لا حد لهما .

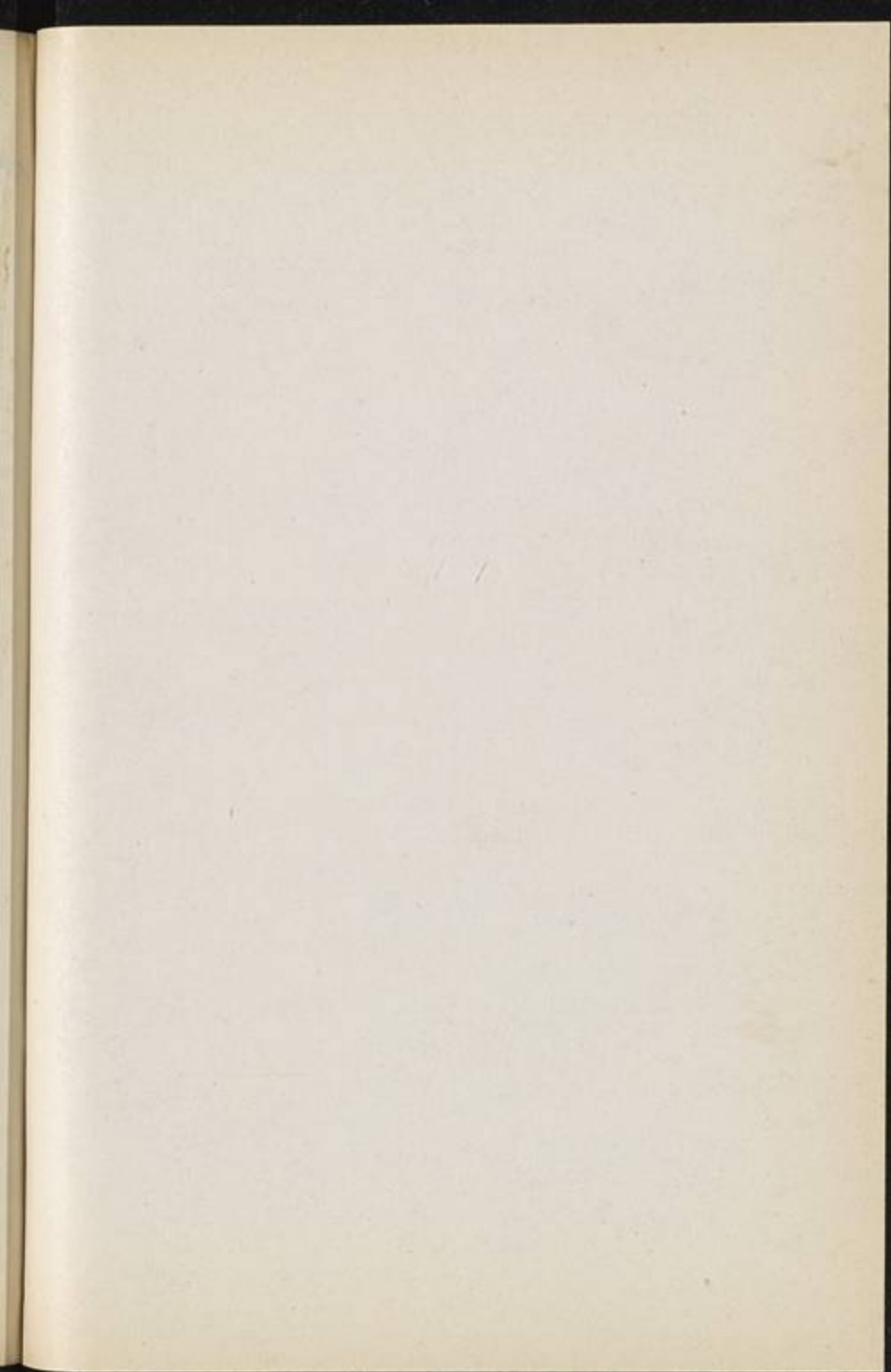
وأما الفصل الثانى فآية في تمثيل البطولة النقية الطاهرة التى لا يكاد يعرفها الإنسان أو يلقاها إلا فى الكتب والأقاصيص .

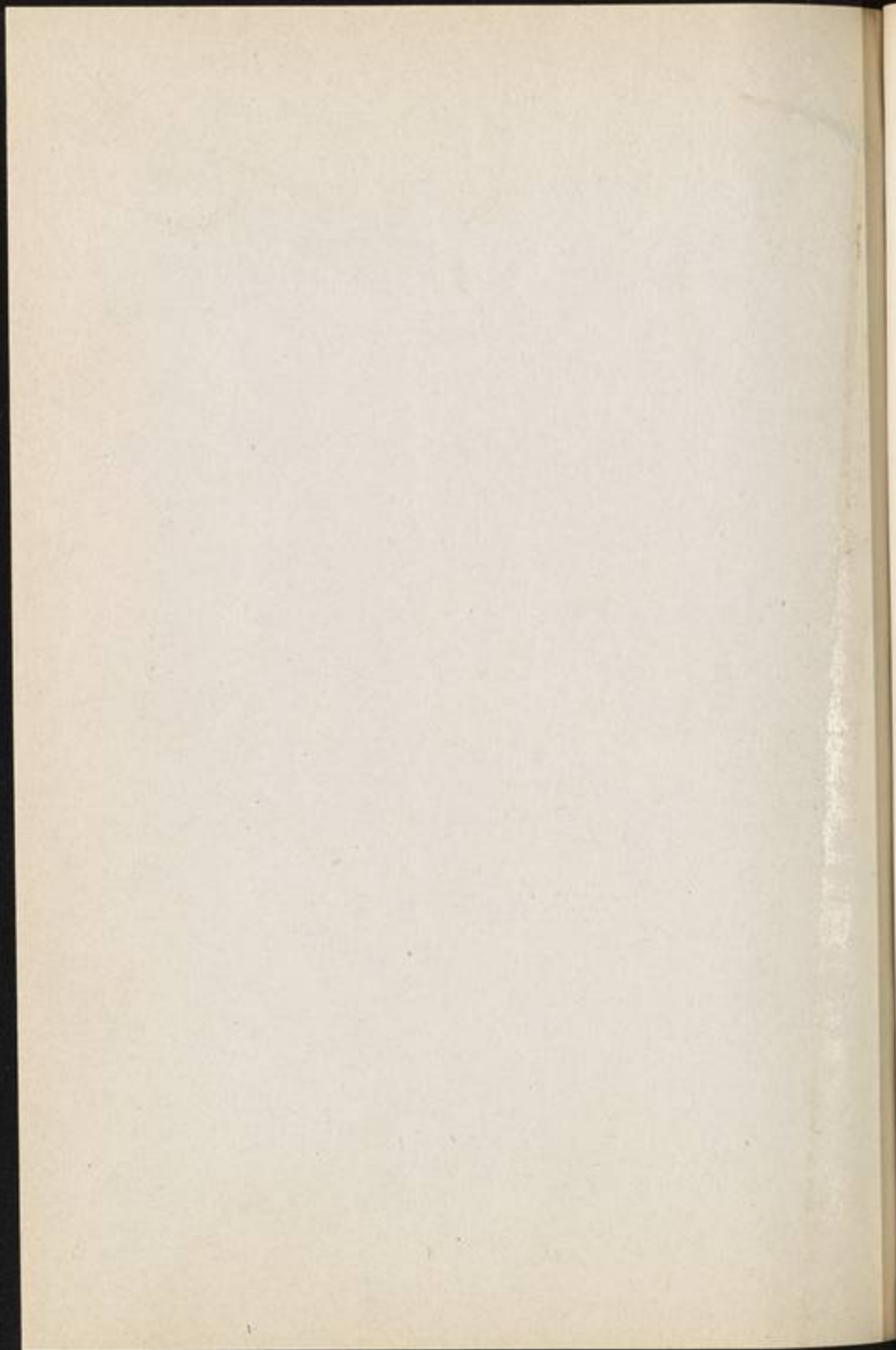
وأما الفصل الثالث فهبط بك من هذه السماء الصافية النقية التى صعد بك فيها الكاتب فى الفصل الثانى إلى هذه الأرض التى يسكنها الناس ويعيشون فيها متأثرين بأخلاقهم ورضائلهم ونقائصهم الاجتماعية ، متأثرين فيها بالضعف الإنسانى الذى يحول بينهم وبين أن يروا الحق إلا إذا مسح هذا الحق مسخاً وأصابه الفساد حتى لاءم نفوسهم .

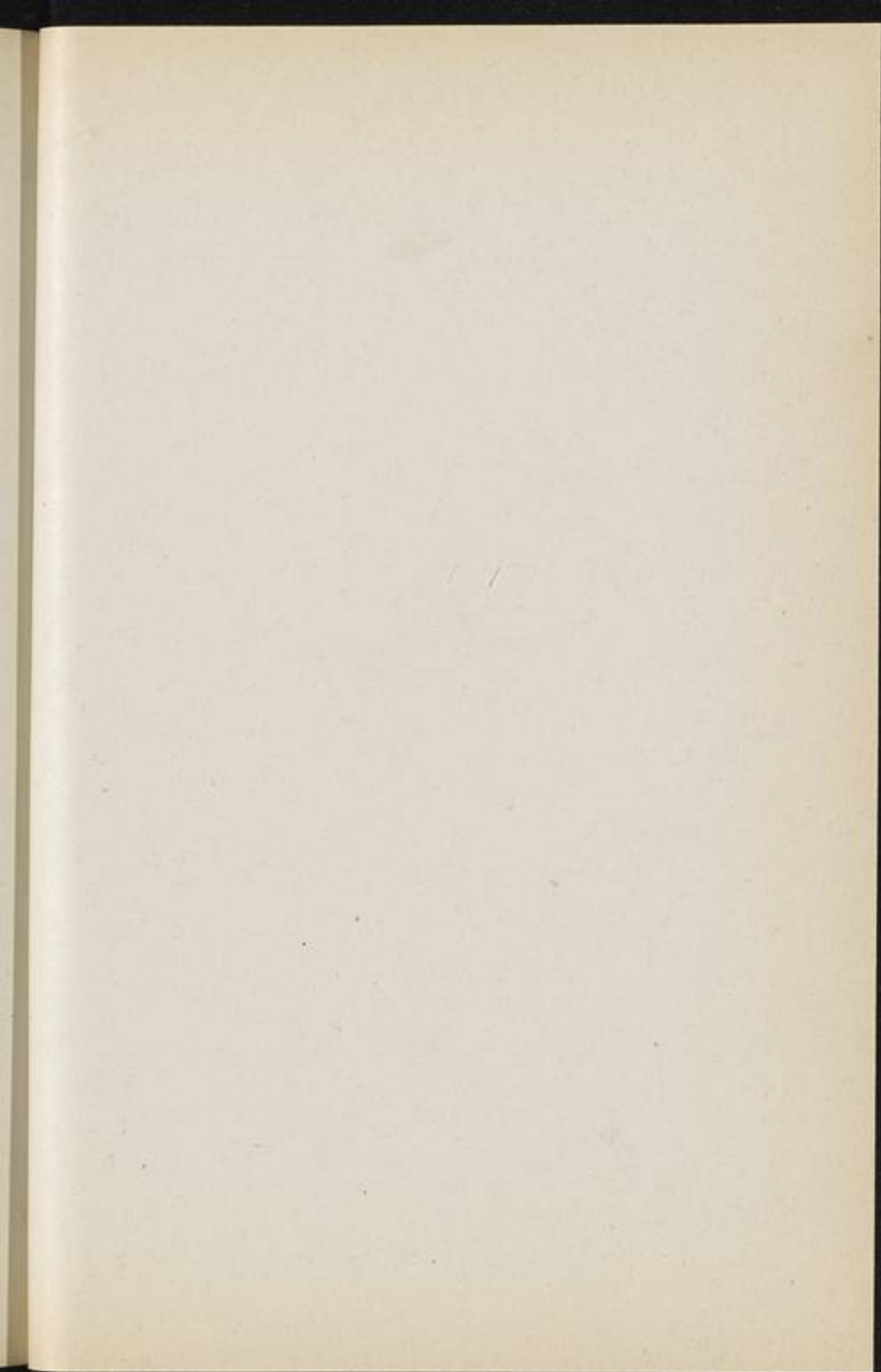
نعم ! ينحط بك هذا الفصل من ذلك الملاء الأعلى الذى خلق لتعيش فيه الملائكة ، والذى هو جو كله صدق وصراحة وطهارة وبرّ إلى هذه الأرض التى لا يمكن أن تستقيم أمورها إلا بالكذب والرياء .

الطبعة الثانية سنة ١٩٤٢









طَهَّ مَبِين

لِحَطَّائِنِ

٢

187

187

7

187

العدراء المفتونة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى بتايل »

أما اليوم فأريد أن أحدثك عن فن عجيب من فنون التمثيل . أريد أن أحدثك عن الكاتب الفرنسى « هنرى بتايل » . ولست فى حاجة إلى أن أقدمه إليك ، فأنت تعرفه من غير شك . ومن ذا الذى لا يعرف هذا الكاتب الذى فتن به الباريسيون خاصة والفرنسيون عامة ، والذى تأثر بهذه الفتنة ففتن بغيره وبالغ فى إتقانه والحرص على الإجادة فيه حتى قتله النقد فى يوم من الأيام ! . نعم ! قتله النقد ، واعترف النقد على نفسه بهذه الجريمة إن صح أن تسمى جريمة . فقد كان « هنرى بتايل » عليل القلب ، وقدم إلى التمثيل قصة لم تعجب النقاد ، فأنكروها وبالغوا فى إنكارها ، وكان وقع هذا الانكار شديداً فى نفس الكاتب ، فمات فجأة وهو يصحح تجارب هذه القصة التى قضت عليه . فالنقد إذن هو قاتله ، ومع ذلك

فلم يزد النقد على أن أدى واجبه للفن ، فأعلن رأيه متأثراً
بطباع النقاد وأمزجتهم ؛ فكان حاداً حيناً ، وليناً رفيقاً حيناً
آخر . أليست حياة « هنرى بتايل » وموته وأثر النقد في
هذه الحياة وفي هذا الموت من الموضوعات التي تصلح لإنشاء
قصة تمثيلية مؤثرة ! .

لست أريد أن أقدم إليك هذا الكاتب الذي تعرفه ،
وإنما أريد أن أقدم إليك فنه ، وأعتقد أن فنه في حاجة إلى
شئ من التفسير . على أنك تستطيع أن تلم بهذا الفن إلماماً
حسناً إذا قرأت قصة واحدة من قصص هذا الكاتب . وأحسب
أن أول ما يمتاز به « هنرى بتايل » أنه لا يقصد في قصصه إلى
فكرة ولا إلى نظرية ، أو هو لا يتخذ الفكرة أو النظرية
مقصده الأساسي ، وإنما يقصد إلى الجمهور . يقصد إلى الجمهور
دون غيره ، ويعمل في الجمهور لا في غيره . فموضوع القصص
التي كتبها هذا الكاتب ليس في حقيقة الأمر شيئاً إلا النظارة .
ولكن يجب أن نتفق ، فلن نجد في قصة من قصصه شيئاً
يتحدث عن النظارة أو يشير إليهم ، وإنما نجد موضوعات
مختلفة قصد إليها الكاتب فأتقن درسها وتحليلها وعرضها ،

ولكنه بنفس هذا الاتقان إنما تناول جمهوره من القراء أو النظارة فعبث بهم عبثاً لا حد له .

أريد أن أصف ما في نفسي فأجد شيئاً من الصعوبة في هذا الوصف ؛ لأن الفكرة التي أريد أن أتحدث بها إليك دقيقة جداً . أريد أن أقول إن الكاتب لا يفكر في أن يدخل في نفس النظارة أو القراء علماً جديداً أو يحدث فيها شعوراً جديداً ، وإنما يريد أن يتناول شعور القراء والنظارة وعواطفهم فيعبث بها ، ولكن في نظام يلائم بينها حيناً ويخالف بينها حيناً ، وما يزال يجمع بعضها إلى بعض ، ويفرق بعضها من بعض ، حتى يصل إلى ما يريد ؛ وهو الانتهاء بنفس القارئ أو الشاهد إلى أقصى ما يمكن أن تنتهي إليه من التأثير والانفعال ، إن صح هذا التعبير . فالكاتب في حقيقة الأمر لا يكتب ، وإنما يتخذ التمثيل سبيلاً يصل بها إلى نفوس النظارة وعواطفهم فيجمعها بين يديه ، فإذا اجتمعت له أخذ يتصرف فيها كما يتصرف عالم الكيمياء في طائفة من المواد والعناصر اجتمعت له ، فهو يلائم بينها ويضيف بعضها إلى بعض ، ليصل بهذه الملازمة والاضافة إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه من الفرقة

العنيفة . وهذه هي لذته . لذته أن يثير عواطف الجمهور حتى يكاد يفنيها . لذته أن يعبث بهذه العواطف فيؤلف من مختلفها نظماً تتباين بتباين ضروب العبث التي يعمد إليها ، كما يعبث الطفل بطائفة من الحصى جمعها بين يديه ، فهو يتخذ منها صوراً مختلفة متباينة . ولكنه ليس طفلاً ، وليس يقصد إلى العبث من حيث هو عبث ، وإنما هو فني ، وهو يريد أن يثير في نفس الجمهور أقوى العواطف وأشدّها عنفاً . فليس التمثيل عنده شيئاً يغذو العقل ، وليس التمثيل عنده شيئاً يغذو الشعور ، أو هو لا يجعل غرضه الأساسي من التمثيل عنده فن يجب أن يؤثر في النفس ، وأن يؤثر فيها قبل كل شيء . وسواء عليه متى وصل إلى هذا التأثير العنيف أضاف إليه فكرة جديدة أم لم يصف ، أضاف إليه شعوراً جديداً أم لم يصف ، وهو في أكثر الأحيان خصب لا تخلو قصته من نفع . ولكن هذا النفع كما قلت ليس بالشيء الذي وضعت القصة من أجله . وإذا كان هذا هو فن الكاتب فهل نستطيع أن نقول إن هذا الفن حسن ؟ وهل نستطيع أن نقول إن هذا الفن خليق بالبقاء ؟ وهل من الحق ألا يقصد من التمثيل إلا إلى التأثير في النفس وإثارة العواطف دون أن يفكر

الكاتب في أن هذا التأثير خصب أو عقيم؟ ثم أليس في هذا النحو من فهم التمثيل شيء من الانحطاط المعنوي والإسراف في الميل إلى المادة؟ تريد أن تؤثر رغبة في التأثير وأن تتأثر رغبة في التأثر لا ترمى إلى غرض آخر غير التأثير؟ فأى فرق بينك وبين من يطلب اللذة رغبة في اللذة؛ فهو يأكل لأن الأكل لذيد لا لأنه يغذو، وهو يشرب لأن الشرب لذيد لا لأنه ينقع الغلة ويروى الظأ؟ أليس في هذا النحو من تصور الفن والحياة شيء من ازدراء بالعقل والإعراض عنه، بل من ازدراء الخير والزهد فيه!؟ أليس التمثيل على هذا النحو سلسلة من التجارب خليقة بالعالم يدرس علم النفس ويريد أن يضع قواعده لا الفنى الذى يريد أن يظهر الناس على صورة من صور الجمال أو يهديهم إلى سبيل من سبل الخير!؟ أعترف بأن «هنرى بتايل» عالم نفسى ماهر، يستطيع أن يحلل العاطفة فيصل من تحليله إلى أدق ما يمكن أن يصل إليه المحلل، ثم يستطيع أن يلائم بين العواطف المختلفة فيصل من هذه الملاءمة إلى تأليف أمزجة غريبة لم يعتدها الناس. ولكن عالم الكيمياء نفسه حين يحلل وحين يلائم لا يقصد إلى التحليل وحده ولا يقصد إلى الملاءمة وحدها، وإنما يقصد إلى

شيء آخر هو فوق التحليل وفوق الملاءمة ، يقصد إلى العلم وإلى انتفاع الإنسانية بهذا العلم . قدّر هذا الانتفاع كما تشاء . قل إنه الانتفاع المادى إن كنت من العمليين ، وقل إنه الانتفاع العقلى إن كنت من النظريين ، ولكن هناك انتفاعاً إنسانياً تنتهى إليه مباحث العلماء الذين يحللون ويركبون . فما هذه المنفعة التى ينتهى إليها تمثيل هنرى بتايل ، وتحليله للعواطف وملاءمته بين المختلف منها ؟ ما هذه المنفعة الخلقية أو الفلسفية أو الاجتماعية ؟ لو أنه ظفر بإيجاد منفعة قيمة لغنه هذا لكان فنه أجمل فنون التمثيل الحديث ، ولكنه لم يوفق فى أكثر الأحيان لهذه المنفعة التى يمكن أن تنتظر من فن كفن التمثيل يتجه قبل كل شيء إلى الجمهور لا إلى علماء النفس .

وأريد أن تكون القصة التى أحدثك عنها اليوم دليلاً صادقاً على ما قدمت .

* * *

نحن فى باريس ، فى قصر نفم ، لرجل من أشرف فرنسا ، بعيد الصوت ، رفيع المكانة ، عظيم الثروة ، حريص على مكانته وصوته وما ورث عن طبقة الأشراف من العادات وشدة

المحافظة ، هو الدوق دى شارنس ، وبين يدينا كاتبه انخاص
يرتب أوراقاً على منضدة ، فيدخل عليه قسيس صديق للأسرة
شديد الاتصال بها ، وعلى هذا القسيس آثار الإشفاق والاضطراب .
يسأل عن صحة الدوق والدوقة والأسرة كلها فلا يجيبه الكاتب
إلا بالخير . يسأل هل حدث حدث ؟ فيجيبه الكاتب : لا !
ويدخل الدوق فيصرف كاتبه ويخلو إلى قسيسه فينبئه بأنه
دعاه لأمر جليل ، وأنه إن لم يكن قد أصاب الأسرة أو أحد
أعضائها موت مادمى فقد أصابها موت معنوى ، هو شر من كل
موت . ولا يطيل فينبئه بأن رجلاً صديقاً للأسرة كثير التردد
عليها قد أغوى ابنته ، فهو لذلك جزع ، وليست امرأته أقل
منه جزعاً . هو جزع لأمر فى نفسه ، جزع لأنه لم يكن ينتظر
هذا من ابنته التي لم تتجاوز الثامنة عشرة والتي كان يراها مثل
الظهر والنقاء . جزع لأنه لن يستطيع أن يضم ابنته إليه
وقد أصابها ما أصابها من الدنس . جزع لأنه لا يكاد يتعمق
الأمر حتى تشور عواطفه وتملكه تلك العادات التي ورثها والتي
كلها حرص على الشرف واحتفاظ به . ثم جزع لأن المجرم
صديق من أصدقائه المخلصين . وهو يحاول أن يكتم اسم هذا

الصديق ، ولكن الغيظ يملكه فإذا هو قد صرح بهذا الاسم ،
فإذا هذا الاسم هو « مرسل أمرورى » ذلك الحامى المعروف
الذى وصل إلى نقابة المحامين وبلغ من المجد منزلة دونها كل
منزلة ، والذى عرف بالشرف والمروءة وجميل الخلق . ثم يقص
عليه الأمر ، فإذا الصلات بين هذا الرجل وبين الأسرة ليست
بعيدة العهد . ولكن هذا الرجل لم يكذب يتعرف إلى الدوق
حتى مالت إليه الدوقة فلاطفته وبشت له ودعته إليها كثيراً ،
ثم التقت الأسرتان فى الصيف فاشتدت بينهما الصلات ، ثم
عادت إلى باريس فاستكشف الأب رسائل غرام بين ابنته
« ديان » وبين هذا الحامى . وهذه الرسائل لا تدع سبيلاً
للسك فى أنهما آتمان ، ولكن الفتاة قد آثرت الصمت واعتصمت
به ، فهى لا تجيب عن شىء . وهذا الأمر سر مكتوم يعرفه
الزوجان وحدهما وقد أفضيا به إلى القسيس ليستعينا برأيه
ومشورته . وتدخل الدوقة فإذا امرأة شديدة الحزن ، ولكنها
رقيقة العقل مفتونة بالحياة وزينتها ولذاتها ، طاهرة ولكنها لم
تسعر بطهارتها ولا تظن أن الطهارة تحتاج إلى شىء من الجهد ،
أو أن فى لذات الحياة البريئة ما يعرض الفتيات والنساء للخطر .

فهي المسئولة عن إثم ابنتها، لأنها أساءت تربيتها، وقوت في نفسها الميل إلى الزينة والاستعداد للفتنة . وهي تعترف بذلك وتأسف له . وهما يستشيران القسيس فيما يصنعان فيشير عليهما بالمضي في التكتّم حتى لا يظهر الناس على شيء ، وبالاجتهد في إصلاح ما فسد من نفس الفتاة وخُلُقها . وإنما السبيل إلى ذلك أن تكون السيرة معها شديدة قاسية ، فتحرم أسباب الزينة واللذة ، وتضطر إلى دير من هذه الأديرة القاسية الخشنة تخضع فيه للمراقبة الدينية ، حتى تبلغ الرشد ، ويلج في ذلك ويبالغ حتى ينصح بأن يقص شعر الفتاة . أما الأم فتجزع لذلك ولكنها مضطرة إليه . وأما الأب فقد قبله فرحاً مبهجاً وكلف القسيس أن يتخذ لذلك أسبابه . فيخرج القسيس ليسأل في دار الأسقف عن أشد الأديرة ملاءمة لهذا الأمر . فإذا خرج دعيت الفتاة ، فيحاول أبوها أن يتبين منها جلية الأمر . فانظر إليه منذراً خيفاً ، وانظر إلى زوجه رقيقة لينة ، والفتاة صامته لا يخفيها النذير ولا تستلينها الرقة . ولكن الأب يتجاوز النذير إلى شيء من العنف . وقد ضاق بالفتاة صمتها فبدأت تقص أمرها ، وبدأت تقصه في خفة وازدراء كأنها لا تشعر بما أتت من إثم ، وكأنها

لا ترى في ذلك عاراً ولا عيباً . وكما مضت في ذلك ازداد أبوها سخطاً وعنفاً . ولكن أخاها يدخل ، وهو فتى في المدرسة الحربية ، قوى شديد النشاط ، مبهيج ، مبتمس للحياة ، مؤمن بمذاهب المحافظين ، مخلص للملك ، وهو يفاخر بأخته ويظهرها في كل مكان ، وهو سعيد لأن رفاقه معجبون بها يلاطفونها ويطلع كل منهم في أن يتخذها زوجاً له . فإذا دخل تحول الحديث وأخبر بأن أخته مريضة ، فأظهر شيئاً من الشدة ثم اطمأن إلى الخبر فمزح أخته وأبويه . وهم كذلك إذ ينبيء الخادم بأن سيدة أقيمت للزيارة ، فينصرف الفتيان ، وإذا هذه السيدة هي زوج الحمى الآثم دعيت ليقص عليها الأمر . فلا تكاد تدخل حتى يتلقاها الزوج مقطباً محزوناً ، ثم لا تكاد تتحدث حتى يخبرها الخبر في غير لين ولا رفق ، وإذا هذه المرأة قد صعقها الأمر فهي بين نازلتين عظيمتين : إحداهما أن زوجها قد خانها وهي تحبه وتهيم به . والأخرى أن زوجها قد أغوى هذه الفتاة ابنة صديقتها فأساء إلى أحب الناس إليها ، فهي لا تدري كيف تعتذر ، وهي لا تدري كيف تصلح ما أفسد زوجها . ولكن الدوق لا يطلب إليها إلا شيئاً واحداً وهو أن يستخفي

هذا الزوج من وجهه وألاً يظهر الناس من إثمه على شيء ،
وأن تنقطع بينه وبين الفتاة كل صلة . فإذا خرجت المرأة
أعيدت الفتاة ، فما زال بها أبوها حتى عرف منها كل شيء ،
ثم يتركها لأما ، فتنبهها بما اعتزم من إرسالها إلى الدير . ترفض
الفتاة ساخرة . فإذا ألتأ أنها أظهرت الفتاة شيئاً من الرفض
ثم من العصيان . ويدخل أبوها فينهرها نهرأ شديداً ، ثم يرق
لها ، وإذا هو يضرع إليها في أن تذهب إلى الدير لتحتفظ
للأسرة بكرامتها وتصلح ما أفسد من أخلاقها ، فتظهر الفتاة
الطاعة وتجييب في رفق وقد أصلحت من أمرها ونظمت شعرها :
« سأذهب إلى الدير ! »

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في مكتب المحامي بباريس ،
وأمامنا هذا المحامي والفتاة وخادما . ولا نكاد نسمع إلى
حديثها حتى نفهم أنهما قد تكاتبا واتفقا على الفرار ، وأن
الفتاة خيأت إلى أبويها أنها ذاهبة إلى الدير فأعدا لها كل
شيء ، وخرجت ذلك اليوم تزور القسيس وضربت لأما موعداً
عند القسيس ، ولكنها أقبلت إلى صاحبها الذي أعد كل شيء

للفرار بعد حين ، وقد تم رأيهما على هذا الفرار ، فبعد دقائق ستأتى السيارة فتقلهما إلى حيث يركبان السفينة إلى إنجلترا وقد أخفيا أمرهما وكتماه فلم يظهرها عليه إلا هذه الخادم .

ولكنهما يشفقان من هذه الخادم ، لأنها تحب سائق سيارة ، وها يشفقان أن تكون هذه الخادم كارهة للرحيل ، وأن تكون قد أنبأت صاحبها به ، فتنكر الخادم ذلك وتقسم ، ويصدقها العاشقان ويأمرانها أن تذهب ، فتأخذ القطار حتى تصل إلى محطة كذا فتنتظرهما هناك ، فتتصرف ويحلوان .

ولست أخلص لك ما يدور بينهما من حديث كله حب وفتنة إلا شيئاً واحداً له خطره ، وهو أن المحامى ينصح للفتاة أن تفكر وتروى ، لأنه جاوز الأربعين وهى فى الثامنة عشرة ، وهو يخشى أن يكون جها شيئاً من نزع الشباب وغرور الأطفال . وكما ألع عليها فى ذلك لقيته بالسخط مرة وبالسخرية مرة أخرى حتى يؤمن بأن عزيمتها صادقة ، وأنها مستعدة لاحتمال ما ستلقى من الخطوب . ثم يسمع حركة السيارة ، فيدنو من النافذة وينظر ، فإذا هو يرى امرأته ، فهو جزع مضطرب ، وهى أشد منه جزعاً واضطراباً . تنصحه ألا يلقى امرأته فيأبى

ألا أن يلقاها ، فستحلفه ألا يضعف ولا يلين فيحلف ، ثم يخفيها في غرفة ويلقى امرأته . أما امرأته فتزعم له أنها مرت بالمكتب عفواً فصعدت لتراه ، وتطلب إليه أن يذهب ليدفع أجر السيارة ويبحث عن شيء نسيته فيها ، فإذا ذهب أسرع إلى غرف المكتب تفتشها ، ثم عادت ومعها مفتاح ، ويعود زوجها فتنبئه بأنها تعلم كل شيء وأنه كان يريد السفر مع الفتاة وأنها أقبلت لتمنع هذا السفر . فإذا أنكر أظهرت له كتاباً تسلمته ينبئها بالأمر . فإذا أنكر أنبأته بأن الفتاة في هذا المكتب . فإذا أنكر أظهرت له المفتاح وأنبأته بأنها رأت الفتاة وأغلقت الباب من دونها ، فيعترف بأن الفتاة عنده ، ولكنها أقبلت لتراه قبل أن تذهب إلى الدير . أما هي فلا تصدقه بل تصرع إليه في ألا يفعل . وها كذلك إذ تنظر من النافذة فترى أخت الفتاة مقبلاً . تنبئ زوجها ، فيشتد جزعه ، ويطلب إليها المفتاح ليخلى سبيل الفتاة وليصرفها إلى بيتها متى أقبلت السيارة التي تنتظرها . ولكنها تأتي وتلح في الإباء ، وتعد بأنها ستلقى الفتى لقاءً حسناً وستخفي عليه كل شيء . ثم تضطر زوجها إلى الدخول في غرفة ، وتستقبل

الفتى . فإذا سأل عن زوجها أنباته بأنه هنا يتحدث إلى بعض الناس في أمر له . ثم تسأله عن سبب زيارته فيظهر لها كتاباً كالذى في يدها منكرأ ذلك مستبعده . أما هي فتظهر الغضب لأن الفتى شك في زوجها إلى هذا الحد . ويرى الفتى من اطمئنانها وهدهوتها ما يقنعه بأنه كان مخطئاً وبأن الكتاب ليس إلا دسيسة فيعتذر ويكثر من الاعتذار . وتذهب « فاني » إلى زوجها فتدعوه ، فيظهر هادئاً مطمئناً ويتحدثون فلا يظهر الفتى من أمره شيئاً ، لأنه كان اتفق على ذلك مع « فاني » . ثم يزعم أنه أقبل يدعوها إلى الصيد فيقبلان الدعوة . ويسترق الحامى لحظة فيلح على زوجته في أن تدفع إليه المفتاح ليرسل الفتاة إلى بيتها ، فتدفعه إليه ، ويأخذه هادئاً ويتركهما لحظة على أن يعود . وهما يتحدثان وهي تريد أن تشغله عن النافذة حتى لا يرى أخته تخرج من المكتب وتصعد في السيارة ، وما تزال به حتى تسمع حركة السيارة وانصرافها ثم تنتظر لعل زوجها يعود فلا يعود ، ثم تدعوه فلا يجيب . وإذا هي مضطربة ذاهلة تدنو من الاغماء شيئاً فشيئاً . فيسرع الشاب إلى البواب فيدعوه . فإذا أقبل سألته « فاني » متحفظة عن السيارة : هل انصرفت

وهل صعد فيها زوجها ومعه امرأة ؟ فإذا أجابها نعم صرفته ثم صاحت جزعة . فيسألها الشاب فتنبئه بكل شيء . ولست أصف لك غضب الشاب ووعيده ، ولكنهما يتفقان على الانتقام .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في فندق من فنادق لندنرا ، وأمamna الحامى يتحدث إلى كاتبه ، ونفهم من حديثهما أن أسرة الفتاة قد تبعته ، وأن أباها أرسل إليه شاهدين وطلب إليه المبارزة فرفض ، وأن الأسرة طلبت إليه موعداً للقاء فضرب لها موعداً هذا الفندق وهذه الساعة . وهو لا يدري من سيلقاه ، وهو لا يدري ماذا ستكون نتيجة هذا اللقاء ، وهو يخشى الغدر ؛ ولذلك احتاط فكتب كتابين أحدهما إلى « ديان » والآخر إلى وكيل أعماله فى باريس وهو يكلف كاتبه أن يحمل هذين الكتابين ويدفعهما إلى من كتب إليهما . ويدخل القسيس فينصرف الكاتب . ويكون بين القسيس والحامى حوار قيم لذيذ كنت أود لو استطعت أن أترجمه لك ، فقد يكون خيراً ما فى هذه القصة من حيث منفعتها العقلية ، ولكن الوقت والمكان أضيق من ذلك . يطلب القسيس إلى الحامى

باسم الشرف والمروءة وباسم ما تلقى الأسرة من الألم أن يرد الفتاة إلى أهلها ، فيأبى باسم الشرف والمروءة وباسم الألم أيضاً . ذلك أن الشرف شيء يختلف الناس في تصويره : فللقسيس فيه رأى ، وللمحامى فيه رأى آخر ، فإذا كان القسيس يرى أن الشرف في أن ترد الفتاة إلى أهلها حتى لا تسوء سمعة هذه الأسرة ولا يفسد مستقبل الفتاة والأسرة بريئة والفتاة جاهلة ، فإن المحامى يرى أن الشرف إنما هو في أن يأبى تسليم الفتاة . أليست هذه الفتاة تحبه ! ! أليست قد وهبت نفسها له ! ! أليست قد لجأت إليه ! ! أليس قد حماها ووعداها بالوفاء ! ! أليس تسليمها نكثاً للعهد وخفراً للذمة وحرماناً للفتاة سعادة قد أطمعها فيها ! ! وإذا كانت الأسرة تألم فألمها سخيف ؛ لأن مصدره العادة والحرص على القديم . ولو أن هذه الأسرة حرة حقاً مستنيرة حقاً لما أنكرت من سيرة الفتاة شيئاً ، ولما قطعت الصلة بينها وبينها ، ولأقرت هذا الحب فلم تضطر الفتاة إلى الفرار .

أما ألم الفتاة إذا ردت إلى أهلها فألم قوى صادق لا يعتمد على عادة باطلة أو قديم سخيف ، وإنما هو ألم السعيد

حرم سعادته ، والمشغوف حيل بينه وبين من يهوى . ويعجز
القسيس من إقناع الحامى فينصرف قائلاً : لقد حرمت التوفيق ،
فلفل غيرى أحسن منى حظاً . ويخرج ، فتدخل من نفس
الباب الذى خرج منه زوج الحامى . فانظر إلى الزوجين وجهاً
لوجه . وانظر إلى ما يحدث فى هذا الموقف من تغير العواطف
وتبدلها . أقبلت شجاعة قوية العزم ، وكانت تعتقد أنها
ستكون عنيفة ، وأنها ستحسن الدفاع عن حقها وعن
شرفها ، فأخذت كلما دنت من لندرا تفقد شيئاً من شجاعتها
وقوتها ، حتى إذا رأت زوجها كانت قد وصلت من الضعف
إلى حيث تشجع فتكظم عواطفها وتغالب عبراتها وتبحث عن
القوة المادية فلا تجدها ، وعن اللفظ فلا تكاد تظفر به . أما
هو فقد فجأه لقاءها ؛ لأنه لم يكن ينتظر هذا اللقاء ، ولأنه
يكبر امرأته إكباراً شديداً ويعطف عليها عطفاً شديداً ، ويرى
أنه قد ظلها ظلماً منكرأ . فإذا التقيا على هذا النحو كان فى
موقفهما جمال بشع . على أنها تحتفظ بكبريائها فلا تبكى ولا
تستعطف ولا تطلب إلى زوجها أن يرحمها أو يرد إليها . أليست
تعلم أنه لم يجبها إلا أسبوعاً ولم يشتمها إلا شهراً ، وأنه قد

عاش معها أعواماً طويلاً لا يميل إليها إلا متكلفاً . أما هي فقد أحبته منذ عرفته ، وما زالت تحبه رغم هذه الآثام وهذه الخزيات . وهو يدافع عن نفسه فلا تسمع له ولا تصدقه ، ولكنه صادق ، فقد لا يكون حبه إياها قوياً ولكنه أحبها ، وقد قوت المحن هذا الحب فأصبح الآن عظيماً . وهو كلما تكلم ظهر صدقه ، وكلما ظهر صدقه أثر في نفس امرأته ، وإذا تحول في العاطفة . أما هو فشديد الهيام بزوجه ، يدنو منها يريد أن يضمها إليه . فأما هي فليست أقل منه هيماً ، ولكنها أشد منه شجاعة وأعظم منه شعوراً بالكرامة ، فهي تغالب عواطفها وتقف زوجها عند حده ، وتسأله عن شيء واحد تريد أن تعرفه ، تسأله عن هذا الحب الذي كلفه هذه الأهوال : أقوى حقاً أم هو لا يعدو الفتنة ؟ فإذا هو متردد يفكر ولا يجد جواباً صريحاً . ولكن هذا التردد نفسه يكفيها فتفتنع بأنه لا يهزل في هذا الحب وبأنه لم يتكلف ما تكلف مفتوناً أو عابساً ، فترضى وتطمئن إلى المنازلة .

وانظر إلى التغير الجديد في عواطفها . انظر إليها راضية مطمئنة تضرع إلى زوجها في شيء واحد وهو أن يعدها بأن

يكون إليها هي مرجعه إذا نابتة نأبته أو دهمه خطب أو انقطعت
الصلة بينه وبين صاحبتة . تلح في هذا الوعد لأنه سيكون
الأمل الذي سيحبب إليها الحياة . يعدها ، وإذا شئ من
الذهول لا حد له قد ملكهما جميعاً ، هي هائمة بزوجها تضحي
بنفسها في سبيله ، وهو يعجب بهذا الحب وهذه التضحية
إعجاباً لا يزيده إلا هياماً ، ولكنها تصرفه وتلح في ذلك لأن
أبا الفتاة وأخاها ينتظران ويوشكان أن يأتيا . ينصرف
ويدخلان ، فإذا كل شئ قد تغير ، وإذا هي تدافع عن
زوجها ولا تتهم بالإثم إلا الفتاة ، وتسرف في هذا الدفاع حتى
تغضب الرجلين ، ويكون بينهما وبينها خصام عنيف ينطق
فيه الفتى بألفاظ الوعيد .

فإذا كان الفصل الرابع فنحن مع العاشقين في فندق
آخر من فنادق لندن ، وقد انتصف الليل وهما يتحدثان ،
وقد أخذ منهما القلق . ولكنها يكتمانه . هي مشفقة على
صاحبها من أخيها ، وهو مشفق على صاحبتة من أسرتها ، وهما
يتكلمان الفرح فلا يصلان إليه ، وهي تلح عليه في ألا يخرج

من غرفته فيضحك ويظهر الإباء ، ولكن الباب يطرق فيملؤها ذلك خوفاً ، فإذا ذهب صاحبها إلى الباب دفع إليه الخادم كتاباً فيقرؤه ، وإذا امرأته تطلب إليه موعداً ، وإذا هي تتعجل ذلك وتلح فيه . يأبى استقبال امرأته في غرفة صاحبتة فتلح عليه هذه في استقبالها لأن الأمر جليل قد أصبح فوق هذه الاعتبارات كلها . فإذا استقبل امرأته وقد استخفت صاحبتة في غرفة النوم أنباته زوجها بما كان بينها وبين أسرة الفتاة من خصام ، وبأنها أشفتت على حياته فراقبت الفتى حتى علمت أنه استأجر غرفة في هذا الفندق فاستأجرت هي أيضاً غرفة فيه ، وأقبلت تنبئه بمكان الخطر ، وتسأله أن يلزم غرفته ولا يخرج ، فيأبى ، وتلح فيعدها . فإذا خرجت لم تكذب تجاوز باب الغرفة حتى عادت مضطربة ، لأنها رأت الفتى واقفاً يترقب . وهي تحدث زوجها بذلك إذ تسمع دنو الفتى فتكره زوجها على أن يستخفي في غرفة نومه وتطفىء النور . ويقبل متلطفاً ؛ فإذا دخل الغرفة عمدت هي إلى النور فأضاءته ووقفت من الفتى موقف الخصم تردعه وتزجره وتسأله عما أضمر من جريمة . فيجيبها : أقبلت أطلب أختي ، ويردعها هو أيضاً !

أليست تحمى عشق هذين الآمنين !! ثم يرفع الفتى صوته يعير خصمه الجبن والاحتماء بالنساء . فإذا أطال في ذلك ظهر المحامى ومعه صاحبتة ، فكان بين هؤلاء النفر موقف من هذه المواقف التي لا يحسنها إلا هذا الكاتب . يشتد الخصام بين الرجلين حتى يبلغ أقصاه ، يخرج الفتى مسدسه ويوجهه إلى صدر صاحبه ، وإذا المرأتان قد أقبلتا تحميانه وتتلقيان من دونه الموت . يكف الفتى يده دهشاً ، وإذا الزوج قد وقفت من زوجها موقف من يحميه ويتقى عنه . فانظر إلى هذه الفتاة العاشقة وقد رأت من خصمها هذه التضحية وهذا الحب فصاحت : إن غيرتى منك شديدة ! إن حبك إياه لأعظم من حبي ، إن أملك لعظيم وأنا مصدر هذا الألم .

ثم انظر إلى هؤلاء النفر وقد ثارت عواطفهم حتى كادوا ينسون العالم الذي هم فيه . أما الفتى فغيران ، يريد أن يسترد أخته وأن يقترب الإثم إذا لم يوفق . وأما المحامى فهائم بالفتاة معجب بزوجه إعجاباً ليس دون الحب . وأما الزوج فعاشقة تريد أن تسفك دمه لتحمى من تحب . وأما الفتاة فكلفة بصاحبها ولكنها معجبة بهذه المرأة ، ترى أنها قد ظلمتها ظلماً

فاحشاً ، فتنال صاحبها سؤالاً تزعم أنه سيحل كل شيء : أينما
تجب حقاً ؟ لا يتردد المحامى فى الجواب بل يقول فى صراحة
وهيام : إنه يحب الفتاة ويؤثرها على امرأته . وبينما الفتاة تسمع
هذا الجواب فيتألق وجهها بشراً وسروراً إذا المرأة تسمعه فتئن
أينماً مؤلماً ، ولكنها لا تغير من موقفها شيئاً . ثم انظر إلى
الفتاة وقد أخذها ذهول يشبه الجنون ، فهى تدعوهم جميعاً فى
لهجة الهائمة إلى أن ينظروا فى الغرفة كأن فيها شيئاً عجيباً ، فإذا
أقبلوا جميعاً ينظرون فلم يروا شيئاً قال المحامى إنها مجنونة .
فتجيبه : سترى أنى عاقلة ، ويسمعون طلق المسدس ، فإذا هى
صريعة قد قتلت نفسها !!!...

فبراير سنة ١٩٢٤

الأم المفتونة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « هنرى بتايل »

ليس هذا عنوان القصة ، بل ليس هو عنواناً دقيقاً
لخلاصة القصة . ولكنه مع ذلك يعطى منها صورة ما . أما
العنوان الصحيح فهو « الأم كوليرى » . وهذا اللفظ اسم طائر
صغير جداً يعيش فى خط الاستواء ، له بهجة وجمال يخلبان
الأبصار ، وفيه قوة ونزق وخفة يضرب بها المثل . وواضح أن
هذا اللفظ لم يطلق على بطلة القصة عبثاً ، وإنما أطلق عليها
الشبه بينها وبين هذا الطائر . فهى امرأة قد ناهزت الأربعين
ولسكنها ما زالت محتفظة بشباب الفتاة التى لم تكد تتجاوز
العشرين ، فهى رشيقه ، حلوة ، صغيرة القد ، خفيفة الحركة ،
كثيرتها ، منطلقة اللسان ، عذبة اللفظ ، حرة فيه ، لا تكاد تصمت ،
ولا تكاد تتكلم إلا بأبعد الكلام عن سنها ومقامها ومنزلتها من
ولديها . فلها ولدان : أحدهما فى الثانية والعشرين ، والثانى

في السادسة أو السابعة عشرة . ولكن الناس إذا رأوا هذه المرأة مع أحد ابنيها لم يفكروا في أنها أم ترافق ابنها ، وإنما فكر بعضهم في أنها أخت ترافق أخاها ، وتحدث أصحاب الظنون السيئة في أنها فتاة لعوب ترافق عاشقها . وفي الحق أن كل شيء في هذه المرأة يعطى منها صورة غريبة لا تمثل المرأة الجادة ولا الأم التي تشعر بأمومتها وتعرف لهذه الأمومة ما لها من حق أو كرامة ، وإنما هي فتاة نزقة لعوب ، لا تفهم الحياة إلا على أنها فصل من فصول اللهو وضرب من ضروب المجون . وهي تريد أن تلهو ما استطاعت إلى اللهو سبيلا ، وأن تأخذ من المجون والدعابة بأعظم حظ يمكن أن تأخذ به امرأة . وقد أحس ابنها شبابها هذا الغريب وخفتها المدهشة ؛ فلم يسمحا لأنفسهما أن يدعواها كما يدعو الابن أمه ، وإنما اتخذها لها اسماً يختصر شبابها وجمالها ولطف قدها وخفة حركتها ، فسمياها « الأم كوليبيري » . وهي تحب هذا الاسم وتفتن به ، وتسائر ابنيها لا كما تسائر الأم أبناءها بل كما يسائر الصديق صديقه ، فهي تعبت معهما وتمزح ، وهي تشرب معهما وتدخن ، وهي تصفى لأحاديثهما وأسرار لهُوما وعبثهما ، ولا تتردد في أن تضحكهما . وربما نصحت لهما وأعاتهما

على أسباب اللهو والمجون . وها يجبانها حباً لاحد له ، حباً
مصدره الأمومة والبنوة ، من جهة ، ثم الشباب ومايستتبعه
من الافتتان في العبث والمجون من جهة أخرى .

وهذه الأسرة غنية نستطيع أن نقول إنها فاحشة الثروة .
أما زعيمها البارون « دى ريسبرج » فرجل من أشراف بلجيكا
عظيم الثروة ، أراد أن يختلط دمه بدم الفرنسيين أو يعيش في فرنسا
ويكون من ذوى المكانة والأثر في حياتها العامة ، فتزوج من
هذه الفتاة « إيرين » . وكانت يتيمة ، وكانت في
السابعة عشرة من عمرها ، ورزق منها غلامين أحدهما
« ريشار » في الثانية والعشرين ، قد تم درسه وأخذ
يعمل مع أبيه ويشاركه في حياته المالية ، وهو يريد أن
يتزوج وقد خطبت له فتاة . وأما الآخر فهو « پول »
في السابعة عشرة من عمره ، وهو تلميذ يستعد لامتحان الشهادة
الثانوية . وقد انصرف الأب إلى ثروته يدبرها ويشمرها ، وإلى
حياته المالية يعكف عليها حتى أنسته كل شيء . أنسته زوجته
فلم يلتفت إليها ولم يحفل بها ، وربما طلب لذته في ساعات

قصار بميداً عن داره . وهو مع ذلك يحب امرأته وأبنيه ويريد لهم حياة سعيدة لا يشوبها شر ولا سوء ، فهو يبيع لهم من أسباب النعيم شيئاً كثيراً . وقد أسكنهم قصراً فخماً ، وأطلق أيديهم في المال يأخذون منه حاجتهم وفوق حاجتهم ؛ لأنه يريد أن يستمتعوا بهذه الثروة الضخمة حقاً . ولكن امرأته على ضخامة ثروتها واجتماع أسباب النعيم لها لم تكن سعيدة ؛ لأن شيئاً آخر كان ينقصها هو الحب . الحب الذي يخفق له القلب ويفتح أمام النفس أبواب الأمل ، وينهض بصاحبه إلى حياة ليست كالحياة ، وإنما هي شيء كالحلم الذي لا يقظة منه . لم يتح لها هذا الحب لأن زوجها منصرف عنها بأعماله المادية ، ولأنه لا يستطيع أن يتصور الحب على هذا النحو ، ولكنها مع ذلك لم تشعر بهذا النقص في أول عهدا بالحياة الزوجية لأنها شغلت بابنيها وتربيتهما ، فكانت أما قبل أن تكون امرأة . وأما الآن وقد بلغ هذان الغلامان أشدهما وأخذا يستقلان بالحياة ، فأخذ أحدهما يهيم له عساً لا يلبث أن يطير إليه ، وأخذ الآخر يستعد للشهادة الثانوية حتى إذا نالها ترك البيت وذهب الى إحدى المدارس العليا فاستعد لحياة المستقبل . نقول

أما الآن فقد عادت هذه المرأة الى نفسها وفكرت في أمرها ونظرت فإذا هي قوية فتية ، وإذا قلبها جديد وجسمها جميل ، وإذا عواطفها حادة وحسها في حاجة إلى التنبيه ، فأصابها شيء من القلق لم تتبينه أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن عرفت كنهه وأسبابه وتعرضت لنتائج .

فإذا كان الفصل الأول ، فنحن في قصر هذه الأسرة ، في أجمل أحياء باريس . وقد دعت هذه الأسرة إلى العشاء تفرأ من أصدقائها فيهم شباب قد انتحوا ناحية يشربون ويدخنون ويتحدثون بأخبار لهوهم وعيبتهم . وفيهم نساء منهم سيدات تقدمن في السن واحتفظن بالعادات والآداب القديمة ، فهن لا يتحدثن إلا في الجد . وفيهن سيدات آخر من الجيل الحديث يكرهن الجد وينفرن منه ويطمعن في اللهو ويصبون اليه . وبين أولئك وهؤلاء هذه الفتاة « مادلين » التي خطبت « لريشار » قد أقبلت هذه الليلة ومعها أمها تريد أن تتحدث إلى خطيبها ليتعارفا ويبلو كل منهما صاحبه قبل الزواج . وبينما الشبان يتحدثون فيذكرون اللهو والمجون ويقص كل منهم

أخباره على أصحابه إذا السيدات قد خلون في غرفة أخرى ،
ولكنهن لا يمزحن ولا يضحكن لمكان أولئك السيدات
المحافظات . وما هي إلا أن نرى الأم « كوليرى » قد
أقبلت مندفعة إلى الشبان في نشاط وخفة تشكو سأمها وضيق
ذرعها بصاحبها ، وتلوم هذا الشاب على اعتزاله وانصرافه إلى
أحاديثه الخاصة ، وتلح على هؤلاء الفتيان في أن يذهبوا إلى
السيدات ليدخلوا على اجتماعهن الفاتر شيئاً من حدة الشباب
ونشاطه ، ثم هي تتكلم في غير انقطاع ، وتتحرك في غير هدوء
باسمة لهذا الشاب ، مداعبه لهذا الشاب ، وترى الشواب
قتستسقيهم فيسقونها ، وترى البيانو فتعمد إليه وتجري أصابعها
عليه فإذا إيقاع حسن ، وإذا الشبان قد فتنوا بها ، فهم
يتحدثون بجمالها وخفتها ، منهم من يجهر لها بذلك فتبتهج ،
ومنهم من يسر ذلك ويذكر لصاحبه أنه يشتهيها ولكنه يأس
منها ! أليست أم صديقيه ! . . ثم هي امرأه على نزقها وخفتها
شريفة معروفة بالعفة لم تذكر عنها سيئة قط . وهو يأسف لذلك
أشد الأسف . ثم تنظر المرأة إلى الشبان يدخنون ، فتريد أن
تدخن ، وهي لا تريد ذلك عفواً وإنما تريد أن تغيظ السيدات

المحافظات لعلهن يتعجلن في الانصراف وتوفق لما تريد ، فلا تكاد تظهر للسيدات وفي يدها لفاقة التبغ حتى يظهرن كره ذلك وإنكاره ، ثم يتعلن ويهممن بالانصراف ، ولا يبقى إلا السيدات المحدثات ومعهن الخطيبة وأما قد بقيت كارهة لترافق ابنتها . ومعهن امرأة شيخة ولكنها تتغلسف فتزدرى الجديد ، وربما ابتسمت له وعطفت عليه وهي تحتفظ بالقديم لنفسها ، وهم يعرفون منها ذلك فلا يحفلون بها ولا يحتاطون أمامها . وفيها شيء من الصمم فهم يستطيعون أن يتبادلوا من الحديث ما يريدون لأنهم قد أمنوا أن تسمعهم . وهم لا يرضون على أنفسهم بالمزاح والإسراف فيه فيتبادلون أخف الألفاظ وأشدّها إيغالاً في العبث . كلهم فرح ، وكلهم مبتهج إلا الفتاة الخطيبة ، فهي تريد أن تتحدث إلى خطيبها وهي تحتال في أن تنتحى به ناحية ، وإلا أم الفتاة فهي تكره هذا الابتهاج وتمتقت هذا الجون ، ولا تخفى مقبتها على الأم فتلومها وتعاتبها . ولكن الأم لا تجيبها إلا ساخرة مزدرية ، فهي تهزأ بالزواج وقوانينه ، وهي تسخر من النظم الاجتماعية ، وهي لا تذكر إلا الحرية وإلا اللذة . وهم كذلك إذ يحمل إلى هذه الأم كتاب تنظر فيه ثم تخلو إلى ابنتها ،

فإذا هذا الكتاب من عشيقه الفتى تنذره بأنها ستفضح أمره
إذا تزوج . فيغضب الفتى لذلك وينصرف مع أصحابه ليفكروا
في الأمر ، ويردوا هذه المرأة إلى رشدها ؛ ولكنهم لا يكادون
ينصرفون حتى يقبل صديق لهم اسمه « جورج دى شميرى »
فإذا ظهر أحسننا من السيدات ميلا إليه وإعجاباً به ، ورأينا
الأم تعنى به عناية خاصة ، فتتلف له وتتحدث إليه فى دعابة
ورفق . وينصرف الشبان ويبقى هذا الفتى . فما هى ألا أن
تنصرف الخطيبة وأما ولا يبقى إلاتك الشيخة التى أشرنا إليها
وسيدة أخرى شابة ليست أقل نزقاً وخفة من صاحبة البيت ،
على أنها لا تمكث طويلاً لأن صاحبة البيت طلبت إليها أن
تنصرف فلا يبقى إلا الفتى والشيخة الصماء وصاحبة البيت
هذه . ولنزيد جداً منظر هؤلاء الثلاثة ، فأظنك قد فهمت
أن بين هذا الغلام وبين هذه المرأة صاحبة البيت صلات
حب ، وهما يتحرقان شوقاً إلى العزلة ، ولكن الشيخة لا تبرح
مكانها ، فهما يخدعانها ويتغازلان ، وهى تشعر مرة وتنخدع
أخرى ولكنها لا تبرح مكانها ، وكأنها تجد شيئاً من اللذة
فما تشهد ، لأنه يذكرها شبابها . وقد كره العاشقان .

مقامهما فما يزالان بها حتى تشعر بأن الساعة متأخرة فتنصرف ،
ويخلو العاشقان . وإذا الفتى في الحادية والعشرين من عمره ،
كان رفيقاً لابن صاحبة البيت في المدرسة . وكان يختلف إلى
صديقه . وكانت صاحبة البيت كثيراً ما تخرجهما من المدرسة
للزهوة كما تفعل الأم مع ابنها ، ولكن الفتى جميل خلاب ،
وفيه خفة وسذاجة ، فلا تلبث الأم أن تفتن به ، وقد كثر
اختلافه إلى البيت فارتفعت الكلفة بينها وبينه شيئاً فشيئاً ثم
تجاوز الأمر بينهما حد الصلات المألوفة بين مثلهما ، فإذا هما
عاشقان ... وهما بهذا العشق سعيدان ، ولكن سعادتهما مختلفة .
أما الفتى فسعيد على نحو ما يسعد الشبان ، لا يفكر في غد
ولا يحسب للمستقبل حساباً ، وإنما هو مندفع في لذته وسعادته
إلى غير حد ، وهو مغتبط بهذا الحب ، يشعر بشيء من الكبرياء
ظفر بهذه المرأة التي كانت تستطيع أن تجرد عنه منصرفاً لو
أرادت إلى كثير من الرجال الذين يتبعونها ويتملقونها . وأما
هي فسعيدة ولكن مع شيء كثير من الحزن والخوف والأسف
أيضاً . هي سعيدة لأنها تحب الفتى . ولأنها قد وجدت ما يزيل
ذلك القلق الذي أشرنا إليه ، ولأنها تشعر بأنها كالزهرة قد

تفتحت للضوء والندى ، فكلمها حياة ، وكلها حسن ، وكلها عاطفة .
ولكنها تعلم أن هذا الحب غريب منكر . أليس منكرًا أن تحب
المرأة صبيًا هو رفيق ابنها في المدرسة ؟ ثم ماذا يضر المستقبل
لهذا الحب وعن أى نكبة سيتكشف لها الغد؟ هى سعيدة
ولكنها محزونة مشفقة . على أن هذا الحزن والإشفاق يزيدان
في حرصها من السعادة ويحملانها على أن تزيد منها ما استطاعت
وعلى أن ترى لحظتها سنة لأنها لا تعرف بم سيلقاها الغد .
وها يتغازلان فنراها مرة طفلة متهاككة على الحب واللذة . تعبد
هذا الفتى عبادة لاحد لها ، وتراها حينًا محزونة واجمة . ثم يطول
بهما هذا الموقف وقد بلغ الحب من الفتى أقصاه . فهو يريد
أن يضمها إليه ، وبلغ الحب منها أقصاه أيضًا ولكنها مشفقة أن
يدخل أحد ابنها . أليس أحدهما يستطيع أن يعود من حين
إلى حين !! ؟ أليس الآخر فى غرفته يدرس وقد يخطر له أن
يأتى ليتحدث إلى أمه حينًا !! ؟ هى إذن تحتاط ، ولكن
الشاب لا يطيق صبراً فترسله إلى غرفة ابنها الصغير ليتثبت من
أنه منصرف إلى درسه ، فإذا خرج الفتى عمدت إلى كتاب
وجالست تنظر فيه ، وهى كذلك إذ يعود الفتى فيعجبه منظرها

تقرأ في الكتاب ، فيريد أن يقبلها على غرة ، وإذا هو يمشى على أطراف قدميه حتى لا تشعر به فإذا قاربها ولم يبق بينه وبينها إلا أن يميل إلى عنقها فيلثمه ظهر ابنها « ريشار » على باب الغرفة وقد رأى هذا كله فرفع صوته سائلاً عن أخيه فيلتفت الفتى مذعوراً ويتكلم المزح فيقول لقد كنت أريد أن أخيف أمك !! أما « ريشار » فقد فطن إلى الأمر ، ولكنه لا يظهر شيئاً وإنما يعيد السؤال عن أخيه ، ويتكلم « جورج » المزاح فلا يزيده تكلفه إلا اضطراباً ، ثم يكون بينه وبين صديقه حديث يظهر فيه الجفاء . أما الأم فلم تشعر أو لم تكدر تشعر بتفصيل هذا المنظر لأنها كانت منصرفه إلى كتابها ، فتسأل ابنها عما حصل فيجيبها متكلفاً ثم ينبئها أنه منصرف فتقول سيصحبك « جورج » . ينصرف الفتيان ، وتعود هي إلى كتابها فتتأمل فيه . ولكن ابنها قد تكلف نسيان قلنسوته فيعود إلى الغرفة ، فإذا رأى أمه عاكفة على الكتاب تردد قليلاً ثم مشى على أطراف قدميه مشية صاحبه منذ حين وما زال كذلك حتى يدنوا من أمة وهي لا تحسه ولا تشعر به . فإذا بلغها تردد حيناً ثم جاهد نفسه وإذا هو قد وضع

شفتيه على عنق أمه يقبلها قبلة العاشق . فإذا هذه المرأة تضطرب كلها . وإذا كتابها قد سقط من يدها ، وإذا هي تستلقى بين ذراعي مقبلها تناديه في رفق نداء العاشقين ! . . . ثم تنظر فإذا ابنها وإذا هما ممتعان ، أحدهما قد ملكه الغضب ، والأخرى قد ملكها الخزي . ولكن الفتى يملك نفسه فيقول لأمه : « عمى مساء يا أماه ! . . . » ثم يعمد إلى قلنسوته فيأخذها وينصرف .

* * *

فإذا كان الفصل الثاني فقد أقبل الصيف ، وانتقلت هذه الأسرة من باريس إلى ساحل البحر واتخذت هناك بيتاً فخماً لم يتم استقرارها فيه . أما الأب فنصرف في أيام راحته إلى الصيد ، وأما أصغر الغلامين فعاكف على الدرس يريد ألا يسقط في امتحان أكتوبر ، ونرى هذا الغلام جالساً إلى مكتبه يدرس ، وإذا أخوه قد أقبل وعليه آثار الاكتئاب كأن شيئاً ذا بال يشغله ، فيتحدث إلى أخيه حديث الجاد ، ويسمع له أخوه دهشاً حيناً ثم يطمئن . ذلك أن أكبر الأخوين ينبيء أخاه بأن جورج قد أساء إلى شرف الأسرة إساءة منكورة ، وأنه لا يستطيع أن ينبئه بهذه الإساءة لأنه ما زال بعد صغيراً ولكنه محتاج

إلى معونته لأنه مضطر إلى أن يبارز جورج وإلى أن يخفى أسباب هذه المبارزة على أبويه وعلى كل إنسان ، ويريد أن ينتحل أسباباً سخيفة لهذه المبارزة . أما الغلام فكأنه قد فهم كل شيء ولكنه لا يظهر شيئاً ، وإنما يرى أخوه عليه آثار الثقة والاطمئنان والطاعة وقد ظهر على وجه الغلام تأثر شديد ، فهو ينظر في كتابه ليخفي هذا التأثر ، وإذا جورج قد أقبل حسن اللباس جميل الزى يتكاف الزينة ، وإذا هو منطلق اللسان يتحدث إلى صديقيه في مجون ودعابة ، فيقص عليهما أخبار المدينة والمصطافين ، ولا يلقاه الاخوان إلا في فتور وجفوة ، فيحس ذلك ولكنه يتكاف المزاح . وإذا « ايرين » قد أقبلت مندفعة كعادتها في نشاط وخفة غريبين ، فلا تلتفت إلى ابنها وإنما تتحدث إلى الفتى مبتهجة منطلقة اللسان : « لقد أحسست أنك أقبلت فأسرعت لأراك » ثم تمضى في هذا الحديث فتذكر أنها كانت تعمل في إعداد لون من الحلوى قد اخترعته هي ، وأنها قد وقتت وأنها تدعو الفتى ليذوقه هذا المساء ، وأنها تريد أن تخرج للنزهة فتدعو ابنها فيعتذر ، ويعرض جورج نفسه فتقبل مبتهجة ثم تنظر إليه وإلى لباسه فتنقده وتلاحظ ملاحظات دقيقة يتأثر منها الفتيان ، ثم تنظر إلى

قفازيه فتأخذها وتريده على ألا يلبسهما . يأبى الفتى ، وتلح ،
فيزداد إباؤه ، فتظهر أنها ستلقيهما في الطين حتى لا يستطيع أن
يلبسهما فيضرع إليها الفتى أن تردها إليه ، فتأبى وتنصرف ،
فيتبعها الفتى وإذا هي تدور حول الغرفة ، تعدو والفتى يتبعها
من ورائها عدواً كما يفعل الشبان ، وأبناها ينظران إلى ذلك
وقد ملكهما الخزي والغضب . ولكن العاشقين لا يحفلان بشيء
من ذلك . وإذا الأم قد خرجت عدواً من الغرفة وتبعها الفتى فغابا
حيناً ، وأقبلت الأم تعدو كأن جريها لم ينقطع ، فتجلس متعبة
ويجلس الفتى إلى جانبها ويختلسان غفلة الفتيتين فيضربان موعد
اللقاء بعد قليل في مكان غير بعيد . . . ثم ينصرف جورج
وينصرف أصغر الفتيتين . وإذا الأم تلوم ابنها لأنه يتحدث إلى
صديقه في جفاء وغلظة لا يليقان ، ولأن الأدب وحسن اللقاء
يكلفانه شيئاً غير هذا ، وهي تتحدث إلى ابنها بلهجة الأمر كما
تتحدث الأم إلى طفل تريد أن تزجره . وهي تأمر ابنها أن يغير
هذه السيرة ، فسيتعشى الفتى في البيت هذا المساء ويجب أن تتلقاه
لقاء حسناً ، ثم « لا أريد أن أسمع منك شيئاً » ، وتهتم
بالانصراف . وقد جاهد الفتى نفسه . ولكنه عجز عن أن يملكها ،

فيدعو أمه ، فإذا التفتت إليه مغضبة طلب إليها في رفق ألا تذهب إلى الميعاد . . . هنا موقف مؤثر جداً ! فانظر إلى هذه الأم كانت تزجر ابنها وتردعه فإذا ابنها يعلم كل شيء ، وإذا هي بين يديه مختلطة مضطربة لا تدري كيف تقول ، وإذا الفتى يرفه على أمه ويرفق بها وكأنه يستعطفها ويترضاها : « لا أريد أن ألومك وليس لي أن ألومك ، وكنت أريد ألا أتحدث إليك في ذلك ، ولكنني لم أستطع ، فأنا أضرع إليك ألا تذهبي إلى هذا الميعاد » . وإذا الأم تعتذر إلى ابنها وتستعفيه وتذكر شبابها الضائع ، وهذه القوة الجديدة التي أحسها منذ حين . أما الفتى فيصرفها عن هذا الحديث ويخطيء فيذكر لها أنه سينتقم لشرف أبيه . فتشور الأم وقد نسيت أمومتها وخزيتها وزلتها ، وأخذت لا تذكر إلا شيئاً واحداً وهو أن عشيقها معرض للخطر ، وهي تريد أن تحميه ، فهي تسلك إلى ذلك كل سبيل ، تسخط حيناً فتتذر ، ثم تستخزي حيناً آخر فتستعطف . وقد انهت دموعها . وأقبل زوجها وهي في هذه الحال . . . فيسأل : فيخفيان عليه الأمر ، فيلوم ابنه ويزرجه لأنه قد أغضب أمه وساءها . ثم تنصرف ، ويخلو الابن إلى أبيه .

ويحاول الأب أن يعرف شيئاً فلا يظهر بشيء ، فيحدث ابنه بأن لقي جورج في الطريق وأنه يحب هذا الفتى ويعجب به ويريد أن يستعين به في عمله ويلحقه بمكتبه . لا يكاد الفتى يسمع هذا حتى يثور ويظهر الخلاف لأبيه ، ويظهر الأب أنه مغضب ، وما يزال بابنه حتى يعترف له بأن بينه وبين جورج خصومة لا بد من أن يصفى حسابها وهما كذلك إذ تعود الأم وقد لبست قلنسوتها تريد أن تخرج ، ثم يبدو لها فتعدل عن الخروج ، ثم يظهر الأب أنه خارج ليلقي جورج لأنه يحب هذا الفتى وينهض فيأخذ غدارة صيده فتنهض إمراته تريد أن ترافقه والرجل يلاحظ اضطراب إمراته وتناقض حركاتها فيجلس ويلوم ابنه لأنه اضطرب أمه إلى هذا الإضطراب . ثم يلح في السؤال عما بينهما ، فيبالغان في التكتم ، وإذا الرجل قد عرف كل شيء ؛ لأنه كان قد تخيله منذ حين فشك ثم قامت له اليبنة الآن ، وإذا هو قد بلغ أقصى غضبه ، وإذا هو يريد أن ينتقم من هذا الغلام ! فانظر إلى امرأته وإلى ما بينها وبين زوجها من الحوار ، تريد أن تحمى هذا الشاب فهو برىء وهى وحدها الآئمة . . . أليست أما !! أليس هذا الشاب طفلاً حدثاً؟ لم يغوها وإنما أغوته ، وليس لأحد أن يعتدى عليه وقد فقدت

الآن كل عاطفة وكل عقل وأصبحت غريزة خالصة كأثني الحيوان تدافع عن صغيرها وقد وقفت إلى الباب تريد أن تمنع زوجها وابنها من أن يتجاوزاه . . . ويشتم بينهما الحوار والخصومة فإذا هي تنكر النظم الاجتماعية وتسخر من الزواج والأسرة والأمومة ولا تؤمن إلا بشيء واحد هو الحب ، وإذا الشرف كما يتصوره الرجال ليس إلا أثراً من آثار الوحشية ومظهراً من مظاهر الأثرة وقسوة الرجل ، وإذا الرجال حين يذكرون العدل والشرف إنما يذكرون منافعهم وأثرتهم وقسوة قلوبهم . ثم تريدون أن تعدلوا ، فاقتلوني أنا لأني أنا الآثمة إن كان هنالك إثم ! . . . : أما زوجها فيسلك معها سبلا مختلفة من الرفق والغلظة ، فإذا رأى منها هذا العناد أعلن إليها أنها تستطيع أن تأمن على عاشقها ، ولكن على أن تلحق به ، وعلى أن تخرج من هذا البيت فلا تعود إليه . . . وإذا هي تقبل فرحة مبهجة ، ولكنه فرح كله ذهول ، هو أشبه بالجنون وقد خرجت تعدو ويحاول ابنها أن يتبعها فيمسكه أبوه . . .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في ضاحية من ضواحي

الجزائر ، وقد مضى حين على ما كان في الفصل الثاني ، واستقر العاشقان في هذه البلاد ، لأن الغلام يؤدي فيها خدمته العسكرية وقد تبعته صاحبتة ، فاتخذت في هذه الضاحية المشرفة على البحر بيتاً جميلاً تحيط به حديقة بديعة خصبة ، وهي تعيش في هذا البيت عيشة لذة وبهجة ، قد تركت الاحتشام وأخذت من التبذل بحظ عظيم ، فهي لا تكاد تستر جسمها ، ولا تكاد تحتاط في حركاتها ولا في كلامها ، أليست نائرة على الهيئة الاجتماعية وأخلاقها ونظمها وعواطفها !! أليست قد ضحت بزوجها وابنيها ومنزلتها في سبيل هذا الحب !!! ؟ وإذن فما الاحتشام وما تكلف الاحتفاظ بالأخلاق !! ؟ كلها حب وكلها لذة . ولكنها محزونة ! . . . فقد بلغت الأربعين وأخذت تحس انصراف الشباب ، وصاحبها في الثانية والعشرين لم يستكمل حظه من الشباب بعد . هي إلى الفناء وهو إلى الوجود . هي إلى الذبول وهو إلى النضرة . والأمر ليس واقفاً عند هذا الحد وإنما يجاورها قوم من الأمريكيين فيهم فتاة جميلة خلابة ماهرة ، وقد كان الحديث بينها وبين الشاب ثم استحال الحديث إلى شيء من العاطفة يخفيانه ولكنها تعلمه . فهي تحس الغيرة

والآلما . وترى أن خصمها أقوى منها ، له الشباب ولها الشيخوخة ، ولكنها مع ذلك تجاهد ، وهي في هذه الليلة تنتظر صاحبها وقد تهيأت لاستقباله وهيأت كل شيء ، ولكن صاحبها تأخر فهي تتمشى محزونة متكلفة الابتهاج ، ويقبل صاحبها . تلقاه مبتهجة محبة صادقة في الحب وفي الابتهاج ، ويلقاها هو مبتهجاً محبباً ولكن التكلف ظاهر عليه . فإذا جلس إلى المائدة أقبل الخادم يحمل إليه كتاباً بعثت به إليه الجارة ، فيظهر اشمزازاً متكلفاً ، ويذكر أن هذا الكتاب قصة حدثته عنها الفتاة وأعارته إياها ليقراها . أما صاحبتة فتظهر أنها لا تحفل بذلك وتبالغ في التلطف للفتى ومداعبته . ثم تدخل عليهما امرأة شيخة شاعت عنها الأحاديث المتناقضة . فذكر الناس أنها أميرة هتت في شبابها إلى غير حد ، حتى إذا بلغت سن الشيخوخة وقد لقيت كثيراً من الآلام أقبلت إلى الجزائر ومعها ثروة ضخمة فانصرفت إلى الخير واتخذت معملاً للبط تعلم فيه الفقيرات من أهل هذه البلاد ، وقد أقبلت ومعها صبيتان عربيتان ونماذج من أعمال تلميذاتها ، فيتحدثون وينتهز الفتى وجود هذه المرأة فينسل إلى جيرانه . فإذا خلت المرأتان تحدثتا

في الحب ففهمنا أن هذه المرأة التي تركت كل شيء لتتبع عاشقها ليست مخدوعة ، وأنها تعلم كل شيء ، وتحس حب صاحبها لهذه الفتاة الأمريكية ، وأنها لا تريد أن تجاهد ولا أن تثقل على صاحبها ، وإنما تريد أن تترك له الذكرى جميلة نضرة لأنها تحبه حقاً .

وقد استعدت لذلك فكتبت كتاب الوداع ، وهي راضية مبهجة حتى لا يشتمل هذا الكتاب على شيء مؤلم وهي تنتظر أن يدق الجرس وتشعر بوجود الانصراف لتنصرف ذات يوم في غير ضجيج ولا عجيح . وتحاول الشيخة أن تسليها وتطمئنها فلا توفق . ثم تعدد العاشقة إلى الكتاب الذي بعثته الفتاة فتتظر فيه فإذا صحف معلمة وإذا في هذه الصحف جمل ذات معنى تذكر حب الفتيات ونقاءه وطهارته ، وإذا بين صحف الكتاب صورة فوتوغرافية للفتاة . ثم يأتي الفتى ومعه الفتاة ، فتلقاها « ايرين » مبهجة مبتسمة ، وتتحدث اليها حديثاً عذباً ، وتنصرف مع صاحبها الشيخة إلى النافذة كأنها تريها جمال الطبيعة وما سيحدث حين يخسف القمر بعد ساعات ، ولكنها تتحدث اليها في أمر هذين الشابين وفي حبهما . . . « أتعلمين ماذا

يصنعان الآن ؟ إني لا أراها ولكني أعلم ما يصنعان ، انهما يتصافحان ويضغط كل منهما على يد صاحبه ويجهد كل منهما في أن يقرأ في عيني صاحبه ، وسألتفت الآن اليهما في هدوء وبطء حتى يتمكننا من أن يفترقا » وهي صادقة فيما تقول ؛ فقد كان الفتيان يتصافحان ويتبادلان نظرات الحب ويتحدثان في رفق حديث الحب . ثم تنصرف الفتاة ، فإذا رافقها الفتى قليلاً أنباته بأنها ستلعب له شيئاً من الموسيقى ، ثم يعود الفتى وتنصرف الشيخة ، ويظهر الفتى أنه متعب ، فتشير عليه صاحبه بأن ينام فيفعل ، وتدنو منه تداعبه وتهزه كما تهز الأم طفلها وقد وضعت شفتيها على جبينه ، وما تزال كذلك حتى يغرق الفتى في النوم . . . وإذا هي تسمع للموسيقى من بعيد ، إنها لتلعب له ولكنها منصرف عنها إلى النوم ، وكذلك الشباب . . . ثم تتركه وتعمد إلى كتاب الوداع الذي أعدته فتقرؤه فإذا هي تتمنى فيه لهذا الفتى سعادة كلها صفو لا يشوبه شقاء ، تقرأ باكية وما زال صوت الموسيقى يصل إلى الغرفة فيمنزج بصوتها الباكي وغطيط النائم . . .

فاذا كان الفصل الرابع فنحن في باريس عند ابنها « ريشار » وقد تزوج من خطيبته ولكن بعد مشقة ؛ لأن قصة أمه كادت تلغى هذا الزواج ، وقد رزق من هذا الزواج طفلاً وهو يتحدث الى زوجه والى صديق له ، وهو يذكر أباه وأنه محزون ، وأن حزنه قد أذى صحته ، ثم ينصرف « ريشار » إلى كتاب يكتبه . وتحدث زوجه إلى الصديق فيذكر أن الأم المفتونة وما يصل من أحاديثها إلى باريس وما يتحدث الناس به من مجونها وتبذها ، وأنها تظهر في حديقتها عارية أو كالعارية ، وأنها تسرف في تبذير ما لها لتمتع صاحبها بكل لذات الحياة ثم تذكر الزوج أنها مطمئنة فقد اشترطت على زوجها أن تنقطع بينه وبين أمه كل صلة وقبل زوجها هذا الشرط . وهم كذلك إذ يدخل الخادم فيدفع إلى ريشار بطاقة ، ينظر فيها ثم يضطرب لها . . . « وأين هذه السيدة ؟ » — هي خارج الغرفة . « لتنتظر قليلاً ! . . . » ويريد أن يتحدث إلى زوجه فإذا هي قد فهمت وإذا هي تجيبه في عنف بأنه يعلم ما اتفق عليه ، وأنها لا تسمح بأن تدخل

هذه المرأة بيتها وأن له أن يراها لينبئها بذلك . ثم تنصرف مع الصديق ويأذن ريشار بادخال السيدة فإذا هي أمه محزونة تدافع عبراتها ، لا تكاد تثبت على قدميها ، ولا تكاد تنطق بتحيةة ابنها . . . وإبنا متأثر ، ولكنه يتجلد ويتكاف القوة ، فيحيي أمه تحية فاترة ، وتجلس فيسألها ما خطبها ؟ .

— لقد مررت بباريس فأردت أن أراك . . . ثم يسألها

— ومتى تعودين إلى الجزائر ؟

— لن أعود !

— وكيف ؟

— لقد انقطع كل شيء بيني وبين جورج ! . . .

— وماذا تريدن إذن أن تفعلين ؟

— لا أدري ! أريد أن أتم حياتي وقد مررت بباريس

فأردت أن أراك . . . وتساله عن أخيه فيذكر أنه في مدرسة الهندسة وأنها تستطيع أن تراه . ثم تسأله عن ابنه وتشكر له أن كتب إليها ينبئها بمولد هذا الطفل . فيخبرها أن ابنه بخير ، وأنه خرج مع مرضعه للنزهة ولكن المرضع تدخل فتسأل عن شيء وتعلم الأم أن ريشار يريد أن يخفي عليها ابنه ، فتري ذلك

حقاً ولكنه لا يزيدنا إلا حزناً ولوعة . ويسألها كيف تريد أن تعيش : وأين تريد أن تقضى الشتاء ؟ فيظهر له أنها أنفقت كل ما كان عندها من المال ، ولم يبق لها إلا شيء ضئيل يستطيع أن يكفل لها حياة خاملة متواضعة .

— وأين أنا إذن ؟

فتجيبه بأنها لم تأت مستجدية وأنها قد نبذت أمرتها وهي أكبر من أن تضرع إلى هذه الأسرة . ولكن الحديث لا يكاد يستمر حتى تشعر أن هذه المرأة لا تستطيع أن تعيش وحدها وأنها قد لجأت إلى ابنها تسأله أن يعلمها كيف تعيش فلقد همت بالموت ولكنها عجزت عنه ، وهي لم تتعود هذه الحياة الخشنة حياة البائسات ، وهي لا تريد شيئاً ما وإنما تريد أن تتم أيامها ، فأروني كيف أتم هذه الأيام ! ماذا تريدون أن أصنع ؟ يجب أن تروا لكم في رأياً . اسكنوني حيث تريدون أبيعوا لي أن أراكم وأن أرى هذا الطفل خلصة إني لأعلم أن اسمي ينجلكم وأن محضرى يخزيكم ، ولكن ماذا تريدون أن أصنع يجب أن تحتملوني حتى أموت . وقد بلغ بها التأثر أفصاه وفقد ابنها كل قوة فهو يضمها إليه ، ويقبلها ، وهي محزونة ولكنها

سعيدة بين ذراعى ابنها ، ثم يضطرها ابنها إلى غرفة ويدعو
زوجه فيقص عليها الأمر فتلقاه فى عنف وغلظة ولكنها تتكلف
هذا العنف وهذه الغلظة ، وإذا مخبرها خير من مظهرها ، وإذا
هى رفيقة رحيمة فما أسرع ما تعمد إلى الغرفة فتفتحها وتدعو
المرأة — ولكن فى غير رفق — إلى أن تأتى فترى طفل
ابنها ... تأتى الأم متعثرة تكتم زفراتها فتتبع امرأة ابنها ذليلة
مخفوضة الرأس . أما ريشار ففرح لأنه رأى من زوجه هذا
الرفق وهذا العطف ، فيريد أن يتحدث إلى أبيه ليصلح
بينهما ، ويعمد إلى التليفون ، ولكن أباه يدخل . . .

— هى هنا !

— من هى ؟

— أمى !

لا يظهر الشيخ عجباً ، وإنما يظهر الماء شديداً ، ويستعطفه
ابنه فإذا الرجل قريب جداً من العفو وإذا هو يريد أن يعفو
ولكنه يسأل ابنه :

— أذكر اسمى لها ؟

— نعم !

- أظهرت شيئاً من الاستعداد للصلح ؟

- لا :

- إذن فليست تحبني ، ولئن عرضت عليها العفو لترفضه ، ثم العفو ؟ إنى لا أستطيعه ، إن عقلى ليدعونى إليه ، وإنى لا أراه حقاً وخيراً ، لكنى لا أستطيعه لأن شعورى يأباه وترىبى لا تعين عليه وما ورثت من دين وعادة يحول بينى وبينه ...

وهنا حديث أقل ما يوصف به أنه وصف صادق لحياتنا العقلية فى هذا العصر . فعقولنا ترى أشياء يرفضها شعورنا وتنكرها عواطفنا ؛ ذلك لأن الجديد قد كسب العقول ، أما القديم فما زال مستأثراً بالعواطف والشعور . فنحن نرى أن هذه المرأة خليفة بالعطف والعفو وأن زلتها لها عذرها ، وأنها ليست أمراً لا يحتمل المغفرة ، ولكن عواطفنا الدينية والاجتماعية وشعورنا بالشرف والغيرة ، كل ذلك يحول بيننا وبين أن تكون حياتنا العملية ملائمة لحياتنا العقلية . وإذن فالشيخ يوصى ابنه خيراً بأمه ، ويعد بأنه سيقوم بحاجاتها جميعاً ، وسيجتهد فى أن يجعل الحياة عليها هينة لينة ، ولكنه لا يستطيع ولا يريد أن يراها ثم ينصرف ؛ وقد انحنى ظهره وظهرت عليه آثار التعب والعناء .

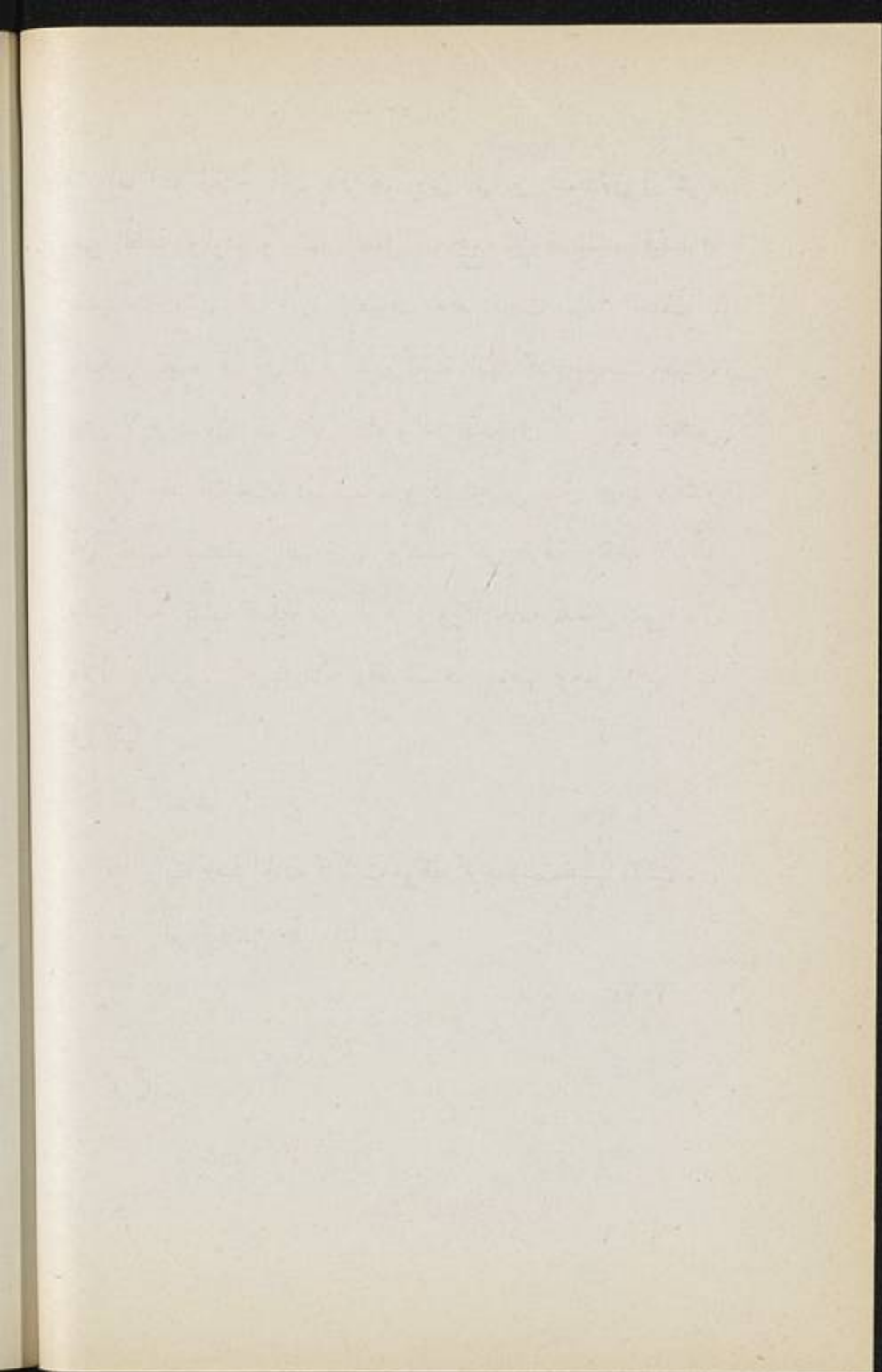
أما ابنه فيفتح باباً ، فاذا هو يرى المرأتين تتحدثان في شيء من الصفو والمودة وبينهما الطفل قد جمع بين قلبيهما ، فيدعوها سعيداً ، وتهم أمه أن تنصرف وقد قنعت بهذا العطف ، ولكنها تطمع في أن تشعر بأن امرأة ابنها قد صفحت عنها ، وهي لا تريد أن تقول لها ذلك وإنما تطمع في أن تقبلها فتعتنق المرأتان وقد امتزجت دموعهما ، وإذا الجرس يدق فيريد ريشار أن يخفيهما ليستقبل الطارق ، ويتقدم إلى غرفة وتتبعه امرأته وتبقى أمه كأنها تصلح من أمرها ، وإذا الخادم تدخل فتنبىء بأن فلاناً بالباب . تجيبها الأم وقد نسيت موقفها وخيل إليها أنها في بيتها :

— ليدخل !

فاذا رأت تردد الخادم ذكرت موقفها ثم جاهدت نفسها وقالت :

— نعم ليدخل فأنا الجلدة . . .

فبراير سنة ١٩٢٤



« المتجردة »

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى بتايل »

هى عندى آية من آيات الكاتب ، ومن خير ما أخرج للناس فى التمثيل ، فيها كثير جداً من الحق ، وفيها كثير جداً من الدقة ، وفيها كثير جداً مما يملأ القلوب رحمة ويبعث فى النفس عاطفة الإشفاق الشديد ، ومع ذلك فأنا أتردد التردد كله حين أريد أن أحكم عليها من الوجهة الخلقية . ولعل الخير هو ألا أحكم عليها من هذه الوجهة ، وأن أترك القارئ يرى فيها رأيه . ذلك أن الكاتب التمثلى ليس مكلفاً فى كل وقت أن يتخذ الأخلاق الكريمة غاية لما يكتب وغرضاً لما يضع من قصص تمثيلية . فقد يقصد الكاتب إلى إظهار صورة من صور الحياة واضحة جلية ، وقد لا يتعدى قصده هذا الحد . قد يكون مصوراً فنياً لا أكثر ولا أقل ، وهو فى هذه الحالة قد يلائم

الأخلاق الكريمة وقد لا يلائمها ؛ لأن موضوع القصة أو الصورة التي أراد أن يظهر الناس عليها تلائم هذه الأخلاق أو تخالفها . على أنى أراني غير بعيد من القصد في هذا الحكم ؛ فإن الكاتب التمثيلي أو القصصي الذي لا يقصد إلا إلى التصوير وحده ، ولكن إلى التصوير الصادق الصحيح . من خير الدعاة إلى الأخلاق الكريمة والحائنين على الفضائل التي اتفق الناس على إثارةها . فليس وحده مرشداً إلى الخير ذلك الذي يدعوك إليه ويدلك عليه صراحة دون رمز ولا إيماء ، وإنما يرشدك إلى الخير ذلك الذي يظهر لك الحياة أو صورة من صور الحياة على حقيقتها واضحة جلية ، بشعة أو جذابة ، تاركاً لعقلك أن يحكم حرّاً مختاراً دون أن يقدم إليك هو ما ينبغي أن تحكم به . وإذا كان هذا حقاً فليس يعنيني أن يكون الكاتب قد تعدد في هذه القصة خلقاً من الأخلاق أو فضيلة من الفضائل فدعا الناس إليها . وإنما الذي يعنيني أن تكون هذه الصورة التي قصد إلى تصويرها صادقة واضحة ، وأن تكون من الصدق والوضوح بحيث تمثل للناس خلاصاً يشعرون بالخير في النفور منها ولست أشك في أنه قد وفق إلى هذا كل التوفيق . ثم يعنيني

شيء آخر ، هو أن تكون للقصة قيمة علمية ، أو — بعبارة أوضح — قيمة تعليمية ، أو بعبارة أشد وضوحاً وجلاءً — يعينني ألا تشهد القصة أو تقرأها حتى تخرج منها بشيء جديد صحيح لم تكن تعلمه قبل أن تقرأ القصة أو تشهدها . وقد وفق الكاتب لهذا أيضاً . ثم يعينني أن تكون الى هاتين الخصلتين مستثيرة للعاطفة باعثة لضروب التأثير الشديد ، تحمل من يقرأها أو يشهدها على أن يشعر شعوراً قوياً بالرحمة والإشفاق حيناً ، وبالسخط والغضب حيناً آخر . وقد وفق الكاتب إلى هذا أيضاً فكانت هذه القصة غريبة بين قصصه الكثيرة . فلعلك تذكر أني كنت أقول لك عن هذا الكاتب إنه يعني قبل كل شيء بإثارة العواطف واستحداث الجهاد العنيف بينها ، وإنه يتخذ التمثيل وسيلة إلى العبث بحس الجمهور وعواطفه ، وليس يعنيه إلا أن يرى هذا الجمهور متأثراً شديداً بالإضطراب . هو كذلك في أكثر قصصه ، ولكنه في هذه القصة يضيف الى هذه الخصلة هذه الخصال التي أشرت إليها آنفاً ؛ فهو يستثير العواطف القوية ، وهو يصور فيصدق في التصوير ، وهو يعلم القارىء شيئاً لم يكن يعلمه ، وهو يظهر وجوهاً من

الخير والشر ينتفع الناس بظهورهم عليها . ثم إنى لم أذكر إلى الآن خصلة أخرى من خصال هذه القصة ، هي الخصلة اللفظية ، فليست أعرف للكاتب قصة بلغ فيها من جودة اللفظ ورقة الأسلوب ، وخفة الروح ، وسهولة الحوار ، وقصره ما بلغه في هذه القصة . بل لقد بلغ من ذلك حدّاً أعتقد معه أن من العسير جداً إن لم يكن من المستحيل أن تترجم بعض فصول هذه القصة إلى لغة أجنبية ؛ لأن خصائص اللغة الفرنسية والعقل الفرنسى بلغت فيها من القوة والشدة حدّاً تستحيل معه الترجمة .

أراد الكاتب أن يصور لنا ضرباً من ضروب الحياة بين طائفة من طوائف الفرنسيين هي طائفة المصورين . وأنا زعيم لك بأنك لا تكاد تفرغ من قراءة هذه القصة حتى تلم بالمأماً صالحاً بشيء غير قليل من أخلاق هذه الطبقة من الفنيين ، وألوان حياتهم ، وما ألفوا فيما بينهم من اصطلاح ، وما يشعر به كل منهم بالقياس إلى نفسه وإلى أصحابه . ولا تكاد تقرأ هذه القصة حتى تسأل نفسك أليس من الحق أنه إذا امتازت الطوائف وتكونت لها شخصية ظاهرة فلا بد من أن تكون لها

أخلاقها وخصالها ونظمها الخاصة التي تميز بينها وبين غيرها من الطوائف من جهة وتميز بينها وبين مجموع الأمة من جهة أخرى وبعبارة واضحة أليس هناك ضربان مختلفان من الأخلاق أحدهما الأخلاق العامة التي هي أخلاق الشعب جملة ، والأخرى الأخلاق الخاصة التي هي أخلاق الجماعات المختلفة المتمايزة فللمصورين أخلاقهم ، وللعمال أخلاقهم ، وللمعلمين أخلاقهم وهلم جرا ؟ وإذن فالأخلاق لم تهبط من السماء ولم يبتكرها العقل ابتكاراً . ليست أثراً من آثار الدين ، وليست نتيجة من نتائج الفلسفة ، وإنما هي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية . ولكنني أحس أني قد تعمقت وذهبت بك في الفلسفة الى أمد بعيد . فلنعد الى القصة فهي أخف من ذلك روحاً وألذ عشرة .

* * *

نحن في باريس ، في قصر من قصور الفن الفرنسى ، يجتمع فيه المصورون وأصحاب التماثيل ومن إليهم من أصحاب هذه الفنون . وفي هذا اليوم قدم المصورون آثارهم الفنية ، وهم يستبقون ليظفروا بالجوائز أو بالوسام الذي يمنح لأبيهم تفوق في

التصوير وقدم ما أعجب جمهور الممتحنين . ونحن نرى جماعات
المصورين شباناً وشيوخاً وكهولاً ، ونرى بينهم طائفة من النقاد ،
ونرى قليلا من عامة الناس قد أقبلوا يشتركون في هذه الحفلة ،
ونرى بنوع خاص قليلا من الفتيات اللاتي يعملن نماذج
للمصورين ، أقبلن يشهدن حظوظ هؤلاء المصورين من هذه
المسابقة . وبين هذه الجماعات كلها أحاديث كثيرة مختلفة ليس
إلى ترجمتها من سبيل ، ولكنها كلها صور مصغرة من أخلاق
هذه الطائفة من الفئتين . ولست تستطيع أن تمضى في هذا
الفصل الأول دقائق دون أن تضحك وتفرق في الضحك ؛
لأن هؤلاء المصورين في جدم وهزلهم لغة وأساليب وطرقاً من
التصور مضحكة لذيدة حقاً . ولكن الذي يعيننا من كل هذه
الجماعات ومن حركاتها العنيفة المتصلة رجل واحد قد انتحى ناحية
في المقصف ومعه فتاة وصديق له ، وهو يريد أن يتجنب
الحركة ويعتزل الضوضاء ، وهو قلق مضطرب شديد القلق
والاضطراب ، وليست صاحبتة أقل منه اضطراباً . هذا الرجل
هو المصور « برنيه » وهذه الفتاة هي نموذج « لولو » أو
« لولوت » أو « لويز » . أما الرجل فمتوسط العمر أدنى إلى

الشباب منه إلى الكهولة ، جميل الطلعة ، حسن الطبع ، يظهر أن له في التصوير مقدرة ممتازة ، وهو قد قدم في هذه المسابقة صورة امرأة متجردة ، صورها تصويراً خلفياً ، وهو يود لو ظفر بالوسام ولكنه شاب ، فهو لا يطمع في الوسام وإنما يطمع في أن يظفر من أصوات الحكمين بعدد لا بأس به . وينازعه مصور آخر شيخ ، ولكن هذا الشيخ بغيبض إلى جمهور المصورين . وأما هذه الفتاة « لولوت » فقد قلت أنها نموذج المصور « برنيه » وهي فتاة جميلة جداً ، فقيرة جداً ، أو قل إنها معدمة بأئسة كأضرارها من النماذج ، قد اشتغلت نموذجاً لطائفة من المصورين ولكنها اشتغلت عند اثنين يعينانا بنوع خاص : أحدهما المصور « روشار » اشتغلت عنده سنتين وكان بينها وبينه حب فكانت له خلية ، ثم انصرفت عنه إلى « برنيه » هذا ، فأقامت عنده ، وشاركته في حياته ، وكانت في الوقت نفسه خليلته ونموذجه في التصوير وليست هذه الصورة التي يقدمها اليوم إلا صورة هذه الفتاة ، وهي تحب المصور حباً شديداً ، وقد تكلفت ضروباً من العناء لتسهل عليه الحياة ، وهي الآن ترجو أن يكون له من الفوز ما يكافي شيئاً من هذا

العناء الذي تكلفته . فقد جاءت وجاع صاحبها ، وضيقته على نفسها وعلى صاحبها في كل شيء إثارةً للاقتصاد . ومع ذلك فهما مدينان للبان بمقدار ضخم من المال . فلو فاز صاحبها اليوم لاستطاع أن يبيع صورته فيؤديا دينهما ويرفها على نفسها . والصورون يصوتون ويصوتون ، وكلما فرغوا من تصويت ظهر أن الحظ مسعد « لبرنيه » فأمله يشتد ولكن خوفه يشتد أيضاً ، والناس من حوله يشجعونه ويؤيدونه ويمارحونه ويمارحون صاحبتة ، وما يزالون كذلك حتى يبلغوا التصويت الأخير ، فإذا الفوز لصاحبنا « لبرنيه » ، وإذا هو قد نال الوسام بكثرة قليلة جداً ، ولكنه نال الوسام وأصبح مظهرًا من مظاهر المجد الفرنسي في التصوير ، وتغيرت حياته كلها فالتقطت الصلة بينه وبين الفقر ، واتصلت بينه وبين الثروة ، وسيقصد إليه منذ اليوم أشرف الناس وأغنياؤهم يشترون آثاره بالأثمان الضخمة ، وقد بدأ ذلك فأقبل إليه تاجر من تجار الصور فساومه صورته هذه ، وانتهت بهما المساومة إلى ٦٠.٠٠٠ فرنك . وبينما هما يتساومان كانت « لولوت » دهشة ذاهلة لا تكاد تصدق ما تسمع . ستون ألف فرنك

بعد هذا البؤس الشديد . فسيؤدى إذن دين اللبان ، وسيعيشان
عيشة ناعمة ، وستشترى قلنسوة طالما رغبت فيها وعجزت عنها .
ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ؛ فإن الحكومة الفرنسية
نفسها تريد أن تشتري هذه الصورة وأن تعرضها في متحف
« لو كسمبرج » فليس لابتهاج الفتاة حد ، فلا ينبغي أن تنسى
أن الصورة تمثلها ، فقد أصبحت إذن شيئاً رسمياً سيعرض في
متحف من متاحف الدولة ، حتى إن أحد أصحابها يمازحها فيقول :
يجب أن تسعدى فسيعرض ظهرك في متحف « لو كسمبرج » .
فإذا مضى عليه شيء من الدهر انتقل إلى متحف « اللوفر » .
يجب أن تسعدى ، فقد أصبحت أثراً من هذه الآثار الفنية
الخالدة . وما كانت « لولوت » تحلم بأن الدهر قد ادخر لظهرها
مثل هذا الحظ . . . ولكن هناك ما هو أجل من هذا خطراً ؛
فقد احتال المصور الفائز في أن يخلص من أصحابه ومهنتيه ليخلو
لحظة إلى صديقه ونموذجه « لولوت » ، فهما يتقارضان أحاديث
الحب ويذكران بؤسهما ويقصان من أخباره شيئاً كثيراً مؤلماً :
فتذكر هي أنها اضطرت ذات يوم مع أمها إلى التماس الصدقة
في الشوارع . ويذكر هو أنه كثيراً ما قضى الأيام جائعاً

لا يتبلغ إلا بكثرة من الخبز . وقد تقاسما هذا البؤس وأقبلت
الثروة ، فيجب أن يتقاسماها وهو لا يريد أن يعيشا خليلين ،
وإنما يريد أن يعيشا زوجين . فإذا سمعت هذا بلغ بها الابتهاج
حداً يشبه الدهول ، ثم تطلب في سذاجة ورفق أن يكون هذا
الزواج في الكنيسة ، لأنها تحب أن يبارك القسيس زواجهما .
وينصرف العاشقان وليس لسعادتهما ولا لأملهما في الحياة حد .

* * *

فإذا كان الفصل الثاني فقد مضى على هذا كله حين
من الدهر ، فاقترن العاشقان ، وأقبلت الثروة على « برنيه »
إقبالاً شديداً ، فأصبح مصور الملوك والأمراء ، وغير نظام حياته
كلها ، واتخذ لنفسه بيتاً فخماً يشبه القصر وأثنه بفاخر الرياش
وبديع الزينة ، واتخذ عادة أغنياء الناس وأشرفهم ، فاعتزم أن
يستقبل الزائرين مساء السبت من كل أسبوع ، وأن يحيى في هذا
المساء حفلات الرقص والموسيقى . وهو اليوم يبتدىء أول حفلة من
هذا النوع . وبينما تغير هو تغيراً شديداً فقد ظلت امرأته على
ما كانت عليه من سذاجة وجهل واستمسك بحياتها الأولى ،
فهي مقتبضة بحياتها الجديدة ، ولكنها ليست مطمئنة فيها وهي

تجهل التقاليد جهلاً شديداً يؤلم زوجها ويخجله في كثير من الأحيان .
وأصحاب زوجها وأصداقؤه يرون ذلك ويشفقون على صديقهم
ويلومونه بأنه تزوج هذه المرأة الفقيرة التي خرجت
من الطبقات المنحطة ومنهم من يغلو في ذلك فينصح له بأن
يخلص من هذه المرأة ويتخذ له زوجاً غنية تلائم حياته
الجديدة . . . وهو لا يستطيع أن يفكر في هذا لأنه يجب هذه
المرأة ، ويريد أن يفي بالعهد ، ويذكر أنها كانت شريكة
بؤسه ، فيريد أن تكون شريكة سعادته . ولكنه مع ذلك
ضيق الذرع بها ، فهو ينافق ويتكلف الحب حين لا يشعر في
حقيقة الأمر إلا بالإشفاق أو شيء كالإشفاق هو لا يحتفظ لها
بذلك الحب القديم . وآية ذلك أنه بدأ يخونها ، وبدأ يخونها
مع امرأة ألمانية إسرائيلية ضخمة الثروة باهرة الجمال ، أقبلت
إلى فرنسا فاشترت لها زوجاً من الاسترطاطية الفرنسية المفلسة ،
اشترت لها زوجاً له لقب الأمير ، فاتخذت لقبه ، وهو شيخ
فان ، هو لا يضايقها وإنما يترك لها الحرية كلها ! لا يعنيه إلا
أن يعيش عيشة تلائم مقامه ولقبه . وقد طلبت هذه الأميرة
إلى صاحبنا المصور أن يصورها . وجلست للتصوير مرة ومرة ،

فكانت الرغبة ، ثم كان الحب ثم كانت الخيانة . وهو يخفى هذا الحب على زوجه ، ولكنه تسلّم في هذه الليلة حين كان يستقبل أصحابه وزائريه كتاباً من الأميرة تنبئه بزيارتها ، فهو قلق وجل ويقبل صديق له فينبئه بأن سعيه في وزارة المعارف ليس بعيداً من الفوز ذلك أن صاحبنا المصور أصبح يستحى أن يظهر الناس في متحف من متاحف باريس على امرأة عارية ، فهو يريد أن تنقل هذه الصورة من باريس إلى متحف من متاحف الأقاليم النائية . والوزارة تمنع في هذا . وهو يتحدث إلى صديقه إذ تقبل « لولوت » وقد سمعت كل شيء فيسؤها رأى زوجها ويؤلمها ، لأنها سعيدة بأن تعرض في متحف من متاحف باريس ، وهي ترى هذه الصورة في هذا المتحف رمزاً لسعادتهما ، وهي تكره أن يغير شيء في هذا الرمز . ويشغل القوم بلهوهم وإذا الأميرة قد أقبلت وخلت إلى المصور ، فهما يتحدثان في الحب وألوانه ، ويذكران مواعيدهما وآمالهما ويكادان يتجاوزان الحديث إلى غير الحديث . . . ولكن « لولوت » قد أقبلت وكأنها سمعت من الحديث شيئاً . فلا تكاد تقبل حتى يلقاها العاشقان لقاء حسناً ولكنه متكلف . أما هي فتلقت زوجها

إلى أنه قد أهمل زائريه . فاذا انصرف الرجل وخلت المرأتان كان بينهما موقف مؤثر . ذلك أن « لولوت » تتحدث الى الأميرة في صراحة مخالفة لما ألف الناس من ذوق وتقاليد ، تزعم لها أنها تحب زوجها حباً شديداً ، وأن زوجها يحبها أيضاً ، وأن من الإثم أن تعمد امرأة مهما تكن الى هذا الحب فتسئء إليه . أما الأميرة فتسمع هذا الكلام مبتسمة ، لا غاضبة ولا خائفة ، وإنما تهون على هذه المرأة المسكينة في شيء من السخرية مر شديد المرارة ، ثم تظهر من العطف عليها والرفق بها ما يملأ قلبها اطمئناناً ، ثم تبالغ الأميرة في هذا فتتخذ هذه المرأة صديقة وتنزع حلية كانت في صدرها فتضعها في صدر هذه المرأة ، وهما إذن صديقتان ، وقد أمنت « لولوت » كل مكروه . ولكن أمد هذا الأمن ليس طويلاً ؛ فلا يكاد هذا الموقف ينتهى حتى يتبعه موقف آخر يعيد الى نفس « لولوت » ما كان فيها من اضطراب . تنظر فاذا عاشقها القديم « روشار » قد أقبل . فاذا سألت زوجها عن ذلك قال : دعوته بين الذين دعوتهم من الزائرين .

- وكيف فعلت ذلك وأنت تعلم ما كان بيني وبينه !
إنما أردت إذلالى !

ثم تخلو الى هذا الرجل فتلومه ، لأنه قبل الدعوة وأقبل الى هذا البيت ، وكان الذوق والرفق يقضيان عليه ألا يفعل . أما الرجل فيجيبها فى رفق وصدق بأنه إنما أقبل سعيداً مغتبطاً ليراها سعيدة مغتبطة ، وأنه مستعد أن ينصرف وإلا يعود إذا كان هذا يرضيها . فتجيبه . . نعم فينصرف الرجل وقد أكد لها فى لهجة صادقة مؤثرة أنه كان أحبها حباً صادقاً ، وأنه لا يزال يذكر هذا الحب ويتمنى لها كل سعادة . أما هى فقد عظم اضطرابها ، فهى تشعر بأنها وحيدة ، وكأن الناس جميعاً يأترون بها . ألم تسمع أن زوجها يريد أن يبعد صورتها من باريس ؟ ألم تحس أن بين زوجها وبين الأميرة شيئاً يشبه الحب ؟ ألم تذكر زيارة هذا العاشق القديم ؟ ثم لا تمضى دقائق حتى يظهر أن الناس يأترون بها حقاً . أخذوا ينصرفون ومن بينهم الأميرة وأخذ الزوج يعين الأميرة على لبس معطفها ، فاتتهز هذه الفرصة للمغازلة ، فهو يطلب قبلة الى صاحبتة ، وهى تقول له . بل تنسنى . فهذا يكفيك الى غد ، وهو يتنسما .

ولكن « لولوت » من ورائه قد رأت وسمعت ، وإذ هي تصرخ صرخة منكرة ، وقد انتزعت معطف المرأة فألقته الى الأرض . والتفت الناس جميعاً ومن بينهم الأمير الذي كان قد أقبل يقود زوجه ، فاذا هذا الأمير قد أقبل على زوجه في هدوء وهو يقول : إن هذا لمؤلم أيتها العزيزة . وكان من الحق أن تربئى بنا عنه ، ثم يقدم اليها ذراعه وينصرفان . أما « لولوت » فقد سقطت على الأرض واجتهد زوجها وصديق له حتى صرفا الناس . وأقبل الرجل على امرأته يرد اليها الحس والحركة ، فاذا أفاقته أخذت تبكي بكاء مرأ ، وأخذ هو يهون عليها ويعتذر اليها ، ولكنها مغرقة في البكاء لا تسمع له ، وإنما تردد هذه الكلمات : ما أشد هذه الوحدة ؟ ما أشد هذا الألم !

فاذا كان الفصل الثالث فقد تقدم هذا الحب الآثم حتى أصبح حقيقة واقعة لا ينكرها العاشقان ، وإنما يريدان أن يجعلها أمراً شرعياً . أما الرجل فيريد أن يطلق امرأته ، وأما المرأة فتريد أن تطلق زوجها ، ثم يكون بينهما الزواج بعد ذلك . ونرى في أول الفصل الأمير قد قبل الطلاق على أن تدفع له

امراته مقداراً ضخماً من المال يكفي لحياته ومنزلته ، وهي مستعدة لأن تؤدي إليه كل ما أراد . ولكن « لولوت » ترفض الطلاق ، وقد أقبلت إلى الأمير تريد أن تتخذه حليفاً ، حتى إذا انفقا على رفض الطلاق لم يتمكن هذان الأثمان مما يريدان . ولكن الأمير قد قبل الطلاق وهو يسخر من زوجه ، ومن الزوجية ، وهو يحقر الجماعة ونظمها وأخلاقها ، ولا يحفل إلا بشيء واحد هو ما بقي من حياته على نحو يعصمه من الفقر والإفلاس والانحطاط عن منزلته ومنزلة آبائه ، وهو ينصح لهذه المرأة ألا تتشدد ، وينذرهما بأن نتائج التشدد ستؤذيها دون أن تنفعها . فتنصرف المرأة مزدرية لهذا الشيخ ساخطة على النظام الاجتماعي شقية بحظها ، ولكنها رأت زوجها مقبلاً إلى بيت الأميرة فعادت . وما كاد الزوج يلقى الأميرة حتى يكون بينهما حديث مؤلم حقاً ولكنه آية من آيات الفن . ذلك أن هذا الرجل يشعر بأن حبه آثم وبأنه مقبل على جريمة ، ويحاول ما استطاع أن ينصرف عن هذه الجريمة ، ولكنه لا يستطيع ؛ لأنه لا يكاد يرى الأميرة حتى يفقد عزمه وقوته على المقاومة ، وإذا هو العوبة في يدها . أما هي فترضى منه هذا الشعور وتحمده له

ولكن إلى حد . . . فهي تحبه أيضاً وهي لا تضحي بهذه المرأة، أليست تريد أن تمنحها من المال ما يضمن لها حياة سعيدة صالحة! ويشتد الحوار بينهما حتى تفضب الأميرة، ولكنه غضب خاص، غضب يراد به استثارة الحب والشهوة، وهي تبلغ من ذلك ما تريد، حتى إذا استوثقت أنها قد أضمرت الرجل إضراراً نهضت فألقت معظمها وظهرت في ثوب كله ترغيب واستغواء . . . فيدنو الرجل منها، يشمها ويقبلها ويضمها، وإذا الباب قد فتح وظهرت « لولو » فلا تكاد تظهر حتى يظهر معها الكاتب ومهارته المعروفة في تغير المواقف والعبث بالعواطف . فانظر إلى هذه المرأة مغضبة ساخطة قد استطاعت أن تضطر هذين العاشقين إلى أن يسمعا كل ما أرادت أن توجه إليهما من سب ولوم . ثم انظر إليها قاضية تأخذ بالعدل وتريد أن تعرف ما قدر لها بين هذين العاشقين . فهي أيضاً عاشقة ولحباها الحق في الحياة، ثم هي زوجة ولها حقوق الزوجات . ثم انظر إليها ضارعة قد جثت أمام عدوتها تستعطفها وتترضاها وتطلب إليها أن تترك لها زوجها . ثم انظر إلى هذه العدو قد اضطربت كلها لهذا الموقف، فغيرت الرجل بينهما . أما الرجل

فلا يختار ، وإنما يريد أن يخرج مع زوجه ليفرغ من هذا الموقف المؤلم ، أو يريد أن يصرف زوجه ولكن زوجه قد رأت وفهمت ، فانظر إليها قد اقتنعت بضعفها واستيقنت أن الشر واقع لا محالة ، فأذعنت وأقبلت إلى المائدة وكتبت بيدها طلب الطلاق ودفعت الكتاب إلى زوجها وانصرفت . . .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في مستشفى من مستشفيات باريس نشهد في حجرة من حجراته « لولوت » في سرير المرض . ولكننا نعلم أنها بارثة لا خطر عليها ؛ ذلك أنها انصرفت عن زوجها إلى بيتها وقد بلغ منها اليأس أقصاه ، فأرادت أن تقتل نفسها ، ولكن يدها اضطربت فأخطأت القلب وأصاب الرئة ، واستطاع الطبيب أن ينجيها . وأخذت الحياة تعود إليها ، وأخذ الأمل يعود مع الحياة ، فهي قد كلفت أختها أن تتبع زوجها وتتبين ما بينه وبين الأميرة من صلة . وقد أقبلت أختها فتنبئها بأن الصلة قائمة متينة بين العاشقين ، فهي إذن يأسة وهي إذن ستألم . ولكن الأميرة قد أقبلت تعودها وتحمل إليها أزهاراً ، فإذا خلت إليها سألتها

العفو والمغفرة ، وأعلنت إليها أنها سترد إليها زوجها ، وأنهما قد اتفقا على ذلك . ولكنها لا تتق بشيء من هذا ولا تطمئن إليه . ويقبل الزوج وتنصرف الأميرة ، فيحدثها بمثل ما تحدثت به الأميرة . وتفهم من حديثه أنه يريد أن يحتفظ بالزواج ويعيش معها ولكن عيشة الأصدقاء والأخوان ، لا عيشة الأعباء والعاشقين . أما هي فلا تسمع ذلك إلا أمت له ، لأنها تحب ، ولأنها ترى أن ليس لحبها صدى في نفس زوجها . وما تزال بزوجها حتى يغضب ويحنق ويعلن إليها أنه مستعد لأن يضحي بكل شيء عطفاً عليها ورفقاً بها ، فهو لا يملك غير هذا . وكيف تريده على الحب وهو لا يملك هذا الحب ! وهل الناس يحبون لأنهم يريدون أن يحبوا ! ثم ما يزال بها حتى تظهر له شيئاً من الرضا . فينصرف على أن يعود بعد حين . ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تشعر بألم وضيق في التنفس ، وإذا هي تريد الهواء وتريد الضوء وتريد الحياة ، فتعينها الممرضة حتى تترك السرير وتفتح لها النوافذ ، فإذا دخل الضوء والهواء ابتهجت لها . ولكن زائراً قد أقبل ، هو عاشقها القديم « روشار » .

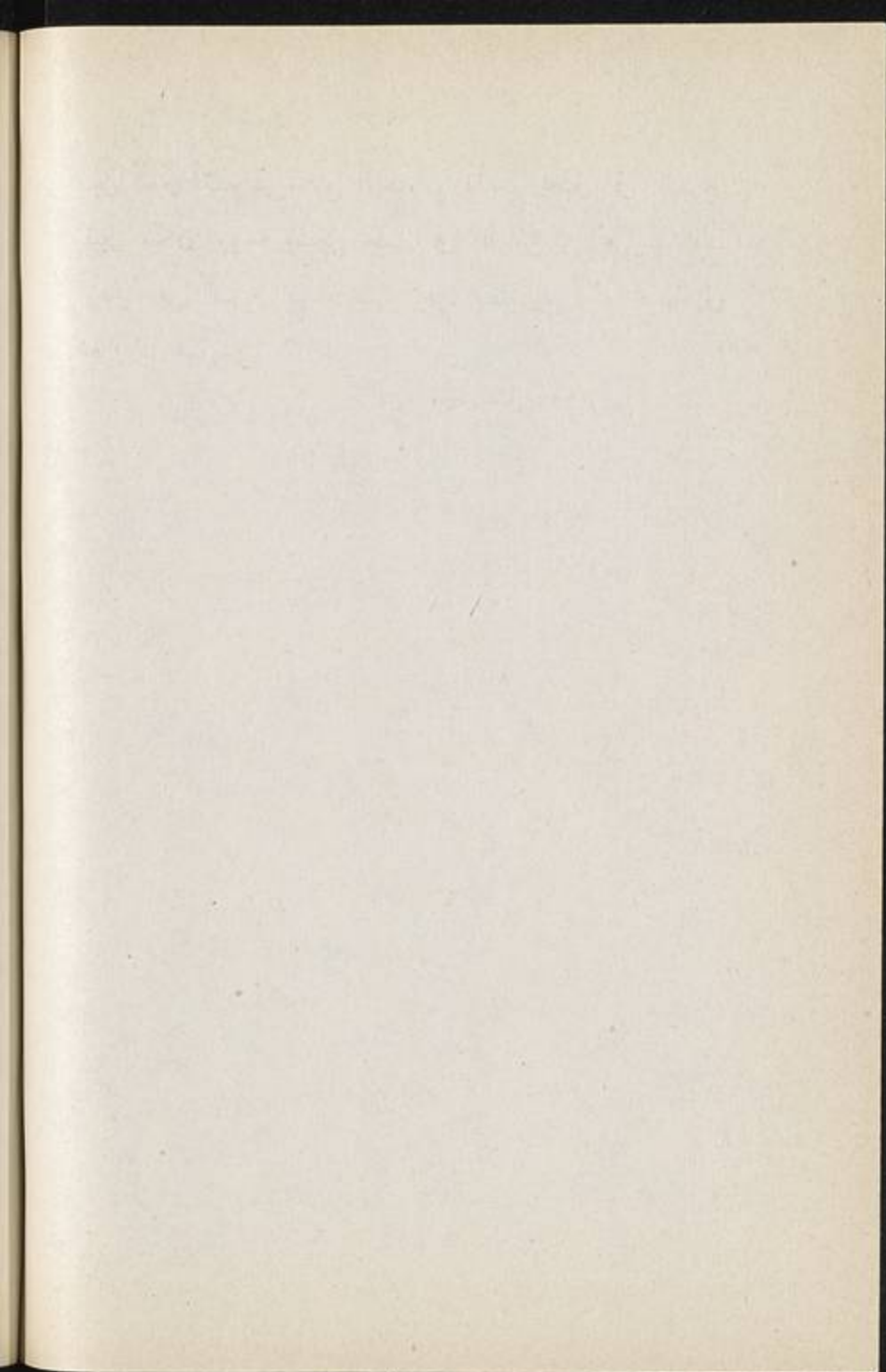
أقبل لأنه علم بكل شيء ، وتردد على المستشفى يتعرف أخبارها منذ كانت الحادثة . وهو الآن قد علم من الطبيب أنها بارئة وأنها تستطيع أن تخرج من المستشفى متى أرادت . وهو يعلم أنها تعسة وأن شفاءها لم ينته بعد ، وأن هذين العاشقين سيتخذانها جسراً إلى سعادتهما وهو يحبها ، وهو لم ينس ذلك الحب القديم ، وهو لا يريد إلا أن يفي لها ويحملها إلى ذلك البيت الذي نشأ فيه جبهما القديم ، في ذلك البيت تم شفاءها ، وفي ذلك البيت تستقبل الصحة والحياة ، فإن أرادت أن تمضي لوجهها فلن يمسكها . . .

— نعم ! إني لأريد الصحة ، وإني لأريد الحياة . . .
احملني . وما أسرع ما تحمل إلى عربة تنتظر وقد أمرت أن يرسل متاعها إلى بيت « روشار » .

إلى هنا تنتهي القصة في التمثيل ، ولكنك تريد أن تعرف ماذا يكون من أمر الزوج ، فيقصه عليك الكاتب لتقرأه لا لتشهده على المسرح . يقبل الزوج فلا يرى زوجه ، فإذا

تبين الخبر أخذه شيء من الوجوم ، وأخذ يحدق في السرير
يتبين مكان زوجه وشكل جسمها في الفراش . ثم ينظر فإذا
أزهار على السرير فيأخذ منها زهرة ينظر إليها ثم يحملها إلى
فه وإذا هو يبكي . . . !

مارس سنة ١٩٢٤



الفضيحة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « هنرى بتايل »

أعتذر قبل كل شيء من هذا العنوان ، فلست مبتكره ، وإنما أنا مترجم ، وليس لى أن أتصرف فى الترجمة إذا كان اللفظ واضحاً جلياً . وليس من شك فى أن الكاتب قد أراد ما كتب وفى أن القصة تعبر تعبيراً حسناً عما أراد ؛ فهى فضيحة ولكنها لا تخلو من عظة وعبرة . وأى فضيحة تخلو من عظة وعبرة ! هى فضيحة نافعة ، وهى فى الوقت نفسه لذينة ؛ لأنها كغيرها من قصص هذا الكاتب ! طائفة من الأوصاف التى تمثل صوراً من الحياة الفرنسية تمثيلاً قوياً صحيحاً . ولقد أجد شيئاً من التردد حين أريد أن أحكم على هذه القصة ؛ فلست أدرى أهى قصة محزنة أم هى قصة مضحكة ولعلها محزنة ومضحكة ؛ فموضوعها محزن ونتيجتها محزنة ، ولكن سياقها مضحك جداً . وهو مضحك لا على نحو ما ألفت من القصص المضحكة ، وإنما هو مضحك

على نحو خاص ، كأن الكاتب لم يرد أن يضحكك ولا أن يسرك
وإنما اضطر إلى ذلك اضطراراً ؛ لأن أشخاصه مضحكون بطبيعتهم
مضحكون حتى في أشد أوقاتهم حرجاً وأعظم مواقفهم بؤساً وسوءاً
وهم مضحكون لأنهم يريدون أن يضحكون بل لأن الله خلقهم
كذلك . وهل تعلم شيئاً أشد إيلاًماً للنفس وأعظم تأثيراً في القلب
من رجل يبكي ويألم حقاً . ولكنك تراه يبكي ويألم حتى تشاركه
في ألمه وبكائه مخلصاً في ذلك مضطراً إليه ، وأنت في الوقت نفسه
مضطراً إلى أن تضحك منه وتبتسم لما ترى من ألمه وبكائه أو
من تعبيره عن هذا الألم واندفاعه في هذا البكاء . مصدر هذا
الموقف الغريب شيء من التفاوت في الطبع بينك وبين هذا
الشخص الذي يبكيك ويضحكك في وقت واحد هو تأثير الطبع
حاد المزاج ، وأنت هادئ معتدل وقصته في نفسها مؤلمة ؛ فهو
يألم عشرين حين لا تألم أنت إلا أرباعاً أو خمساً . والفرق بين
ألمك وألمه هذا الغلو الذي تشهده ولا تفهمه ، هذا الذي يضحكك
وأنت تبكي ويبعث في وجهك الابتسام في حين يظهر على جبينك
العبوس . وهذا هو الذي تجده في هذه القصة ؛ لأن الأشخاص
في هذه القصة هم من أهل الجنوب الفرنسي . وأنت تعلم . أولئك

قرأت في الكتب ، أن أهل فرنسا الجنوبية قوم فطروا على ثورة الطبع وحدة المزاج وحرارة العاطفة وانطلاق اللسان . هم غلاة حين يشعرون ، وهم غلاة حين يتكلمون ، وهم غلاة حين يفكرون وهم إلى الكلام والاسراف فيه أقرب منهم إلى التفكير والميل إليه . ولعلمهم ، كما يقول « الفونس دوديه » في بعض قصصه لا يفكرون إلا حين يتكلمون . فبينما تنطق أسنة الناس بالكلام لأنهم فكروا أو شعروا ، فهم يصفون بكلامهم فكرة أو عاطفة أو نوعاً من أنواع الشعور . فهؤلاء الفرنسيون من أهل الجنوب ولا سيما فصحاؤهم وأهل البلاغة منهم . يتكلمون أولاً ، فإذا تكلموا تحركت عقولهم ففكروا ، وعواطفهم فشعروا ، وربما بدأوا الكلام وهم لا يعرفون ماذا يقولون فإذا اندفعوا فيه قليلاً قليلاً أخذوا يتأثرون بألفاظهم ونبرات أصواتهم ، فإذا هم يبكون كأنهم يخضعون لأشد الخطباء تأثيراً . من هؤلاء الناس اختار المؤلف أشخاص قصته ، وقد مثلهم تمثيلاً قوياً ، فهم يتكلمون ويتكلمون ، وإذا اندفعوا في الكلام فليس إلى وقوفهم من سبيل . ثم هم ليسوا مكثرين فحسب ، وإنما هم غلاة مسرفون ، يتخيرون من الألفاظ أضخمها ومن الصور أشدها عنفاً ، وهم مع كلامهم متحركون

حركات ليست أقل غلوا ولا عنفاً من ألقاظهم . ومن هنا كانت القصة لذيدة جداً في الملعب ، وهي لذيدة لمن قرأها وله علم بأخلاق أهل الجنوب ، ولكنها عسيرة جداً على من يريد أن يترجمها أو يخلصها ، وربما كان من المستحيل أن يعطى المترجم أو الملخص منها صورة صحيحة فلنجتهد في أن نعطيك منها صورة مقاربة إن أخطأك فيها ما يضحك ويسر فلن يخطئك فيها ما يؤلم ويبعث الإشفاق .

« موريس فربول » رجل من أهل الجنوب بالقرب من مدينة نيس ، عظيم الثروة جداً ، يشرف على مصانع ضخمة ، ويعنى بالأزهار واستخراج أعطارها ، له أرض واسعة قد خصصها لذلك ! وهو منصرف إلى تدير ثروته ، جاد في ذلك ، لا يكاد يحفل بغيره من الأشياء . وأهل بلده يحبونه فانتخبوه لهم عمدة ، ثم انتخبوه عضواً في مجلس الإقليم ، ثم هم يريدون أن ينتخبوه عضواً في مجلس الشيوخ . وهو يقبل هذا كله مع شيء من الازدراء والسخرية ، ولكنه يؤدي واجباته العامة كما يؤدي واجباته الخاصة في أمانة واستقامة . وقد تزوج من فتاة جميلة خلابة هي « شارلوت » أحبها حباً

لا حد له يوشك أن يكون إيماناً ، بل قل إنه إيمان . أما هي فتحب زوجها حباً قوياً أيضاً ، ولكنها تشعر بشيء من السأم مصدره أن حياتها الزوجية شديدة الانتظام قريبة جداً إلى العفة والقصد . خالية أو تكاد تخلو مما يحتاج إليه شبابها وقوتها وحدة مزاجها . ثم هي في الوقت نفسه ضيقة الذرع بهذه الحياة المنتظمة الضيقة التي يحياها أهل الأقاليم ، والتي تخلو أو تكاد تخلو ، من اللهو واللعب وما يصرف النفس عن الجذ من حين إلى حين . على أنها تخضع لهذا كله دون أن تشعر به شعوراً واضحاً . فإذا جاء الصيف في سنة من السنين سافرت مع زوجها وابنيها إلى مصطاف في جبال « البرينيه » في مدينة من هذه المدن التي يختلف إليها في فصل الصيف أغنياء الناس وسراتهم من كل بلد ومن كل إقليم ومن كل جنس . فهي ليست مدناً فرنسية ، وإنما هي مدن مختلطة تلتقي فيها الأجناس المختلفة والطبقات المتباينة . ويختلف الناس في هذه المدن ، فمنهم من يجبرها لما فيها من الاختلاط والتعاون ، وما يستتبعه ذلك من الملاحظات الخلقية في نفس المفكر . ومنهم من يكره هذه المدن لنفس هذا الاختلاط وما يستتبعه من فساد خلقي شديد .

ونحن في الفصل الأول نشهد طائفة من الفرنسيين قد جلسوا إلى « فرپول » وهم يتحدثون في هذا فنهم من يذم هذه المدن ويزدریها ويلعن الصیف الذی يضطره إليها من حين إلى حين . ومنهم من یحمدها لا لأنه یحبها بل لأنه یجد فیها میداناً للملاحظات الخلقیة . والملاحظة الخاصة التي تشغله هی أن هذه المدن تسمح لعواطف الحب بأن تظهر ولحاجات الناس إلى اللهو واللعب بأن ترضی . وقد تسمح بشئ آخر یظهر غریباً ولكنه فی حقیقة الأمر لیس غریباً ، وهو أن الإنسان مهما یکن شریفاً نقیاً طاهر النفس فهو فی حاجة من حين إلى حين إلى أن یختلس لذة من اللذات تخالف الشرف والنقاء وطهارة النفس . وهذا الاختلاس میسور فی هذه المدن التي تلتقی فیها الأجناس المختلفة ، ویکثر فیها اللهو ویستمتع فیها المصطافون بضروب من الحریة لا یعرفونها فی حیاتهم العادیة . وبنیامهم يتحدثون علی هذا النحو إذا أصوات ضحك ترتفع ، فیلتفتون فإذا نساء یضحکن من وراء الأشجار فإذا تبینوا هؤلاء النساء وعرفوهن ، فهن من أولئك اللاتی یأتین من حين إلى حين إلى هذه المدینة ، یأتین یوم السبت وبعدن یوم الاثنین لیلهون ویلہین وبعدن بشئ

من المال . . . ثم تأتي « شارلوت » فمتحدث قليلاً إلى زوجها وإلى من معه وبيننا هم جميعاً يتحدثون يمر رجل على بعد فيراه بعض هؤلاء المتحدثين ، ثم ينتهز فرصة فينتحى مع « شارلوت » ناحية ويحذرهما من أمر تأتيه ويوشك أن يجير عليها شراً عظيماً ، فتظهر أنها لا تفهم فيصرح لها بأنه رآها أمس وقد خرجت من غرفتها تقصد إلى غرفة أخرى وكاد زوجها يراها ، فهو ينصح لها بأن تكون حذرة محتاطة ، وهو لا يقدم هذه النصيحة إلا مخلصاً معترداً لأنه إنما اضطر إليها اضطراراً إذ هو مشفق عليها من عواقب هذا الأمر . أما هي فتغضب وترده رداً لا يخلو من عنف وقد أنكرت كل ما زعم ، ثم ينصرفون جميعاً ومعهم الزوج الذي اتفق مع امرأته على أن تلحق به في « الكازينو » بعد أن ترافق ابنها إلى غرفة النوم . ولا يكادون ينصرفون وتخلو المرأة إلى ابنها والمربية حتى يمر ذلك الرجل الذي مر منذ حين ؛ وإذا هو يشير إلى هذه المرأة بإشارات خفية تضرب لها وتجبب عليها بإشارات خفية مثلها ، ثم تأمر المربية أن تقود ابنها إلى غرفة النوم . فإذا سأها أحدهما : ألا ترافقيننا كما وعدت ؟ أجابت أنها متعبة . وتنصرف

المرية ومعها الطفلان . ويدنو الرجل من « شارلوت » فإذا هو
أجنبي ، قوى الخلق ، جميل الطلعة ، حسن الزى ، يتحدثان
فإذا بينهما حب ، وإذا هما يسرفان في هذا الحب حتى تجاوزا
كل حذر واحتياط . ولكن حديثهما غريب ، فبينما هو يتحدثها
في حرية وصراحة تكاد تشبه القحة إذا هي تجيبه في حياء
وبضروب من الإيماء . وهو ينكر منها هذا ، وهي تنكر منه
صراحته ، ثم ينتهي بها الأمر إلى أن تصرح أيضاً ، فإذا جها
عنيف ، وإذا هي لا تفهم هذا الحب ، ولكنها تحرص عليه
حرصاً شديداً ، وإذا هي تستطيع الآن أن تفهم ما كانت تشعر
به من سأم قبل أن تلتقي هذا الرجل . ذلك أن هذا الرجل
يعرف كيف يرضى النساء وهي تذكر له هذه الجملة التي
تختصرها اختصاراً صحيحاً وهي أنه يقبلها قبلاً ليست مسيحية
في حين أن قبلات زوجها طبيعاً مسيحية خالصة ويريد
الرجل أن يضرب معها موعداً فتأبى وتلح في الإباء ، ويلح
الرجل ؛ فإذا عرف منها الإصرار أظهر شيئاً من ضيق الصدر
ومن اليأس فتسأله فتفهم منه قليلاً قليلاً أنه سيء الحظ ؛ لأن
أباه قد أبطأ عليه في إرسال النقود وقد حاول أن يقترض فلم

يوفق ، وهو في حاجة إلى مقدار من المال قليل ، ولكن هذه أشياء لا قيمة لها وما كان ينبغي أن أتحذث اليك فيها ، ولكنك تطالبيني بالصراحة فلا أستطيع أن أخفي عليك شيئاً . أما هي فقد ساءها ذلك ، وأخذت تكلمه بصوت كأنه يأتي من بعيد قائلة : لو أن عندي ما يحتاج إليه لما ترددت في أن أدفعه إليك . ثم يريد أن يقبل يدها فإذا فيها خاتم قد استوقف نظره ، وأحست هي ذلك وفهمته فتعرض عليه الخاتم ، ويتأبى قليلاً ثم يرضى على أن يرده إليها غداً ، فهو سيظهره لصانع يريد أن يقترض منه ما يحتاج إليه . أخذ الخاتم وانصرف ، وإذا المرأة مضطربة محزونة قد سقطت في يدها ؛ لأنها عرفت أن هذا الرجل الذي تحبه وتحنون زوجها وابنيها وأسرته وماضيها بين ذراعيه ليس إلا محتمالاً . . . وهي في ذلك إذ يقبل زوجها ؛ فإذا هي تنحني إلى الأرض كأنها تبحث عن شيء . فإذا سألتها أنباته أنها افتقدت خاتمها فهي تبحث عنه فينحني ومعه صديق لبيحثا عن الخاتم أيضاً .

فإذا كان الفصل الثاني ، فنحن في جنوب فرنسا في

بيت « شارلوت » والقوم إلى مائدة الغداء ، وقد أقبل رجل
موظف في المحكمة يقال له « باريزو » ، فتحدث إلى صاحب
البيت حديثاً تفهم منه أنه مدين لصاحب البيت بشيء من المال ،
ولكنك تفهم أيضاً أن الكاتب إنما أظهر لنا هذا الشخص
لأنه سيحتاج إليه بعد حين . ويقبل القوم فاذا « شارلوت »
قد تغيرت فأصبح وجهها شاحباً ونالها شيء من الضعف كثير ،
وأخذ زوجها يخشى عليها العلل والأمراض . ذلك أنها مرضت
في المصطاف وتعجلت العودة . وكانت تريد أن تمكث شهراً
فلم تمكث إلا أياماً قصاراً . وهي منذ عادت مضطربة عصبية
تألم لأقل شيء وتظهر عليها آثار حزن عميق . واضطرابها في
هذا اليوم شديد بنوع خاص ؛ ذلك لأن زوجها تسلم كتاباً من
رجل يقال له « ا . تاميزو » لقيه في المصطاف . وهذا الرجل
يريد أن يتحدث إلى صاحب البيت حديثاً خاصاً ، وقد قبل
الزوج وضرب للرجل موعداً بعد نصف ساعة . وهذا الرجل هو
صاحبنا الذي رأيناه في الفصل الأول عاشقاً محتالاً . عرفت
« شارلوت » هذا فهي تكره هذا اللقاء بين الرجلين ، وتريد
أن تمنعه . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ .

لقد عرضت على زوجها أن يخرج معها للنزهة ، فاعتذر لأنه ضرب موعداً لهذا الرجل وهو لا يريد أن يخلف هذا الموعد ، ثم يتست من إقناعه فأوحت إلى الخادم أن تقبل مسرعة فتنبئ سيدها بأن رجلاً من الذين يعملون في أرضه قد سقط فانكسرت ساقه ، وهي تريد أن يسرع زوجها ليعود هذا المريض لأنه عود رجاله الرفق بهم والعطف عليهم ، فاذا أقبلت الخادم فانبأت سيدها هذا النبأ أظهر عناية وهو يريد أن يعود المريض ، فتبهج زوجه ؛ لكن الرجل يذكر الموعد فيعدل عن الخروج ويرسل إلى المريض من يسأل عن أنبائه ريثما يستطيع هو أن يذهب لعيادته . فتعود « شارلوت » إلى ما كانت فيه من يأس واضطراب ؛ حتى إذا خلت إلى زوجها تطلقت له وأخذت تداعبه حتى تضطره إلى مكتبه وتكلفه عملاً من الأعمال فيقبل ، وتخرج هي فتغلق المكتب وتحكم إغلاقه وكل هما أن تلقى هذا الزائر لحظة قبل أن يرى زوجها . وقد دق الجرس ، فاضطربت وأسرعت تريد أن تلقى الزائر ، وسمع زوجها دقة الجرس فأسرع يريد أن يلقي الزائر ولكن الباب مغلق ، فهو يدعو زوجه ويلح في الدعاء . أما هي

فكأنها لا تسمع حتى يدخل الزائر، فإذا هو رجل آخر هو صديق من أصدقاء الأسرة، هو الذي كان يبحث معها ومع زوجها عن الخاتم في الفصل الأول واسمه « جاتيهيه » هو طبيب شاب يعمل في المدينة وقد أقبل يزور أصدقاءه . ففتتح « شارلوت » لزوجها باب المكتب وتعتذر بأنها أغلقتة خطأ ويفهم هو هذا . أليست امرأته مريضة مضطربة منذ عادت من المصطاف ، وهو يستشير صديقه الطبيب وقد دخلوا جميعاً إلى حيث « البيانو » وأخذت « شارلوت » توقع عليه لتنسى نفسها ما هي فيه من خوف واضطراب . وقد دق الجرس وأقبل الزائر المنتظر، فهي تمنع في الإقاع على البيانو كأنها لا تريد أن يراها . ولكن زوجها يدعوها فتلتفت فإذا صاحبها يجيئها وإذا هي تحييه وقد انصرف الرجل مع صاحب البيت إلى مكتبه ليتحدثنا، أما هي فقد ظلت مع صديقتها « جاتيهيه » فلا تكاد تخلو إليه حتى تفقد صبرها واحتياطها فتقص عليه كل شيء وتنبئه بأن هذا الرجل المحتال كتب إليها مرات يطلب إليها نقوداً فأرسلت إليه خوفاً وذعراً، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد فقد تسلمت اليوم كتاباً من الصانع ينبئها بأن هذا الرجل قد

طلب منه لحسبها مقداراً ضخماً من المال وهو يطلب هذا المقدار .
ولا شك في أن هذا الاحتمال قد أقبل اليوم ليقص كل شيء
على الزوج لأنه يريد أن يستفيد من هذه القصة ويأخذ ما
يحتاج من مال . أما صديقها فقد جزع لهذا ، ولكنه لا يريد
أن يضيع الوقت ، فهو يريد أن يخلص هذه المرأة وشرف
الأسرة ، وقد أخذ منها الكتب التي تسلمتها من هذا الرجل
ومن الصانع واستحلفها أن تحتفظ بهدونها ، وانصرف إلى وكيل
النيابة يريد أن يظهر على كل شيء ليأمر بالقبض على هذا
الاحتمال ، وهو واثق بأن وكيل النيابة سيحترم سر المهنة وشرف
هذه الأسرة . وقد انصرف الشاب وخت « شارلوت » إلى
نفسها ، وهي مضطربة أشد الاضطراب لا تستقر في مكان ما
تريد أن تعلم بم يتحدث الرجلان من وراء هذا الباب ،
ولا يطول انتظارها فقد فتحت باب المكتب وخرج الرجلان
يتحدثان في هدوء وصاحب البيت « يقول لزائره
إذن فعداً الساعة الثانية » ثم يقبل الزائر إلى
« شارلوت » فيحييها وينصرف . أما زوجها فقد جلس مفكراً
وأخذت هي تسأله والهمة متكلفة الهدوء عن هذه الزيارة

وما كان فيها من حديث ، فيجيبها بصوت فيه شيء من الزهول
إن هذا الرجل قد حدثه في أشياء غريبة جداً فيزداد لذلك
اضطرابها ، فإذا ألت على زوجها أنبأها بأن الزائر تحدث
إليه في أمور تجارية غريبة فيها أرباح غير مألوفة فطمئن ،
ويخرج زوجها ليعود المريض الذي مر بك ذكره آنفاً .
ولكن هذا الزوج لا يكاد يخرج حتى تدخل الخادم فتنبئ
سيدها بأن هذا الزائر الذي انصرف منذ حين قد عاد يقول
أنه قد نسى شيئاً ويريد أن يتحدث به إلى السيدة لتعيده
على زوجها متى رجع . فتتردد « شارلوت » ثم تأذن له وهنا
موقف مؤثر جداً ، ذلك أن هذا الرجل المحتمل لا
يكاد يظهر أمام صاحبه حتى تلقاه لقاء منكرآ ، فتسأله
أى مقدار من المال يريد هذه المرة . . . وإذا الرجل
لا يريد مقادير من المال قليلة ولا كثيرة وإذا هو قد تكلف
هذه الزيارة وتكاف هذا الحديث التجارى الذى انتحله للزوج
ليخلو إلى هذه المرأة لحظة لأنه يريد أن يكلمها ، وهو يريد أن
يثبت لها أنه يحبها حقاً وأنه أحبها حباً لا عهد له به من قبل ،
ولكنه يعلم حق العلم أنها لن تصدقه لأنه جنى جنائيات واقترف

آثاماً ليس من شأنها أن تحمل الناس على تصديقه إذا ذكر
الحب وما إلى الحب من أخلاق الرجل ذى الطبع الكريم .
أليس قد استفاد من حب هذه المرأة إياه فتحدث إليها في فقره
ويؤسه وذلك شيء لا يتحدث فيه العاشقون إلى عشيقاتهم !
ثم هو لم يكتب بذلك ، أليس قد طلب إليها شيئاً من المال !
أليس قد أخذ خاتمها ليرتبهه في سبيل المال ! أليس قد كتب
إليها يقترض منها المال ! ثم أليس قد اقترض باسمها مقداراً
ضخماً ! ثم أليس متهماً الآن بالاحتيال ويوشك أن يقف بين
يدى القضاء ! وإذا كان قد تلوث بكل هذه المخزيات فكيف
يستطيع أن يذكر الحب أو يتحدث فيه ! ومع ذلك فقد
أحب مخلصاً وما زال يحب مخلصاً وهو ليس محتالاً ولا محترفاً هذه
الصناعة وإنما هي الحياة وظروفها تضطر أشد الناس طهارة
وأعظمهم من الشرف خطأً إلى أن ينحط من منزلته ويدنس
نفسه قليلاً قليلاً حتى يزول الفرق بينه وبين الذين اتخذوا
الاحتيال مهنة وعاشوا من اقتراف الآثام والذنوب ! نعم !
أحب هذه المرأة وهو يحبها ، ولم يأت ليتحدث إليها في الحب
وإنما أتى لينقذها من خطر يتعرض له شرفها ، فقد يقبض عليه

من وقت إلى وقت ، وقد يوقف أمام القضاء ، وعنده كتب من هذه المرأة وعنده صورتها وعنده هدية منها ، وهو يريد أن يرد إليها هذا كله ، وأن يرده إليها يداً بيد ، وأن يعتذر لها كما يستطيع الإنسان أن يعتذر عما جنى عليها من إثم وقد دفع إليها الكتب والصورة والهدية إلا كتاباً واحداً هو أول كتبها إليه فهو يريد أن يدفعه إليها ولكنه يريد أن يقرأه للمرة الأخيرة ؛ فهو لم يقرأ في حياته كتاب حب كهذا الكتاب وربما كان رد هذا الكتاب إلى صاحبه أعظم ضحية ضحى بها في حياته ، وهو يقرأ الكتاب ثم يرده ، ويسألها أتصدقه الآن ! فتجيبه مضطربة : أنها تكاد تصدقه . ثم يريد أن ينصرف فيسألها : « أما ترالين تمقتينى فتجيبه : بل أنا أرثى لك . » ثم يودعها فتبسط يدها له حتى إذا دنا منها مغتبطاً يريد أن يقبل هذه اليد المبسوطة ، بدا لشارلوت فقبضت يدها ، وانصرف الرجل كئيباً محزوناً على ألا يراها بعد اليوم . وعاد صديقها الذي ذهب إلى وكيل النيابة ينبئها أن الأمر قد تم على ما أراد ، فسيقبض على المحتال مساء اليوم . وقد أخذ وكيل النيابة الكتب ووعد باحترام السر .

فلا تكاد تسمع هذا حتى يجن جنونها ، وكانت قد نسيت هذا كله ، وهى الآن لا تريد شرأ بهذا الرجل ، وإنما تشعر بأنها مدينة له . أليس قد رد إليها كتبها وشرفها فقيم القبض عليه ؟ وهو معرض للسجن وللقضاء . ولكن من جهة أخرى غير جهتها ، فلتسرع إلى وكيل النيابة ترجو منه ألا يعرض لهذا الرجل بالأذى ، وهى تسرع فتتخذ معطفها وقلنسوتها وصاحبها حائر مبهوت لا يسمع إلا هذه الجملة ، لقد انتهى كل شئ . ! لقد انتهى كل شئ . !!

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضى حين على هذه الحوادث ، ونحن فى بيت « شارلوت » وهى تتحدث إلى « باريزو » ذلك الموظف فى المحكمة وقد فهمنا من حديثهما أن صاحبنا المقبوض عليه وهو متهم بالاحتيال والتزوير ، اتهمه بذلك الصانع وهو بين اثنتين : إما أن تذهب « شارلوت » فتؤدى شهادة دعيت إليها ، وإذن فالرجل مبرأ ، وإما ألا تذهب وإذن فالرجل مقضى عليه . وهى مترددة بين الوفاء لهذا الرجل الذى وفى لها وبين الاشفاق على شرفها . فهى تخشى أن تذهب لتأدية الشهادة فى باريس أن يعرف أمرها ويذكر اسمها ، وإذن

فهي النازلة ، وقد جهل زوجها وابناها كل شيء ؛ وهي تخشى أن يعلموا . هي مترددة ولكنها مع ذلك أميل إلى تأدية الشهادة ، فقد وعدّها وكيل النيابة بأن شهادتها ستكون سرية ، قد كتب في ذلك إلى باريس وقبل طلبه ، فهي تستطيع أن تشهد آمنة وستشهد ، فقد احتالت حتى أرسلت إليها صديقة من باريس رسالة برقية تنبئها فيها بأن أمها مريضة ، وإذن فهي مضطرة إلى السفر إلى باريس ، وقد أنبأت بذلك زوجها واسرتها . وستسافر بعد حين . وقد استقر رأيها على ذلك فتحدثت به إلى وكيل النيابة بالتليفون ولم تكذ تفرغ من حديثها حتى يقبل زوجها فيتحدث إليها في أمر هذا السفر قليلاً ثم تتركه مع « باريزو » لتم استعدادها للسفر . فلا يكاد يخلو الزوج إلى « باريزو » حتى يظهر عليه غضب شديد . فهو يسأل « باريزو » عن معنى هذه الزيارة . ومهما يتكلف « باريزو » من المعاذير فهو لا يصدقه . وهو يعلم أن في الأمر سرّاً ، وهو يريد أن يعرف هذا السر ، وقد أحس هذا منذ أيام وبمحت حتى علم أن شيئاً غريباً يدبر من حوله . فزوجه كاذبة فيما تنتحل من العذر لسفرها إلى باريس ، فليست أمها مريضة ، وليست أمها في باريس . وإذن فلا بد من أن يعرف

هذا السر ، وهو يتهم زوجه بالخيانة ، ويتهم « باريزو » بالتوسط بينها وبين من تحب . وما يزال بهذا الرجل ينذره ويوعده حتى يضطره إلى أن ينبئه بالحق بعد أن أقسم ليحتفظن بالسر . وقد قص عليه « باريزو » كل شيء ، فإذا الزوج مجنون أو أكثر من المجنون . يجب أن تذكر ما قلت لك في الفصل الأول عن أخلاق أهل الجنوب من الفرنسيين ، فقد بلغت هذه الأخلاق عند هذا الرجل طورها الأقصى في هذه اللحظة ، فلم يتمتع وجهه ولم تظهر عليه آثار الغضب ، وإنما اضطرب دمه وغلا حتى يكاد يخرج من عينيه وإذا هو كله متحجر ، وإذا لسانه منطلق بأشنع الألفاظ ، وإذا صوته قد بلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ من ارتفاع ، وإذا هو يريد أن يبطش بمخبره ، وإذا هو يريد أن يحنث في يمينه ، ويقسم ليجمعن أهل البيت جميعاً وفيهم الخدم وفيهم أمه وابناه ثم ليطردن الشقية أمام هؤلاء الناس جميعاً . وقد أسرع إلى الأبواب ففتحها وأسرع إلى مخبره فدفعه دفعاً ، وأخذ يصيح بأعلى صوته يميناً وشمالاً : « إلى إلى ! تعالوا جميعاً ! فيقبل أهل البيت كافة مدعورين يخشون حدثاً عظيماً أيقبلون ويستنبئون فلا يجيبهم ، وإنما يدعو ، ويدعو وينادى امرأته ، فتقبل متباطئة وكأنها قد

أحست شيئاً ، فاذا نظرت الى زوجها من أعلى السلم ورأت صورته الغريبة وشكله الجنوني استيقنت أنه قد عرف كل شيء ، فأنحلت قواها وأصابها يأس ليس بعده يأس ، قد قتل نفسها وظهرت آثار ذلك على وجهها ، فهي جثة تمشى ، وزوجها ينظر اليها فلا يزيد ذلك إلا اضطراباً وثورة ، ثم يهم بالكلام وإذا لسانه يتردد في فيه دون أن ينطق ، ثم اذا هو مضطرب كله من أسفله الى أعلاه ، فقد أخذت ذراعا تتهزان في الفضاء اهتزازاً متصلاً ، ثم انطلق لسانه بهذه الكلمات يقولها مشيراً إلى ابنه : « الأمر أن هذا الغلام قد أساء السيرة في المدرسة حتى اضطرت ناظرها الى طرده . . . »

قال ذلك ثم هدأ ، أما ابنه فلم يهدأ وإنما يجهم بالبكاء ، بالبكاء لأنه مظلوم ، فلم يسىء سيرة ولم يطرد من المدرسة ، ولكن أباه يغلظ له في القول ويأمر به فيقاد إلى غرفته ثم يصرف الخدم دهشين ويرجو أمه أن تذهب فتهمون على الغلام . . . وقد هدأ روع امرأته قليلاً فأخذت تهديء زوجها وتنكر عليه اضطرابه لأمر يسير كهذا ، وأخذ هو يتعلل ويعتذر بأن القسوة لازمة لتربية هذا الطفل ، ثم يذكر سفر امرأته ويلفتها إلى

أن موعد الفطار قد آن ، وتحاول أن تبقى لتتخذ قطاراً آخر ولكنه يأبى وكأنه يدفعها إلى السفر دفعاً . فإذا انصرفت أقبلت أمه تلومه على العنف في غير موضع للعنف . فانظر إلى هذا الرجل القوي العنيف قد ضعف ورق حتى كأنه طفل في الثانية عشرة قد ألقى بنفسه بين ذراعي أمه وهو يبكي بكاء شديداً .

فإذا كان الفصل الرابع فقد مضى يومان على ما ذكرت لك ونحن في بيت شارلوت وزوجها يستقبل مبتسماً مبتهجاً أطفال القرية وقد أحيا لهم عيداً ، فهم فرحون وهو يتكلف الفرح ، وأمهم كذلك والناس من حوله يسألونه عن « شارلوت » فينبئهم أنها ستصل بعد حين ، وقد ذهبت العربة إلى المحطة لتنتظرها ، ثم يخلو إلى أمه حيناً فيتحدثان فإذا هو قد فكر وروى ، وإذا هو قد اقتنع بأن الخير إنما هو في أن يظل محتفظاً بسره كأنه قد جهل كل شيء . أما أمه فلا ترى هذا الرأي ، وإنما ترى طرد البائسة الشقية ، ولكنه يهون عليها ويترضاها ، ويذكر أنه في أيام شبابه رأى فتاة بائسة أغواها شاب مفسد

* (٧)

ثم تركها، وإنه رق لهذه الفتاة وأخذ يعزيها ثم تجاوز العزاء إلى شيء آخر، ثم اجتهد حتى وجد لهذه الفتاة زوجاً، ثم مضى على زواجها سبعة أشهر ورزقت غلاماً. فمن يدري لمن هذا الغلام! وبينما هو يحدث أمه هذا الحديث إذ هي مبتهجة أول الأمر. وأي شيء في هذا؟ أليس يدل على أن ابنها كان جميلاً بارعاً يستطيع أن يغرى النساء وأن يخلبن. وكيف لا تبتهج أم لشيء كهذا!؟ فإذا وصل إلى أمر الغلام والشك فيه اتهرته أمه اتهاراً. أليس يسرف في الشك والتحرج!؟ ولكن هذه المرأة البائسة في البيت الآن ومعها طفلها وقد دعاها الرجل فأقبلت ومعها الغلام في السادسة من عمره وأخذت العجوز تحديق في الطفل وكأنها قد رأت فيه ملامح ابنها فانصرفت مغضبة مسرورة تهمهم. وخلا الرجل إلى صاحبته القديمة، فيكون بينهما حديث مؤلم ولكنه بريء لذيذ. ثم يسمع ضجة وينبئه منبئ أن المدير قد أقبل يزوره. فإذا دخل المدير فهمنا من حديثهما أن الناس قد عرفوا ما كان من أمر امرأته، وأشارت إليه صحف المدينة، وأن الأمر قد أصبح خطراً فقد ينتج إخفاق صاحبنا في الانتخاب، وقد أقبل المدير يطلب إلى هذا الرجل أن يجتهد

في إصلاح هذا الأمر ، فهو مرشح لمجلس الشيوخ ، وهو مرشح من قبل الحزب الجمهورى الذى فى يده الحكم ، وقد أوصى الوزير بمساعدته ووعده المدير وعداً حسناً إن أفلح . ولكن خصومه الملكيين أقوياء ، وهم ينتهزون هذه الفضيحة ، فالسبيل هو أن يبرىء امرأته أو يطردها . ولكن الزوج قد غضب لهذا الحديث ، فهو لا يريد أن تتدخل السياسة ولا الانتخابات فى حياته الخاصة إلى هذا الحد . وهو يجيب المدير جواباً عنيفاً ويعلن إليه أنه منسحب من الانتخابات مستقيل من منصب العمدة ومن مجلس الأقليم . ثم تقبل امرأته فيتلقاها ابناها لقاء حسناً ، ويتكاف زوجها وأمه هذا اللقاء . ولكنهما لا يفلحان ولا تكاد المرأة تخلو إلى زوجها حتى تتبين أنه علم كل شيء ، وأنه يحاول إخفاء الأمر فلا يفلح . وإذن فهى خائنة بين يديه تعترف وتطلب أن يقتلها . وهى جزعة قد بلغ الجزع منها أقصاه ، ولا سيما وهى متعبة ، قد أمضت ليلالى ثلاثا لم تنم ، فهى لا تستطيع شيئاً ولا تحتمل شيئاً وقد ألقت بنفسها على الوسائد تبكى وتنتحب ، وأخذ زوجها يتحدث إليها فى عنف ولوم شديدين ، ثم أخذ صوته يرق شيئاً فشيئاً ويذكر ما كان من

أمر المدير وما كان من استقالته وعدوله عن الانتخاب ويذكر أنه لا يستطيع الآن أن يعفو ، ولكنه أحبا حباً شديداً ، فسيهجرها حتى تسمح الأيام بالعفو والنسيان ، ويتحدث إليها بذلك كله في صوت رقيق فيه شيء من الضعف والإشفاق والرحمة ، ولكنه ينظر إليها فإذا هي مغرقة في النوم كأن هذا الحديث قد هدأ من لوعتها شيئاً وغلها الإعياء فنامت... وتبين هو ذلك فأخذه غضب شديد فهو يهجم عليها يريد أن يحطمها ولكن ذراعه تسقط وتمر على وجهه ابتسامة مرة... « بينما أنا أحلق في الملاء الأعلى أذكر العفو إذا هي نائمة... كذلك تجيب الحياة » ويدخل الطفلان مبتهجين يدعوان أمهما يريدان أن يشكرا لها ما حملت إليهما من باريس ، فيشير إليهما بالصمت أن أمكما نائمة فدعاها تم...

الإغراء بالرحيل

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « جان جاك برنار »

لست أدري أتعجبك هذه القصة ! ولكني أعلم أنها قد أعجبتني ، وربما كان لفظ الإعجاب دون ما أريد أن أقول . أعلم أنني فتنت بها ، فقرأتها مرتين ، وقلما أقرأ القصة مرتين . أعجبتني هذه القصة وأنا مع ذلك أشك في أنها ستعجبك ، إني لم أعودك تحليل قصص تشبهها ، وإنما عودتك ضرباً آخر من القصص ليس بينه وبينها شبه قليل ولا كثير . ولم أتعمد ذلك تعمداً ، وإنما اضطررت إليه اضطراراً . فلست أعرف فيما قرأت من القصص التمثيلية على كثرته قصة تشبهها أو تقاربها . وما كنت لأخترع هذه القصص اختراعاً ، ولقد كنت أتشوق إلى هذا النحو من القصص التمثيلية ، ولكني لا أجد إليه

سبيلا ، حتى وصلت هذه القصة في آخر أعداد « الالستراسيون »
فقرأتها ، وقرأتها مرتاحاً إليها مشغولاً بها ، كما يرتاح الإنسان
إلى شئ، تمناه وظفر به بعد طول التمني وشدة الرجاء .

على أنى بينما كنت أقرأ هذه القصة تذكرت قصة
أخرى حدثتك عنها في السنة الماضية ، ولم أذكرها إلا لأن
هناك شيئاً حملنى على أن أذكرها إلا لأن هناك شيئاً قليلاً بين
القصتين . وتذكرت قصة « الحب » للكاتب الفرنسى « بول
جيرالدى » . ولكنى لم أكد أمعن فى الموازنة بين القصتين
حتى وجدت التبه قليلاً مسرفاً فى الضالة . فى قصة « الحب »
رقة ، وفيها رفق وفيها ثقة متصلة بين الزوجين . ولكن القصة
التي نحن بإزائها اليوم ليست إلا رقة ورققاً وثقة ، لا يكاد
بل لا يظهر فيها عنف ولا غلظة ، ولا يكاد يبدو فيها الشك .
فى قصة « الحب » رقة ورفق ، ولكن فيها عنفاً شديداً .
فيها جهاد بين العواطف ، وفيها اصطدام بين الشهوات ، وفيها
حرب قوية عسيرة بين رجلين . أما هذه القصة التي نحن بإزائها
فلا تكاد ترى فيها شيئاً من هذا ، أو قل إنك ترى فيها هذا
كله ولكن من بُعد ، لا تراه بل تلمحه ، لا تحسه بل تتخيله

تخيلاً ولعلك تفرضه فرضاً في بعض المواضع . أشعر الآن بما
تمتاز به هذه القصة ؟ أشعر الآن بالسبب الذي يحملني على أن
أشك في أن هذه سترضيك ؟ أشك في ذلك لأن هذه القصة
عسيرة صعبة ، فيها دقة ليست بعدها دقة ، أو هي كلها دقة .
فأنت في حاجة حين تقرؤها إلى أن تكون فارغ البال ، شديد
الالتفات الى الدقائق ، حريصاً على أن تقرأ بين السطور ،
وعلى أن تفهم من اللفظ أكثر من معناه أحياناً وأقل من
معناه أحياناً أخرى .

هذه القصة تمثل الظرف والتأنق في الفن وربما دل
لفظ « الظرف » و « التأنق » على شيء أكثر مما أريد .
فتصور رجلاً تحضر وأمعن في الحضارة حتى انتهى الى أقصى ما يمكن
أن ينتهي إليه من رقة ولين وظرف . كذلك الأمر في هذه
القصة ، تشعر بأن الفن قد رق فيها ولطف وأسرف في اللطف
حتى انتهى إلى أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه . فالرمز والإيماء فيها
أكثر من التصريح ، بل لا يكاد التصريح يوجد فيها . ومن
هنا قال بعض النقاد إن هذه القصة لا تصلح للتمثيل ، وإنما
تصلح للقراءة . لا تصلح للتمثيل لأنها أرق وأدق من أن تمثل ،

وهي أرق وأدق من أن تفتن لها جماهير النظارة . وأرى أنها إذا كانت لا تصلح للتمثيل فهي لا تصلح لأن يقرأها الناس جميعاً ، وإنما يتاح فهمها وذوقها بنوع خاص لطائفة من المترفين في الفن . ومن هنا تفهم أيضاً قول بعض النقاد إن الكاتب تجاوز في قصته هذه التمثيل إلى الشعر والموسيقى ؛ فهو لا يتحدث إليك بلغة الملعب ، وإنما يتحدث إليك بلغة الشعر والموسيقى ، وبلغتهما حين يناغيان النفس ويهمسان إلى الضمير . هي على هذا كله قد أعجبت الناس فنالت فوزاً عظيماً في باريس ، وكاد يجمع النقاد على الثناء عليها . وليس هذا يدل على شيء أقل من رقي الأذواق ورقة العواطف في تلك المدينة التي يزهر فيها هذا الفن الأدبي على اختلاف ألوانه وضروبه .

نحن في إقليم من أقاليم فرنسا ، في « الفوج » يمثل لنا المسرح حجرة تكاد تكون مستديرة ساذجة الأثاث ، ولكن نوافذها كثيرة جداً ، تكاد تشغل كل جدرانها . ومهما تنظر فإن تقع عينك وراء زجاج النوافذ إلا على غابة ضخمة بعيدة المدى يقصر دونها الطرف . أما الغرفة ففيها مكتب ، وفيها البيانو ،

وفيهما مائدة صغيرة ، وقد نسقت الأزهار على البيانو والمائدة .
أما المكتب فقد كثرت عليه الأوراق المختلفة ، وفي ناحية من
نواحي الحجرة موقد أمامه كراسي ثلاثة . وقد جلست إلى البيانو
امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها ، هي « ماري لويز »
بنت « لاندرو » صاحب هذا البيت وهذه الغاية وهذا المصنع
الذي يلح على بعد ، وزوج « أوليفيه » الذي شارك أباهما
في الإشراف على هذا المصنع وفي تدير هذه الثروة الضخمة .
جلست إلى البيانو وهي تلعب قطعة موسيقية معروفة ، وتلعبها
متأثرة تأثراً شديداً ، ثم يضعف اللعب قليلاً قليلاً حتى كأن
النغم يموت تحت أصابعها . وقد انقطعت عن اللعب وظلت في
مكانها مفكرة كأنها في حلم ، وإذا الساعة تدق السادسة ،
وإذا صفير يسمع على بعد من المصنع مؤذنا بانصراف العمال ،
وهي في مكانها مفكرة مغرقة في التفكير ، ثم يسمع صوت
رجلين يتحدثان ، ويرى هذان الرجلان يمران خارج الغرفة
كأنهما مقبلان إليها . هذان الرجلان الشيخان هما « لاندرو »
صاحب البيت ، وصديق له من أصحاب المصانع الكبرى في
شمال فرنسا . أقبلا ودخلا الحجرة ، وصاحب البيت يظهر

صديقة على كل شيء في البيت وفي المصنع وحول البيت والمصنع .
وهو بهذا كله نفور معجب ، يذكر الأشياء يضيفها إلى نفسه
فيقول بيتي ومصنعي وحديقتي وغابتي ، حتى يصل إلى ابنته
فيقول ابنتي ، ويصفها وصف المعجب بها ، يقدمها إلى صاحبه
فينحني أمامها الشيخ انحاء الإجلال . أما هي فتلقى الرجلين
لقاء لا يخلو من أدب ، ولكن فيه فتوراً ظاهراً . وتقبل أختها
« جاكلين » فيقدمها أبوها إلى صاحبه على نحو ما قدم أختها .
ثم ينصرف الرجلان إلى حيث يتناولان شيئاً من النبيذ قبل
أن ينصرف الضيف ، وتبقى الأختان . وقد فهمنا من حديث
القوم أن في البيت ضيفاً آخر شاباً حسن الطلعة جميلاً غنياً ،
أبوه من كبار التجار في باريس ، قد اتصلت المعاملة بينه وبين
أصحاب هذا المصنع . وقد أرسل ابنه فيليب ليقم أشهراً عند
هؤلاء الناس يختلف فيها إلى المصنع ليفهم عمله . وكذلك تعود
هذا الرجل أن يرسل ابنه في جميع المصانع التي يعاملها ، حتى إذا
آلت إليه تجارة أبيه كان متقناً لعمله حسن الفهم لمعامله .
ولا تكاد الأختان تتحدثان حتى تشعر بأن بينهما فرقاً
عظيماً جداً . أما الكبرى فضيفة الصدر بكل شيء ، ضيقة الصدر
بما ترى ، ضيقة الصدر بما تسمع ، ضيقة الصدر بما تحس ،

لا تكاد تسمعها حتى تفهم أنها سجينه تريد أن تخلص من
سجنها ، وقد يئست من الخلاص فهي مستسلمة للحياة في سام
وضجر ، وهي لا تذكر أباه دون أن يظهر عليها هذا السأم .
أليس أبوها قد ذكرها لصاحبه منذ حين بنفس الطريقة التي
ذكر بها البيت والمصنع والحديقة . ثم هي تنظر من النافذة
فلا ترى إلا شجراً ، فإذا أبعدت طرفها لم تر إلا شجراً ،
فإذا أدارتها لم تر إلا شجراً ، فهي تسأم هذا الشجر كما تسأم
البيت وكما تسأم عشرة من فيه . فإذا ذكرت أختها لها زوجها
ذكرته في رقة ولين وشعرت أنها تحبه حباً شديداً وأنه يحبها
حباً جماً . وأما أختها الفتاة فراضية مطمئنة متهجة بالحياة
تعطف على أيها عطفاً شديداً ، وتبر به وبأمها برأ عظيم .
وقد أقبلت تدعو أختها للعب الكرة ، لأن « فيليب » ينتظرهما
في ميدان اللعب ، فترفض أختها ضجرة متبرمة ، وتسخر من
فيليب ومن جماله ومن ظرفه ، وتقول إنها لا ترى في هذا البيت
إلا قوماً يصنعون الحديد ويمكفون على صناعته ، فأبوها وزوجها
منكبان على صناعة السامير ، وهذا الزائر الذي مر منذ حين
عاكف على صناعة كصناعة السامير ، وهذا الشاب فيليب أقبل

ليرى كيف تصنع المسامير ، وسيعود إلى باريس لبيع المسامير ،
وكل شيء فى حركاته يذكر بالمسمير ، فهو إذا أراد أن يقذف
بالكرة مثل رجل يدق ليصنع المسامير ، وهو إذا أنشد الشعر كان
صوته وإنشاده كهذا الصوت الذى تسمعه لأداة من أدوات
المصانع . وهى ضيقة الصدر بهذا كله ، على أنها لا تفكر أن
فى هذا الشاب رقة وأدباً وظرفاً ؛ فقد ذهب إلى المدينة منذ
أيام وعاد يحمل إليها وإلى أختها هدايا ، أهدى إليها مروحة لا
تمثل حسن الذوق الفنى ، ولكنه فكر فى أن يهدى إليها
مروحة ، وأهدى إليها كتاباً هو ديوان « بودلير » ، وفى الحق
أنها لا تحب « بودلير » ولا تفهمه ، لأن فيه غموضاً وعمقاً
وتعقيداً ، وإنما تؤثر عليه شاعراً آخر هو « شينيه » غير أنها
تعترف بأن هذا الشاب لم يكن يستطيع أن يعلم ذلك من
نفسه ، فيكفى أنه فكر فى أن يقدم إليها كتاباً . والغريب من
أمر هذا الشاب أنه متى انتهى العشاء أقبل مع زوجها إلى هذه
الحجرة ، فجلسوا جميعاً إلى المواقد وطالت بهم الجلسة ، والرجلان
يتحدثان ويمزحان حتى يأخذها هى النوم فتستأذن وتنصرف ،
ولا يفكر زوجها فى أن يختصر هذه السهرة . وهى كانت

تستطيع أن تلوم زوجها، ولكن أليس يحسن ألا تفعل والشاب مسافر بعد يومين . هذا حديث الأختين تشعر منه بسأم « ماري لويز » وضيق صدرها حتى بهذا الشاب الجميل بل بهذا الشاب الجميل بنوع خاص . ويدخل زوجها فتلقاه لقاء العاشقة الكلفة ، ولكن عندما يريد الانصراف ينبئها بأن « فيليب » قد تسلم كتاباً من أبيه ، وبأنه مسافر إلى أمريكا الجنوبية ، إلى بلاد الأرجنتين . ولا تكاد « ماري لويز » تسمع هذا حتى يظهر عليها الدهش ، بل شيء آخر أكبر من الدهش ، شيء يشبه الدهول . ثم ينصرف زوجها ، وتقبل هي إلى النافذة ثم تلتفت فإذا شعاع الشمس يضطرب أمامها اضطراباً شديداً يكاد يأخذ بصرها ، فإذا سألت أختها عن ذلك أنبأتها أن فيليب قد وقف خارج الغرفة وفي إحدى يديه مرآة وفي الأخرى أداة لعب الكرة وهو يشير إليهما بهذه الأداة أمام المرأة . فتغضب « ماري لويز » وتصحح به تأمره أن يكف . فإذا مضى في عبثه مضت في صياحها تزجره زجراً ، وأختها تدعوها إلى أن تترك مكانها لتلقى شعاع الشمس ، ولكنها لا تحفل بأختها وإنما تمضي في زجر الشاب وتوبيخه كأنها تجدد في ذلك لذة ، ويسدل

الستار ثم يرفع بعد حين ، وقد مضت ستة أسابيع على سفر
فيليب . ونحن نرى ماري لويز جالسة في الغرفة نفسها مغرقة
في القراءة ، حتى إن زوجها يدخل فلا تحسه ، فإذا كلها نهضت
مذعورة ، فإذا سأها فيم تقرأ أجابته في ديوان « بودلير » .
فيلاحظ زوجها أن ذوقها سريع التغير . ألم تكن تكره « بودلير »
فهي الآن تحبه . ثم يتحدثان ، فتفهم أن فيليب قد سافر ولم
يرسل إليهما كتاباً ولا شبه كتاب ، وذلك شيء يخالف الذوق .
على أن بطاقة قد وصلت اليوم تنبئ بأنه في طريقه إلى
« الأرجنتين » . وها يتحدثان عن هذا السفر ويصلان إلى
شيء من الفلسفة في السفر وما يترك من ألم في نفس المقيم مهما
تكن الصلة بينه وبين المسافر . وتأتي « جاكلين » فيتحدثون
في أمر هذا الفتى أيضاً ، وتظهر « جاكلين » صورة من صوره
الفتوغرافية فينظرون فيها جميعاً . أما « جاكلين » وأوليقييه
فيريان أنها صادقة مقاربة . وأما ماري لويز فتنكر ذلك إنكاراً
شديداً وتلح في إنكارها وتشدد الخصومة بينها وبينهما في ذلك .
وتفهم من هذه الخصومة شيئين : الأول أن شخص فيليب قد
اتخذ في نفس « ماري لويز » صورة غير صورته الحقيقية ، صورة

تقرب من المثل الأعلى ؛ ولذلك تنكر الصورة الفوتوغرافية التي تمثل شخصه الحقيقي . الثاني أنها تستبقيه في حجرتها ، فتحفظ بالحجرة كما كانت يوم تركها ، فما زالت الكراسي الثلاثة على وضعها أمام الموقد ، وما زالت المروحة وديوان « بوداير » في مكانهما . فإذا انصرف أوليقييه وبقيت الأختان حاولت الفتاة أن تغني عابثة إحدى أغاني الجند وفيها ذكر الأرجنتين ، فتغضب أختها غضباً شديداً وتزجرها ، وتنصرف مغضبة . وقد فهمنا أن سفر فيليب قد غير في نفس ماري لوز كل شيء ، وأن سخطها عليه وتبرمها به في أول الفصل لم يكونا إلا مظهراً من مظاهر الحب .

فإذا كان الفصل الثاني ، فقد مضى عام ونصف عام على ما قدمت ، ولكن الحجرة على حالها لم يتغير فيها شيء وقد جلس أوليقييه إلى مكتبه ، وجلست « ماري لوز » إلى عمل يدوي قد عكفت عليه ، وكأنها مغرقة في التفكير . وقد سألت زوجها ماذا تصنع : فلم تجب ، لأنها لم تسمعه . ثم مضى حين فسألت زوجها وكأنها لا تفكر فيما تقول : ماذا يصنع ؟ فيجيبها أنه يرتب أوراقاً . ولكنها لم تفكر في سؤالها ولم تنتظر

له جواباً ، فهى لم تسمع زوجها حين كان يكلمها . فإذا فرغ زوجها من عمله أقبل إليها يحدثها فى لطف ورفق ، ولكنها تجيبه فى ضعف وإعياء وكأنها قد أقبلت من مكان بعيد وقد ظهرت عليها آثار السأم والتعب ، كأن قوى خفية عملت فى نفسها منذ حين طويل فصرقتها عن كل شىء وزهدتها فى كل شىء ؛ فكأنها تحيا لأنها لا تستطيع أن تموت . وزوجها يرى ذلك ويشعر به ، ويحاول أن يتبين أسبابه ، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلا . هو رفيق ، رقيق العاطفة ، شديد الإيمان بزوجه وشرفها ، فهو لا يتهمها بشىء بل لا يفرض شيئاً ، وهو فى الوقت نفسه لا يريد أن يسألها مخافة أن يثقل عليها أو يؤذيها . ولكنه اليوم يشعر بأنها قد انتهى بها الضعف إلى حد بعيد ، ويشعر مع ذلك بأنها مطمئنة إليه واثقة به ، فهو يناجها مناجاة الحب العطوف ، وهو يجرؤ فسألها : ما بالها محزونة ؟ ما بالها شقية ؟ فتتكر أن تكون محزونة أو شقية ، ولكن إنكارها نفسه يدل على أن حظها من الحزن والشقاء عظيم ، فهى لا تكاد تسمع زوجها ، وهى لا تكاد تجيب ؛ لأنها لا تفهم ما يقول . ولكنه قد ألح عليها ، فجمعت قواها

واجتهدت في إقناعه بأنها سعيدة راضية . أما هو فيريد أن يصدقها ، ولكنه لا يستطيع ، وهو يسألها : أليس قد خاب أملها فيه ؟ ألم تكن تنتظر منه غير ما تجد ؟ فتلح عليه أن يترك هذا الكلام وألا يسرف في مثل هذا السخف . ويذكر هو أنها تغيرت تغيراً شديداً ؛ لقد تزوجها طفلة وكانت سعيدة فظلت طفلة لا تفكر في شيء ولا تحفل بشيء إلا بالحياة وابتساماتها ، أما الآن فقد تغير هذا كله ، فإذا هي كئيبة ، كاسفة البال ، منصرفه عن الحياة ولذاتها . ما أشد حاجتي إلى أن أعرف ما يضرب في هذا الرأس . إنني أريد أن أجعلك سعيدة ناعمة البال ، أريد أن أقدم إليك أشياء كثيرة... ثياباً . فتجيبه في ذهول : نعم ! حلياً ، فتجيبه في ذهول : نعم ! سيارة ، فتجيبه في ذهول : نعم ! ويعرض عليها أشياء كثيرة متباينة ، ويعرض عليها الكتب والحفلات والسياحة وزيارة الملاعب في باريس ، فتجيبه على هذا كله في ذهول : نعم ! لأنها تفكر في غير ما يقول لها زوجها ، ولا تسمع إلا لهجة الاستفهام . وينتهي به الأمر إلى أن يشعر بهذا فيقول : ولكنك معنية بغير هذا كله . . . وينتقل

الحديث إلى شيء آخر . فأخته قد أقبلت في زيارة ،
وستمكث أياماً وهو يطلب إلى زوجه أن تتلطف لها وأن
تقضى معها مساء اليوم ، فتضيق بذلك ثم تستسلم ! نعم ،
سأقضى معها مساء اليوم كما قضيت معها مساء أمس ، وكما سأقضى
معه مساء غد ، فلا يزيد هذا إلا حزناً وألماً . وقد ذهبت
هي إلى النافذة ، فنظرت منها كأنها سجينه تريد أن تفر ،
ولكنها لا تجد أمامها إلا شجراً وشجراً وشجراً . . . فليس لها
مفر من هذا السجن ، وهي تنظر من النافذة إذ يقبل ابنها
الطفل ، وهو في التاسعة من عمره ، فترتاع لرؤيته لأنها لم تكن
تنتظر أن تراه ، ثم تتخذه تعله فتعترض إلى زوجها من الذهاب
إلى أخته ، وتصرع إليه في أن يتركها مع ابنها فيفعل كارها .
أما هي فقد دعت ابنها فوثب إليها من النافذة وأخذت تسأله ،
فإذا هو يعيد دروسه في الجغرافيا ، وإذا موضوع هذه الدروس
أمريكا . فتسأله عن دول أمريكا الجنوبية ، فيعدها حتى يصل
الأرجنتين ، فإذا لهذا اللفظ وقع خاص ، وإذا هو قد أذهلها
أو كاد ، وهي مع ذلك تريد أن تسأل ابنها وأن تعينه على
الإعادة ، فهي تسأله عن الأرجنتين . ولكن الطفل لا يعرف

أكثر من أن الأرجنتين في أمريكا . وأمه مغضبة ، وما فائدة
الدرس إذا لم يفهم ما يقرأ وهي تصف له الأرجنتين لا كما هي في
الجغرافيا بل كما هي في خيالها . فالأرجنتين بلاد غريبة في كل
شيء ، وغريب ما فيها من الأشجار ، غريبة سماؤها ، غريب
ما فيها من نبات ، غريبة أنهارها تلك التي تقف على شاطئها
فلا ترى شاطئها الآخر ، تلك التي تتغير ألوانها بتغير ساعات
النهار وتغير الجو ، فهي وردية حيناً ، ذهبية حيناً آخر ، وهي
حيناً زرقاء ، وهي حيناً رصاصية ، وهي حيناً أنهار من اللبن
حين يزحف على سطحها الضباب . وهي تتحدث بهذا كله لا
إلى ابنها فقد نسيت مكانه بل إلى نفسها ، وقد تركت ابنها
وذهبت إلى البيانو وجلست تلعب عليه قطعة موسيقية شعرها
« لبودلير » وعنوانها « الإغراء بالرحيل » وفيها :

« أي بنيتي ، أي أختي فكرى » « في اللذة التي

نجدها حين نذهب »

« هناك لنعيش معاً . . . حين نفرغ » « للحب حين

نحب ونموت في البلاد » « التي تشبهك »

وهي تلعب وتغنى هذا الشعر ، وقد دخل زوجها ولم تشعر

به ، فإذا أهاب بها نهضت مذعورة وقد أقفلت البيانو . فيسألها :
ماذا تصنع ؟ فتجيبه مضطربة كنت أعين الطفل على الدرس .
ثم يهم أن يسألها ، ولكنها تنصرف مذعورة مضطربة ، فيحاول
أن يسألها ولكن جرساً يدق هو جرس العشاء وقد جمعت قواها
وأخذت تدفع زوجها أمامها هلم إلى العشاء ، كما تعشينا أمس ،
وكما سنتعشى غداً ...

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت دون هذا ثمانية أشهر ،
ونحن في ديسمبر والحجرة على حالها لم يتغير فيها شيء ، فما زالت
الكراسي أمام الموقد ، وما زالت المروحة وديوان « بودوير »
على المائدة . وقد أقبلت « ماري لويز » وأختها « جاكلين »
فدخلتا تريدان الخلوة والتحدث بمعزل من الأسرة . ذلك أن
جاكلين قد تزوجت منذ حين ، وأقبلت تزور أسرتها ، وقد
أرادت أن تخلو إلى أختها حيناً لأنها تريد أن يتحدثها بأمر ذى
بال ، وأختها تتعجلها وتلح عليها فتنبئها بأنها رأت فيليب . فلا
تكاد ماري لويز تسمع هذا الاسم حتى تضطرب له اضطراباً
عظيماً ، فتسأل أختها ماذا تقولين ؟ تجيبها دهشة إنها تفهم

ما تقول ، وهو أنها رأت فيليب ، وأنه في مدينة « أبنال » التي تقيم فيها ، وأنه خارجاً من دار البريد فدهشت ، وكانت معها صديقة تماشيا ، فسألته أتعرفينه ؟ وكان قد مضى ولم يرها فلم يتكلما . تسمع « ماري لويز » فلا ترداد إلا اضطراباً ، وكأن حياتها كلها قد انقلبت رأساً على عقب ، فهي تسأل نفسها حائرة ماذا أصنع ؟ أما أختها فلا ترداد إلا دهشاً . فهي كانت تظن أن ماري لويز تعنى عناية خاصة بفيليب لأنه ترك في نفسها أثراً قوياً ، ولكنها لم تكن تفرض أن الأمر قد تجاوز هذه العناية إلى الحب . وهي حين كانت تدهش لهذا الحب كانت بعيدة كل البعد عن أن تقدر الأمر قدره لأن الأمر لم يكن حباً وإنما كان شيئاً فوق الحب ، كان جنوناً واضطراباً عصبياً عظيماً . فلم تكذب « ماري لويز » تشعر بأن فيليب في « ابنال » حتى دار رأسها ، وأخذت تفكر في سرعة مدهشة ففرضت أنه لم يأت إلى « أبنال » إلا لأجلها ، وأنه مع ذلك تعمد ألا يزورها ، وتعمد ألا ينيتها بشيء من نبته ، وهو مع هذا كله ينتظرها في « أبنال » ويريد أن تسعى إليه . وكيف يريدك على هذا السعي وهو لم ينبئك بمكانه ؟ .

- وأى شيء يخفى في حياة الأقاليم ! فهو يقدر أنى أعلم
مكانه في أيينال !

- ولم لم ينبئك ؟

- لأنه يريد أن يمتحننى .

- ولم يريد أن يمتحنك وهو لم يعلن إليك حباً ولم
يتحدث إليك فى غرام ؟

- انت لا تفهمين هذا ، فهو يحبنى ويحبنى ، وأنا أحبه ،
وإن كنت قد جنيت جنابة فعلى أنى شعرت بهذا الحب
ولم أشجعه على أن يبوح به . يجب أن أسعى إليه . يجب أن
أراه ، وأن أقول له ما لم أقل ، وأن أسمع منه ما لم أسمع !

أما أختها فقد رقت لها وكأنها أشفتت عليها من الجنون
فتعرض عليها أن تصطحبها إلى « أيينال » لتتقى عندها الليل ،
ولتراها فى بيت أصدقاء لها وهى واثقة بأنها ستراه . فإذا تحدثت
إليه عرفت أنه قد تزوج ودبر حياته كما كان يجب ، فأقلعت
عن هذه الغواية ، ولكنها لم تكذب تعرض هذا الأمر حتى أشفتت
من عاقبته ، وخشيت أن يجرب عليها وعلى الأسرة كلها سوءاً
وعاراً ، فتراجع أختها وتنصح لها بالبقاء . ولكن هذه تأبى وتلح

الإلحاح كله في السفر معها ، وتأمرها أن تذهب إلى حجرة الاستقبال حيث زوجها لتستأذنه في هذا السفر دون أن يعلم بشيء من حقيقة الأمر ، وتدفعها خارج الحجرة دفعا . وتظل وحدها حيناً مضطربة ، وقد ذهبت إلى البيانو وإلى حيث المروحة والكتاب ولكنها تحس وقع أقدام فتعود ، وقد دخلت أختها وزوجها فتم الاتفاق على السفر . فإذا خلت إلى أختها بعد حين أخذت هذه تراجعها وتلح عليها فيه ، وتذكرها زوجها وأبويها وابنها والأسرة كلها ، فكلما ذكرت لها شيئاً من هذا أمرتها بالصمت أمراً عنيفاً ، وهي في حقيقة الأمر مضطربة مترددة تشعر ولكن شعوراً ضعيفاً جداً ، لأنها مقدمة على أمر خطير ، وتحاول أن تُروّى ، وأنى لها أن تروّى وقد ملكتها هذه العواطف الثائرة واستأثر بها هذا الجنون ، فلا بد من أن تسافر ، ومن أن تراه ، وستسافر وستراه ؟

ويسدل الستار ثم يرفع ، فإذا نحن في غد ذلك اليوم الذي مر فيه ما قدمت لك ، والغرفة على حالها وقد جلس إلى المكتب أبو « ماري لويز » وزوجها يتحدثان في أمر المصنع

وتقدمه ، ويقدم كل منهما إلى صاحبه التهنية والثناء . ولكنهما مضطربان اضطراباً يحاولان كتمانها . أما الشيخ فلا يفهم سفر ابنته إلى « اينال » وهو لا يحاول أن يفهم . وأين السبيل إلى فهم ما يخطر للنساء ، وهو يعلم أن ابنته شديدة التأثر بالشعور ، قد ورثت ذلك عن جدتها . ألم تكلف جدتها حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها بفتى من الذين يلعبون ليضحكوا الجمهور . على أن هذا الحب لم يكن إلا عرضاً لم يلبث أن زال . أما الزوج فاضطرابه أشد ظهوراً وأعظم رسوخاً؛ لأنه قد فهم نفسية زوجته وما يخالجها ، وهو مشفق إشفاقاً شديداً ، ولكن هذا الاشفاق يستحيل إلى جزع حين يتناول رسالة ويقرأ فيها أن فيليب قد وصل إلى « اينال » ، وحين يعلم أن الشيخ قد عرف مكان الشاب في « اينال » ، وإذن فأمراته أيضاً قد عرفت مكانه ، وهي قد عرفت قبل أن تسافر ، وهي لم تسافر إلا لذلك . ولكنه يكتم هذا كله في نفسه ، ويتكلف الجلد . والشيخ يفهم كل ما يدور في رأسه ، ويتكلف الجهل والغفلة . وهما كذلك إذ يدخل الطفل فيداعب الشيخ حيناً ثم يداعب أباه ، وقد انصرف الشيخ ، ولكن أباه مشغول ،

فهو ينظر في الساعة من حين إلى آخر ينتظر أن تعود امرأته ،
والطفل يلح عليه ، فيلتفت إلى الطفل حيناً وقد أخذ هذا
الطفل يقرأ على أبيه أسطورة حفظها . وهو في ذلك إذ يلتفت
فيرى أمه قد أقبلت . أما أبوه فيأمره أمراً عنيفاً أن ينصرف
وتحاول الأم أن تمسك ابنها ، ولكن الزوج يلح في انصرافه
لأنه يريد أن يتحدث إليها . ينصرف الطفل ، ويخلو الزوجان ،
فاذا الرجل مغضب غضباً شديداً ، ولكنه محب حباً شديداً
فهو يملك غضبه ، ويكتفي بأن ينظر إلى امرأته نظراً ثقيلاً ،
ويسألها في صوت المغضب الذي يملك نفسه : ما ذا صنعت
وما ذا رأيت وفيم تحدثت ؟

أما هي فتتجلد ، ولكنها قد فقدت الجلد ، فلا تستطيع
أن تثبت فتجلس ، وتجيب زوجها مضطربة متناقلة ، فتحدثه
أنها رأيت فيليب .

— ما ذا قال لك ؟

— لم يقل لي شيئاً ذا خطر !!

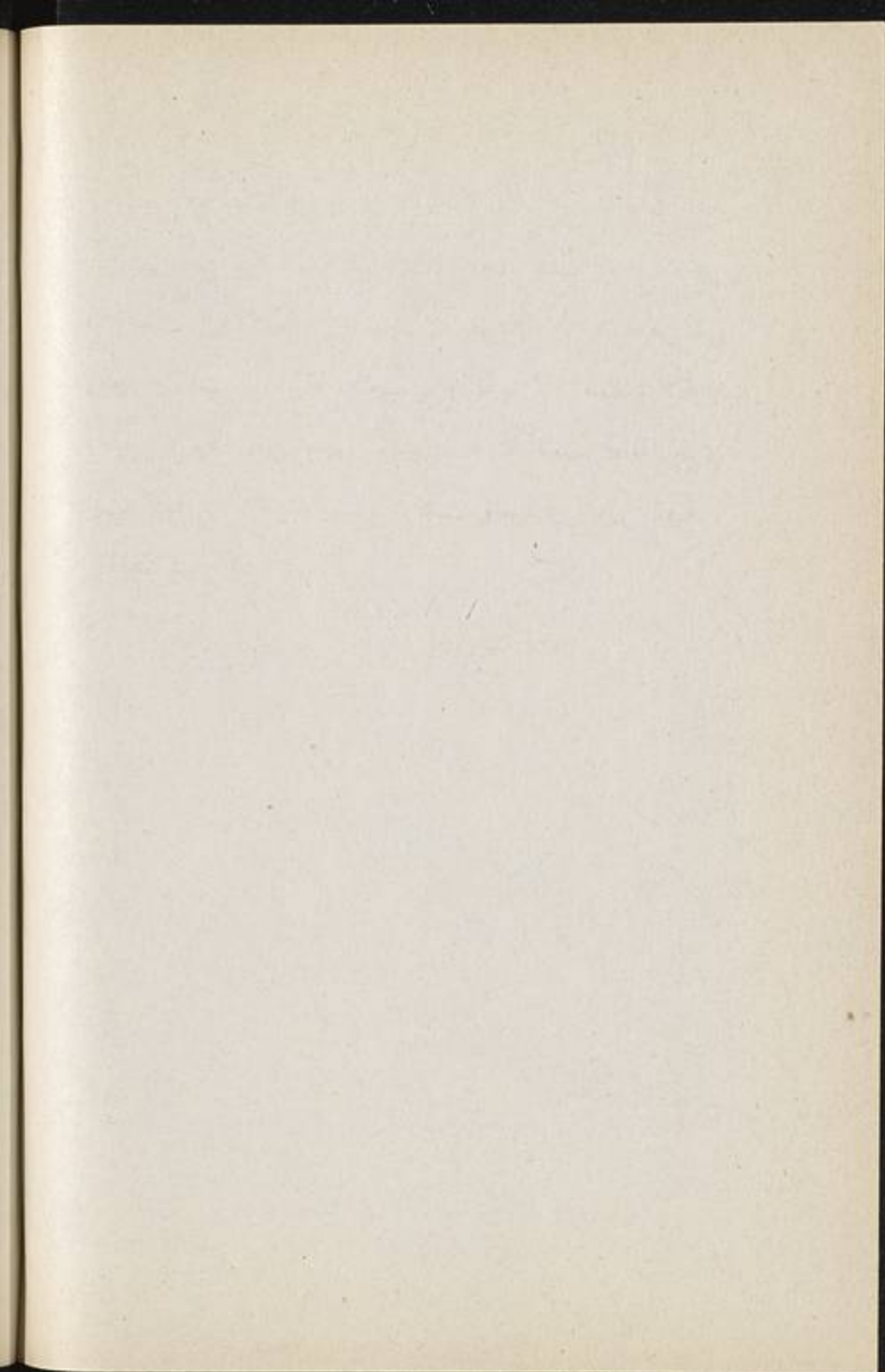
— أريد أن أعلم ! ...

وهنا تعيد عليه ما قال لها في صوت يدل على خيبة

الأمل وعلى حزن شديد ، وكأنها قد عادت من رحلة بعيدة جداً ، وهي متعبة وهي تطمح إلى الراحة وتطمع في استئناف الحياة الهادئة . فقد حدثها بأنه ضخم الثروة في الأرجنتين ، وبأنه يشرف على مصنع عظيم ويخرج طائفة ضخمة جداً من المسامير في كل يوم ، وبأنه يقاوم منافسة الصناع الألمانيين ، وبأن شوارع الأرجنتين مستقيمة منظمة كشوارع البلاد الأخرى وهو إذن رجل كغيره من الناس ، هو كزوجها ، وكأنها وكالشيخ الذي زار البيت في الفصل الأول ، منصرف إلى صناعة المسامير وتجارة المسامير ، والأرجنتين كغيرها من بلاد الأرض . كانت إذن في حلم وقد أفاقت من هذا الحلم . وهي تذكر أن هذا الشاب قد مات بالقياس إليها . وهي في أثناء هذا الحديث وإذا زوجها قد جلس إلى جانبها يلاطفها ويرفق بها وينهاها عن البكاء ، قد رق لها وهو سعيد بعودتها إليه ، ولكنه يخفي سعادته كما أخفى شقاه ، لأنه لا يفكر أو لا يريد أن يفكر إلا فيها . وهو ينظر وهي تتبع نظره ، وإذا عينه قد وقعت على المروحة وعلى ديوان « بودلير » وعلى الكراسي المصفوفة أمام الموقد ، وهي قد نهضت فأخفت الديوان بين

الكتب ، وأخفت المروحة في درج من الأدراج ، ونقلت أحد الكراسي من مكانه ! كل ذلك وزوجها ينظر إليها ، حتى إذا وصلت إليه ضمها إلى صدره ضمّاً طويلاً ، ثم تتخلص من ذراعيه وتذهب إلى البيانو فتلعب ، ولكنها لا تلعب « الأغراء بالرحيل » ولا تتغنى بشعر لبودلير ، وإنما تلعب قطعة أخرى كانت كلفة بها أيام سعادتها ، وكانت تلعبها في أول القصة .
وإذا هو يميل إليها شاكراً .

ابريل سنة ١٩٢٤



الحبيب

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « جاك ديفال »

كتب إلى أديب من طلاب مدرسة الحقوق الفرنسية لا أسميه ؛ لأنى لا أدرى أيحى أن يسمى أم لا ، كتب الى هذا الأديب كتاباً رقيقاً اضطره فيه حسن ظنه بى الى ثناء كثير أشكره له شكراً خالصاً ، ولكنه لم يكتب ليثنى على ، وإنما كتب إلى عاتباً ، وأكاد ، أن أقول إنه كتب إلى لائماً ؛ لأنى أهملت قصة « الحبيب » هذه فلم أشر اليها مع أنها خليفة بالدرس والتحليل . وهو يسألنى لم أهملتها . ولست أدرى لم أهملتها ؛ فقد قرأتها فراقنتى ، وقدرت أنى أستطيع أن أكتب عنها صفحة من هذه الصفحات التى تنشرها « السياسة » أيام الأحد . وما أحسب أنى تعمدت إهمالها ، وإنما أعلم أنى

شغلت عن أن أحدث قرأني في يوم من هذه الأيام . فلما كان يوم الأحد الماضي كنت قد قرأت قصة « الإغراء بالرحيل » فكتبت عنها لأنها أعجبتني ، ونهني الكاتب الأديب الى قصة الحبيب فسأخذها موضوعا لحديث اليوم ويسرني أن أرضيه وأن أرضى أصحابه الذين يشاركونه في الالحاح عليّ في أن أتخذها موضوعا لهذا الحديث . ويسرني أن أرضيهم ، وأنا في الوقت نفسه أرضى ميولي الخاصة حين أخلص هذه القصة ، فأنا عنها راض وإليها مطمئن . وربما قلت إني بها معجب ، وإن كان فيها موضوع لا يعجبني ، وسأدلك عليه . لاحظ هذا الكاتب الأديب أن قصة « الإغراء بالرحيل » إذا كانت تذكر بقصة « الحب » فإن هذه القصة التي نحن بإزائها اليوم تذكر بقصة أخرى تناولتها في هذا المكان بالنقد والتحليل ، وهي قصة « المتجردة » « لهنرى بتايل » وفي الحق أن في قصة الحبيب شيئا يذكر بقصة المتجردة . فالبطل في قصة الحبيب مصور نابغ في التصوير . والبطلة في قصة الحبيب ساذجة مخلصه بعيدة كل البعد عن هذا التعقيد النفسى الذى يصيب الذين تأثروا بالحياة وبلوا حلوها ومرها ! واستفادوا من دروسها القاسية ، وهي تشبه من وجه

ما بطلّة المتجردة في سذاجتها وسلامة قلبها والبطل في قصة الحبيب يجب امرأة غير زوجه ، كما يصنع البطل في قصة المتجردة . ولكن أيكفي هذا لتصح الموازنة بين هاتين القصتين ؟ أيكفي هذا ليكون التشابه بين هاتين القصتين قويا أخاذا ؟ أعترف بأنى قرأت قصة الحبيب معنيا بها محققا في قراءتها ، فلم أذكر المتجردة ، ولم تخطر لى على بال ، وما كنت لأذكرها لولا أن لفتنى إليها هذا الكاتب الأديب ذلك لأن الفرق بين القصتين عظيم ، لأن الكاتبين الذين كتبا هاتين القصتين لم يفكرا فى شىء بعينه ، ولم يقصدا إلى غاية مشتركة ولا متشابهة وأحسب أن كلا منهما أراد أن يصور شيئا لم يفكر فيه الأخر قط . وكان صاحب قصة الحبيب يستطيع أن يختار بطله مصورا ويستطيع أن يختاره مثلا كما كان يستطيع أن يختاره من طبقة أخرى غير هاتين الطبقتين . هو لم يرد أن يدرس أخلاق المصورين ، والمثاليين ، ولا أن يعطى صورة من حياة أولئك أو هؤلاء ، وإنما أراد أن يدرس شيئا آخر ، أراد أن يدرس فكرة فلسفية أو — بعبارة أدق — أراد أن يدرس ظاهرة نفسية ، فاختار موضوعه وبيئته كما أراد ،

لا أقول بحكم المصادفة وإنما أقول إنه تخير من الموضوعات والبيئات أشدها ملاءمة للظاهرة التي يريد أن يدرسها ويتحدث فيها إلى الناس . وما هذه الظاهرة النفسية التي لاحظها الكاتب وعنى بتمثيلها ، وهل هي صحيحة ؟ وهل هي عامة طبيعية ؟ أما أنها صحيحة فشيء لا شك فيه . وأما أنها عامة مضطربة فذلك ما لا أستطيع الجزم به .

الأمر يسير ، هو أن الكاتب يزعم لنا أن حرباً عنيفة قد تنشعب بين القلب والذاكرة ، وأن الذاكرة تستأثر بعواطف الرجل وأهوائه وتملك عليه رأيه وحياته العملية ، حتى تنسيه كل شيء ، وتصرفه عن كل شيء لتشغله بالموضوع الذي هي المعنية به ، وأن النصر في هذه الحرب مقدر للذاكرة إذا لم تعرض ظروف خاصة تنبه العقل والإرادة من نومهما ! وتبين لهما أن انتصار الذاكرة هذا إنما هو خطأ لا يعدله خطأ وخطر ليس فوقه خطر . ولست أشك في أن الذاكرة شديدة التأثير في حياتنا الخاصة والعامة ، وربما كانت أشد ملكاتنا النفسية تأثيراً في الحياة ، فهي التي تمثل الماضي ، وهي من هذه الجهة مرآة لهذا القسم من حياتنا الذي هو كل شيء . وفي الحق أن

الماضى هو كل شىء فى الحياة . أما المستقبل فنحن نجهله الجمل
كله ، وأما الحاضر فأى شىء هو ؟ أليس أوله متصل بالماضى
فى حين آخره متصل بالمستقبل ؟ الذاكرة إذن مرآة الحياة .
ومن المعقول أن يكون لها فى حياتنا المستقبلية تأثير عظيم جداً ،
فليست حياتنا المستقبلية إلا نتيجة فى حقيقة الأمر لحياتنا الماضية .
ولكننى مع ذلك أشك فى أن يكون تأثير الذاكرة وسيطرتها
على حياتنا من القوة ومن العموم والاطراد بحيث أراد الكاتب .
فإذا كان المستقبل نتيجة الماضى فنحن نخطئ كل الخطأ إن
زعمنا أننا نعرف ماضينا حقاً ونذكر مع التفصيل كل ما وقع
فيه ، ولعلنا لا نذكر منه إلا القليل . ولعل أشد الأشياء تأثيراً
فى حياتنا المستقبلية هى هذه المؤثرات الخفية التى تسيطر على
على عواطفنا وأهوائنا وتدبر قوانا وملكاتنا دون أن نحسها أو
نشعر بها ، بل دون أن نفرض لها وجوداً ، ذلك أنا لا نشعر
من أنفسنا إلا بالشىء القليل جداً وأنا نجهل منها أكثر مما نعلم ،
ولو أننا علمنا من أنفسنا كل شىء لما كنا كما نحن الآن . ولو أننا
شعرنا من أنفسنا بكل شىء لانصرفنا إلى أنفسنا عما يحيط بنا
من الحقائق والحوادث . ولكن العالم الخارجى يشغلنا جداً

عن أنفسنا ؛ فنحن نعلم من غيرنا أكثر مما نعلم من أنفسنا .
وحسبك أن أشد العلوم تأخرا إلى الآن إنما هو علم النفس .
إذن فمن الخطأ أن نغلو في تقدير الذاكرة وتأثيرها في الحياة .
وإذا بلغ تأثير الذاكرة في الحياة إلى هذا الحد الذى مثله
الكاتب فليس من الحق ولا من الصواب فى شىء
أن نتخذ ذلك مثلا لما يجرى فى الحياة اليومية ، وإنما الحق
والصواب أن نتخذه مثلا لهذه الأعراض المرضية التى تعرض
لبعض الأفراد من حين إلى حين .

بطل قصة « الحبيب » إذن مريض . وهو لا يمثل
عامة معاصريه ولا الكثرة منهم ، وإنما يمثل هؤلاء الأفراد
القليلين الذين يعنى بهم أطباء الأعصاب ، أكثر مما يعنى بهم
علماء الأخلاق والاجتماع ، ولكننى أظن أن الوقت قد آن
لأحدثك عن هذا البطل وعن قصته ، ولأترك لك وحدك
الحكم بأنى مخطئ فى هذا الفهم أو مصيب . أما ما فى القصة
نفسها من عيب فى فأنا أرجو أن يمكنك التحليل من أن
تشعر به دون أن أدلك عليه .

« جان ارجديو » مثال نبع في نحت التماثيل ، ونال
الوسام ، وأصبح نابغة معروفاً يشار إليه ويعتد به ، ولكنه
قبل أن يصل إلى ما وصل إليه كان كغيره من إخوانه في
هذا الفن مضطرباً مختلط الحياة شاكا في نفسه ، فقيراً ، ضعيف
الأمل . فلقى في طريقه امرأة جميلة فنانة قوية عظيمة التأثير ،
هي « أليس فليزا » ، أحبها وأحبته ، وعاشا معا أربعة أعوام .
وكان لهذه المرأة في هذا الشاب تأثير عظيم جداً ؛ فقد نظمت
حياته بعد اضطراب ، وأوضحتها بعد غموض ، وحملتة على العمل
والجد بعد الإسراف في الكسل والخمول . وما زالت به حتى
كأنها غيرته تغييراً تاماً . ومهما يكن من شيء فقد انتهى إلى
الفوز وأصبح نابغة من نوابغ الفن .

أما هي فقد أصبحت ذات يوم تتفقد خليلها فلا تراه ،
وتبحث عنه فلا تظفر به . ولم يكن من اليسير أن تظفر به
فقد فر من باريس فراراً ، حتى وصل إلى فرنسا الوسطى .
وهناك لقي صديقاً له ، ولقي عند هذا الصديق فتاة من ذوى
قربته ، هي « فيفيت » في التاسعة عشرة من عمرها ، وهي
زهرة نضرة كلها شباب وحياء ، وكلها طهارة وبراءة ، وكلها

سذاجة وطيب قلب . أحبها فأحبته ، نخطبها وقبلته وتزوجها بعد ثلاثة أسابيع ، وعاد بها إلى باريس ، ولكنه لم يسكن باريس ، وإنما سكن ضاحية من ضواحيها هي « شافيل » وقد استأجر بيتا متصلا بمصنع ضخمة ، يشرف عليه صديق له هو « ميشيل كريفو » ، وهذا الصديق رجل ضخم الثروة ، قوى النفس ، مستقيم الخلق ، كان عاملا معدماً ، نجح حتى أصبح غنياً ميسوراً .

* * *

فإذا كان الفصل الأول ، فقد مضت على هذا الزواج أشهر ثمانية ، وتغير في أثناءها هذا الشاب المثال ، فأخذ يفكر في الماضي ويتأثر بالتفكير فيه . وهو يحب زوجه حباً شديداً ، ولكنه عن زوجه مشغول . مشغول بتلك التي أحبها وفر منها قبل الزواج . وهو لا يتحدثنا بذلك ، ولكننا نفهمه من سياق القصة . نرى هذا الشاب في أول الفصل وقد خرج من غرفته إلى معمله ، وأخذ يستعد للعمل ، ولكنه سمع في الخديقة صوت زوجه تدعو الخادم إلى أن تحمل إليه القهوة ، فلم يكذب يسمع هذا الصوت حتى أظهر تبرما ومللا ، وكتب في ورقة

هذه الكلمة « سأعود » ثم ألصق الورقة إلى الحائط وخرج مسرعاً . تقبل زوجه والخادم . أما الزوج فتحمل أزهاراً ، وأما الخادم فتحمل القهوة أو الشاي . فإذا لم تجد زوجها ظهر عليها الأسف وخيبة الأمل ، وكان بينها وبين الخادم حديث فهمنا منه أشياء : الأول أنها تحب زوجها حبا لا حد له وتثق به ثقة لا يعرف الشك إليها سبيلا . الثاني أن هذا الزوج غريب الأطوار ، فهو إذا أراد العمل اعتزل الناس جميعاً حتى زوجه ، وهو قد اتخذ لنفسه غرفة خاصة بجوار المعمل ينام فيها ، وليس لأحد أن يدخلها حتى زوجه . الثالث أن زوجه تصدق هذا كله وتدعن له ، فلا تدخل الغرفة ولا تغير من أمر المعمل شيئاً لأنها تخاف أن تعضبه ، وهي حريصة على الطاعة . الرابع أن هذا الرجل يرى زوجه خديثة السن شديدة السذاجة وكأنه يكره ذلك ، فهي تتكلف أن تكون كبيرة وأن تكون ماهرة ماكرة ، حتى لا تظهر مظهر الطفلة . الخامس أنه يعمل في هذه الأيام ، وأن عمله منصرف إلى أن يصنع تمثالا نصفياً لامرأته ، ولكن امرأته ترى هذا العمل دون أن تستطيع أن تنظر إليه ما لم يكن زوجها حاضراً . . . كل هذا يمثل لك حياة هذين الزوجين ،

ويحملك على أن تفهم من الرجل أكثر مما تفهم منه امرأته .
فاذا عاد الزوج وكانت امرأته قد خرجت من المعمل نظر ، فاذا
الشأى ، ونظر فاذا الأزهار منشورة فى كل مكان ، فيميل إلى
هذه الأزهار ، فاذا ورد جميل ، لا يكاد ينظر إليه حتى يغضب
غضباً شديداً ، فيدعو زوجه ، فتقبل مسرعة وهى فرحة مبتهجة ،
ولكنه يلقاها باللوم . أليست قد أساءت حين حملت إليه هذه
الأزهار كلها ، لأن هذه الأزهار إنما هى التى غرسها البستاني
أمس ، فهى لجمتها قد أفسدت عمل البستاني وهى تسمع لهذا
مخزونة كثيفة معتذرة . ولكنها قد أساءت إساءة أخرى فتركت
مظلتها أمس فى المعمل وقد عثر بها زوجها فكاد يسقط ، وهى
تعتذر ، ولكن زوجها يجها ولا يكاد يراها كثيفة مخزونة تمثل
الطفل فى كآبتها وحزنها حتى يرق قلبه فيضمها إليه يريد أن
يقبلها ، ولكنه قد شم منها رائحة أنكرها ، فيسأل فاذا هى
كانت تعد « الفاصوليا » لطعام الغداء ، فيغضب غضباً شديداً !
لديها خادم ، ولديها طباحة ، فما لها وللفاصوليا !!

— ولكنك لم تنهى عنها وإنما نهيتنى عن تنظيف
السمك فأطعت ! .

يعجبه منها كل هذه السذاجة ، فيسب لها ويقبلها
ويمسكها في العمل يريد أن تجلس لينظر إليها ، ويمضى في
تمثاله وهي بذلك سعيدة جداً . ولا يكاد يأخذ في العمل حتى
يحس أن أحداً مقبل ، فينظر فإذا امرأة مقبلة ، يتلقاها لقاء
حسناً وقد استخفت « فيفيت » . هذه المرأة المقبلة هي « نيكول
بشلان » امرأة جميلة غنية كانت تكره زوجها وقد فقدته ،
وهي سعيدة بهذا الفقد ، ولكنها لبست الحداد عملاً بالأوضاع
الاجتماعية ، وقد أوشكت أيام الحداد أن تنتهي وهي قد أقبلت
تدعو « جان » إلى العشاء عندها بعد أيام ، وأقبلت أيضاً
تسأل عن عربة لها في مصنع « ميشيل كريفو » الجار الذي
وصفته لك آنفاً . ولكن هذه المرأة لا تتحدث في هذه الأشياء
وحدها ، وإنما تتحدث في أشياء أخرى ، تذكر « أليس فليزا »
عشيقة « جان » وما كان من أمرها بعد القطيعة ، وأنها
مرضت مرضاً أشرف بها على الموت ، وقد أخذت تُبَلِّ من
هذا المرض ، وهي معترمة السياحة ، وهي تمضى في هذا الحديث
مفتنة فيه ، وصاحبنا يسمع لها كارهاً متألماً مغتاظاً ، ثم يتركها
ليمضى في شأن من الشؤون ، وقد دعا امرأته لتقوم مقامه ،

فتقبل « فيفيت » ، ولا تكاد تتحدث إلى هذه الزائرة حتى تفهم من حديثها أنها سيدة مغتبطة واثقة ، وتحاول الزائرة أن تفتح عينها وأن تدلها على ماضى زوجها فلا تظفر منها بشيء .
وهما كذلك إذا يدخل « ميشيل كريفو » ، فيتحدثون في أمور كثيرة لا قيمة لها . ولكن هذا الرجل تعود أن يأتى إلى هذا البيت كل صباح فيدخن ويشرب كأساً من نبيذ بوردو ثم ينصرف ، وقد ذهبت « فيفيت » لتحمل إليه نبيذه ، فخلا إلى هذه المرأة ، وكان بينهما حديث لنبيذ ، فهمنا منه أنه يخطبها وأنها قابلة ، ولكنها مترددة لأنها تحب الرجل ولكنها تكره الزواج ، وهى تكره الزواج وتزدرى العشق . وإذن فهى تريد أن تظل أرملة ، وهى تعتقد أن الزواج مصدر شقاء لا مصدر سعادة ، وتتحدى صاحبها وتسأله أن يذكر لها زوجين سعيدين . فإذا ذكر لها صاحبى هذا البيت شككت في سعادتهما واتهمت صاحبها بالغبلة . وقد أقبلت « فيفيت » ومعها النبيذ ، ومال صاحبها إلى نبيذه يشربه ، وأقبل « جان » وأخذ « ميشيل » و « نيكول » يستعدان للانصراف ، وأمسك جان امرأته ليمضى فى عمله . ولكن

الخدام أقبلت فطلبت الإذن لرجل أقبل زائراً ، فيغضب جان ويشير على امرأته أن ترافق ميشيل ونيكول ريثما يستقبل هو هذا الزائر . ويستقبل هذا الزائر ، فإذا هو رجل يعمل في مكتب من مكاتب المراقبة المعروفة في باريس وغيرها من المدن الكبرى ، وإذا جان كان قد طلب إلى صاحب هذا المكتب أن يراقب خليلته القديمة « أليس » وينبئه بأخبارها كل يوم . ذلك أنه عرف مرضها ولا يستطيع أن يتعرف أنباءها ، فقد اعتمد على هذا المكتب في ذلك ، وكلف المكتب هذا العمل ، وأخذ الرجل يختلف إلى بيتها ويتعرف أنباءها من خادم لها . ولكن الخدام دلت سيدتها عليه ، فبينما هو ينتظر الخدام ذات يوم أقبلت فأنباته أنها بخير وأنها نهضت من سريرها ، وأن الطبيب يشير عليها برياضات قصيرة في العربة . وقد أخطأ الرجل لأنه دل على نفسه ، فأقبل معتذراً إلى جان ، يضرع إليه في ألا ينبئ بهذا الخطأ رئيس المكتب . وأكبر ظنه ، أن « أليس » هذه تريد أن تزور « جان » في بيته . ولكن جان مغضب لخطأ هذا الرجل فيصرفه ، ويأخذ في التحدث إلى نحاته في أمر من أمور عمله . وما هي إلا أن

يعود هذا الرجل فينبىء « جان » بأنه رأى « أليس » مقبلة ،
وقد أقبلت « أليس » بالفعل ، فيتلقاها « جان » مضطرباً
ذاهلاً ، حتى لينسى أن يقدم إليها كرسيًا . فإذا خلا أحدهما
إلى الآخر كان موقف هو خير ما في هذا الفصل ، لأنه يمثل
حدة العواطف وقوتها في نفس هذه المرأة المهجورة العاشقة التي
تريد أن تنتقم لحبها وأن تسترد حبيبها ، والتي هي واثقة بأن
حبيبها لم يذسها بعد ، وبأنه ما زال لها عاشقاً وبها مشغوقاً .
وإلا فقيم سؤاله عنها وهي مريضة ؟ وهي تريد أن تستغل هذا
وتسترد مكاتها كاملة في نفس هذا الشاب . أما الشاب فمضطرب
أشد الاضطراب ، هو يحب هذه المرأة ، وهو يحب زوجه ،
وهو يؤثر زوجه على هذه المرأة ، وهو يريد أن يخفي حبه
لعشيقته حتى على نفسه ، فهو ينكر هذا الحب ويلج في الإنكار
ولكن إنكاره لا يدل إلا على أنه يحب وعلى أنه يحب جداً .
يقول لصاحبه : لا أحبك وما أحببتك قط . فتجيب ساخرة
سعيدة راجية : وستحبنى طوال الدهر . ثم تعلن إليه أنها
قد دبرت كل شيء لتفترّ بحبهما ، ولتخلصه من هذا المأزق .
أما كانا قد تحدثنا قديماً عن سياحة بعيدة يسبحانها معاً ، فهي

قد دبرت هذه السياحة ، وسيسافران يوم الجمعة ، فإذا أظهر
المقاومة أعلنت إليه أنها ستنتظره ، فإذا لم يأت فهي قاتلة نفسها ،
وقد مضت وتركته ذاهلاً ، ذاهلاً حتى إنه ليختلط حين يسأله
نحاته عما يعمل . وقد أقبل « ميشيل » سعيداً معتبطاً ، لأن
صاحبه قد رضيت له زوجها . ولكنه ينظر فإذا جان كئيب .
فإذا سأله عن ذلك قص عليه أمره وأنباه بأنه مجرم لا يجب
امراته وإنما يجب عشيقته ، وهو إنما تزوج ليخلص من هذه
العشيقة ، فهو قد اتخذ امرأته دريئة ، وهو لا يستطيع أن
يمضي في هذا الكذب والنفاق ، وهو يلح في ذلك وصاحبه
يهدئه ويعظه ، وإذا « فيفيت » تقبل فرحة مبتهجة ساذجة
تريد أن تلتقي بنفسها بين ذراعي زوجها ، وتأهب لذلك فتعد
واحد . . . اثنان . . . وإذا زوجها قد نسي كل شيء ورق
لها ، وإذا هو قد بسط ذراعيه وإذا هو يقول ثلاثة . . . ثم
يضمها إليه .

فإذا كان الفصل الثاني ، فنحن في ذلك اليوم الموقوت
يوم الجمعة ، وقد أخذ الشاب يتردد بين الضاحية وبين المدينة ،

وهو يخيّل إلى امرأته أنه مشغول بعمل تطلبه إليه وزارة الفنون الجميلة ، وصدقته امرأته ووثقت به ، حتى إن الخادم والنحات يسخران منها . . . ونحن في الساعة الثالثة بعد الظهر وقد خرج الشاب صباحاً فلم يعد ، وانتظرته زوجته إلى الساعة الثانية ثم تغدت وحدها والخادم . الآن تحمل القهوة وتحمل قدحين ، لأن فيفيت تنتظر زوجها وتعلل نفسها بتناول القهوة معه . وقد أقبلت وإذا جرس التليفون يدق ، فتعمد إلى التليفون مبتهجة تحسب أن زوجها هو الذى يتحدث ، ولكن الذى يتحدث ميشيل يسألها أيسطيع أن يزورها ومعه صاحبتة « نيكول » ، فتجيبه أن نعم . وهى تجيبه إذ يظهر زوجها فتترك التليفون وتسرع إليه تسأله وتبين أمره وهو محزون كاسف البال ، فيخيّل إليها أنه متعب وأنه لم يتغد ، ولكن تغدى في باريس وهو يريد شيئاً من القهوة ، ولكنها ترى أن هذه القهوة الفرنسية ليست شيئاً فتصنع له قهوته التركية وقد انصرفت مسرعة . وظل الشاب والخادم ، فيأمرها بأن تعد له حقيبتة لأنه قد يسافر الليلة ، وينبئها بأنه ينتظر رسالة برقية فيجب أن تحملها إليه حالا ، وتنتظر الخادم ، ثم تنصرف وتعود بسرعة ومعها سترة

تحملها إلى سيدها ، فإذا أنكر ذلك لفتته إلى أن سترته في حاجة إلى التنظيف ، فينظر فإذا آثار (البدره) على كفتيه . فيخرج من سترته ويدخل في الأخرى وقد فهم . . . لم يكن إذن في وزارة الفنون الجميلة ، وإنما كان عند صاحبتة . وقد أقبلت زوجه تحمل إليه القهوة ، فبينها بأنه مسافر إلى مارسيليا الليلة وأنه ينتظر رسالة برقية . فإذا سألته عن مصدر هذا السفر أنبأها أن الحكومة تريد أن تعهد إليه عملا في المحطة الجديدة التي تنشأ في مارسيليا . ولذيد جدا هذا الحديث لأنه يمثل هذا التناقض الشنيع بين امرأة خفيفة الروح تثق بزوجها ثقة لاحد لها ، فهي تلهو وتمزح في سذاجة واطمئنان ، وهو يخدعها ويخونها ويكذب عليها ويمعن في الكذب ، ويتكاف مع هذا كله أن يلهو ويداعب . ويقبل « ميشيل » وصاحبتة ، فلا يكادون يتحدثون حتى يكون الكاتب قد نظم لنا طريقة تمكن الرجلين من الخلوة ، فيخلوان ويتحدثان . أما « جان » فيقص أمره على صاحبه وينبئه أنه مسافر الليلة وليس من سبيل إلى تخليه عن هذا السفر ، فهو ينكر كل شيء ولا يعقل شيئا ولا يرى شيئا ولا يفكر في شيء إلا صاحبتة ، قد فقد كل قواه وأصبح

أداة مسخرة . ويحاول صاحبه أن يصرفه عن ذلك ، فما أسرع ما يشعر بأنه لن يصل منه إلى شيء . وقد كتب جان كاتلين يدفعهما إلى « ميشيل » أحدهما إلى امرأته فيه اعتذار وتسليية . والآخر إلى ميشيل فيه تدير الأمور المادية . فاذا سأله « ميشيل » وأين أكتب إليك أجابه : لا تكتب إليّ فليس في ذلك فائدة . وقد عادت المرأتان ونظم لنا الكاتب طريقة أخرى يخلو بها ميشيل إلى فيفيت فيتحدثان وإذا فيفيت تحسن أن في الجو شيئاً لا تفهمه ، وأنها تخشى هذا الشيء فينبئها به ميشيل ويظهرها على كتاب زوجها إليها . فلا تسل عن دهشتها ولا عن ذهولها ولا عن حسرتها وبكائها ؟ ولكن ما أسرع ما تملك نفسها وقد أخذ صاحبها ينصح لها بالثبات والمهارة . ينصح لها أن تملك نفسها وأن تضحك ، ولا تظهر من اضطرابها شيئاً ، وأن تلح ضاحكة في مرافقة زوجها إلى مارسيليا .

— فإذا أبي !

— فاضحكى وراققيه !

— فإذا غضب !

— فبالغي في الضحك وراققيه !

وقد فهمت وقبلت وملكت نفسها . ويقبل جان ، فإذا هي مبتسمة هادئة ، كأنها لم تعلم بشيء ، وكأنها لا تتوقع شيئاً . وتقبل الخادم تحمل الرسالة البرقية فتخطفها فيثمت وتفرضها وتحصى ألفاظها وقد اشترطت على زوجها أن يقبلها إن تجاوزت الألفاظ عشرة ، وقد تجاوزت الألفاظ هذا العدد . . . فيقبلها وكلاهما متكلف . أما هو فيتكلف الكذب والخديعة ، وأما هي فتتكلف الصبر والجلد . وفي الحق أنه لم يكن أقل منها حزناً ولكنه عن حزنه وعن قلبه مشغول فهو لا يفكر إلا في صاحبتة . وأعلنت إليه امرأته أنها ستراقبه فجزع ، فضحكت وأعلنت إليه أنها ستراقبه إلى باب الخديعة ! ثم ينهض ليعد أمره ويخلو إلى مكتبه حيناً وينصرف الزائران . ولا تكاد تخلو فيفيت إلى نفسها حتى يدق جرس التليفون ، فتعمد إليه فإذا امرأة تتكلم تسأل عن « جان » وهل وصلت إليه الرسالة البرقية . فما أسرع ما تفهم فيفيت ! وما أسرع ما تحيب ! كأنها الخادم ، تحيب بأن سيدها يعمل كما يعمل في كل يوم ، وبأن رسالة برقية لم تصل ، وبأن سيدها لم يذكر السفر ولا يظهر أنه يفكر فيه . وكأن المرأة تنبها بأنها مقبلة ؛ فتجيبها « فيفيت » أن أقبلي ، وكأنها

تتحداهما ؛ وقد تركت التليفون ووقفت موقف من يستعد للحرب
ويتحدى خصماً عنيداً . وما هي إلا أن تقبل « أليس » فيكون
بينهما موقف لا يقل جلالاً عن موقف « أليس » مع صاحبها في
الفصل الأول . تضطرب « أليس » حين ترى « فيفيت » ثم
تسرع فتملك نفسها ، وتسال عن « جان » فتجيبها « فيفيت »
أنه منصرف إلى عمله ، وأنه أمر أن لا يدخل عليه أحد ، وتلح
« أليس » فتنفجر الخصومة بين المرأتين وتظهر « فيفيت » قوة
عنيفة ، فتطرد المرأة طرداً وتزدرىها ازدراءً منكرراً ، وتعلن إليها
أنها قد علمت كل شيء ، وأن زوجها ليس بالمسافر ولا بالمفكر
في السفر ، وتبالغ في ذلك حتى لكأنها لتسحق المرأة سحقاً .
وقد اتخذت « أليس » وأخذت تنصرف ، وعليها خزي وخجل ،
ولكنها نظرت إلى وجه صاحبها فإذا ابتهاج غريب قد ظهر
على وجه « فيفيت » حين رأتها تنصرف ، ففتنهم « أليس »
وتقدر أن هذا الجلد وهذا العنف ليسا إلا تصنعاً وتكلفاً فتعود
وقد أخذت من القوة والانتصار بحظ عظيم ، وإذا هي تهدد !
وإذا هي تطالب بصاحبها ، وإذا هي تعلن إلى هذه المرأة أنها
لا تحب « جان » ، وإنما تحبها هي ، فهي التي كونت جان

وما فيه من حلق وما فيه من خصلة، وهي التي جعلته كما هو ظريفاً وديعاً محبباً نابغة، وإذا هي تعلن إليها أيضاً أن جان لا يحبها، وإنما يحب صاحبتة القديمة وأن كل ما بذل لها من لين ورفق وكل ما أظهر لها من حب وعشق إنما تعلمه بين ذراعها، وأما أنت فلم تلهميه شيئاً ولم تثيرى في نفسه عاطفة، إنه ليمنحك فضل حبه إياى!... وإذا « فيفيت » هي المنخذلة، وإذا هي تجيش بالبكاء حتى يثير في نفس « أليس » عاطفة الرحمة، فتسألها العفو ثم تعرض عليها أن تدعو « جان » ليختار هو بينهما، فتقبل وتنهض لتدعو زوجها، ثم يبدو لها فتعود وقد تغير في نفسها كل شيء! هي جزعة، وهي يائسة، وهي قد نزلت عن زوجها، وهي ترده إلى صاحبتة، وهي تسألها أن تنصرف وتقسم لها لتردنه إليها في عشر دقائق. وقد انصرفت وأقبل جان مستعد للسفر وفي يده حقيبتة وهو محزون يجاهد حزنه، وهي محزونة قد كتمت حزنها وأظهرت الصبر والجلد والابتسام، وكأنها لا تعلم شيئاً، وكأنها تنتظر عودته بعد أيام، وهي مبتسمة وقد عدلت عن مراقبته حتى إلى باب الحديقة وكان يود لو رافقته قليلاً، ولكنها تأبى. وينصرف وقد انحنى ظهره

حزناً وأسفًا، وما كاد ينصرف حتى تجزع « فيفيت » جزعاً شديداً، وإذا هي قد أخذت قلنسوتها فوضعتها على رأسها في غير نظام وأسرعت إلى الطريق تدعو زوجها . . .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في فندق من فنادق مارسيليا، وبين يدينا فتاة تكتب على الآلة الكاتبة وقد أقبلت فتاة أخرى تحمل أزهاراً، وتحدثت الفتاتان ثم أقبل « ميشيل » وقد فهمنا من هذا كله أن « فيفيت » عند ما أسرعت إلى الطريق تدعو زوجها قد مضت في سبيلها حتى وصلت إلى المحطة، حتى أخذت القطار فوصلت إلى باريس وإلى محطة ليون فلم تجد زوجها، فأخذت أول قطار إلى مارسيليا. ووصل « ميشيل » إلى بيت « فيفيت » يتعرف أخبارها، فلما أنبئ بأنها خرجت وحدها صائحة توقع شراً، فضى في طلبها حتى بلغ محطة ليون، وأخذ أول قطار إلى مارسيليا فلم يكد ينزل من القطار حتى رأى « فيفيت » وكانت قد أخذت القطار نفسه، ولكنها أخذت الدرجة الثالثة لأنها لم تكن تحمل ما يكفي من النقود وقضت الليلة واقفة في القطار معرضة لبرد الجو وحر قلبها، فلم

تصل إلى مارسيليا حتى كانت الحمى قد استأثرت بها ، وأدركها ميشيل وهي في خطر شديد فاضطرها إلى هذا الفندق ، ودعا طبيباً وأبرق إلى « نيكول » يستقدمها ، وقد عنى الطبيب بهذه المريضة منذ أيام ، وقد أخذت تفيق وتسترد قواها ، حتى إن الطبيب يرى أن ليس بها من حاجة إلى المراجعة . أما ميشيل فلم يضع وقته وإنما انصرف في أثناء إقامته في مارسيليا الى العناية بهذه المريضة من جهة وإلى البحث عن زوجها من جهة أخرى ، وقد أقسم ليدركن هذا الزوج الهارب ، فأمر بمراقبة السفن المسافرة مراقبة شديدة ، ثم كتب الى « جان » كتباً أنبأه فيها بأمر « فيفيت » وأرسلها إلى جميع الفنادق التي يمكن أن يؤوى إليها جان ، وهو الآن ينتظر نتيجة هذا البحث . وانظر الى هذا الموقف وقد أخذ الطبيب يلاطف المريضة ويهدئها ثم انصرف وترك معها الممرضة ، وأخذت هذه الممرضة تستعد للانصراف ، وهي تبحث في حقيبتها وتظهر ما فيها شيئاً فشيئاً تلمس مندبلاً ، وفي أثناء هذا البحث أظهرت مسدساً زعمت أنها تحمله لتدفع عن نفسها . فهي تختلف الى الأحياء البعيدة ، وتتعرض لاعتداء

المعتدين ، ولكنها لم تجد المندبل فتلح عليها « فيفيت » في أن تذهب لتأخذ أحد مناديلها فتفعل ، وإنها لفي ذلك إذ تسرع « فيفيت » الى المسدس فتختلسه اختلاساً وتخفيه ، وقد أقبلت الممرضة فشكرت وأخذت حقيقتها وانصرفت ، ولم تشعر باختلاس المسدس ، وفهمنا نحن أن « فيفيت » إنما اختلست المسدس لتقتل نفسها ، وهي مع ذلك تظهر هدوءاً واطمئناناً ، حتى إن ميشيل ليأني فيحدثها فلا تجيبه إلا هادئة مطمئنة ثم تنصرف الى غرفتها وكأنها متعبة تريد أن تستريح . وتقبل الخادم وتحمل بطاقة ، فاذا هي بطاقة جان . . . فيأذن له ميشيل وينتظر ويفتح الباب ولكن لا يدخل جان وإنما تدخل « أليس » . ولست أحدثك عما يدور بينها وبين ميشيل من الحديث . لكن « فيفيت » تسمع ما يدور بينهما ، فتخرج اليهما وتلح على ميشيل في أن يتركها حيناً فيفعل ، ويكون بين المرأتين موقف لا يخلو من جمال ليس فيه أول الأمر جهاد ولا حرب ، وإنما فيه استعطاف وتضرع . « فيفيت » يأسه من زوجها لا تطعم منه في شيء ، وهي راضية بحظها لا تطالب إلا شيئاً واحداً ، تطالب أن يقرأ كلمة موجزة كتبها اليه .

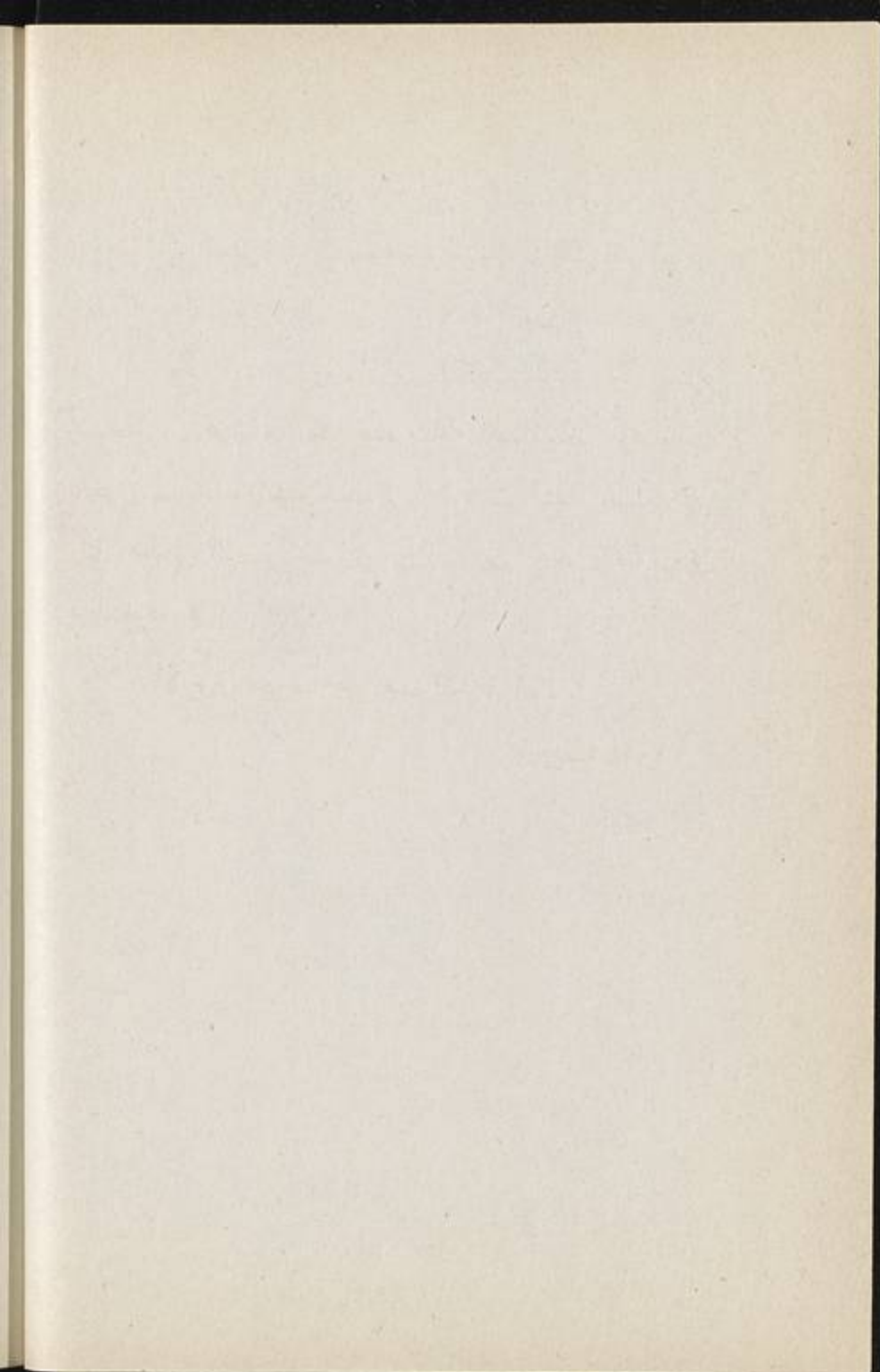
ولكن « أليس » تأبى عليها حتى هذا الطلب ، لقد استردت صاحبها ولم يكن هذا يسيراً ، وهي لا تريد أن تفقده مرة أخرى . لا تريد أن يتصل الأمر بينه وبين ماضيه ، هي تكره ، بل تخشى أن يرى « جان » شيئاً يذكره « بفيفيت » . ومهمها تستعطفها فيفيت فهي لا تعطف ولا تلين . هي تعلم أنها قاسية ، ولكنها تريد هذه القسوة . هي تنتقم لنفسها ولحبها وحياتها لا من « فيفيت » بل من الزواج ومن الحياة الشرعية الاجتماعية التي تبيح كل شيء للمتزوجات . وتحظر كل شيء على العاشقات ، وقد يئست « فيفيت » وانتهى بها اليأس الى أقصاه ، وإذا الموقف قد تغير تغيراً تاماً . تريد « أليس » أن تنصرف فتحول « فيفيت » بينها وبين الباب ، وقد صوبت اليها المسدس تريد أن تقتلها وهي لم تكن تريد ذلك ، إنما كانت تريد أن تقتل نفسها ، ولم تكن تطمع إلا في أن يعلم جان أنها أحبته وسعت اليه ثم عفت عنه . فأما هذه المرأة التي تأبى حتى أن تنزل لها عن هذا الشيء القليل فستقتلها ثم تقتل نفسها . وهي كذلك إذ يفتح الباب ويدخل ميشيل ومعه جان . . . ذلك أن ميشيل قد لقي جان في أسفل الفندق فحدثه بكل شيء وساقه ليرى

هاتين المرأتين معاً ، فإذا دخلا ورأى جان زوجه وفي يدها
السدس أقبل اليها مستفسراً فنزعه من يدها وقد بلغ به التأثر
أقصاه ، فجلس وأطرق يبكي . وميشيل يسأله أن يفصل في هذه
القضية وأن يختار بين المرأتين ، وهو أضعف من أن يختار ،
فقد أساء إليهما جميعاً وحنى عليهما جميعاً ، وهو قد أحب
« فيفيت » بكل قلبه ، وأحب « أليس » بكل ذاكرته ، وهو
يقول ذلك ويمضى في البكاء . أما « فيفيت » فقد أقبلت اليه
وجثت أمامه تلاطفه وتلح عليه في أن يمضى مع صاحبتة ، فهي
لم تكن تطمع في أكثر مما نالت . أليست قد رأته ؟ أليست
قد أعلنت اليه حبها وعفوها ؟ إنها لتحبه إن مضى أكثر مما
تحبه إن أقام ، ولكنه يبكي وهي جاثية بين يديه . والأخرى
واقفة ذاهلة أول الأمر ، ثم متنبهة شاعرة بأنها قد خسرت الموقعة ،
فهي تتقهقر قليلا قليلا الى الباب تريد أن تنصرف دون أن
يشعرا بها ، ولكنها مع ذلك تحس أنه يراها تنصرف ، وأنه
يتجاهل ذلك ، فتمضى في تقهقرها حتى تخرج وقد فتح ميشيل
لها الباب في هدوء ثم أغلقه من دونها . . .

أعترف بأن إعجابي بالفصلين الأولين عظيم ، ولكنني
أعترف بأن الفصل الثالث مضطرب مرتبك ؛ فقد فقد أو كاد
يفقد كل دقة وكل جمال فني ، وأنه قد حول القصة من نوع
فني الى نوع آخر . ولو أن الكاتب استأنى ولم يتسرع
لاستطاع أن يختار من كل هذه المناظر المختلفة منظراً أو منظرين
تنتهي بهما القصة انتهاء حسناً ، كما ابتدأت ابتداء حسناً . وما
رأى صاحبي الذي كتب إليّ يوازن بين هذه القصة وبين
« المتجردة » ؟ .

ألا يزال حريصاً على هذه الموازنة ؟ ...

ابريل سنة ١٩٢٤



المصايح

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « هنرى بتايل »

وكذلك يجب أن أقدم شكراً خالصاً إلى طالب أدیب من طلاب مدرسة الحقوق الملكية ، كتب إلى كتابا رقيقا يسألني فيه أسئلة أريد أن أجيب عليها ولكن في إيجاز شديد . يسألني ما بال كتاب التمثيل من الفرنسيين يضعون قصصهم كلها أو أكثرها فيما يمس خيانة العلاقات الزوجية ؟ ثم ما بالهم يميلون في الانتهاء بهذه القصص إلى العفو عن الخائن أو العطف عليه ؟ ثم ما بالي أنا لا أكاد أختار أو لا أختار من هذه القصص إلا ما يمس هذا الموضوع ؟

أما أن الكتاب الممثلين من الفرنسيين وغير الفرنسيين يؤثرون هذا النحو من القصص التمثيلي على غيره فحقيقة واقعة ،

ولكن لا إلى الحد الذى يتصوره السائل الأديب . ففي ملاعب
التمثيل قصص كثيرة لا تعرض لخيانة الزوجية ، ولا تميل إلى
العطف على الخائنين ، وإنما تعرض لأشياء أخرى من فروع
الحياة التى تتصل بالعواطف والأهواء . وليس من الحق أيضاً
أنى لم أختَر من هذه القصص البعيدة عن خيانة الزوجية شيئاً ،
فقد اخترت قصصاً لم يعرض فيها كتابها للزواج ولا لخيانته ،
ويكفى أن ألفت السائل الأديب إلى « الدمية الجديدة »
و « نشوة الحكيم » « لفرنسوا دى كوريل » و « شأو القبس »
« لبول هرثيو » وإلى قصص أخرى عرضت لها ولا أذكرها
الآن . فإذا أردنا أن نتبين السبب الذى من أجله يعرض
الكتاب الممثلون لصلوات الزوجية وخيانتها فهو يسير . ذلك أن
الحياة الجنسية ، أو — بعبارة أوضح — الصلة بين الرجل
والمرأة هى أهم فروع الحياة وأشدّها تأثيراً فى نفوسنا وسيطرة على
أهوائنا وعواطفنا ، أردنا ذلك أو لم نرد . ولست فى حاجة إلى
تعليل ذلك ، فهو شىء قد فرغ الناس منه . وإذا كانت
الصلة بين الرجل والمرأة من الخطر بهذه المنزلة ، فليس عجيباً
أن يعرض لها الكتاب فيدرسوها ويحللوها . ولكن ما ذا ينبغى

أن يدرسوا ويحللوا من هذه الصلة ؟ أيدرسون الصلة الهادئة
المطمئنة التي ليس فيها عوج ، ولم تعترضها أزمة قوية
ولا ضعيفة ، وإنما تمضى مع الزمان في هدوء واطمئنان !
وماذا يدرسون من هذه الصلة وماذا يحللون ؟ وأى
شئ فيها يستحق أن يدرس أو يحلل ! بل أى شئ فيها
يستحق أن يقال ! ومن الذى قد وهبه الله الصحة والعافية
فهو يعنى بتحليل هذه الصحة والعافية والبحث عن أسبابها
ونتائجها ؟ إنما يعنى الإنسان بمرضه وأعراض مرضه وأسباب
هذا المرض ونتائجها ، لأن هذا المرض خليق أن يدرس ليتقى ،
وهو خليق أن يدرس لتتقى نتائجه إذا لم يكن الى اتقائه سبيل .
والأمر على هذا النحو فى صلات الزوجية إذا درست وحلت .
تدرس وتحلل حين تستحق الدرس والتحليل ، أى حين تنشأ
فيها الأزمات ، وحين تتعرض للأخطار . وأما أن السكتاب
يميلون الى العنق عن الخائن أو العطف عليه ، فليس هذا صحيحاً
دائماً ، وهو صحيح فى كثير من الأحيان . وإلى من يريد السائل
الأديب أن يميل السكتاب ؟ وعلى من يريد السائل الأديب أن
يعطف السكتاب ؟ أعلى الصحيح ؟ ولم تميل اليه ولم نعطف عليه ؟

أم على المريض؟ أليس المريض خليقاً أن نميل إليه ونعطف عليه ونعنى به ونطب لأدوائه وعمله؟ وهل خيانة الزوجية وغيرها من الآثام والنقائص التي يتورط فيها الناس إلا ضروب من العلل وألوان من الضعف!؟ لم يقصد اليها الإنسان عمداً ولم يختر التورط فيها، وإنما اضطرت اليها اضطراراً، واضطرت اليها أسباب قاهرة لم يجد إلى التخلص منها سبيلاً؟ أخشى أن يظن السائل أن العطف على الخائنين والآثمين تشجيع للخيانة والإثم، فذلك بعيد كل البعد عن الحق والصواب. ليس هذا العطف تشجيعاً للإثم، وإنما هو فهم له وإدراك لأسبابه. وإذا كان الذين يدعون إلى أن يلغى القضاء بالموت على القتلة والمجرمين لا يشجعون القاتل ولا يؤيدون المجرم وإنما يعتقدون أنه إلى المرض والضعف أقرب منه إلى تعمد الإثم والقتل، وهو إذن بالعناية والعلاج أحق منه بالقصاص، أقول إذا كانت هذه حال الذين يلغون القضاء بالموت على القتلة، فقريب منها حال الذين يعرفون الضعف الإنساني وأسبابه فيعطفون على الضعفاء ويعملون لإصلاحهم لا للانتقام منهم.

ولو أني ذهبت أفصل للسائل الأديب وجوه هذه المسألة

وما ينشأ عنها من بحث متشعب دقيق لأسرفت في الإطالة ،
ولتجاوزت القصد ، وأنا إلى هذا القصد شديد الحاجة ، فأمامي
قصة أريد أن أحلها ، وأحسب أن السائل الأديب سيجد من
قراءتها شيئاً من الجواب على أسئلته .

نعم ! سيرى أن بطل هذه القصة خليق بعطفنا كله ،
وإن لم تعطف عليه الطبيعة ولم يرفق به هذا العدل الخفي الذي
يظهر أنه يسيطر على هذه الحياة . هو خليق بعطفنا كله ، وهو
مع ذلك قد خان صلة الزوجية واضطر إلى خيانة الصداقة
والإساءة إلى الصديق ، ولكنه لم يتعمد ذلك تعمداً ، وإنما
تورط فيه تورطاً ، واضطرته إليه هذه الأسباب الخفية التي
أشرت إليها آنفاً ، والتي يخيل إلينا أنها ليست في حقيقة الأمر
إلا طائفة من الشياطين قد استخفت في طريق الانسان تتربص
به الدوائر وتنتهز له الفرص وتضطره إلى سوء اضطراراً وإن
كان من أشد الناس طهراً وأعظمهم ميلاً إلى الخير وبعداً عن
الإثم . ولست أريد أن أقدم المقدمات الطوال ولا القصار في
شرح هذه القصة وتفسيرها ، وإنما أريد أن تفسر القصة نفسها .
فأخذ منذ الآن في التحليل .

« لوران بوجيه » عالم فرنسى بعيد الصوت رفيع المنزله ،
قد وقف جهوده على علم الحياة ، فوصل بالبحث إلى نتائج
عظيمة الخطر جعلته موضع الأجلال لا فى فرنسا وحدها ، بل
فى العالم كله . وهو لا يعمل وحده وإنما يستعين على عمله
الجليل بزوجه « جان » ، وهى أجنبية أحب زوجها وأحبها
هذا الحب العقلى الذى ينشأ بين شخصين ممتازين . وهما يعملان
معاً متحابين متعاونين . ولئن كان الزوج نابغة فليس حظ
امراته من الذكاء والتفوق بقليل . ويعينهما قوم كثيرون ، منهم
الطلاب ومنهم الأساتذة ، ولكن من بينهم جميعاً رجلاً قد
تفوق عليهم حتى التحق أو كاد يلتحق بالزوجين ، وحتى أصبح
لها صديقاً حميماً ، وحتى تعود الأستاذ « بوجيه » أن يطلق
لفظ الثالث على هذه الجماعة التى تتألف منه ومن امراته ومن
صديقيهما « بلونديل » . وقد عهدت الدولة إلى هذا الأستاذ
فى الاشراف على معهد علمى جليل هو معهد « كلودبرنار » ،
فاتخذه مكاناً لهذه المباحث العلمية التى أخذت تثمر وتظهر النتائج
الهامة منذ عشرين عاماً متصلة . ولهذا الأستاذ ابنة هى
« مارسيل » قد أحببت العلم ومالت إليه وتقدمت فيه تقدماً

حسناً . درست في فرنسا ثم ذهبت تم درسها في المانيا ، فلقيت في أثناء ذلك فتاة مجرية كأنها عظفت عليها وورقت لها واصطحبتها إلى باريس لأنها شقية بأسة لقيت في حياتها ألواناً من الأذى ، وأحبت في حياتها ضابطاً رافقها حيناً ثم خدعها ومضى لوجهه . فلما أقبلت هذه الفتاة ، واسمها « أدويج » إلى باريس مع صديقتها « مارسيل » تلقاها الزوجان لقاء حسناً ، وكلفاها شيئاً من العمل سهلاً في المعهد ، ولكنها لم تلبث أن أظهرت ميلاً شديداً إلى مباحث الأستاذ ، فاختلفت إلى المعمل وأخذت تشترك هي أيضاً في البحث العلمي الخالص .

ونحن في الفصل الأول وقد دعا الأستاذ إلى مائدته نفرأ من أصدقائه العلماء ، فتغدوا ثم أقبلوا إلى المكتب لتناول القهوة . والاستاذ يحدثهم بأن بحثه قد انتهى به إلى استكشاف جليل الخطر جداً ، فقد استكشف ميكروب السرطان ، وقد أخفى استكشافه هذا ليمتحنه ويحققه ، وهو الآن مستوثق من النتيجة لا يشك فيها ، وقد اعترم أن يعرضها بعد أيام على المجمع العلمي ، ولكنه أراد أن يظهر أصدقاءه عليها قبل أن يعلنها إلى الناس جميعاً . وأصدقائه دهشون معجبون يملؤهم الأمل

في المستقبل . أليس هذا الاستكشاف هو الخطوة الأولى القيمة في سبيل استكشاف آخر سيكون له الأثر العظيم في حياة الإنسان وهو الوصول إلى شفاء السرطان ! ، هم إذن يثنون عليه وعلى زوجه وبيالغون في إجلالهما . وهو يريد أن يظهرهم على هذا الميكروب الذي استكشفه ، فيريد أن يكلف أحد أعموانه الذهاب إلى العمل ليحضر نموذجاً من هذه النماذج . ولكن الفتاة الغربية « أدويج » قد نذبت نفسها متطوعة لهذا الأمر وأسرعت إلى المعمل وعادت ومعها ما طلب إليها ، فأخذته « جان » ووضعتة في الميكروسكوب ، وأقبل أحد العلماء ينظر ، ولكنه دهش ، لأنه لا يرى ما تحدث به إليه الأستاذ وإنما يرى شيئاً آخر ، يرى بعض هذه الميكروبات التي يعرفها الناس جميعاً . فتقبل « جان » وتنظر وإذا هي ساخطة مغضبة لأن الفتاة قد أخطأت وحملت شيئاً غير ما طلب إليها . أما الفتاة ففجأة مضطربة قد انتهى بها الخجل إلى البكاء ، وأخذ بعض الحاضرين يرثى لها ، وأخذ بعضهم يسخر منها همساً ، وأشد الناس جميعاً غضباً وحنقاً إنما هي « مارسيل » ابنة الأستاذ ، لأنها سمعت شيئاً من سخرية الساخرين . على أن الأستاذ قد

انصرف مع أصحابه إلى العمل ليظهرهم بنفسه على هذا الميكروب ،
ثم ليظهرهم على النتائج العملية لبحثه ، وتهم زوجته أن تتبعه
ولكن ابنتها تمسكها تريد أن تتحدث إليها ، فإذا خلت إلى
أمها كان بينهما حديث فهمنا منه أن هذه المرأة العاملة قد
انصرفت إلى علمها انصرفاً تاماً حتى أنساها كل شيء وألهاها
عن حياتها الزوجية وعن أشياء كثيرة تقع في البيت وهي
لا تشعر بها ، وابنتها هي التي تنبئها بذلك في شيء من السخرية
التي يملؤها الحنان والإكبار . والأم دهشة مغضبة ، تنكر على
ابنتها لهجتها هذه وتدخّلها فيما لا ينبغي أن تتدخل فيه الفتيات .
ولكن الفتاة لم تتدخل في هذا الأمر إلا لأنها مضطرة إلى
ذلك ؛ فقد سمعت أشياء لا ينبغي أن تسكت عليها ، وهي
خطيرة جداً . الطلاب وغير الطلاب يتحدثون بأن الأستاذ
يتعشق هذه الفتاة ويتخذها له خلية ، وهم يتخذون هذا الأمر
موضوع مزحهم ، وهي تكره أن يتعرض أبوها لمثل هذا الهزؤ ،
ولكنها مع الأسف لا تشك في أن الأمر حقيق بالعناية ؛
فهى أيضاً تهم أباه أو تهم الفتاة بخديعة أيها ، هي تعلق
ذلك وتفهمه ، فقد انصرفت أمها إلى العلم حتى فقدت أو كادت

تفقد صفات المرأة ، ولم يفقد أبوها صفات الرجل . . . ولهذا الكلام الذى أوجزه إيجازاً محلاً تأثير شديد فى نفس الأم ، فقد اضطربت له وتنبهت فى نفسها عواطف كانت مهملة ، وأخذت تمت الالتفات والتنبيه ، وتحمد الغفلة والإغضاء ، ولكنها قد تنبهت وأخذ الشك يعمل فى نفسها وأخذت نار الغيرة تضطرم فى قلبها اضطراباً . وقد اقترحت عليها ابنتها إحدى اثنتين : فإما أن تسافر هذه الفتاة وإما أن تتزوج . ليس تزويجها بالأمر العسير ؛ فقد استكشفت الفتاة نفسها أن « بلونديل » يحبها حباً شديداً ، وأنه أسعد الناس إذا استطاع أن يتخذها له زوجاً . ولم يكن دهش الأم لهذا الاستكشاف بأقل من دهشها لاستكشافها الأول ؛ فهى لم تر شيئاً ولم تشعر بشيء . ثم تنصرف الفتاة إلى درس لها فى « السربون » ويأتى الأستاذ فيخلو إلى زوجه يريد أن يتحدث إليها فى أمر علمى ، ويريد أن يصطحبها إلى المعمل لاستئناف البحث . ولكنها تمسكه وتلح عليه فى المسألة ، ويظهر الرجل دهشاً شديداً لهذه المسائل التى تلقىها عليه زوجه ، لأنها لم تعود ذلك ، ولأنه أبعد الناس عن أن يفكر فى مثل هذا السخف . وهو بطبيعة الحال ينكر كل ما يضاف

إليه إنكاراً شديداً ، تظهر عليه لهجة الصدق فتصدقه امرأته وتطمئن إليه ، بل تعتذر إليه من سؤاله عن مثل هذه الأشياء . ولكنها تريد أن تقطع أسنة الناس ، فهي تريد أن تزوج هذه الفتاة وأن تزوجها من « بلونديل » لأنها تعلم أن « بلونديل » يحب الفتاة ويكلف بها ، ويسعده أن يتخذها له زوجاً . أما الأستاذ فدهش لهذا كله ، ضيق الذرع به ، يريد أن ينصرف إلى بحثه وأن يرجئ هذا الكلام إلى فرصة أخرى ، وهو في هذا كله صادق غير متكلف . ولكن امرأته تلح وتريد أن تفرغ من هذا الأمر الآن . وزوجها مضطرب إلى أن يذعن لها . وقد دعيت الفتاة ، وحاول الرجل أن ينصرف ، ولكن امرأته أكرهته على البقاء ، فجلس ونظر في كتاب يتشاغل به عن هذا الحديث .

وتقبل الفتاة خائفة مضطربة تقدر أنها ستسمع تأنيباً ولوما على ما كان من خطئها ، ولكنها لا تسمع لوما ولا تأنيباً ، وإنما تسمع حديثاً في الزواج ، فتأني وتنفرد من الزواج فوراً شديداً . وتلاطفها « جان » حيناً وتثقل عليها حيناً آخر ، ولكنها لا تجد منها إلا إباء ورفضاً ، فتندرها بالطرد والإقصاء ،

فتجزع لذلك ولكنها لا تغير رأيها في الزواج ، فهي تأباه كل الإباء وقد غضبت جان غضبا شديداً لهذا العناد وانصرفت ، وقد كلفت زوجها أن يجتهد في إقناعها ، وأعلنت إلى الفتاة أنها ستترك الدار إذا لم تدعن للأمر .

ويخلو الأستاذ إلى الفتاة ، فإذا موقف من أشد المواقف تأثيراً في النفس . ذلك أن هذه التهمة ليست متكلفة ولا منتحلة ، وإنما كان بين الأستاذ وهذه الفتاة شيء ، ولكن رأى الأستاذ والفتاة يختلف اختلافاً عظيماً جداً في هذا الشيء .

أما الفتاة فقد أحبت أستاذها وكلفت به وقدرته أو كادت تتجاوز التقديس إلى الجنون ، وعلى هذا النحو فهمت الصلة التي كانت بينها وبينه . وأما الأستاذ فلم يجب الفتاة ولم يكلف بها ، لم تقع الفتاة من نفسه موقعاً ، وهو لا يجب إلا امرأته ولا يكبر إلا إياها ، وهو إنما تأثر في لحظة من اللحظات بمؤثرات حسية خالصة ليس بينها وبين القلب والعاطفة صلة ، فاسترسل مع حبه ولم ينظر إلى ما كان بينه وبين الفتاة من صلة في ساعة أو بعض ساعة إلا كما ينظر إلى متعة عارضة لا قيمة لها ؛ ولذلك نسي الأمر

ونسية نسياناً تاماً صادقاً ، وكان مخلصاً حيناً أنكر وقد سألته زوجه . وكان مخلصاً حيناً كان يزدرى هذه الأشياء ويضيق بها ويريد أن يعود إلى العمل والبحث العلمى . وهو الآن صادق حين ينصح للفتاة بأن تزوج . والفتاة صادقة حين تكره الزواج وتأباه . كلاهما صادق ، ولكن رأيهما مختلف . هى تحبه وقد وقفت نفسها عليه . وهو لا يحبها وهو لا يريد أن يضع مستقبلها ، وهو يعلم حق العلم أنها لن تظفر منه بشيء ، وأنه لن يفكر فيها إلا كما يفكر فى تلميذة بأنة تحتاج الى شيء من العطف والمعونة . وهى تنكر عليه قسوته وتلومه على هذه الغلظة ، وتدم هذا العلم وهذه الفلسفة اللذين يرتفعان بالعالم والفيلسوف عن الحياة العادية وعن العواطف والأهواء التى يخضع الناس لها ويتأثرون بها . ولكنها مهما تلح فى اللوم وتسرف فى الاستعفاف فهو لا يرق ولا يعطف وإنما يمضى فى نصحه للفتاة بأن تزوج مزدرياً أشد الأزدراء هذه الصلات المادية الخالصة التى تجمع أحياناً بين المرأة والرجل دون أن يكون هنالك سبب آخر من عقل أو شعور . غير أن الفتاة قد وجدت سلاحاً قوياً ماضياً أصابت به الأستاذ فملأته رعباً واضطراباً .

فللاستاذ أن يقول إنه لم يجب هذه الفتاة ، وإنه يزدرى هذه الصلة التي كانت بينهما وله أن يقسو عليها ويزدرى حبها ، ويضحى بعواطفها في سبيل هدوئه وطمانينته في حياته الزوجية الخاصة ، ولكن ليس له إذا استباح خيانة الفتاة في حبها أن يخون صديقه « بلونديل » في صداقته ؛ فهو يعرض عليها أن تكون زوجاً لهذا الصديق . وليس لهذا العرض معنى إلا أنه يضحى بها وبصديقه ليسعد هو ويطمئن . أليس يقدم عشيقته إلى صديقه لتكون زوجاً له ؟ أليس يضطر هذه العشيقة إلى أن تخفى ما كان بينه وبينها وإلى أن تؤسس حياتها الزوجية على الكذب والنفاق ؟ هو إذن يخون صديقه ويضحى به ، وكل ما انتهت إليه فلسفته إنما هو أن جعلته أثراً مسرفاً في الأثرة . وجدت هذه الحججة منفذاً لا إلى عقل الأستاذ بل إلى قلبه وضميره ، فقد يكون فيلسوفاً ، وقد يكون هو مزدرياً للصلات الجنسية ، وقد يكون مزدرياً لما توارث الناس من عادة وخلق . ولكن من يدري ؟ أيشاركة صديقه في هذه الآراء أم يخالفه فيها ؟ أليس من الحق عليه قبل أن ينصح بهذا الزواج أن يتبين رأى صديقه في مثل هذه الأشياء ، فإن كان هذا الصديق

كغيره من الناس يقدر الشرف كما يقدره الناس ضمن به على
الزواج القائم على الخيانة والكذب ، وإن كان مثله لا يحفل
بالصلات الجنسية للمادية وإنما يقدر العقل والقلب أولاً مضى
في النصح بهذا الزواج والحث عليه ؟ بلى ؟ هذا حق عليه ؟
وقد اعتزم أن يستشير صديقه ويظهره على جلية الأمر . وهو
الآن متوجع يألم أشد الألم لهذا العمل اليسير في نفسه الذي
جعلت له الأوضاع الاجتماعية هذا الخطر العظيم . وهو يألم لأن
هذا الأمر قد يتكشف عن كوارث ، فقد ينغص الحياة على
زوجه التي يحبها ، وقد تضطر هذه الفتاة التي يعطف عليها الى
أن تستأنف حياة البؤس والفاقة . والفتاة تنظر اليه وتسمع له ،
وما كانت تظن أنه سيضعف الى هذا الحد ، وإذا هي كلها
إشفاق ورحمة ، وإذا هي تكره أن يألم حبيبها وأستاذها هذا
الألم الثقيل ، وإذا هي تعتذر إليه وتعلن أنها قد قبلت الزواج
وتلح عليه في ألا يكشف صديقه بشيء . ولكن الرجل قد اعتزم
— وهو لا يعرف التردد إذا اعتزم — وقد دعا صديقه ويتدرج
به في الحديث والى الحب والزواج ثم ينتهي به الى ذكر الفتاة ،
الى أنه يعلم ما يضمن لها من حب . فيجتهد الصديق في أن

يخفى ذلك . ولكن الأستاذ قد ألح ومهر في الإلحاح حتى انتهى صديقه فاعترف بهذا الحب وقوته وسلطانه على نفسه . وأخذ صاحبه يتحدث إليه فيذكر له أن هذه الفتاة ليست كما يقدر وأن قد كان لها ماضٍ في ألمانيا ، فيجيب بأنه لا يحفل بذلك ولا يلتفت إليه وإنما يعنيه أن تميل الفتاة إليه ورغب في أن تكون زوجاً له . وقد أخذ الأستاذ يتهيج لأن المسافة بينه وبين صديقه أخذت تظهر قريبة . فصديقه مثله يزدري هذه الصلات المادية التي لم تقم على الشعور ولا على العقل . غير أن صديقه مضطرب متردد يسأله سؤالاً يترك في نفسه أثراً قوياً . يذكر له أن الناس يتحدثون في المعهد بصلة كانت بينه وبين الفتاة ، وهو يريد أن يتبين حقيقة هذا الأمر . فإذا أنكر الأستاذ ذلك لم يعرف الصديق حداً لابتهاجه ولا لغبطته ، فهو يستطيع إذن أن يقترن بالفتاة .

— ولو كان بيني وبينها شيء كهذا ؟

— إذن لكان الزواج مستحيلاً . . .

— ولكني قد أكون شديد التأثير في نفس هذه الفتاة

فهي تجلني وتكبرني إجلال الأستاذ واكباره .

— ذلك شيء أحبه ولا أكرهه ، وإنما الذي أكرهه هو الصلة المادية ، وقد بعثت في نفسى الطمأنينة من هذه الناحية فأنا سعيد .

وقد استيقن الأستاذ إذن أنه يخون صديقه إن نصح بهذا الزواج ويعرضه للتقاء ، فأخذ يجتهد في أن يهدى من صديقه ويدعوه إلى الأناة . ولكن الباب قد فتح وأقبلوا ينبئون الأستاذ بأن كاتباً بلجيكياً كبيراً تنحى له عن جائزة « نوبل » ثم أقبلوا ينبئونه بأنه قد منح الجائزة ، ثم أقبلوا يهنئونه وانصرف عما كان فيه الى جائزة « نوبل » وأقبلت الفتاة واعترفت الزواج ، وأعلن هذا الزواج الى الطلاب ولم يستطع الأستاذ أن يؤجل هذا الاعلان .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى فقد مضى حين على هذا كله ، وتم الزواج رغم ما بذل الأستاذ من جهد لإلغائه وأصبحت الخيانة أمراً واقعاً . ولكن الزوج يجهلها ؛ وكذلك تجهلها « جان » وليس يعلم بها إلا الأستاذ وتلميذته . وقد أخذت التلميذة العهد على نفسها أن تجتهد فى نسيان هذا الحب القديم

وفي البر بزوجها والتلطف له . وأخذ الأستاذ نفسه بأن يكون محتشماً متحفظاً كلما لقي تلميذته أو تحدث إليها .

ونحن في هذا الفصل الثاني نشهد احتفالا رائعاً لأن وساماً قدم إلى الأستاذ وأقبل الناس يهنئونه ويحتفلون به ، والمعهد قائم قاعد في استقبال الوفود وتحياتها . والناس يترددون بين الحديقة وحجر المعهد . وكثيرة جداً مناظر هذا الفصل ، ولكنني مضطر إلى أن أحذف منها الشيء الكثير . ومهما أحذف فلن أستطيع أن أهمل موقفاً بين الأستاذ وبين هذا الكاتب البلجيكي الذي تمنى له عن جائزة « نوبل » ، فقد أقبل هذا الكاتب يهنئ الأستاذ ولم يكونا قد تعارفا من قبل ، فغلا كل منهما إلى صاحبه في الحديقة وأخذا يتحدثان ، وأخذ الأستاذ يسأل الكاتب لماذا تمنى له عن الجائزة وهو لا يعرفه ؟ فيجيبه بأنه إنما فعل ذلك لأنه مدين له بشيء كثير . كان هذا الكاتب قد فرغ للقصص التمثيلية يكتبها حتى نبغ فيها ، ثم نالته أزمة من هذه الأزمات الغرامية التي تنتهي بالناس أحياناً إلى الموت ، فخرج من بيته إلى حديقته ومعه المسدس يريد أن يقتل نفسه ، واضطجع إلى شجرة وقد صوب المسدس إلى مقتل

وكانت الليلة جميلة والنجوم ساطعة ، وإذا نظره قد ارتفع إلى السماء وإذا منظر النجوم التي علقت في السماء كأنها المصابيح قد أثر في نفسه المضطربة تأثيراً شديداً ، وإذا هو يرى إلى جانب هذه المصابيح مصابيح أخرى ليست أقل منها جمالا وبهجة ، هي هذه الحقائق العلمية الفلسفية التي تسيطر على حياة الناس وتهديهم في سبيل الرقي والكمال ، وإذا عزمه على الموت قد فتر ، وإذا هو مشوق إلى أن يعلم ، وإلى أن يدرس هذه الحقائق العلمية والفلسفية . فلما أصبح نظر في الكتب فوَقعت إليه كتب الأستاذ ، فكان تأثيرها في نفسه شديداً ، صرفه عن التمثيل وحياة الكتاب إلى الفلسفة وحياة الفلاسفة . وإذا هو قد سلك سبيله متأثراً بالحس ثم بالعاطفة ثم انتهى إلى الحياة العقلية الخالصة . كذلك يتحدث الكاتب إلى العالم فيجيبه العالم — مضطرباً متأثراً — بأنه قد سلك الطريق المضادة لطريقه ، بدأ بالحياة العقلية الفلسفية ، ثم هو الآن وقد جاوز الحسنيين قد أخذ يتعرض للشك وآثاره ، فهو يترك الفلسفة قليلا قليلا ، يترك حياة العقل إلى حياة الشعور . ومن يدرى إلى أين ينتهي ؟ هو شك في علمه وفلسفته وفي تلك الحقائق التي تشبه مصابيح السماء .

وكل شيء في حقيقة الأمر يدعو هذا الأستاذ إلى أن يضطرب ويشك ؛ فهو يعاني آلاماً شداداً منذ كان هذا الزواج ، هو لا يحب الفتاة ولكنه يعلم أن الفتاة تحبه حباً شديداً مسرفاً في الشدة ينغص عليها حياتها ويوشك أن ينغص على صديقه حياته ويوشك أن يفسد كل شيء . فالفتاة تتجلد وتجاهد ، ولكنها لا تظفر من هذا الجهاد بطائل . وإذا افتضح هذا الأمر — ولا بد من أن يفتضح — فما مصير صديقه ؟ وما مصير بحمهم العلمى ؟ أضف إلى هذا أن هذا الأستاذ الذى لم يتعود الكذب قط يعيش الآن عيشة قائمة كلها على الكذب . يكذب على امرأته ، ويكذب على صديقه ، ويحمل صديقه على حياة كلها نفاق . وليس هذا الفصل إلا إثباتاً لهذا كله . فنحن نرى الفتاة بعد قليل قد أقبلت مع زوجها شاحبة ممتعة شديدة الضعف ، وزوجها يتلطف لها ويرفق بها بل يغازلها فلا يجد منها إلا فتوراً يشبه النفور ، وهو يعلل ذلك بالمرض واضطراب الأعصاب . وبينهما كذلك إذ يظهر الأستاذ ومعه امرأته فينتحيان في الحديقة ناحية كأنهما يطلبان العزلة حتى إذا ظفرا بها تعانقا فرحين مبتهجين بهذا الفوز والفتاة

تراها ، فيقع ذلك من نفسها موقعاً مؤلماً جداً . ثم يمر الأستاذ وحده بالفتاة وهي تستريح في مجلسها هذا فيكون بينه وبينها حديث نفهم منه كل ما قدمت : نفهم أن الفتاة قد انتهت من الصبر إلى أقصاه وهي لا تستطيع أن تنسى هذا الحب ولا أن تبرأ منه ، وهي لا تستطيع أن تحمل جفوة الأستاذ واحتشامه وإنما تريد أن يرق لها ويمنحها من حين إلى حين ابتسامة بريئة أوقبله طاهرة على جبهتها . هي لا تطمع في أكثر من هذا ، وهو يرض عليها بهذا احتراماً لصديقه وإنكاراً لهذا الحب الآثم . ولكنها تلح وتسرف في الإلحاح ، تريد أن تخلو إليه لحظة لتظفر منه ببعض هذا أو بكلمات رقيقة ، وقد انتهى هذا الإلحاح إلى أن أثر في نفس الأستاذ وكأنه قد قبل ما تريد . ويمضي الاحتفال كما بدأ ، يذهب الناس فيه ويجيئون . وقد اعتذرت الفتاة فصعدت إلى منزلها بالحديقة لأنها مريضة . وما هي إلا لحظات حتى يمر الأستاذ متجهاً إلى هذا البيت وقد رأته زوجته فأنكرت اتجاهه هذا الوجه . ولكنه زعم لها أنه منصرف إلى مكتبه ليقفل درجاً من الأدراج يحرص على أن يظل مقفلاً ، وآمنت له زوجته ومضت إلى ما كانت فيه من استقبال وتوديع ، وإذا

« بلونديل » يمر بنفس المكان بعد حين ، ويلقاه أحد المدعوين منصرفاً ، فيدهش للقائه وينبئه بأنه كان قد دخل بيته يأخذ معطفه ، وهو في ذلك إذ انطفأ النور فجأة وخرج ، نخيل إليه أن رجلا يدخل البيت فظنه إياه ، أما « بلونديل » فقد تنبه في نفسه شك مؤلم حاول كتمانها ، ولكن أخذ يستوثق حتى استيقن أن زوجه ليست نائمة وأنها ليست وحدها ، وإذا هو يطلب « جان » زوج صديقه الأستاذ . فإذا أقبلت توصل إليها أن تصعد لتري امرأته ، فقد تركها مريضة فتصعد « جان » وتعود مضطربة مخلوعة القلب لأنها رأت زوجها عند الفتاة . أما « بلونديل » فقد فهم واستوثق وأمسك زوج صديقه وجلسا يرقبان عودة الأستاذ . ويعود الأستاذ بعد حين ، فيلقاه « بلونديل » بكلام عنيف ثقيل ، ولكن « جان » تأمره أن يتركهما وحدهما . فإذا خلا الأستاذ إلى زوجه حاول أن يعتذر وأن يذكر الحق فلم يكن عند الفتاة في إثم ، وإنما كان عندها يهدىء من ثورتها ويقدم لها النصيح . ولكن زوجه تأبى عليه أن يتكلم ، فهي مشغولة عن الكلام ، بين يديها مَسَوِّدَات لمقال كتبته لصحيفة من الصحف ، وفي هذا المقال

حديث عما كان بينها وبين زوجها من حب وتعاون على البحث العلمى . وهى تقرأ هذا المقال متأثرة محزونة لأنها تحس أنها مخطئة فيما زعمت فيه . أليس زوجها قد خانها ؟ أليس حبها قد خدع وازدرى ؟ . أما زوجها فليس أقل منها اضطراباً . لا لأنه خانها ، بل لأنه يشعر بأنها تعتقد ذلك . ويريد أن يغير رأيها ، وكيف السبيل إلى ذلك دون الاعتراف بالحق ؟ على أن « بلونديل » قد أقبل وطلب الخلوة إلى صديقه وأخذ يزجره ويعنفه ويتهمه بخيائته ، ويجتهد الأستاذ مخلصاً فى أن يثبت له أنه لم يخنه ولم يسيء إليه ، ثم ينتهى به الأمر إلى التصريح بالحق ، فإذا الغضب قد بلغ من صديقه أقصاه . أليس صديقه قد كذب عليه . وما له لم يثبت له بالحق قبل الزواج ؟ وقد أسرف « بلونديل » فى الغضب حتى اتهم صاحبه بأنه أول من اتصل بالفتاة ، وأنه اخترع قصة الضابط الألماني ، وأنه كان عشيق زوجته قبل الزواج وبعد الزواج ، وهو يزدرى الصداقة الآن ، ويزدرى العلم ويزدرى الفلسفة ، ولا يفكر إلا فى شيء واحد هو الانتقام ، وسينتقم . وهما كذلك إذ تقبل الفتاة وقد سمعت صياح زوجها ، فإذا أقبلت اجتهد الأستاذ فى

أن يستعين بها على إقناع زوجها لبراءته فيسألها : أليس من الحق أنك تحبين زوجك ؟ وإذا هي تجيب في صراحة وعنف : كلا ، لا أحبه ولم أحبيه ولن أحبه وما أحببت ولن أحب غيرك ! ! انتهى الحب بها إلى الجنون فهي لا تخفى من أمرها شيئاً ، واتته الغيرة بزوجها إلى الجنون ، فهو لا يملك من نفسه شيئاً ، وقد تركهما وعاد ومعه كتاب هو ثمرة الحياة العالمية للأستاذ ، فيه فلسفته وخلاصة مباحثه ، وهو مخطوط كتبه الفتاة بإملاء الأستاذ حين كانت تعمل في المعهد . أقبل يحمل هذا الكتاب ، وهو يعلم أنه أعز شيء على الأستاذ ، ولكنه يريد أن ينتقم . وبم يبدأ الانتقام ؟ خانه الأستاذ في امرأته ، فهو يسيئه في فلسفته ، وإذا هو يمزق الكتاب ويفرق أوراقه المقطعة في الهواء ، والأستاذ صَعِقُ يتوجع لكتابته ، والفتاة والهمة تجمع هذه القطع المفرقة وقد انضمت إليها زوج الأستاذ فهي تعينها على هذا الجمع .

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت أيام على هذه القصة ونحن في غرفة « جان » زوج الأستاذ ، وفي المعهد اضطراب شديد لأن حادثاً حدث وأخذت الصحف تذيعه وتحوض فيه .

وظهر أعداء الأستاذ فأسرفوا في التمهير به والتشنيع عليه . كان الأستاذ في الجمع العلمي ، وبينما هو خارج بعد انتهاء الجلسة لقيه صديقه « بلونديل » في أروقة الجمع فلطمه بمشهد من أصحابه وزملائه ، وأعلن الأمر إلى الناس ، فلجّت فيه الصحف وأصبح حديث باريس . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ولكن ناساً نصحوا للأستاذ بأن يثار لنفسه من صديقه بالمبارزة . وكاد الأستاذ يقبل هذا النصح لولا أن أخت عليه زوجه في أن يربأ بنفسه عن هذا الأمر الذي لا يليق بالعلماء ولا سيما إذا بلغوا منزلته من المجد والرفعة . كذلك تتحدث زوجه إلى صديق حميم هو هذا الكاتب البلجيكي الذي رأيناه في الفصل الثاني . ولكن هذه المرأة مخدوعة تجهل كل شيء ، فإن زوجها قد قبل النصح وقبل المبارزة وأخفى عليها الأمر ، وقد بارز صاحبه ونالته الرصاصة وحمل إلى المعهد وهو في غرفة مجاورة يقدم إليه الطبيب الإسعافات الأولى ، ثم هو يريد أن يرى زوجه وابنته ، وقد اعتزم الطبيب أن ينقله إلى هذه الغرفة ، وألح هو في أن يدخلها ماشياً لا محمولا حتى لا ترتاع زوجه . وها هو ذا يقبل وقد أخذ أصحابه يسندونه وفي فمه لفاة التبغ ليظهر لامرأته أن

ليس عليه بأس . فإذا رأته جزعت ، ولكن الطيب والاصدقاء يهدئون من روعها ويؤكدون لها أن ليس عليه من بأس ، وأن الرصاصة قد أصابت الكتف ولم تبلغ الرئة ، وهم يمدون الأستاذ على مضجعه ، وقد خلا إليه الطيب لحظة ، فإذا الأستاذ يسأله ملحاً ويطلبه بالصراحة المطلقة : ما أمره ؟ وهل هو معرض للخطر ؟ وهو لا يريد في ذلك تلميحاً ولا مراوغة ، لأنه في حاجة إلى أن يوصى بأمور هامة جداً . فينبئه الطيب أنه ليس عليه من بأس إلا أن يبصق دماً ، فإن فعل فليس هو معرضاً ، ولكن حاله تحتاج إلى احتياط شديد .

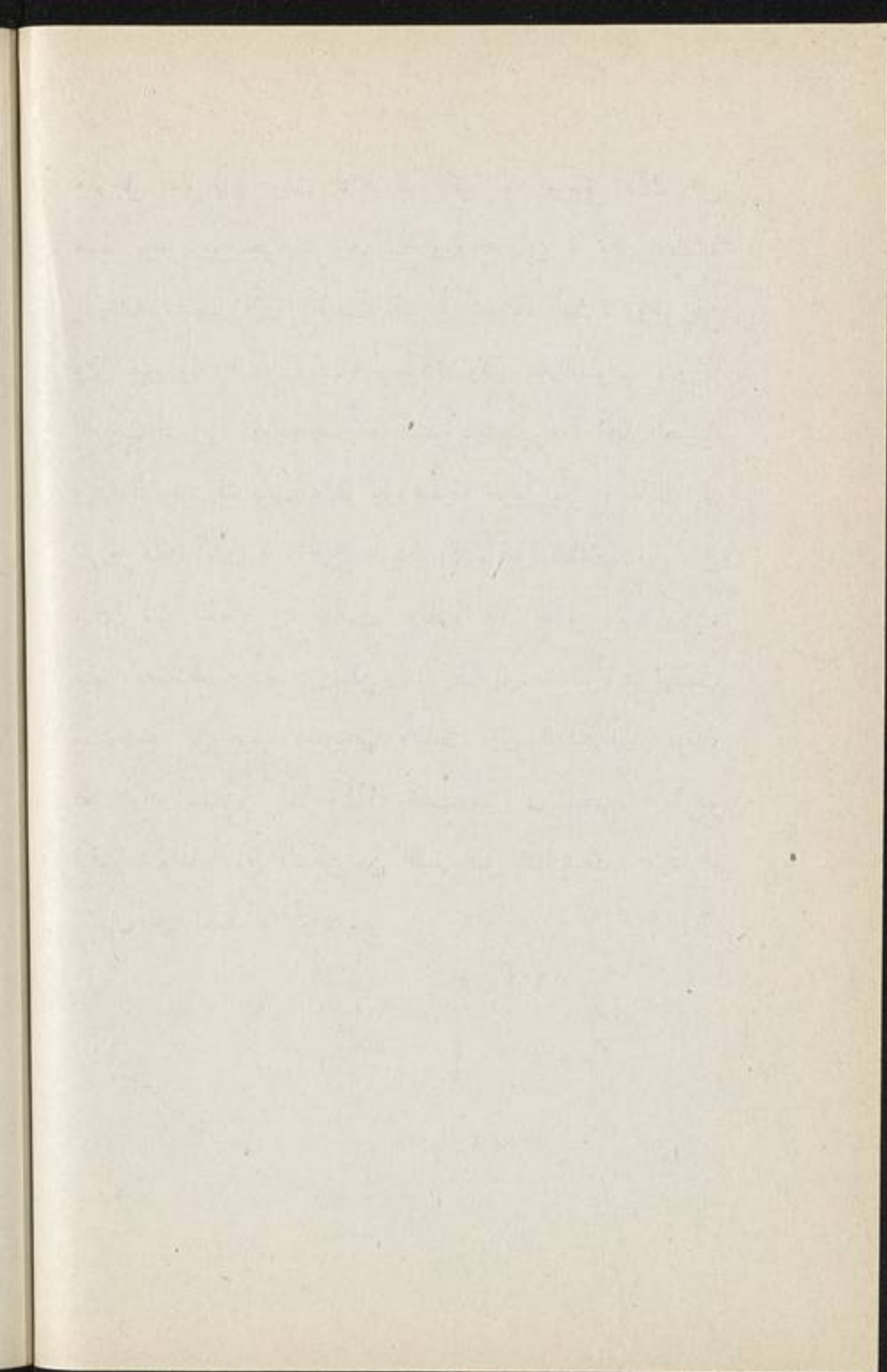
— إذن فأذن لي أن أخلوإلى زوجي حيناً ما ، قبل أن تبدأ في عمك لكشف مكان الرصاصة ، فيأذن له الطيب ولكن على ألا يتحرك ولا يسرف في الكلام . وهذه زوجه قد دخلت عليه جزعة ، فما هي إلا أن هداها فأظهرت الهدوء ونسيت كل شيء إلا زوجها . لكن زوجها سيكلفها أشياء ثقالا ، وليس يطلب إليها إلا أن يرى الفتاة التي كانت مصدر كل هذه النكبات . ومهما تاب زوجها فهو متشدد في ذلك ، وهو يريد أن يراها ، وأمراته لا تأتي غيرة ، وإنما تأتي

إشفاقاً على زوجها . ولكن زوجها ملح ولا بد من الأذعان .
وقد كتبت « جان » كلمة وبعثت بها إلى هذه الفتاة ، فأقبلت
وانصرفت « جان » ليخلو زوجها إلى هذه الفتاة كما أراد على
أن يدعوها إذا فرغ من ذلك .

وانظر إلى هذه الفتاة قد أقبلت وهي لم تكن تقدر من هذا
كله شيئاً ، وانظر إليها جزعة والهة حين رآته طريحاً جريحاً ،
فهي تتكلم كلاماً متصل اللفظ غير متصل المعنى ، قد فقدت
رشدها أو كادت ، والأستاذ يجتهد في أن يظفر منها بالصمت
فلا يكاد يبلغ ذلك إلا بمشقة شديدة ، يعلن إليها إرادته وهي
أن تترك باريس ولا ترى زوجها ولا امرأته ، حتى ولو ألح
زوجها في طلبها ، وقد ضمن لها الحياة وخصص لها مقداراً من المال .
أما هي فلا تسمع لشيء من هذا ، وإنما هي منصرفة إلى جزعها ،
فهي تتكلم وهي تبكي وهي تضحك وهي تقبل يد الأستاذ ومضجعه
وكل ما ظفرت به شفتها ، فهي شخص لا يستطيع تصويره
ولا تصويره إلا « هنرى بتايل » . وقد صرف الأستاذ هذه
الفتاة بعد أن رق لها وبارك عليها كما يفعل القسيس ... أكان يجبها ؟
أم كان يعطف عليها ويرثي لها ؟ أليست خليقة بالعطف والثناء ؟

أنظر إليها تخرج طائفة جزعة مدعنة للقضاء نائرة عليه . وانظر إلى الزوج قد عادت إلى زوجها يلاطفها ويرق لها ويكاد يغازلها ، ولكن سيكافها شيئاً ثقيلاً . أليس يطلب إليها أن تدعو صديقه وقتله « بلونديل » ! وهي نائرة تأتي ذلك كل الإباء . ولكنه يريد ويلح ويعزم عليها ولا بد من الإذعان لما أراد . وقد أقبل هذا الصديق ، فلم يكذب يرى صاحبه طريحاً حتى أخذ منه الجزع ، وإذا هو يستغفر ويضرع ويبكي ممعناً في البكاء ، وإذا الزوج تلقاه لقاء عنيفاً كله بغض وموجدة . وأما الأستاذ فرقيق رفيق قد قبل العذر وغفر الذنب وعرف للصدّاقة والعلم حقهما ، وهو سعيد لأن صديقه قد آب إلى رشده ، وهو يصافح صديقه ولكن يريد أن يكلف زوجه شيئاً ثقيلاً ، يريد لها لا على أن تصافح هذا القاتل بل هو أشد من هذا . فإلى أي حال ستؤول هذه المباحث العلمية إذا مات هو ولم يتعاون « بلونديل » و « جان » على المضي فيها ؟ يجب إذن أن يتعاونوا ، وقد كتب ذلك في وصيته وهو يريد أن يقسم له على الإذعان بهذه الوصية . أما « بلونديل » فيقسم وأما « جان » فتأبى ، وهو يلح وقد ظهر عليه الجهد والإعياء وأخذت الحمى تظهر عليه

والرجل عالم بأنه ميت لأنه قد بصق الدم وأخفى ذلك على طبيبه وعلى من حوله ، وهو يلح وزوجه تأبى ، وهى مطمئنة إلى أنه سيحيا لأن الطبيب قد أكد لها ذلك ، وهو يلح وهى تأبى وقد اضطرب لسانه وحركاته وقال غير الصواب ، وإذا النزيف ، وإذا زوجه صارخة تدعوا الطبيب وقد أقبل الطبيب وإذا الأستاذ قد مات فانظر إلى صديقه جاثياً يبكي ، وانظر إلى امرأته ملقاة كأن قد أغمى عليها . وقد أقبل الطلاب من كل مكان فملؤا الحجرة وهم يبكون ، ونظروا فإذا القاتل بينهم يبكي ، فهموا به يدفعونه دفعا ، ولكن ... انظر إلى هذه المرأة قد نهضت مستجمعة كل قوتها وشجاعتها فأعلنت إلى الطلبة أن دعوه ، فقد أراد أستاذكم كذا وكذا وطلب منا أن نقسم . فأما هو فأقسم ، وأما أنا فلم أتمكن من القسم قبل أن يموت ، وإذا هما يقسمان على تنفيذ ما أراد ...



القبر تحت قوس النصر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى «بول رينال»

ومع ذلك فلا بد من أن أحدثك عنها . ويخيل إلى
أنى أسىء إليك وإلى صناعتى إذا لم أحدثك عنها . ولكن
ما هى ! وما معنى هذه الجملة الغامضة ! أما هى فالقصة التى
نحن بأزائها والتى مثلت فى باريس وفى بيت مولير منذ ثلاثة
أشهر . وأما هذه الجملة الغامضة فستفهمها حين تعلم أنى حائر فى
أمر هذه القصة لا أدرى أأرضى عنها أم أمقتها ، وحين تعلم
أنى لم أنفرد بهذه الحيرة ، وإنما شاركنى فيها النظارة الذين
سمعوها وشهدوها مرات فى بيت مولير ، وشاركنى فيها النقاد
الذين جمعوا فيما كتبوا عن هذه القصة بين الرضا والسخط ،
وبين المقت والإعجاب . وأحسب أنى سأرضى عن هذه القصة ،
وسأسخط عليها معاً . ففيها ما هو خليق بالرضا ، وفيها ما هو

خليق بالسخط . فأما شكلها فحسن رائع . وأما لفظها فجميل
منتقى ، وأما أسلوبها فأية بين الأساليب . وأما حوارها فقصير
سريع خفيف الحركة مملوء بالمعنى كأنه جوامع الكلم . وأما
الشعور الذى انبعثت عنه فقوى عنيف صادق أخاذ للنفوس .
كل هذا حق . ولكن هناك حقاً آخر لا يمكن الإعراض
عنه ، وهو أن هذه القصة الرائعة تقوم على أساس واهٍ لا ملاك له
ولا نصيب للصحة فيه . فإن يكن له نصيب من الصحة فضئيل
شديد الضالة لا يكاد يحس ولا ينبغي أن يعتد به ولا أن
يؤبه له . ومن هنا نفهم استحقاق هذه القصة للرضا عنها
والسخط عليها ، واختلاف الناس فيها إختلافاً شديداً حتى تجاوزوا
الحوار والجدال إلى الاصطدام والتضارب ، فقد اصطدم الناس
وتضاربوا فى بيت موليير عند ما سمعوا هذه القصة . اصطدموا
وتضاربوا وأنكروا واحتجوا ، ونقلت الصحف ذلك وعلمته
وأكثرت فى تعليقه ؛ ذلك أن القصة تقوم على أساسين ، أحدهما
قد يفهم وقد يتصور وقد يعتذر عنه ، وهو أن فتاة تحب
خطيبها ويحبها هذا الخطيب حباً لا حد له . حباً الأمل فيه
قليل ، لأن الحرب قائمة ، ولأن هذا الخطيب معرض لأخطارها ،

ولأن الزواج لم يتح لهذين العاشقين . فليس غريباً أن تعلم الفتاة نفسها راضية مبهجة مضحية بما ورثت من خلق وعادة ودين في سبيل هذا الشاب الذى يضحي بنفسه في سبيل الوطن . وليس غريباً أن يتردد هذا الفتى ، ثم يقبل التضحية ، فهو يحب وهو واثق أنه سيموت . كل ذلك يمكن فهمه وتصوره والاعتذار عنه ، لأنه لا يخرج عن طور الانسان وما فطر عليه من ضعف وأثرة .

أما الأساس الآخر فغريب حقاً متجاوز لطور الانسانية المتحضرة المهذبة التى تأثرت بالدين والأخلاق والنظم الاجتماعية والسياسية آلاف السنين ؛ وهو أن أباه يتعشق خطيبة ابنه ويهواها غير شاعر بذلك ، إذا ظهر الأمر له ولابنه كانت بينهما خصومة عنيفة أنكر فيها الأب أبوته ، والإبن بنوته وتمنى فيها كلاهما لصاحبه الموت . ثم لا تلبث الخصومة أن تتغير ، فإذا الأب قد عرف خطاه ، وإذا هو جاث أمام ابنه باسطة يديه يتضرع ويستعطف يلتمس العفو . وإذا الابن يعفو ويشفق ويتلطف بأبيه . كل هذا غريب غير مفهوم ولا ملامح لما ألف الناس ولا فطروا عليه . ومع ذلك فقد اختصرت لك

القصة اختصاراً ، وأحسب انك تفهم الآن تردد الناس في الحكم عليها . وأحسب أنك تعذر أيضاً ترددي في أن أحدثك عنها ؛ فقد كنت أريد أن أعرض عن ذلك إِعراضاً . ولكن ظهور هذه القصة وما دار حول تمثيلها حادث أدبي عظيم الخطر لا ينبغي أن أهمله ولا أن أتعمد طيه عن القراء . على أني مهما أفعل ، ومهما أبذل من قوة وجهد ، فلن أستطيع أن أعطيك من هذه القصة صورة صادقة ولا مقاربة ، فهي ليست من القصص التي يمكن تلخيصها وتحليلها في سهولة ويسر ، وإنما هي من القصص التي يجب أن تقرأ كلها أو تشهد كلها ليمكن الحكم عليها حكماً صحيحاً ، فقد حدثتكَ عن هذا الحوار القصير السريع الجامع ، ولم أحدثك عن حوار آخر طويل بطيء ملتو غامض ، فيه فلسفة عميقة قوية ترقى بك حتى يكاد الدوار يأخذك . وإذا كان من العسير تلخيص هذا الحوار القصير فأعسر منه تفسير ذلك الحوار الطويل . فلتجتزئ من هذا كله بما أستطيع أن أقدم إليك في هذا الفصل . وأحِبُّ إلىَّ بأن تقرأها وتحكم عليها بدون وساطة ولا معونة .

أشخاص هذه القصة ثلاثة لا يزيدون ، بل لا يسمون إلا الشخص الثالث فهو وحده المسمى . وهم لا يسمون لأن الكاتب تعمد ألا يسميهم ، وهذا التعمد هو نتيجة خطأ عظيم . فقد خيل إلى الكاتب أو خيل إلى الناس أن الكاتب حين تعمد ألا يسمي هذين الشخصين تجنب أن تكون قصته شخصية وقصد إلى أن يكون هؤلاء الأشخاص ممثلين لأنواعهم من أفراد الناس .

في القصة شيخ أقام ولم يشترك في الحرب . وفيها جندي مقاتل . وفيها فتاة بينها وبين هذا الجندي حب وخطبة . وقد سمى الكاتب الفتاة ، فدل بهذه التسمية على أنه لا يريد أن يجعل الفتاة مثلاً لغيرها من الفتيات . ولم يسم الشيخ ولا ابنه ، فدل بذلك على أنه يريد أن يقول إن موقف هذين الرجلين إن لم يكن موقف الناس جميعاً في أثناء الحرب فبينه وبين موقف الناس جميعاً شبه قليل أو كثير . وهذا هو الخطأ . فلو أن الكاتب سمى هذين الرجلين وشخصهما كما سمى الفتاة وشخصها لأمكن أن تقبل القصة لاستطعنا أن نفرض أن الكاتب يمثل حالاً عارضة مرضية عرضت لأسرة بعينها في ظروف خاصة ، فهي تمثل الشاذ ولا تمثل المطرد . ومن الذي يستطيع أن

ينكر أن الشاذ موجود ، وأن وجوده لازم لوجود المطرد ! .
لو فعل الكاتب هذا لكان له وجهه وتأويله ، ولكنه لم يفعله
فأنكر الناس عليه هذه الجرأة في التعميم ، لأنها تخالف العقل
والحق ، ولأنها تخالف البر الذي يدين به الأبناء للآباء ،
والعطف الذي يضمه الآباء للأبناء .

هذا الشيخ الذي اتخذ الكاتب مثالا للمقيمين الذين
لم يشتركوا في الحرب رجل في الستين من عمره ، غنى وادع ،
يظهر من القصة أنه أثر ، يسرف في حب نفسه ، وأن حظه
من الحنان قليل . أما ابنه فشاب غنى ، ورث عن جده لأمه
ثروة ضخمة كان يدبرها ، ثم كانت الحرب فترك تديرها لأبيه .
وهو ذكي شديد الذكاء ، عظيم الحظ من التعليم ، ملم إلماما
متيناً بالشيء الكثير من الفلسفة وآراء الفلاسفة . فليس هو
إذن بالشاب العادى ، أتم دروسه في باريس ثم عاد إلى مدينته
وانصرف إلى ثروته يدبرها ، ولكنه كان يتردد على باريس
فيقضى فيها فصل الشتاء . وقد لقي فيها في غرفة من غرف
الاستقبال عند أسرة صديقة له فتاة جميلة ذكية حساسة ، أحبها
وأحبته ، ثم خطبها وقبلته ، وهى يتيمة ليس لها أب ولا أم ،

وإنما كانت تعيش مع عمّة لها أو خالة ، ثم أعلنت الحرب ومضت أشهر ، وماتت هذه العمّة أو الخالة ، فأصبحت الفتاة وحيدة في باريس . ولم تطق هذه الوحدة ، فجاءت الى الشيخ أبي خطيبها وأقامت عنده ، فاتصلت بين الشيخ وبينها علاقة قوية رقيقة تكاد تكون حباً لولا أن الفتاة تنظر الى الشيخ كأنه أبوها ، ولولا أن الشيخ ينظر الى الفتاة كأنها ابنته ، وأنهما جميعاً يفكران في هذا الجندي الذي ألف بينهما . وقد مضت على الحرب سنة وبعض سنة ، ولم يستطع هذا الشاب أن يظفر بأجازة يرى فيها خطبه وأباه . ثم أتاحت له هذه الأجازة فهو مقبل ، وهما ينتظرانه . ويجب أن تعلم أنه ظفر بهذه الأجازة بعد أن جرح مرة في الميدان ثم برىء من جراحته ثم اشترك في هجوم عنيف قام به الجيش الفرنسي في شمبانيا ونشرت البلاغات الرسمية أنه انتهى بانتصار عظيم . وظل الناس مقتنعين بأن الحرب مشرفة بعده على الانتهاء .

وهما ينتظرانه وقد انتصف الليل وأقبلت الساعة الثانية من الصباح . الشيخ جالس صامت كأنه يفكر وهو ينتظر والفتاة غير مستقرة تجلس ثم تنهض ثم تجلس ثم تصفي ثم

تذهب للنافذة ثم تعود . وهما الآن بصغيان ، وهما يضطربان
لأنهما سمعا إغلاق الباب ، وقد خرجت الفتاة وعادت ومعها
صاحبها الجندي تقبله ثم يتحدثون . ولست أستطيع أن أخلص
لك هذا الحديث ، فهو أشد دقة من أن يلخص ، ولكنه
يدور حول صحة الجندي وسفره ، وحول الحرب وحول الانتصار ،
وحول ما يأمل الناس ، وتفهم من هذا الحديث أن الشيخ
والفتاة مؤمنان بانتصار الجيش الفرنسي وقرب انتهاء الحرب ،
وأن الفتى يؤكد لها هذا ، ولكنه يتكلف هذا التأكيد ،
كأنه لا يريد أن يخيب رجاءها . وهو يسألها : « ألم تصل
إليهما رسالة ؟ فيتكلفان الإنكار . ألم يصل إليهما نبأ برقي !
فيظهران الدهش ، وتحس أنت هذا التكلف . أما الشاب فلا
يشعر به ، وإذن فهو فرح معتبط إلى غير حد . كان
يخشى أن تصل إليه رسالة برقية تدعوه أن يعود أدراجه إلى
الميدان . فأما وهذه الرسالة لم تصل فهو سعيد ، لأنه سيمكث
أربعة أيام وسيستطيع أن يتزوج قبل سفره ، وقد أعد الشيخ
كل شيء ، فتمت الإجراءات الرسمية ، وسيتم الزواج غداً أو
اليوم متى أشرق الصبح . فنحن في الساعة الثانية وهم يتحدثون

عن الحرب وعن أهوالها ، وهم يذكرون أسماء الأصدقاء الذين
سافروا إلى الميدان ، ويسألون عن أنبيئهم والفتى يجيب . ثم
يذكر الفتى أمه التي ماتت قبل أن تعلن الحرب . وتنصرف
الفتاة فيخلو الشاب إلى أبيه . ومؤثرة جداً هذه الأحاديث التي
يتبادلها الرجلان . مؤثرة لأنها تمثل نفس الشيخ وتمثل نفس
الفتى وتمثل حبهما للفتاة تمثيلاً صحيحاً . فأما الشيخ فسعيد مطمئن
إلى الحياة منذ أقامت معه الفتاة . كان قبل ذلك وحيداً
مضطرباً معنياً بعمله الكثير ، ثم أقبلت هذه الفتاة فأزالت
الوحدة وقامت مقامها مودة حلوة هادئة حببت الحياة إلى الشيخ
فهو يحيا سعيداً ، وهو يشعر بأن الحرب ثقيلة الوطأة على الجند
ولكنه يشعر أيضاً أن هذه الحرب ثقيلة الوطأة على المقيمين ؛
فإذا كان الجند يؤدون واجبهم في الميدان فالمقيمون يؤدون
واجبهم دون الميدان . وهل كان الجند يستطيعون أن يثبتوا ولم
يثبت المقيمون في حياتهم الهادئة فيدبروا للحرب حاجاتها .
والشيخ مع هذا مضطرب لقرب انتهاء الحرب ، مضطرب لأن
ابنه سيعود ويتزوج وسيستأثر بالفتاة ، وسيدبق هو وحيداً كما
كان ، وسيخلو إلى شيخوخته ، يتم حديثه بذلك في غير

تصريح . ويكاد الفتى يفهم ولكنه بعيد عن تصوره . فهذا الفتى جندى حقاً فيه مزايا الجند وفيه عيوبهم أيضاً . ولكن من الذى يجزؤ على أن يقول أن للجند أثناء الحرب عيباً ! أليسوا يدافعون عن الوطن ! أليسوا يحمون أهله ! أليست الأمة كلها مدينة لهم بالحياة والحرية !! فى هذا الفتى كل مزايا الجندى الفرنسى أثناء الحرب ؛ فهو شجاع ، ولكن شجاعته هادئة متواضعة لا تفاخر ولا تعلن عن نفسها وهو مطمئن إلى الألم يحارب لا لأنه يجب الحرب بل لأنه مضطر إلى هذه الحرب . ويطيع لا لأنه مفطور على الطاعة بل لأنه يطيع نفسه وكيف لا ! أليس فرنسياً يستمتع بما يستمتع به الفرنسيون من الحقوق !! وإذن فمن الحق عليه أن يدافع عن هذه الحقوق ، وهو يفعل هذا مختاراً لأنه كان يعلم أن الحرب ناشبة ، فكان يستطيع أن يغير وطنه ليغير منها . وإذا لم يغير هذا الوطن فليؤد واجباته الوطنية . ثم عمّ يدافع فى الميدان ؟ عن الأرض ، فهو يملك منها جزءاً . عن العقل الفرنسى فقد غذته ثمار هذا العقل فهو إذن لا يفعل شيئاً استثنائياً ، ولكنه فى الوقت نفسه يألم آلاماً لا حد لها ، ولا يقدرها إلا الذين يشعرون بها ، وربما

خطر له في الميدان أو في الخندق أن أهله هادئون مطمئنون
وأنهم قد يتهجون حيناً وقد يضحكون حيناً، فيغيظه ذلك ،
ويحنقه ، ويود لو شاركه أهله في الألم فلم يفكروا إلا فيه ولم
يتحدثوا إلا عنه ولم يحيموا إلا له . وهو يعلم أن هذا جور ،
ولكن من الذي يستطيع أن يدفع الخطر إذا خطر !! . ثم
لا يكاد يسأل أباه عن الفتاة حتى يكثر الشيخ من الثناء
والإعجاب وقد سبقه هو فأنثى وغلا في الثناء . وفهمنا أن الرجاءين
يجبانها ، وأن الشيخ نغم من الفتى شبابه وأنها تحبه . وربما
تقم من الفتى إجازته التي غيرت نظام حياته ولو إلى حين .
وينتهي الحديث بهما إلى ذكر الحرب ومتى تنتهي ، فيكاد الفتى
يفهم من صوت أبيه وحديثه ما يخيفه . وقد أقبلت الفتاة فهو
يسألها وهي تدفع إليه الرسالة البرقية . ذلك أن هذه الرسالة
كانت قد وصلت قبل الفتى ، فأخفاها الشيخ والفتاة حتى لا
ينغصا عليه ساعة اللقاء . أما الآن فليس بد من إظهاره عليها ،
وفي الرسالة أمر بالعودة حالاً . وقد نظر الفتى في الرسالة فناله
شيء من الدهول كأنه كان يقاوم مقاومة شديدة ، وقد انتصر في
هذه المقاومة فلم يجزع ولم يظهر عليه اضطراب ولا إنكار ، وهو

يضحك ولكن ضحك المحزون . . . يجب إذن أن يسافر بعد أربع ساعات ، ولكن أربع ساعات ! . . هذا وقت طويل يستطيع فيه أن يكون سعيداً . وسيكون سعيداً ! نعم أن يتزوج فقد أبت الفتاة هذا الزواج في هذا الوقت القصير ، ولكنه مع ذلك سيكون سعيداً أربع ساعات يستمتع فيها بحريته كاملة ويستخدم فيها ذاكرته ليذكر أيام السعادة والنعمة ، ويستخدم فيها خياله ليتمثل ما يجب من سعادة ونعمة . وذاكرة الجندى قوية إذا تعرض للخطر ، وخيال الجندى قوى إذا تعرض للخطر ! سيكون سعيداً ، وهو يتركهما لحظة ليصلح من أمره . فيخلو الشيخ إلى الفتاة ويتحدثان ، فإذا هما يعطفان على هذا الشاب ، ولكن الفتاة أشدهما عطفاً وحزناً ، والشيخ يسليها ويذكرها بحياتها الهادئة كأنه يأسف على ما فات منها ويتعجل منها ما بقي . أليس سيستأنفان هذه السعادة بعد ساعات متى سافر الشاب . والشيخ يلاطف الفتاة في حنان ، ولكنه حنان يشبه الغزل . ويعود الفتى وقد لبس ثياب الزينة والعرس ، فإذا أنكرا منه ذلك أجاب أنه يريد أن يكون سعيداً . ويستطيع أن يكون سعيداً ، وسيكون سعيداً ! ودعاها إلى أن ينصرفا ليستريحا . أما الشيخ فلا يأبى وهو متعب ، وقد تقدم الليل ، والفتاة متعبة أيضاً ،

فالشيخ يدعوها إلى الراحة ويلج في ذلك ، ولكنها تتلكأ تريد أن تبقى حيناً مع خطيبها ، وقد فهم الشيخ ذلك وقبله وألح في ألا تمكث الفتاة كثيراً فوعده الفتاة وانصرف الشيخ فيخلو العاشقان ، ولا يكادان يتحدثان حتى تشعر بأن الساعة رهيبية ملوذة بالتأثر والعزم والجهاد العنيف بين العواطف المختلفة ، أو قل بين عواطف السلم وعواطف الحرب . ذلك أن الفتاة تعلن إلى صاحبها في تردد وخبل أنها تريد أن تكون له ، فيتغابي ، وكلما تغابي ازدادت هي تصريحاً وإقداماً ، حتى يضطر إلى أن يفهم أو يظهر أنه يفهم . . . فينكر عليها ذلك ولكن في رفق ورغبة . وكيف يقبل وهذا القبول إغواء ! فليس للفتاة أحد ينصحها . ولو أن لها من ينصحها لما فكرت في ذلك . على أنها متأثرة بالموقف ، وهو لا يريد أن يستغل هذا الموقف . ولكن الفتاة قد فكرت وأكثر التفكير ، واعتزمت بعد بحث وتمحيص وإقتناع .

— والدين ؛ هي واثقة من أن الدين لا ينكر عليها ذلك ولا يأخذها به ، فهي لا تعصى ولا تأثم ، وإنما تقدم على شيء من البر قليل . . . وهو قد قبل ، وهو سعيد مبتهج ، بل

هو يتجاوز السعادة والابتهاج إلى شيء من الدهول غريب .
وهنا موقف من أجل ما كتب الكاتبون ، فيه شعر وفيه قوة ،
وفيه صدق إذا نظر إلى هذا الفتى وقد قبل ما عرضته عليه الفتاة ،
ولكنه يريد الزواج وقد أخطأه الزواج المدني ، أخطأه الشهود ،
وأخطأه الممثل للحكومة ، وأخطأته الكنيسة ، ولكنه يستطيع
أن يطلب هذا كله إلى الخيال . وخيال الجندي قوى إذا
تعرض للخطر ، فهو يريد أن يتزوج ، وأن يستشهد أصدقاءه
الذين ماتوا في الميدان على هذا الزواج . وهو يتحدث بذلك
مقتنعاً إلى صاحبتة ، فتخاف وتضطرب ، ثم تذهل وقد فقدت
الرشد واقتنعت مثله وهو يدعو أصدقاءه الموتى واحداً واحداً ،
ويراهم يحضرون وهو يتحدث إليهم ويستمع نجواهم ، يستشهدهم
فيشهدون ، ويستشيرهم فيشيرون ويهنتون ، وهو يشرب الشمبانيا
له ولهم وكأنه يراهم يشربون معه . . . يجب أن تقرأ هذه
القطعة لتشعر بما فيها من جمال ينسيك كل شيء حتى نفسك . . .

* * *

فاذا كان الفصل الثاني فنحن في غرفة الزوجية ، والفتاة
غافلة في سريرها كأن قد أخذتها سنة من النوم . والفتى جالس

الى الموقد ، كأنه يصطلى ثم تفيق الفتاة فتنكر هذه السنة التي أخذتها حين لم يكن يجب أن تنام ، ثم تهض من سريرها وتدنو من صاحبها ويتحدثان وقد كان الزواج وهما سعيدان . وهي لا تنكر شيئاً مما فعلت ، وهو لا ينكر شيئاً مما فعل ، ولكنهما يمضيان في الحديث حتى يصلان إلى حيث يجب أن يتكشف كل منهما لصاحبه عن دخيلة نفسه ، فبعد أن وصلا الى ما وصلا اليه لا ينبغي أن يكون بينهما كذب ولا سر ولا مراوغة . وهي في حاجة الى تعرف الحقيقة ، وهي تسأل وتلج ، وهو يأبى ويحتال ، ولكن لا سبيل الى الفرار ، يجب أن يجيب وإلا فهو لا يجيبها وهو يحذر عاقبة هذا الجواب ، ولكنها تكره الكذب وتؤثر عليه كل شيء ، يجب إذن أن يجيب !

— ما أمد الحرب ؟

— بعيد جداً .

— وهذا الانتصار ؟

— قد استطاع العدو أن يتقى آثاره وإذن . . . فكأننا

لم نفعل شيئاً . . .

— كم ينتظر أن تدوم الحرب ؟

— أعواماً . وإذا هي مضطربة اضطراباً لا حدّ له ، وإذا هي نادمة أشد الندم على ما فعلت ، وإذا هي تلومه لأنه أنبأها بالحق وتؤنبه لأنه يمضى فى الكذب ، وإذا هي تعلن إليه أنها لا تحبه . ذلك أنها كانت تحبه حباً شديداً ، ثم كانت الحرب وكانت الغيبة فأحست أثر هذه الغيبة فى الحب ، وأحست أنها لن تستطيع أن تحتفظ بحبها إذا طالت هذه الغيبة ، وقد قاومت وجاهدت ، ولكنها لم تفلح ، وأقبل هو فى إجازته ففعلت ما فعلت لتحيى هذا الحب ، وهى مقتنعة بأن الحرب قد انقضت أو كادت . أما الآن وسيستأنف الغيبة وستطول هذه الغيبة ، فهى واثقة بموت هذا الحب ، وهى آسفة نادمة على ما قدمت من نفسها .

أما هو فقد تلقى هذه الصاعقة فى جلد وشجاعة ، وما الذى يمنعه أن يكون شجاعاً وهو يعيش مع الموت وهو مسافر غداً إلى الموت ! نعم ! هو مسافر غداً إلى الموت حقاً ، فقد كان أخفى على صاحبه كل شىء حتى سر هذه الإجازة ، وهو الآن يظهرها على كل شىء . نعم ! إنه وعد بأن يموت فقد

كانت الإجازات ألغيت لأن فرقة ستهاجم وكانت قيادة الفرقة قد طلبت متطوعين يتقدمون بين يدي الجيش يوم الهجوم يحملون قنابل ليضعوها دون خطوط العدو ، ومن تطوع لهذه المهمة فهو ميت لا محالة ، ولذلك أبى الناس جميعاً أن يتطوعوا ، وأقبل هو الى رئيسه فطلب إليه الإذن له بالسفر على أن يعود متى تقرر الهجوم ، وعلى أن يتطوع لهذه المهمة . فلما سأله الرئيس عن هذه المخاطرة أجابه بأنه يجب فتاة ، وبأن هذه الفتاة تلح عليه في أن يراها ، وبأنه يخشى إذا لم يرها الآن أن يموت ولما يظفر بذلك ولما يتزوجها ولما يعطها اسمه . . . وقبل الرئيس وسافر الفتى وهو الآن مدعو الى العودة . وإذن فقد تقرر الهجوم ، وإذن فهو مقتول يوم الجمعة . وقد ذهلت هي وأصابها شيء من الجنون ، فأخذت تتهم نفسها بأنها قاتلة وأخذ يدافعها عن هذه التهمة ، ولكنها تمضى في الاتهام ثم في الإعجاب بهذا البطل وأمثاله ثم في شيء يشبه العبادة . وهنا حوار يمثل قوة الشاب ، فصاحبته مسيحية مؤمنة ، وهو ملحد مسرف في الإلحاد ، وهي تذكره بالله وهو ينكره ، وهي تذكره بالموت فلا يزداد إلا انكاراً لوجوده ثم ازدراء له ثم يتحداه إن كان

موجوداً . وماذا يخشى ! سيموت فإن كان الإله موجوداً حقاً
فلن ينكر عليه إحداه . أليس قد اجتهد وفكر فلم يهده عقله
الى شيء ، ولكنه منصرف عن الدين والإله والموت الى هذا
الحب الذى لم يظفر به إلا حيناً . وهى تعطف عليه ، وهو
يسألها قبلة قستدنيه وتستدنيه أيضاً وقد أطفىء
المصباح حيناً ، ثم نهض الفتى ، وظلت هى فى سريرها وأخذت
يتحدثان ، وأخذ هو يسليها ويخادعها عن الفجر ويقص عليها
أحاديث تلهيها ، وهى الآن مغرقة فى نوم هادى وقد أشرق
الصبح فوضع الفتى رأسه بين يديه وأغرق فى البكاء

أعترف بأن هذا الفصل جميل لذيد مؤثر ، ولكنى
أعترف بأنه غامض ، وبأنه غير مفهوم وبأن فيه فلسفة تحتاج
الى شيء من الوضوح والى أن تقرب من الناس . ولكن
الفصل الثالث هو شر ما فى القصة وأبعده عن الحق .

نحن فى الغرفة التى كنا فيها فى الفصل الأول ، وقد
وقف الفتى وصاحبته ، وأقبل الشيخ فلم يلتفت إلى ابنه ولم
يشعر بوجوده ، وإنما أقبل إلى الفتاة يحببها ويلاطفها ويسألها

عن ليلتها ، ثم تنبه إلى وجود ابنه فسأله عن صحته وعن ليلته . وأحس الفتى هذا وأنكره على أبيه في لطف ، وأخذوا يتحدثون ، وأخذ الشيخ يسأل الفتاة ما بالها لم تضيء غرقها وما يزال بها يسألها وهي متلعثمة مضطربة حتى يتدخل الفتى فيزجر أباه زجراً عن هذا السؤال ، ويتضح للشيخ ما كان بين العاشقين ، فإذا هو نائر مغضب يلعن ابنه ويزدرية . أليس قد اقترف إنمأً عظيماً ! ! أليس قد أغوى فتاة طاهرة ! ويشتد الخصام بين الرجلين ، وإذا الشيخ ينكر الحرب ويلعنها لما أفسدت من نفوس الشبان وأخلاقهم ، ولما ملأت قلوبهم بالغرور حتى خيل إليهم أن الناس مدينون لهم بكل شيء ، والفتى مغضب أيضاً يزجر أباه ويسبه ، فلا يزداد الشيخ إلا حنقاً ، أليس الفتى يضيف إنمأً إلى إنم ! ! ؟ أغوى الفتاة وهو الآن ينهر أباه . وهل أبقّت الحرب من شيء ! ؟ وفيه هذا الغرور ؟ إن الجندي لا يزيد على أنه يؤدي واجباً كغيره من الناس . ثم يشتد الخصام بين الرجلين ، وإذا الشاب يتهم أباه بأنه كان يحب الفتاة ، وأنه كان يغوئها في غير شعور منه ، وأنه الآن غيران غيرة العاشق لا غيرة الرجل

الشريف . وتحاول الفتاة أن تصلح بينهما ، وتحاول أن تظهر
الشيخ على ما يخفى ابنه من إشرافه على الموت . ولكن الفتى
يمنعها ، والخصام محتدم بين الرجلين حتى تنقطع الصلة بينهما ،
فيعلن الفتى أنه منصرف ، وأنه لا يعرف أباه ولا يحبه ولا
يقدره ، ويعلن إليه أبوه أنه يستطيع أن ينصرف وأنه يتمنى
له سفرًا حسنًا . وتقبل الفتاة إلى الشيخ تريد أن تهمس إليه ،
فلا ترى منه إلا حقدًا على ابنه واستخفافًا به . وإذا هي
مغضبة كصاحبها تريد أن تتبعه ، وهي تزدرى الشيخ وتهمه
بكل ما كان يتهمه به الفتى . وقد كان الشيخ ثابتًا يقاوم ابنه
مقاومة حسنة . فانظر إليه قد اضطرب أمام الفتاة ، فهو
لا يقاوم ولا يدفع عن نفسه ، وإنما هو يستعطف ويترضى ،
ولا تزيد الفتاة إلا سخطًا وحنقًا وازدراء للشيخ . والآن قد
فهم الشيخ كل شيء ، وأحس أنه مجرم ، وأنه أساء إلى
ابنه ، وأنه كان يجب الفتاة حقا ، هو إذن يقر على نفسه
بكل سيئة ، وهو يستعطف ابنه ويترضاه جائئًا بين يديه ،
وقد رق الفتى لأبيه فأخذ يعفو عنه ويعطف عليه ويتلطف له ،
ثم أخذ يترضى الفتاة على أبيه ويطلب إليها أن تبقى ، والفتاة

تأبى ، والشيخ يشاركها في هذا الإباء ، فهو مقتنع حقاً بأنه مجرم ، وهو يريد أن يظهر من هذا الجرم . وأى شيء يظهره من هذا الجرم إلا الألم والوحدة والتفكير في هذا الخزي الذي كان فيه ! . ولكن الفتى قد رق لأبيه رقة لا حد لها ، فهو يستعطف الفتاة وقد ظفر منها بما كان يريد وقد رضى الآن عن أبيه وعن الفتاة ، وإذا هو ينصح لها ويلقى إليهما الحكم كأنها وحى ينطق به ملك مقدس ، وهم جميعاً مسحورون بهذا الموقف . أما الفتى فينصح ويعظ ويلج على الفتاة حتى تقسم له بأنها لن تموت إذا مات ، ولن تعيش أرملة ، ولن تنصرف عن الزواج ، ولكن يجب ألا تتزوج جباناً ولا مغروراً . ثم يسأل الفتى صاحبتة عن هذا الحب الذي مات : ألا يزال ميتاً !

فاذاً هذا الحب حى ، وإذا الفتاة تحبه حباً لا يعدله حب .

وهو ينصرف سعيداً ، وكلما خطا خطوة هتفت به الفتاة :
إنى أحبك ! .

وهتف به أبوه : عد إلى سلماً إنى لا أريدك نائمًا إلى

سرير الموتى . إنى أريد أن تغمض يداك عيني .

وقد خرج الفتى . وخلا الشيخ إلى الفتاة . ولكن
الشيخ ذاهل يذكر ابنه ويتبعه بنفسه وقلبه ، والفتاة ذاهلة
مستندة إلى الحائط كأنها قد فقدت الرشد والحياة .

كل هذا الفصل جميل إذا قرأته ، ولكن على ألا يكون
حقاً ولا ممثلاً للحق ، على أن يكون خيال شاعر ، وما الذى
يمنع أن تقرأ خيال الشاعر وتجد فيه لذة ؟ ثم فى هذا الفصل
تجاوز للحق وتجاوز للعدل ، ولكن من الذى قال إن الظلم
والباطل يخلوان من الجمال الفنى دائماً !! ..

مايو سنة ١٩٢٤

عشاق

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « موريس دونيه »

ما رأيك فى كاتب يعلمك ولا يؤلمك ؟ يبعث فى نفسك
العواطف المختلفة قوة وضعفاً المتباينة قسوة وليناً دون أن يشتد
لذلك اضطرابك أو يعظم له تأثيرك ؟ ما رأيك فى كاتب ييسط
لك آلام النفس الإنسانية وما يبعث بها من حسرات دون أن
يضطر عينيك إلى أن تدمعا ودون أن يضطر قلبك إلى أن
يخفق ؟ وهو مع ذلك يبلغ منك ما يبلغه الكاتب المؤثر الذى
يعبث بالقلب ويستبيح العبرات . هذا الكاتب الهادىء
المبتسم الذى يمر بك على ألوان العواطف وضروب التأثر ويشعرك
بها وأنت مثله هادىء مبتسم هو « موريس دونيه » الذى
أريد أن أحدثك اليوم عن قصة من قصصه .

كاتب مبتسم أبداً . ولكنه متأثر ومؤثر أبداً .
ولقد تأخذنى الحيرة وما أشك فى أنها تأخذك أيضاً حينما أريد
أو تريد أن نتفهم كيف يستطيع هذا الكاتب أن يجمع بين
هاتين الخصلتين فيحزنك ويسرك فى وقت واحد . أو هو
يستطيع خيراً من ذلك ، فلا يحزنك ولا يسرك ، وإنما يعلقك
بين الحزن والسرور ، فيرسم على وجهك ابتسامة خالصة صريحة
مضيئة ، ويلقى على نفسك ستاراً من الكآبة مؤثراً أشد التأثير ،
ولكنه فى الوقت نفسه خفيف لطيف شفاف .

كنت فى هذه الحال وأنا أقرأ هذه القصة . ولست
أخفى عليك أنى ترددت تردداً شديداً فى اتخاذها موضوعاً
لحديث اليوم . فهى تخالف ما ألفنا من الأخلاق والعادات
والأوضاع والأحداث مخالفة شديدة . وكنت أخشى أن أؤذى
غير واحد من القراء إن عرضت لها فلخصتها وفصلت ما فيها .
ولكنها فى الوقت نفسه غنية خصبة دقيقة رقيقة تستحق العناية
وتصلح موضوعاً للحديث . هى تخالف ما ألفنا . وأي قصة من
قصص التمثيل لا تخالف ما ألفنا على نحو من الأنحاء ! وأي لون
من ألوان الأدب الأجنبى يلائم من كل وجه ما ألفنا من ألوان

الأدب العربى وما ورثنا من خلق وعادة ! ! نحن بين اثنتين ؛
إما أن نتشجع ونقبل الأدب الأجنبى على عِلاته فندرسه ، لا لأنه
يلائم آدابنا وعاداتنا وأخلاقنا ، بل لأنه جدير بالقياس إلينا
مخالف لما ألفنا ولما ورثنا . وإما أن نكتفى بما عندنا فلا ننفع
ولا ننتفع . وأنا أعترف بأنى أوتر الأولى على الثانية ، وأحتمل
فى غير ضعف ولا وهن تبعات اللوم الذى وجهه ويوجهه وسيوجهه
إلى كثير من الناس . وربما وجدت فى هذا اللوم البرىء
لذة ليست أقل أثراً فى نفسى من لذة الثناء والتشجيع .

هذه القصة مخالفة كما قلت ، لما ألفنا ولما ورثنا ، لأن موضوعها
فى نفسه غريب بالقياس إلينا كما سترى . وهى فى الوقت نفسه
مخالفة لما عودتك من القصص إلى الآن . فليس فيها عاطفة عنيفة
تهزك هزاً ، وليس فيها تأثير قوى . وهى لا تنتهى بموت
محزن ، ولا بانتصار سار ، وإنما تجرى من أولها إلى آخرها
هادئة مطردة ، كما يجرى النهر الذى لا تعبت به الزوابع ولا
الأنواء . وربما اضطرب النسيم من حين إلى حين ، فظهرت
على صفحته موجات صغار لا يلحظها إلا اللتفت المتأمل . كذلك
تقع هذه القصة ولا يكاد يشعر بها أحد من الذين يحيطون

بأبطالها إلا فرداً واحداً ملتفتاً شديد الالتفات ، متأملاً قوى التأمل ، ولا يفرض إنسان أنه أهل للالتفات أو التأمل ؛ لأنه طفل لم يبلغ العاشرة من عمره بعد .

ولكنه يحب أمه ، فهو يلتفت إلى حياتها ويتأمل في وقائعها ، ويشعر من تفصيلها بما لا يشعر به أحد غيره .

ولأعرض عليك موضوع القصة في أول هذا البحث وإن كان الكاتب لم يعرضه إلا في آخر القصة ؛ لأنني أحرص أشد الحرص على أن تتجنب التعميم والخطأ في الحكم ، وعلى ألا تتورط في هذا الخطأ الشائع ، فتحكم على الصحيح بأعراض المريض ، وعلى المطرد بخصائص الشيء النادر .

* * *

نساء هذه القصة جميعاً لسن من النساء الشريفات اللاتي تمنحنهن القوانين والأخلاق هذا اللقب . وهن لسن من المومسات اللاتي تعود الناس أن يسموهن كذلك ، وإنما هن في منزلة بين بين ، تعرفها البلاد المتحضرة المتأثرة بضروب الترف وألوان اللذة ، والمضطربة بين المحافظة على القديم والاندفاع في سبيل الجديد . هن في منزلة بين بين لسن زوجات ، ولكنهن

مستَهترات . قد اتخذن الأَخْلَاءَ والأَخْدَان ، وعشن معهم عيشة الزوجات مع الأزواج ، واجتهدن الاجتهاد كله في ألا يعلم الناس من سيرتهن الحقيقية شيئاً . فهن يتجنبن الأسر الشرعية ، حتى لا يظهر عليهن فضل الزوجات الشرعيات ولا يعرف الناس مكانهن من مخالفة الخلق والقانون . وهن يتجنبن فتيات العبث واللذة مخافة أن يختلطن بهن فينالهن ما يتجنبن من سوء . لسن زوجات ، ولكنهن أمهات . لهن أبناء وبنات ، لم يولدوا لآباء شرعيين . ولكن أمهاتهم يحرصن كل الحرص على ألا ينالهن من ذلك ضرر ولا مشقة . يردن أن يربينهم كما تربي الأم الشرعية ابناً الشرعية . ويردن أن يزواجهن ويشيدن مستقبلهم كما تفعل الأمر الشرعية بأبنائها . فهن مضطرات إلى ضروب من الحياة فيها شدة وعنف ، وفيها ضيق واحتمال للمكروه . وهن يتعارفن ويتآلفن ويتواضعن على شيء من النظام الخلقى يمتاز من أخلاق غيرهن من النساء ، ويسيطر عليه حب الأبناء والبنات والتضحية بكل شيء في سبيله .

لن ترى في هذه القصة امرأة إلا وهي من هذه الطبقة
فأما الرجال فهم بين اثنين : شاب يلهو ولما يَبْلُغُ من السن
* (١٤)

ولا من المركز ما يمكن من الاستقرار إلى الحياة الشرعية واتخاذ الأسرة . ورجل اتخذ لنفسه أسرة ، ولكنه لم يوفق في حياته المنزلية لما كان يرجو من سعادة وطمانينة . وكلا الرجلين لا يعبت إيثاراً للعبث ، ولا يلد حرصاً على اللذة ؛ وإنما أتمس السعادة من طريقها المشروعة فلم يوفق لها ، فهو يلتمسها من طرق أخرى ملتوية . وإذن ففيه شيء من الجد ، وفيه شيء من الوفاء . فهو يحب صاحبتة ويفي لها ، وهو في الوقت نفسه يعترف بابنه أو بنته ويلحق نسبهما به .

أظنك الآن قد استطعت أن تتبين هذه الطبقة التي أراد الكاتب أن يبحث من بين أفرادها عن أبطال قصته . وأظنك توافقني على أن البحث عن هذه الطبقة وما لها من خلق وعادة ممتع ، لا يخلو من لذة ونفع . فلنتجاوز هذه الطبقة من وجهتها العامة لنبحث مع الكاتب عن أبطال هذه القصة الذين هم من أفراد هذه الطبقة .

ولست أقدم إليك من أبطال هذه القصة إلا أربعة رجلين وامرأتين . فأما أول الرجلين فشيخ متقدم في السن ، هو « الكونت رويزو » من أشرف الفرنسيين وأشدهم حرصاً

على مذهب المحافظين في السياسة وفي الدين وفي الأخلاق
والعادات . وهو ملكي مسرف في الملكية ، يأتزم من حين إلى
حين لإعادة الملك إلى عرش فرنسا . وهو متشدد فيما توارث
الناس من خلق ودين ، يكره الطلاق وينفر منه نفوراً شديداً
ويحتمل من زوجه ما لا يحتمل الرجل الكريم دون أن يفكر
في الطلاق أو يميل إليه . وهو على محافظته هذه رجل ذكي
قوى الذكاء ، وهو مع هذا فيلسوف ، قد فهم الحياة فاطمأن
إليها ولم ينكر من أمرها شيئاً ، واجتهد في أن يوفق بين
فلسفته وبين مذهبه في المحافظة . هو مثلاً مقتنع بأن امرأته
تكرهه وتخونه ، وتسرف في خيائته وتجعله هزواً بين الناس ،
ولكنه يكره الطلاق ، وهو في الوقت نفسه يكره أن يفرض
الناس أنه مغفل . وإذن فهو لا يتكلف أن يجهل سيرة امرأته
وإنما يتحدث عنها وعن عشاقها وعن مجونها في هدوء وسخرية
مبتسما . لا يتحدث بذلك إلى الناس جميعاً ، وإنما يتحدث به
إلى أخصائه حتى لا يفرضوا فيه الغفلة وربما اشترك مع أحد
أصدقائه في شعر يهزأ فيه بخليل من أخلاء امرأته ، ثم روى
هذا الشعر لصديق آخر من أصدقائه مبتسماً مزدرياً . ثم هو

يعلم أن القضاء قد كتب عليه أن يكون مخدوعاً طول حياته .
ولا شك في أنه قد ألم لذلك وشقى به ، ولكنه يعرف كيف
يحتمل الألم وييسم للشقاء ؛ فهو يتحدث عن ذلك في لهجة
الساخر المزدرى دون غلو ولا إسراف . فيقول : إنه كان شاباً
جميل الطلعة حسن الخلق ، وكان يحب فتاة ، وكانت هذه
الفتاة تحبه ، ولكنها مع ذلك خائنه وخائنه ، حين كان
يكتسب في الحرب وسام الأبطال ، حين كان يعالج في المستشفى
وقد أصابت ذراعه رصاصة وأصابت ساقه ضربة السيف . ثم
تزوج ، وكان جميلاً ، عظيم الثروة ، عظيم الإسم ، رفيع المكانة
نخاعته زوجته وما زالت تخونه شاباً وكهلاً وشيخاً . وهو يتحدث
إلى صاحبه فينبئها بأنه يثق بها الثقة كلها . فإذا أظهرت
صاحبه اغتباطها لذلك أظهر لها أنه ليس مغفلاً ، وقال أنه يثق
بأنها إذا أرادت أن تخونه فلن تجعله هزواً بين الناس بل هي
ستستر وتتكم حتى لا يظهر الناس من خيانتها على شيء .
ثم هو إلى هذا كله يسخر من قوانين الاجتماع وأخلاق الناس ،
ويرى أن الحق على كل إنسان أن يؤمن بأن خيانة المرأة
للرجل هي القانون الطبيعي ، وأن الناس يجب أن يستعدوا لها

كما يستعدون للموت . وربما كان من الحق على المدارس أن تأخذ الشبان بالتفكير في ذلك وتوطين النفس عليه ، كما تأخذهم بالتفكير في الموت ورياضة النفس على انتظاره . وهو على هذا كله طيب القلب ، ذكي النفس ، ووفى إذا أحب ، رفيق بمن يحب .

أما الرجل الثاني فهو « فيتويل » شاب في الثالثة أو الرابعة والثلاثين من عمره ، ليس عظيم الثروة ولكن له من المال ما يمكنه من الحياة الرقيقة المستقلة . وهو قوى الشعور دقيقه ، حاد الحس مترفه ، يميل إلى اللذة ميلاً شديداً ، ولكنه في الوقت نفسه يطمح إلى الحب القوى الصحيح . وقد ذاق ألوان اللذة حتى سئمها ، ولكن سأمه هذا لا يمنعه أن يطلب المزيد منها . وهو لا يريد أن يتزوج لأنه جرب كثيراً من النساء فلم تشجعه التجربة على أن يفكر في الزواج . فإذا نصح له ناصح بأن يُقصرَ عن العبث أجاب كلاً ! . إن قلبي فارغ ، ولكنه غير متعب . فهو إذن لا يكره اللذة ، وإنما يريد أن يبحث عن المثل الأعلى فيها . وهو شديد الغيرة ، ولكنه يخفي ذلك حتى على نفسه . وهو ذكي ، واسع العقل ،

ولولا اشتغاله باللذات لاستطاع أن يكون رجلاً ذا خطر في الحياة العلمية العملية :

أما المرأتان فأحدهما « كلودين » قد توسطت في عمرها لم تبلغ الأربعين ولكنها تجاوزت الثلاثين . كانت في أول أمرها تلعب في دور التمثيل ، ثم كرهت هذه الحياة فانتقطعت إلى حياة منظمة . وهي قوية الإرادة جداً لا تدعن للأمر ولا تخضع للسلطة . وهي قوية العواطف جداً ، إذا أحببت لم تتحمل شريكاً في الحب ، كما أنها لا تقنع من الحب بالشيء القليل . وهي جميلة ساحرة ذكية ، ولكن حظها من التعليم قليل . وهي فوق هذا كله أم تحب ابنتها وتؤثرها على كل شيء وعلى كل إنسان .

وأما المرأة الأخرى فهي « هنرييت جامين » دون الثلاثين ، جميلة خلابة ، ولكنها ساذجة ، خفيفة الروح ، حلوة النفس ، تغلب بسذاجتها وجهلها أكثر مما تغلب بجملها وسحر عينيها . فقدت صديقها الذي كانت تحبه حباً شديداً ، وفقدته بعد أن أضاع ثروته ووثرتها فقتل نفسه ، وأخذت تختلف إلى قبره كل أسبوع تحمل الأزهار . فلقيت عند القبور

رجلا شديد الحزن يحمل الأزهار إلى قبر امرأة ويبكي عند هذا
القبر بكاء الجزع . فسألت عنه حارساً من الحراس ، فأنبأها
بأنه من أغنياء باريس ، فقد امرأته فهو يزور قبرها ويحمل إليه
الأزهار في كل يوم . فلما أصبحت لم تنتظر الأسبوع كما كانت تفعل
وإنما غدت إلى قبر صاحبها في الميعاد الذي يغدو فيه الرجل
إلى قبر امرأته ، فبكت وبكى الرجل ، ثم عرضت له فتحدثت
إليه ، فاطمأن إليها ، فعزته عن امرأته وعزاها عن صاحبها ،
وكانت بينهما صلة ، فهما يعيشان معا . وهي تقضى ذلك على
صاحبتهما « كلودين » في سداجة كما تقص عليها سقوط المطر
بعد أن كان الجو صحوا . فإذا رأت شيئاً من الانكار أو الميل
إلى الضحك فسرت موقفها هذا وعلته بأنها أم تحب ابنتها
وتريد أن تنشئها تنشئاً حسناً ، وأن تجمع لها مهراً صالحاً
لتستطيع الفتاة أن تختار زوجها كما تهوى ، وهي تريد أن
تكون ابنتها سعيدة في الزواج . وويل لزوج ابنتها إن خان
امرأته ! . إذن لأقتلنه ! . فإذا سئلت ماذا تصنع إذا كانت
ابنتها هي الخائنة ! أجبت مبتسمة : هذا شيء آخر ! إذن
فسأعينيها على الخيانة

هؤلاء هم الأشخاص الذين أردت أن أقدمهم إليك من أشخاص هذه القصة وقد أطلت في تصويرهم وتعمدت الاطالة ، لأن صورهم هي أشد ما في القصة نفعا ، وليس من سبيل إلى فهم هذه القصة إذا لم تتبين هؤلاء الأشخاص على هذا الوجه . على أن تحليل القصة بعد ذلك لن يكون طويلا .

* * *

نحن في الفصل الأول ، في مدينة باريس ، في قصر نغم يقوم في ميدان الولايات المتحدة ، وتقيم في هذا القصر « كلودين » التي قدمت لك وصفها . وهي صديقة « للكونت دي رويزي » ، وقد أنزلها في هذا القصر وضمن لها فيه حياة سعيدة مترفة . وهي في هذا اليوم قد دعت إلى هذا القصر طائفة من صديقاتها وأقامت فيه عيداً للأطفال ، فأقبل صديقاتها ومعهن أبناؤهن وبناتهن ، وأقبل معهن نفر من الرجال والشبان ، وانقضى العيد وأخذ المدعوون ينصرفون حتى لم يبق إلا « هنرييت جامين » وما كادت تبدأ في الحديث معها حتى أقبل « فيتويل » فيستمر الحديث حيناً ، وتفهم منه ما قدمت لك من أمر « هنرييت » ثم تنصرف وتخلو « كلودين » إلى

« فيتويل » ، فيتحدثان ، فإذا هي حديثه العهد بهذا الشاب ، عرفته منذ حين قصير . وأقبل هذا الشاب يزورها لأول مرة ، فتفهم من حديثهما ما قدمت لك من أخلاقهما ، ولكنك لا تلبث أن تفهم شيئاً آخر وهو أن « فيتويل » يشعر بشيء من الحب لكلاودين ، فيتلطف لها ويتوسل إليها في رفق وفي تلميح ، وهي تشعر بشيء من الميل إليه ولكنها تخفيه وتدافعه عن نفسها . والفتى يتكلف ضروباً من الفتنة ليكسب عطف هذه المرأة ؛ فهو يفلسف ويعرض خواطر غريبة في أخلاقه وفي أخلاق النساء ، وفيما كان بينه وبينهن من صلة ، وكلما عرض خاطراً من خواطره أو رأياً من آرائه ظهر بينه وبين هذه المرأة اتفاق غريب في طريقة الفهم والتفكير والحكم . وقد قرب بينهما كل شيء ، ولم يبق إلا الاعتراف . وهو يلح ، وهي تفر أمام هذا الالحاح . على أن دفاعها قد أخذ يضعف ويلين ، ولكن « الكونت دي رويزي » قد أقبل ، فتقدم إليه الشاب ويتعارف الرجلان . ثم ينصرف الشاب ، ويخلو الكونت إلى صاحبتة ، فإذا تحدثا فهمت من حديثهما كل ما قدمت لك في وصف هذا الشيخ . وفهمت أن الشيخ قد أحب

هذا الشاب ومال إليه ، لأنه محافظ ، ولأنه سجن في سبيل
الحفاظة ثم ينصرف الكونت ويترك صاحبتة وحدها . ولا
تكاد تخلو إلى نفسها حتى يدخل الخادم يحمل إليها كتابا .
فضته ونظرت فيه علمت أن « فيتويل » قد كتب إليها مجرد
انصرافه من عندها يبعث إليها تذكرة للأوبرا ، ويعرض عليها
أن تصطحبه إن أرادت . فتغضب ، لأنه أسرع وأسرف في
الالاح ، ثم تجيب بالرفض وترد التذكرة الى صاحبها . وقد
انتهى هذا الفصل وعرفنا منه الأخلاق التي تميز هؤلاء
الأشخاص جميعاً ، وعرفنا منه أيضاً أن بين « كلودين »
و « فيتويل » حباً ناشئاً لا يمكن أن يضيع .

* * *

فإذا كان الفصل الثاني ، فنحن في القصر نفسه ،
ولكن في غرفة النوم ، وقد انتصف الليل ودقت الساعة الثانية
من الصباح ، ونحن في آخر السنة وفي فصل الشتاء ، والتلج
يتساقط من وراء النافذة ، و « كلودين » قد حلت إلى صديقها
الشيخ وهما يتحدثان عن عشاء كانت كلودين قد قدمته إلى
طائفة من أصدقائها ، والكونت يثنى على هذا العشاء ويثنى

على صاحبه . وها يذكران المدعويين ، فيذكر الكونت أن « فيتويل » كان مشغولاً « بهنرييت جامين » التي كانت جارته على المائدة وتتكلف « كلودين » الإعراض عن ذلك . ثم تريد كلودين أن تتجرد من ثيابها لتستريح ، ويعينها الشيخ على ذلك في حب وغزل ، ولكنه لا يوفق لجهله بثياب النساء وفنون البِدْع في ذلك ، فتدعو خادمها لتعينها ، حتى إذا فرغت من ذلك أظهرت الاستعداد للنوم ، وأظهر الشيخ الطمع فيما يطعم فيه في مثل هذه الساعة وهذا الحال ، ولا سيما أنه مسافر غداً إلى إيطاليا ليأتمر والجو بارد والثلاج يتساقط ، ولكنه لا يرى منها إلا فتوراً ونفوراً ، وهو يحبها ، وهو طيب القلب فيذعن لما تريد ويُقبلها لينصرف . فلا تكاد تطمئن إلى قبلته ثم تحس أن نفورها قد آذاه فترق له وتعطف عليه وتودعه وداعاً حسناً ، وينصرف راضياً محزوناً . ولا يكاد ينصرف حتى تسرع إلى النافذة فتفتحها وتقدم منها المصباح كأنها تشير إلى إنسان ، وهي في الحق تشير إلى إنسان . فلم تكد تمضي لحظة حتى يقبل « فيتويل » وكان ينتظر أمام الباب أن ينصرف الشيخ ليصعد هو إلى القصر ، فتتلقاه ويكون بينهما خصام

طويل لذيد . ذلك أن الحب الناشئ قد انتهى إلى غايته بعد ثلاثة أشهر ، مضت على ذلك أشهر أخرى عاش فيها العاشقان عيشة لذيدة ولكنها مختلصة . فهما يتنكران ويتكتمان لا يريدان أن يظهر الشيخ على ما بينهما ، فهما يحبان الشيخ والشيخ يحبهما ، وهما لا يريدان أن يسيئا إليه . وهى بعد تذكر أن الشيخ يثق بها ويثق بأنها لن تعرضه للعار ، وهى لا تريد أن تعرضه للعار ولا للألم ، لأنها تحبه وتشكر له جميله ثم هو أبو ابنتها التى بلغت الثامنة من عمرها . تعيش مع صاحبها الشاب عيشة لذيدة مختلصة ، ولكنها منغصة أيضاً ، فهى شديدة الغيرة ، تراقب صاحبها مراقبة شديدة ، تسأله فى كل يوم أن يقص عليها سيرته حين كان بعيداً عنها ، وهو يفعل فلا يهمل من حياته شيئاً مهما يكن تافهاً . وهو ليس أقل منها غيرة ؛ فهو يكره أن تظهر الظرف للناس ، وهو يكره بنوع خاص هذه الصلة بينها وبين الشيخ ، ويؤذيه أن يختلس اللذة والحب وألا يظهر فى القصر فى مثل هذه الساعة إلا إذا انصرف الشيخ . كلاهما شديد الغيرة ، ولكن كليهما شديد الحب وهل توجد الغيرة بدون الحب : يختصمان ثم يرضيان . وقد

أحسا الجوع ؛ لأنها لم تأكل حين كانت على المائدة وإنما اشتغلت بمراقبة صاحبها وهو لم يأكل وإنما اشتغل بمراقبتها . فليأكل الآن ! وهي تذهب فتحضر ما تجد من بقايا الطعام ، فياً كلان ويشربان ، ولكنهما لا يتجاوزان هذا إلى شيء آخر ؛ لأنها متعبة ، ولأنها - وذلك شيء نفهمه نحن - لا تستبيح لنفسها أن ترضى للشاب بما أبت على الشيخ منذ حين قصير . . . ينصرف الشاب وقد أتقنا على أن يسافرا غداً من باريس ليقضيا في الريف أياماً يتمهزان فيها غياب الشيخ في إيطاليا .



فإذا كان الفصل الثالث ، فقد مضت أشهر ونحن في بيت الشاب ، وهو يتحدث إلى صديق له يزدرى الحب والمحبين والنساء ، ويعنى بالبحث عن الظواهر النفسية . وقد أقبل الشيخ فعاتب الشاب في رفق ، لأنه وعده ووعد « كلودين » أن يلتقوا أمس ليتعشوا معاً ثم يذهبوا إلى ملعب من ملاعب التمثيل ثم أخلف الوعد ، فيعتذر الشاب بالنسيان ويطلب إليه الشيخ في رفق وسذاجة أن يزور « كلودين » وينصرف ،

فيتحدث الشاب إلى صديقه . وقد فهمنا من هذا الحديث أنه مغاضب لكلودين ، يريد أن يسلو عنها ، ويريد أن يسافر مساء اليوم ليغيب حيناً عن باريس . أما صاحبه فلا يصدقه بل يكذبه ويسخر منه . فعزمه على السلو ليس صادقاً ؛ إذ لو كان صادقاً ، لما احتاج إلى الهرب ولما امتنع من أن يرى صاحبه ويعلم إليها القطيعة . وتدخل « هنرييت جامين » فتخلو إلى الشاب وتنبئه بأنها أقبلت من عند « كلودين » وأن كلودين محزونة ، وأنها في حال سيئة ، وتتوسل إلى الشاب أن يزورها ويراضيها ، فيظهر الشاب سخطاً شديداً لأن « كلودين » تصيَّق عليه وتسرف في الغيرة وتعتدى على حرите اعتداء متصل لا يطاق . ويعلن أنه مسافر ، ولكنه سيكتب إلى كلودين كتاباً رقيقاً . فلا تكاد تنصرف هذه المرأة ، ولا يكاد هو يأخذ في الكتابة حتى تدخل « كلودين » لأنها كانت تنتظر صاحبها أمام الباب ، فلما علمت بعزمه على السفر لم تستطع صبراً فصعدت إليه تترضاه ، ولم يكدرها حتى كان عتاب شديد ، وحتى أخذ يطلب إليها ملحاً عليها أن تترك الشيخ وتخلص له هو . وهنا موقف يبين لك عن خلق هذه المرأة وعن خلق أمثالها من

أفراد هذه الطبقة التي قدمت وصفها لك ما لم أذكره في أول هذا الفصل هذا الخلق هو شيء من الوفاء غريب لا عهد لك به . هي تحب الشاب وتؤثره على كل إنسان إلا ابتها وهي مستعدة للتضحية في سبيل هذا الحب بكل شيء إلا بهذا الشيخ . لا لأنه أبو ابتها فحسب ، بل لأنه رجل ضعيف قد وثق بها واطمأن إليها ، وقد وجد عندها سعادة أعانته على احتمال الحياة . وهي لا تريد ولا تستطيع أن تسلبه هذه السعادة ، هي تخونه ، ولكنه يجهد هذه الخيانة ، وإذن فهو لا يألم لها . وهي تكره أن يألم ، وتعلم أنه سيموت يوم تقطعه . وهي مستعدة لكل شيء إلا الجبن والندالة . ومن الجبن والندالة أن تتعمد الإساءة إلى هذا الشيخ الذي لم تلق منه إلا خيراً .

أتعلم أنك إن أساء إليك إنسان لم تحجم عن الموت لتنتقم لنفسك متأثراً بعاطفة الشرف التي تسيطر على الرجال ؟ فاعلم أن عندنا نحن النساء عاطفة تشبه عاطفة الشرف هذه وتحول بيننا وبين التورط في مثل هذه الدنية . أنا أضحى في سبيلك بكل شيء إلا هذا الشيخ ! . ويظمن الفتى إلى ذلك ، فهو يحبها ويحب منها هذا الوفاء ، وهو ليس كغيره من العشاق الذين يأبون إلا الاستئثار السخيف بكل شيء ، وإنما يكفيه أن

يستأثر من صاحبتة بحبها وحنانها وقدرتها على اللذة . وإذن فلن يسافر ، وإذن فسيتصل ما بينهما من حب ، وسيناقان إبقاء على هذا الشيخ .

* * *

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في مدينة من مدن إيطاليا وقد أقبل الليل وخلا العاشقان وهما يتحدثان متأثرين متأثراً شديداً ، يتجلدان ويتكلمان القوة والحزم ، لأنهما قد أزما أمرأ عظيماً . ذلك أن أشهراً قد مضت فلم تزد العيرة بينهما إلا شدة ، وأصبح الشاب لا يستطيع أن يحتمل هذا النفاق ولا يرضى إلا أن تنقطع الصلة بين صاحبتة وبين الشيخ ، وهي لا تريد ذلك ولا تقبله . وإذن فقد اتفقا على أن يقطعا ما بينهما من حب . واستأذنت الشيخ في شهر تغيبه عنه فأذن لها ، ومكثت هذا الشهر مع صاحبها خالصة له ، ثم انقضى الشهر ويريد الشاب أن يسافر إلى أقصى الأرض مع بعثة جغرافية ، وستأني العربية لتقله إلى المحطة بعد دقائق . فهما متأثران محزونان لهذا الفراق ، وهي قد فقدت قوتها ، وخيل إليها أنها لن تستطيع أن تحتمل هذا الفراق ، وأنها تستطيع أن تهجر الشيخ

لتبقى مع صاحبها فتعرض عليه ذلك فيأبى ، لأنه يعلم من أمرها
عجزها عن الإساءة إلى هذا الرجل ، وهي إنما تخطيء الآن حين
تقدر أنها تستطيع هذه الإساءة فلينقطع الحب بينهما . وحسبهما
من هذه السعادة القوية التي ظفرا بها كل هذه الأشهر . وهو
يعلم أن هذا الفراق مؤلم . أليس يشعر بهذا الألم ! أليس سيشعر
به في أثناء سفره ! ولكن لا بد من احتمال هذا الألم إذ لم يكن
عنه منصرف . وهنا حوار قصير ، ولكنه آية في الدقة والتعمق .
هي جزمة ولكنها مقتنعة بأنها لن تستطيع أن تسيء إلى هذا
الشيخ . وهي في الوقت نفسه لا تريد أن تنقطع الصلة بينها
وبين الشاب . تريد أن تذكره أبدأ وأن يذكرها أبدأ ، وأن
يكون بينهما شيء مشترك في كل يوم ؛ فتعرض عليه عهداً
وهو أن ينظر كل منهما إلى نجم بعينه في ساعة بعينها من الليل
فهى ستجد في ذلك شيئاً من العزاء ، وستعلم أنه ينظر إلى
ما تنظر إليه في نفس الوقت الذي تنظر فيه إلى هذا النجم . . .
فيجيبها : ولكن الليل سيظلك حينما يظلمني النهار ! فليس من
الممكن أن ينظر أهل الأرض جميعاً في وقت بعينه إلى مكان
بعينه من السماء .

وإذا هي دهشة ، لأنها علمت ما لم تكن تعلم . وإذا هي تشعر بشيء من خيبة الأمل العظيم ، وتلوم على أنه أظهرها على هذه الحقيقية العالمية القاسية . وقد أقبلت العربية وافترق العاشقان بعد حزن ولوعة .

فإذا كان الفصل الخامس ، فقد مضى عام ونصف عام على هذا الفراق ، ونحن في باريس في القصر الذي كنا فيه في الفصل الأول ، وفي نفس المكان الذي كنا فيه في الفصل الأول من القصر ، ولكن أشياء كثيرة قد تغيرت . فليس القصر قصر « كلودين » لأنها باعتها وباعته لصديقتها « هنرييت جامين » التي اشتدت الصلة بينها وبين صاحبها الذي لقيته عند القبر حتى اشترى لها هذا القصر وأزّلها فيه . وهي اليوم تحتفل أول مرة في قصرها الجديد ، وقد دعت أصدقاءها وصديقاتها الذين رأيناهم في الفصل الأول . وهم جميعاً يعبثون ويلهون ويتبادلون أحاديث كلها مجون وعبث وتلميح إلى ما لا يصرح به وهم جميعاً سعداء ، إِمّا بما يلقون في الحاضر ، وإمّا بما يأملون في المستقبل . وقد انتحى اثنان ناحية من

المكان ، فها هادئان يتحدثان في حزن مبتسم ، وهما الشيخ
وصاحبته « كلودين » يذكران هؤلاء الناس وسرورهم وابتهاجهم
وما هم فيه مما يشبه الجنون . ثم تنظر فإذا « فيتويل » بين
القوم وإذا هو يقبل ليحيى « كلودين » فيخلو إليها حيناً والقوم
لاهون في الرقص والعبث . ويتحدث العاشقان فيما كان من
أمرها منذ ذلك الفراق . أما هو فلم ينس ولم ينقطع عن
التفكير في صاحبته والحنان عليها ، ولكنه مع ذلك تعزى ،
وتعزى بهذا البحث العلمى وبما اعترضه في طريقه من الأشياء
والمناظر المختلفة . ومها يكن عزائه فلن يستطيع أن يمحو من
قلبه ذكرى يملؤها الحنان على تلك الأيام الماضية . وأما هي
فقد تألمت وكان ألمها شديداً ، فأصابها علل وأمراض عصبية ،
وأدركها الشيب كما أدركه ، ولكنها تخفى شيها في حين هو
لا يخفيه . وقد جهل الناس جميعاً قصتها ، ولم يشعروا منها
بشيء إلا ابنتها الطفلة ، فقد فطنت للقصة وعرفت دخيلتها ،
وأرادت أن تنتقم لأمها ففقت عيني « فيتويل » في صورة
كانت عندها ، ثم يمضيان في الحديث .

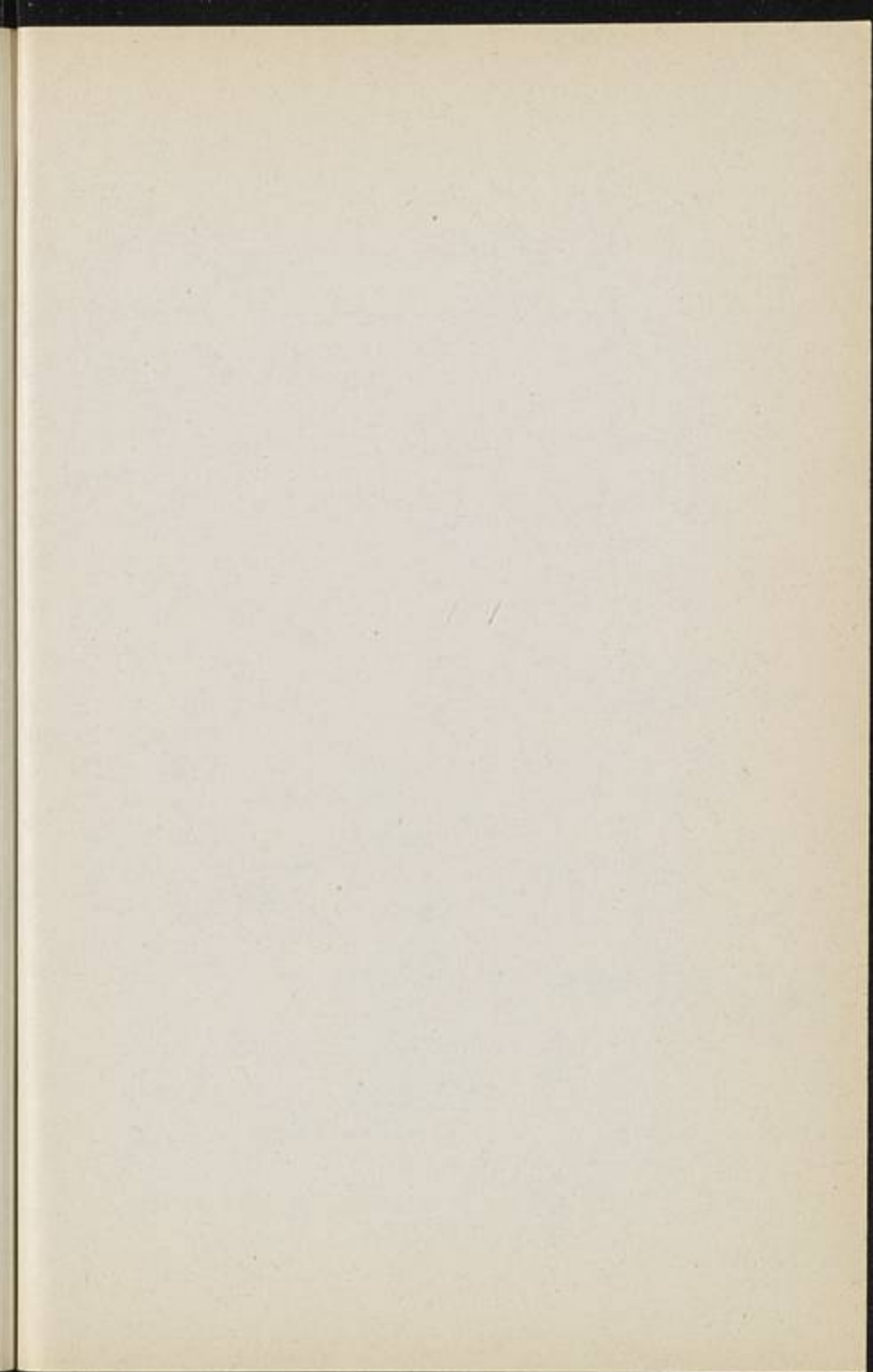
أما هو فقد تعزّى وما يزال يذكر صاحبته ويحتفظ
بهذه الفكرة ولكنه سيتزوج . سيتزوج أختاً لرفيق له في
البعثة الجغرافية لقيها في الهند الصينية ورافقتها في الطريق إلى
باريس فرضيها زوجا له .

ليست جميلة ولا خلافة ككلودين ، ولكنها رعوم ، وفيها
قوة وإرادة وميل إلى العلم . فإذا نظرت كلودين إلى صورة الفتاة
ابتسمت لها وأحببتها وهنأت صديقتها في حزن ولكن في إخلاص .
وتأثر هو بهذا الإخلاص وبهذا النوع من التضحية وأخذ يثنى
عليها ويرق لها ، ولكنها هي أيضاً تعلن إليه أيضاً أنها ستتزوج .
نعم ستتزوج ويكون الشيخ زوجها . . . فقد فرت امرأة الشيخ
مع ضابط شاب ، وأصبح الشيخ يستطيع الطلاق دون أن يخرج
عن عاداته وآرائه . وقد فعل وعرض على « كلودين » أن
تكون زوجه الشرعية ، فترددت ثم قبلت . أليست تفكر في
ابنتها ! أليست تعطف على الشيخ في آخر أيامه ! وقد باعت
هذا القصر ، وستترك باريس مع زوجها وابنتها ، وسيخلون إلى
حياة هادئة منظمة طاهرة في أعماق الريف . وهما في هذا
الحديث إذ يقبل الراقصون اللاهون في ضحيجهم وعجيجهم ،

فيخفون علينا صوت هذين العاشقين اللذين يذكران الماضي
ويتحدثان عن المستقبل . يخفون صوتهما فيغرق هذا الصوت
ويغرق صاحبه في ضجيج الحياة اللاهية العابثة كما يغرق في هذا
الضجيج كل شيء في كل يوم .

وكم من دون هو الحياة وعبثها من أحاديث ليست أقل
تأثيراً ولا صدقاً من هذا الحديث ! ..

مايو سنة ١٩٢٤



الخطر الآخر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « موريس دونيه »

ليست كالتقصه التي حدثتك عنها في الأسبوع الماضي ،
أو هي لاتشبهها من وجوه كثيرة . فهي لا تدرس أشخاصاً ولا
تعطى منهم صوراً بينة تمثل طبقات مختلفة من الناس . أو هي
إن درست هؤلاء الأشخاص ومثلهم تمثيلاً قوياً ، فليست تتخذ
من هؤلاء الأشخاص غرضها الأول ، وليست تدرسه لهم لأنفسهم ،
وليست تريد أن تتخدم عناوين لطبقات من الناس ، وإنما
تتخدم وسائل وطرقاً للغرض الذي تمصد اليه والغاية التي تريد
أن تبلغها . هي لا تدرس شخصاً ولا أشخاصاً ، وإنما تصور عاطفة
أو عواطف . بل يجب أن نكون أدق من هذا وأكثر وضوحاً ؛
فهي لا تدرس العواطف ولا تتصورها من حيث هي ، وإنما

تدرس الجهاد بين العواطف وتصوره . وهي تعنى عناية خاصة بالجهاد بين عاطفتين لها في حياتنا الأثر كله ، ولها عليها السيطرة كلها . أريد عاطفة الحب وعاطفة الأمومة .

القصة جهاد بين هاتين العاطفتين ، بل ربما لم يكن هذا التعبير صحيحاً ؛ فالقصة تاريخ لهاتين العاطفتين : تدرسهما حين تنشآن ، وتدرسهما وهما تموان ، ثم تدرسهما حين تصطدمان ؛ ثم تسجل انتصار إحداها على الأخرى ، أو — بعبارة أصح وأدق — تسجل انتصار كليهما على الأخرى . فكلتا العاطفتين منتصرة ، وكلتاها منهزمة ، والأشخاص في هذا كله وسائل وسبل لا أغراض ولا غايات . فلو استطاع الكاتب أن ينطق هذه العواطف ويحملها على الحركة والاضطراب لأعرض عن الأشخاص إعراضاً . ولكن ذلك غير ميسور ؛ فليس للعواطف من حيث هي وجود مستقل ، وإنما توجد في الناس . فلا بد لإحيائها وتحريكها وتصوير الجهاد بينها من أن يحيا الناس ويتحركوا ، ويجاهد بعضهم بعضاً . ولو أن الكاتب عدل عن الأشخاص واكتفى بالعواطف في أنفسها لما كان كاتباً مثلاً ، ولكان فيلسوفاً أو أحد الباحثين عن ظواهر علم النفس .

هو إذن مضطر الى الأشخاص ، يتخذهم وسيلة الى درس العواطف . وما الأشخاص بدون العواطف !؟ وإذا كانت العواطف لا تستطيع أن توجد وحدها ولا أن تتحرك وتضطرب فالإنسان كذلك لا يستطيع أن يوجد وحده ولا أن يتحرك ويضطرب ، وإنما هو محتاج في وجوده وحركته واضطرابه الى هذه العواطف التي تفيض عليه الوجود وتبعث فيه الحركة والحياة . لا وجود للإنسان بدون العاطفة ، ولا وجود للعاطفة بدون الإنسان . وإذن فمن درس الإنسان فقد درس عواطف الإنسان . وإذن فليس كاتبنا مسرفاً ولا متجاوزاً القصد ولا ممعناً فيما بعد الطبيعة إذا هو لم يتناقل في درس الأشخاص وتصويرهم تصويراً بيناً واضحاً ، وإنما قصد الى ناحية من نواحي الفن فأتمنها وبرع فيها .

ليس الأشخاص غرضاً من أغراضه ، وهم مع ذلك أحياء في قصته ، أحياء موفورو الحظ من الحياة ؛ فهم يتحركون ويعملون في خفة ونشاط لا تجدهما إلا عند المهرة من كتاب هذا الفن . وأنت تقرأ القصة أو تشهدا فلا تشعر فيها بتكلف ولا تصنع ، وإنما يمدحك الكاتب عن نفسك فيخيل اليك

أنك تشهد فصولاً من فصول هذه الحياة التي يحياها الناس في كل يوم لولا أنك مضطر إلى أن تلاحظ أشياء قليلة تكلفها الكاتب تكلفاً لأنه لا يستطيع إلا تكلفها .

قلت إن القصة جهاد بين عاطفتي الحب والأمومة . ولكنني أعود اليوم فالفتك إلى ما لفتك إليه في حديث الأحد الماضي من أن كاتبنا رشيق خفيف الحركة سريعها ، دقيق كل الدقة في تصوره وتعبيره عما يتصور . فهو يعرض لأشد ألوان الجهاد عنفاً فيمثله أصدق تمثيل ، ويترك في نفسك أشد الآثار وأعماقها وأبقاها ، دون أن يتكلف لذلك العبارات الضخمة أو الجهد الشديد ، بل دون أن يتكلف لذلك شيئاً . هو كالموسيقى الماهر الذي لا يحتاج إلى أن يثقل على أداة من أدواته الموسيقية ليستخرج منها أعذب النغم وأمره وأشدّه استتارة للعواطف في نفسك ، وإنما يكفيه أن يلمسها لمساً خفيفاً فإذا هي تخرج الآيات البينات . وكذلك كاتبنا ، يلمس الموضوعات لمساً خفيفاً ، أو قل يلمس قلبك لمساً رقيقاً ، فإذا هو قد أحيا فيه العواطف بما يشخصها ويمنحها القوة والحياة ، ويخلق بينها ألوان الجهاد . لن نجد في قصصه هذه الألفاظ الضخمة العنيفة التي يسحرك

عنفها وضخامتها ، وإنما تجد فيها الألفاظ العادية المألوفة التي يستطيع الكاتب بفنه أن يمنحها حياة ليست عادية ولا مألوفة . ومن هنا كان تأثرك بقصص هذا الكاتب صادقاً طبيعياً من جهة ، وهادئاً وديماً من جهة أخرى . يحزنك دون أن يحول بينك وبين الابتسام ، ويضحكك دون أن يعصمك من الحزن والاكتئاب ، بل ربما لم تجد فيه حزناً خالصاً ولا سروراً خالصاً ، وإنما هو في جميع أطواره مزاج من الحزن والسرور . ولنترك القصة نفسها لنثبت لك صدق ما نقول .

نحن في قصر من قصور باريس نغم يدل أثنائه على أن الذين يسكنونه قوم مثرون ضخام الثروة . وهم في الحق كذلك . فصاحب القصر رجل يشرف على طائفة من المصانع تغل عليه أموالاً كثيرة ، فهو في الوقت نفسه من رجال الصناعة ومن رجال المال . وهو يعيش عيشة ملائمة لمكانته وثروته ، فينفق عن سعة وفي غير تقتير . وزوجه تتحدث عن شجرة غرسها في حديقته ، وبدأت تؤتي شيئاً من الثمر ، فإذا كل ثمرة من هذا الثمر القليل الذي آتته قد كلفت صاحب القصر آلافاً من

الفرنكات . هو غنى ، وهو مترف ، وهو مطلق اليد في المال .
وزوجه جميلة فائنة عذبة الصوت خلابته ، ليست أقل من زوجها
ترفاً ولا عبثاً بلال ، ولعلها أشد منه إمعاناً في الترف والعبث .
وقد دعا صاحب القصر الى العشاء في هذه الليلة نقرأ من أصحابه
وأصدقائه . يعيننا منهم رجل متوسط السن هو « اتين جادان »
كان رفيقاً لصاحب القصر في المدرسة ، ثم افترقا بعد أن أتما
الدراسة ، فسعد أحدهما وعاش الآخر عيشة كد وعناء في مدينة
من مدن الأقاليم ، واقترن بفتاة هي آية في الجمال والسحر ، هي
« كلير » زوجه التي تحضر معه هذا العشاء . وكانا قد أقبلوا الى
باريس يقضيان فيها أياماً فلقبهما صاحب القصر فدعاها الى قصره
مغتبطاً بلقائهما ، ودعا معهما قوماً آخرين ، منهم رجل لا بد
من أن نذكره وهو « فريديير » وهو الحامى الذي بعد صوته
في الحمامة حتى أصبح عالماً من أعلامها ولما يجاوز الخامسة والثلاثين .
ولم يكده هؤلاء القوم جميعاً يلتفون الى المائدة حتى كان فيهم
دهش وعجب ، لأنهم جميعاً كانوا أصدقاء ثم فرقت بينهم أحداث
الحياة حتى نسي بعضهم بعضاً نسياناً قوياً أو ضعيفاً . وقد
ذكرنا أن « اتين جادان » كان رفيقاً في المدرسة لصاحب

القصر ، ونذكر الآن أن « فريديير » كان صديق الطفولة والصبا والشباب « لكليير » قرينة « اتين جادان » هذا . ولم يكن الأمر قد وقف بينهما عند الصداقة ، بل كان قد تجاوزها إلى الحب ، وإلى الحب الشديد القوي ثم حيل بينهما وبين الزواج ، فانصرف المحامى الى باريس وأقام فيها وتزوجت صاحبتة من زوجها هذا وأقامت في مدينة من مدن الأقاليم . والتقى هؤلاء الناس جميعاً بعد فرقة اتصلت اثني عشر عاماً ، فهم دهشون ، وهم مغتبطون ونحن نشهدهم وقد انصرفوا عن المائدة وأقبلوا إلى الحديقة يتحدثون ويتناولون القهوة وما إليها . وليس من شك في أن أحاديثهم إنما تدور حول الماضى الذى عرفوه واشتركوا فيه ، وحول ما كان لكل منهم من سيرة وحظ أيام هذه الفرقة الطويلة . وفي هذا الحديث لذة تضحك ولكنها تحزن أيضاً ؛ فقد كان هذان الصديقان رفيقين في المدرسة خرجا منها في سنة واحدة ، وكان أحدهما أول الفائزين في الإمتحان وكان الثانى آخرهم ، ثم لم يتح له الفوز إلا لأن صديقه أعانه وأتاح له هذا الفوز . فلما استقبلا حياتهما العملية انعكست بينهما آية الفوز . فأما آخر الفائزين فهو صاحب القصر الذى أتاحت له الثروة

الضخمة والمكانة العالية . وأما أول الفائزين فهو صديقه هذا الذي يعيش عيشة كد وعناء ، ويكسب رزقه بالعمل في شركة من شركات السكك الحديدية . وهما يتحدثان في ذلك . يغتبط أحدهما بأنه كان في المدرسة غيبياً بليد الذهن ، ويندب الآخر حظه بأنه كان في المدرسة ذكياً حاد الذكاء ، وهما يُعمَّمان ويتخذان من هذا قاعدة هي أن أشد الناس ذكاءً في المدرسة أسوأهم حظاً في الحياة العملية ، وأن الفوز مقدور للأغبياء الذين لا يذوقون العلم ولا يميلون إليه . وهما يضربان لذلك الأمثال ، ويكثران منها حتى يصلا إلى اسم من الأسماء كان صاحبه ذكياً نابهاً وأتيح له شيء من الفوز كاد ينقض القاعدة لولا أن سوء الحظ أقبل فرد الأمر إلى نصابه ، واضطر هذا الرجل إلى الإفلاس ، وإلى أن يعرض مصنعه للبيع ، فاشتراه صاحب القصر وهو يعيد تنظيمه وينتظر من ورائه ربحاً كثيراً . وهنا تعرض لصاحب القصر فكرة وهي أن يستعين بصديقه « ايتين جادان » فيما يعد من عمل ، فيعرض عليه ذلك ويرغبه فيه ، ويؤكد له أنه كان دائماً مصدر الخير والثروة لشركائه والذين اتصلوا به .

فإذا أظهر شيئاً من التردد ألح عليه ودعاه إلى مكتبه ، ليظهره على الصور والأوراق فيذهبان . ولا يكادان يذهبان حتى تستأذن صاحبة القصر في أن تترك أضيافها حيناً لأنها ستغنى بعد أيام في حفلة من الحفلات ، وهي مضطرة إلى أن تعد نفسها لهذا الغناء ، ولن تغنى وحدها بل سيشاركها « ميان » أحد الأضياف ، وإذن فسيذهب معها أيضاً إلى غرفة الاستقبال حيث البيانو ليجربا صوتيهما وغناءهما . وإذن فلم يبق أمامنا إلا « كلير » وصديقتها القديم « فريديير » فهما يتحدثان حديثاً عادياً هادئاً في أول الأمر ، يذكران صاحبة القصر وانصرافها عنهما في غير كلفة ولا أدب . ونفهم من الحديث الذي يقصه « فريديير » على صاحبتها أن صاحبة القصر لم تتركهما للغناء ، وإنما تركتهما للحب ، فهي مشغوفة بصاحبها الموسيقي وهو مشغوف بها ، وهما لا يتكفان إخفاء هذا الشغف وإنما يرسلانه على طبيعته . فإذا حاولت « كلير » أن تنكر على صديقتها هذه الغيبة أجابها إنى لم أقل شيئاً غريباً ، وإنما حدثتك بما يتحدث به الناس . على أنى لا ألوم صاحبة القصر فقد خانها زوجها وأعرض عنها ، فأخذت تتمعزى وتسلى عن نفسها وبلغت إلى

الموسيقى كما كان يلجأ النساء إذا خانهن الحظ إلى الدير . وهما في هذا الحديث إذ تدعوها صاحبة القصر من النافذة : « أين أنتما ؛ فأنا لا أراكما » فيجيبها « فريدير » نحن حيث تركتنا لم نبرح مكاننا وإنما تحجبنا عنك الأشجار . فتسأل : « وهل ترياننا ؟ » فيجيب : « كلا ! لأن الأشجار التي تحجبنا عنك تحجبك عنا » . وهو كاذب ، فهما يريانها وهي لا تراهما . فإذا سألته صاحبتة عن هذا الكذب ولامته فيه أجابها : « إنما أحسنت إليها لأني هونت عليها أمراً تطمع فيه وتصتعبه ، انظري » . وينظران فإذا صاحبة القصر وصديقتها الموسيقى معتقتان يتلاثمان . . . فتخجل « كلير » لذلك ، ثم تسأل :

أليس لها ولد ؟

فيجيبها : « كلا ، هل تظنين أنها كانت تعرض عن الحب

لو أن لها ولداً ؟ »

فتجيب : « أحسب أن الولد يعصم أمه من الهفوات » .

أعتقد أنك مخطئة ، وأن الأمومة والحب يستطيعان أن

يتفقا الاتفاق كله » .

وهنا وضع الكاتب نظريته التي ستدور حولها القصة ، وهي أن الحب والأمومة يتفقان أو لا يتفقان ، ويجب أن نتفق نحن أولاً . فالكاتب لا يريد الحب من حيث هو ، لا يريد الحب المشروع بين الزوجين ، وإنما يريد الحب الآثم بين الخلدنين . يسألها : ألها ولد ، فإذا لها صبية في الثانية عشرة من عمرها .

— وهل هي جميلة ؟ .

فتردد في الجواب تواضعاً واستحياء ، ثم تجيب بأنها جميلة بارعة الجمال .

وما اسمها ؟

— « مدلين »

ثم يذكران صباحها وشبابها وحبهما ، فإذا هو مستمسك بهذا الحب وفي له متأثر به أشد التأثر حتى في أوقات لهوه وعبثه ، فهو كغيره من الشبان قد لها وعبث وأخذ بحظه من اللذة ، ولكنه لم ينسها لحظة . وأكثر من هذا أنه حين لها وعبث لم يميل من النساء إلا إلى من كانت تشبهها شبيهاً قوياً . وإذا هي ليست أقل منه استمساكاً بالحب وتأثراً به ، وإذا

هي كانت تغار وتألم كلما سمعت بخليلاته وأخذانه ، وإنما هي تصدقه فيما يزعم ؛ فقد رأت في ملعب من ملاعب التمثيل إحدى خليلاته فإذا هي تشبهها حقاً . وهنا يضع لنا الكاتب النظرية الثانية التي تدور حولها القصة : وهي أن صاحبنا ككثير غيره من الناس لا يحب شخصاً من الناس بعينه ، وإنما يحب طائفة من الخلال والشخصات تتميز بها المرأة التي يهواها . هو يحب شكلاً من أشكال النساء ، أو يحب « عينة » من النساء إن أعجبك هذا التعبير المبتذل . ثم يتصل الحديث بينهما فلا نشك في أنهما صادقان في هذا الحب ، ولا نشك في أن طبيعتهما تدفعهما دفعاً عنيفاً إلى استئناف هذا الحب وإلى الانتقام لأنفسهما من هذا الحرمان الذي احتملاه . وهما يقاومان ، أما هو فيتكلف المقاومة تكلفاً ، وأما هي فتقاوم مخلصه تريد أن تبقى لزوجها وابنتها . ولكنها لا تحب زوجها ولا تسعد بقربه ، فليس لها حصن من هذا الحب الجديد إلا ابنتها وإلا أنها ستسافر منذ غد . ولكن زوجها يتحدث إلى صاحب القصر في مكتبه حول تلك الفكرة التي إن قبلت فستضطرها إلى ترك الأقاليم والإقامة في باريس . وانظر إلى زوجها وقد أقبل مع

صاحبه مبتسما يظهر القبول . أما هي فستمانع في ذلك ممانعة شديدة ، ولكنها واثقة بالإخفاق لأن زوجها لا يعتد لها برأى .

* * *

فإذا كان الفصل الثاني ، فقد مضت أربعة أعوام على ما قدمت لك . ونحن في باريس في بيت « كلير » فقد قبل زوجها ما عرض عليه صاحبه واستقر في باريس منذ أربعة أعوام . وكان ما لم يكن منه بد ، فانتهى الحب إلى نتائجه بين « كلير » وصديقتها « فريديير » . ونحن في أوائل السنة ، ولهذا نشهد أبوى « اتين جادان » قد أقبلوا يزوران ابنيهما ، ونشهد معهما أختاً « لكليير » شقية تعسة خانها زوجها وأضاع عليها ثروتها كلها ، فلجأت إلى أختها وطلبت الطلاق ، « وفريديير » هو الذى يتولى عنها ذلك . ثم نشهد إلى هؤلاء جميعاً فتاة في السادسة عشرة من عمرها ، جميلة ، بارعة الطلعة ، رشيقة ، فاتنة اللفظ ، ليست بالطفلة ، وإنما هي امرأة أو تكاد تكون امرأة ، تفكر كما تفكر النساء وتتحدث كما يتحدثن . ولعلها بل لا شك في أنها تحس كما يحسسن . ولكن الناس جميعاً من حولها ينظرون إليها كما ينظرون إلى الطفلة ، ويضحكون

من جدّها كما يضحكون من هزلها ، وذلك يؤذيها ويغضبها ؛
فهي تكره أن تكون طفلة لأنها ليست طفلة . وهي تريد أن
ينظر إليها أهلها وأصحابها كما هي لا كما يريدون أن تكون .
وهذه الفتاة هي « مدلين » بنت « كليبر » ، وهي تتحدث
إلى جدتها وخالتها في شؤون مختلفة ، حتى إذا عرض للحب
تحدثت فيه كعالمه به ، ثم إذا عرض للزواج ذكرت آمالها
وأمانها في لهجة جادة أثرت في جدتها وخالتها . فتسألها
أحب أحدا ! فتغضب الفتاة وتنصرف . ونسمع الجدة والخالدة
يتحدثان فنفهم أن « فريدير » يتردد على هذا البيت تردداً
متصلاً حتى زالت بينه وبين أهله الكلفة ، وأصبح كأنه واحد
منهم ، وأصبح صاحب البيت لا يستطيع أن يمضي يوماً دون
أن يراه وفهم أن الجدة تفرض أن حفيدتها تحب هذا الشاب ،
وهي تفكر في هذا الحب وأنه قد ينتهي إلى زواج ، ثم نفهم
أن « فريدير » غائب عن باريس منذ أسبوع قد ذهب
يزور أمه ، وأن أهل هذا البيت جميعاً يجدون لغيابه وحشة .
وما هي إلا أن نراه قد خلا إلى « كليبر » لحظة ، فأخذا
يتحدثان في الحب وآثاره وفيما وجد كل منهما من وحشة لهذه

الفرقة القصيرة . ويقبل الزوج فإذا هو كحال لم يتغير ، ساخط على الناس جميعا ، يندب حظه ويحسد شريكه « ارنستين » الذى يستغله ويستغل أعماله فيربح المال ويظفر بالمكانة العالية أليس يتحدث الناس بأنه سيظفر بالوسام !! ويمضى الزوج فى سخطه وحسده ، حتى يتجاوز الناس إلى زوجه فينالها بضروب من اللوم والتأنيب وتحملها هادئة متألمة ، ثم يتركهما وينصرف . فيعودان إلى ما كانا فيه من حديث ، وإذا حبها قد تغير وأصابه شيء من الفتور فى نفس « فريدير » فليس هو ذلك المفتون المدلّه الذى رأيناه فى الفصل الأول ، وإنما هو هادىء مطمئن يتكلف الافتتان والهيام . أما « كلير » فبعيد حبها كل البعد عن الهدوء والفتور ، وإنما هو يتلظى ويضطرم ، وهى تجتهد الاجتهاد كله فى تخفيفه وتلطيفه . وقد طلب إليها صاحبها أن تزوره اليوم وأعلن إليها أنه ينتظرها فتعتذر لأنها لا تستطيع ؛ فهى مضطرة إلى زيارة لا يمكن إرجاؤها .

— فإذا فرغت من هذه الزيارة فمرى بى . . .

— لا أستطيع لأن ابنتى سترافقنى .

وهنا يغضب الرجل غضباً شديداً ، ويظهر مللاً وتبرماً

بهذه الحياة المضطربة التي تختلس فيها اللذة اختلاساً والتي تقوم على النفاق والخديعة ، والتي لا يستطيع الحب أن يظهر فيها واضحا صريحا . وهو لا يتبرم بهذا وحده ، وإنما يتبرم بهؤلاء الناس الذين يضطرونه إلى هذا النفاق والخداع . يتبرم بالفتاة ويعلن أنه يكاد يكرهها . فلا تجيبه صاحبته إلا بالبكاء والاستعطاف والدفاع عن ابنتها ، ثم ينتهي بهما الأمر إلى الرضا والصفو . وقد أقبلت الفتاة فأعلنت إلى أمها أن قد آن الوقت للزيارة ، فتنصرف لتستعد . وتخلو الفتاة إلى « فريدير » فيتحدثان ، وإذا الفتاة تحدث هذا الرجل على نحو ما كانت تحدّثه أمها ، لهجتها ورشاقها وأسلوبها وطريقتها في التفكير ، كل ذلك يصور أمها تصويراً صادقاً ، وهي جادة ولكن صاحبنا كغيره يضحك منها ويحدّثها كما يحدث الأطفال ، فيغضبها ذلك ويؤذيها ، ويضطر هو إلى أن يترضاها وقد كفانا هذا الحديث لفهم شيئين : الأول أن الفتاة مفتونة بهذا الرجل فتنة لا حد لها ، فهي تحبه وتحرص على أن تعجبه وترضيه وعلى أن ينظر إليها كما ينظر إلى فتاة تحب وتفهم الحب . الثاني أن صاحبنا يحس من نفسه شيئا كهذا ولكنه يتجاهله وينكره ويقاومه ويعبث به ويسلك

فيه سبيل المزل . وهو يسأل الفتاة عما أهدي إليها أول السنة ، فتذكر له هدايا كثيرة لم يعجبها منها إلا اثنتان ، هديته هو وهدية أبيها .

— وما هدية أريك ؟

— دفتر حسن التجليد مذهب مقفل ، سأأخذه لا كتب فيه مذكراتي .

— وهل لك مذكرات ؟

فيغضبها هذا السؤال . وكيف لا تكون لها مذكرات وليست بالطفلة ولا الصبية ، ولكنها كغيرها من الناس تفهم وتشعر . وقد أقبلت أمها فينصرفون جميعا .

* * *

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في قصر « أرنستين » في ليلية راقصة قد كثر فيها المدعوون إلى الرقص وغيره من اللهو . ففي القصر ملعب للتمثيل تلعب فيه صاحبة القصر نفسها مع عشيق جديد لها ، لأنها قد زهدت عشيقها الأول ، وازدحم الناس في هذا الملعب إلا ثلاثة من الشبان انتحوا ناحية ، وأخذوا يتحدثون ويعبثون بأهل القصر ومن دعوا

إليه ، ويذكرون جمال النساء والفتيات وآمالهن ومطامع الشبان في مساعيهم . وقد فهمنا من حديثهم أن « مدلين » قد أقبلت إلى هذه الحفلة في زى الفتاة لا في زى الطفلة ، وهي تتقدم اليوم لأول مرة إلى الحياة العامة ، أى تظهر على أنها فتاة تشارك الناس في حياتهم ، فلم أن يخطبوها ، ولها أن تزوج . وليس من يفكر الآن في الخطبة ولا في الزواج ، وإنما هؤلاء الشبان يذكرون جمالها وروعيتها ويريدون أن يغموا من ذلك بحظ ، يريدون أن يراقصوها وذلك يسير إذا قدموا إليها . ولا تلبث صاحبة القصر أن تقبل وقد فرغت من لعبها وغنائها فيستبق إليها هؤلاء الشبان يهنئونها ويشكرونها ، ولم يذكروها من قبل إلا بالسوء . ثم يطلب إليها أحدهم أن تقدمه إلى « مدلين » فتفعل ، والناس يترددون في غرف القصر ، ونلمح من بينهم صاحب القصر قد انتحى مع صديق له ناحية فهو يتحدث ، واسم هذا الصديق « هيننس » نفهم من حديثهما أنه كان في الهند الصيفية منذ أعوام ، وأنه عاد إلى باريس ، فإذا هي قد تغيرت ، وإذا هو لا يعرف أهلها ولا يعرفونه ؛ ولذلك يريد أن ينصرف من هذه الحفلة ،

فيأبى عليه صاحب القصر ويقدمه إلى قريبة له جميلة رشيقة يطلب إليها أن تنبئه بكل شيء ، وتظهره على كل شيء ، حتى يألف الناس ويألفه الناس ؛ فتعده بأنها ستبذل في ذلك جهدها وترجو أن توفق . ولا تكاد تتحدث إلى صاحبها حتى تبدأ بصاحب القصر وصاحبتة فتغتابهما وتقص أمرها على الرجل وتذكر حب صاحبة القصر وعبثها واستهزائها بزوجها ، وتحس أنها ستتناول المحتفلين جميعاً بهذه الغيبة ، ولكن الناس يترددون في الغرف يذهبون ويحيثون في المقصف وإليه ، فتخلو الغرفة منهم أو من أكثرهم من حين إلى حين ، وقد رأينا الشبان يستبقون إلى « مدلين » يطلبون إليها أن تراقصهم ، ورأينا « مدلين » تقبل ذلك مبهجة مسرورة ، ورأينا أنها بذلك سعيدة ، وسمعنا الناس يذكرون أنها ملكة هذه الليلة ، وأن جمالها قد ظفر بفوز لا يعدله فوز ، وهانحن أولاء نرى « كلير » قد خلت لحظة إلى صديقتها « فريدير » فأخذت تحذثه :

— نحن وحدنا فضمنى إليك !

— لسنا وحدنا .

— تستطيع أن تتلطف لي في اللفظ فتذكر جمال ثيابي
وتنسيق شعري .

— فيظهر تردداً . . .

— ما أشد حذرك ! !

— وما أقل حذرك ! ! . . .

ثم يتحدثان ، فإذا حب الرجل لم يزد إلا فتوراً ،
وإذا حبها لم يزد إلا اشتعالا واضطراباً ، وإذا هي تألم
لفتوره ، وإذا هو يألم لهذا الفتور أيضاً ، ولكنه قد انقطع
عن زيارتهما منذ أسبوعين ، وكان متعوداً ألا ينقطع عنها يوماً ،
فهي تعاتبه ، وهو يزعم أن عمله كثير ، ثم يأتي من يشغلها ،
فإذا عاد إلى مكانهما وإلى الخلوة حيناً سمعناها تتحدث إليه
في رفق وألم ، بأنها سمعت الناس يثنون على ابنتها وعلى جمالها
ويذكرون فوزها ، وبأن صاحب القصر قد تحدث إليها في رجل
يعرضه زوجاً « لمدلين » ودلها على هذا الرجل وهو « هينس »
الذي ذكرناه آنفاً ، وقد نظرت إليه فأعجبها منظره ، وهي تريد
أن تخبره . تتحدث إليه بهذا كله في رفق وألم واضطراب .
وكيف لا تألم ولا تضطرب وقد كانت تنظر إلى ابنتها كأنها

طفلة لا كأنها فتاة يمكن أن تخطب ، وكانت تحسب نفسها شابة
وكانت تستمتع بحقوق الشباب في حرية وشجاعة . أما الآن فابنتها
فتاة تخطب ، وإذن فليست هي من الشباب بحيث كانت
تظن ، وإذن فليس لها أن تستمتع بحقوق الشباب في حرية
بل يجب عليها أن تحذر وتحتاط حتى لا تضع مستقبل ابنتها
ولا تعرض اسم الأسرة للخطر . أليس هذا كله يكفي لتألم
وتضطرب !! وأيهما منتصر: الحب الذي لا حد له ، أم الأمومة
تملؤها الرأفة والعطف والحرص على سعادة الأبناء ! أترسل في
حبها الذي يحرقها تحريقاً ، أم تقتصد فيه بل تنصرف عنه لتكون
أما حقاً ولتؤدى واجب الأمومة حقاً ! وأي حق لها في أن تضحي
بابنتها ومستقبلها وكرامة الأسرة ، لأنها تحب وتريد أن تستمتع
بالحب ؟ هي تكره زوجها وتشقى بقربه . ولكن ما ذنب الفتاة ؟
وهل هي التي خلقت هذا الشقاء ؟ هي تحب صاحبها وتسعد
بقربه وتشقى بفراقه ولكن ما ذنب الفتاة ؟ وهل هي التي خلقت
هذا الحب ؟ ثم إن الأمومة لا تعلق وليس كل شيء فيها يمكن
فهمه وتأويله . هي أم ، فيجب أن تضحي بنفسها في سبيل
ابنتها . وماذا تكون النتيجة لو سمعت الفتاة بحب أمها الآثم ؟
يجب أن ينتهي هذا الحب ؟ ويجب أن يحتمل هذا الألم ،

ويجب ألا تلتقي صاحبها إلا في حذر واحتياط . وقد أقبلت الفتاة فحيت « فريدير » تحية المبهجة بقلائه ، وجلست إليه تحذره وانصرفت أمها فأخذت تطلب إليه نفس ما كانت تطلبه أمها من تطف وثناء ، وأخذ هو يتضحك أول الأمر فيفضيها ذلك ويحزنها ، ثم يأخذ في التطف والثناء مخلصاً فيسرهما ذلك ويرضيها . وإذا هو قد اندفع في الثناء اندفاع الحمين ، وكاد يعلن حبه ، ولكنه ملك نفسه قبل أن ينطق بالكلمة الخطيرة . وهل تظن أن مقاومته تعنى عنه شيئاً ؟ اسمع إلى الفتاة وهي تقص عليه فوزها وتذكر له أن أحد الراقصين أسرف في التطف لها وفي ضمها إليه ، وإذا صاحبنا غيران لا يملك نفسه ؟ وإذا هو يلوم ويؤنب ويشير إلى صدرها العارى وإلى ذراعها الظاهرتين ساخراً منكرأ ، وهي بذلك سعيدة فرحة . أليس تعلن إليه راضية أنها لن ترقص الليلة ، وقد أحس هو أنه أسرف وباح بسرّه ، فأراد أن يتراجع وأخذ يعتذر ويلج على الفتاة في أن ترقص . وأقبلت أمها أثناء هذا كله فسمعت آخر الحديث ولم يراها ، حتى إذا رآها وأخذها يشركتها في حديثهما أقبل أحد الشبان إلى الفتاة يسألها الرقص ، فتنظر إلى « فريدير » كأنها تستأذنه ، وينظر هو إليها كأنه يأذن

فتنصرف مع الفتى . والناس يترددون في الغرف ، وقد امتلأت
الغرفة ثم فرغت إلا من جماعات متفرقة يعيننا منها هذان
الشخصان اللذان انتحيا ناحية يتحدثان وهما « هينيس » وصاحبه
وهما يمضيان في الغيبة والعبث بأسرار الناس ، وقد أقبلت
أثناء هذا « مدلين » فوقفت منهما غير بعيد والفتى لا يعرفها ،
فهو يسأل صاحبه عن « كلير » ويذكر جاهلًا . « ومدلين »
تسمع وصاحبه تغمزه أن يكف فلا يفعل بل يمضى في حديثه ،
فيذكر سعادة « فريدير » بخلياة كهذه فتسأله صاحبه : ومن
أبنائك بهذا؟ يجيبها : أنت منذ حين . وهي تنكر . وماذا ينفع
الإنكار وقد سمعت « مدلين » كل شيء فصعقها ما سمعت
وهوت إلى الأرض وقد فقدت الرشد وأقبل الناس إليها مسرعين
وأولهم أمها .

فإذا كان الفصل الرابع ، فقد مضى على ذلك أسبوعان
ونحن عند « كلير » وهي تتحدث إلى أختها محزونة واجمة فإن
ابنتها مريضة مرضاً يجمله الطبيب ويعجز عن دوائه ، وقد أرقتها
العلة المجهولة تأريقاً متصلًا ، فهم يحتالون كل الاحتيال في أن

تنام فلا يزورها النوم إلا غراراً . وأما تريد أن تعرف هذه العلة ومصدرها ، ولكن ابنتها لا تحدثها بشيء بل هي تنكر أنها مريضة وتنكر أنها تألم . ولا تشك « كلير » وأختها في أن مصدر هذه العلة إنما هو الحب أو شيء متصل بالحب ، ولكنهما تريدان أن تعلما شيئاً واضحاً ، فتقترح عليها أختها أن تنظر في مذكرات الفتاة فهي وحدها التي تستطيع أن تكشف هذا السر . تتخرج الأم حيناً من النظر في هذه المذكرات دون إذن ابنتها ، ولكن عزميتها تتم على ذلك فتمضي أختها فستترق الدفتر في رفق وتنظران فيه فلا تكادان تقرأن منه قليلاً حتى تتبين أن الفتاة تحب « فريديير » . تكفان عن القراءة ، وتطلب « كلير » إلى أختها أن تتركها ، فتخلو إلى نفسها صعقة تنظر في الدفتر وتفكر وتتحدث إلى نفسها ، وإذا الفتاة قد أقبلت تمشى مشياً هيناً ، وقد رأت فيما يرى النائم أن دفترها يسرق فأفاقت من النوم وافتقدت الدفتر فلم تجده ، فأقبلت إلى أمها فرأتها تنظر فيه ، فهي تزجر أمها زجراً عنيفاً تتهمها بالسرقة والخيانة ، وتأخذ الدفتر من يدها فتقذفه في عنف ، وأمها ترفق بها وتستعطفها ، والفتاة ماضية في السخط ، حتى إذا أخذت

تهداً بعض الشيء أحست إساءتها إلى أمها فرقت ، وأدتها أمها إليها وأخذت تلاطفها وتهزها في لين وتسألها أن تظهرها من أمرها على كل شيء ؟ والفتاة تقاوم ، ولكنها سئمت المقاومة وعجزت عنها ، فتذكر لأمها كل شيء ، وتنبئها بما سمعت ، فانظر إلى هذه المرأة كانت تخشى أن يتسامع الناس بحبها ، وكانت تخشى أن تعلم ابنتها بهذا الحب ، وكانت معترمة الانصراف عن هذا الحب ؛ وكانت ترى هذه التضحية بنفسها حقاً عليها لابنتها فماذا تسمع الآن ؟ تسمع أن ابنتها تحب عشيقها ؛ وأن ابنتها تعلم بهذا الحب . لو لم تكن أما لصعقت بما تسمع ، ولكنها أم تريد أن تنقذ ابنتها ، فهي ليست صِغَةً ولا مضطربة ، ولكنها مفضبة نائرة ، تنكر ما اتهمت به وتقسم أنه كذب . وقد رأت الفتاة الصدق فاطمأنت إليه ، وأخذت تبتسم ، ثم أخذت تحيا ، ثم أخذ الأمل يستأثر بها ، وإذا هي قد استردت نشاطها وابتهاجها ، وهي تسأل أمها . أيمن أن أتزوج « فريدير » ! فتجيبها : أنت تجبينه ! فإذا كان يجبك فماذا يمنع من الزواج ؟

— هو يحبني ، لا أشك في ذلك . لقد ظهر لي ذلك
منه ظهوراً جلياً وتقص عليها غيرته ليلة الرقص .
— إذن فستزوجينه !

وتدخل الخادم فتنبئ بأن « فريدير » يستأذن ، فتتصرف
الفتاة تاركة لأمرها أن تتحدث في هذا الحب إلى « فريدير »
فاذا خلت « كلير » إلى صاحبها لم تضع الوقت في كلام
لا يفيد ، وإنما أنبأته بما تعلم من أسباب العلة التي أضنت
ابتها ، وأعلنت إليه أن الفتاة تحبه ، ثم لم تلبث أن أعلنت
إليه أنه يحبها أيضاً . ومهما ينكر ، ومهما يتكلف فقد ثبت
ذلك وهو لا يستطيع أن يخفيه ، ولكنه لم يحسن ما تظن ، فهو لم
يغو الفتاة ولم يعث بقلها الطفل . وإذا كانت الفتاة قد أحبت
فلم يسع هو إلى ذلك ولم يفكر فيه ، كما أنه لم يعتمد حب الفتاة
ولم يقصد إليه ، فهو يحبها حقاً ، ذلك شيء لا يستطيع أن
ينكره . ولكنه لا يدري كيف أحب ، وإنما يعلم أنه أحس هذا
الحب يقوى في قلبه ، وأحس أنه يقوى في قلب الفتاة فقاومه
ما استطاع حتى إذا استيأس من الفوز انقطع عن البيت ، وهو الآن
معتزم أن يسافر إلى حيث لا يعود . وعزيز عليه هذا ، عزيز عليه

ما أحدث من ألم في قلب هذه الأم التي يحبها . عزيز عليه
ما أحدث من يأس في قلب هذه الفتاة البريئة . هو لا يعلم
لم أحب الفتاة ولا كيف أحبها . ولكن « كبير » تعلم ذلك
إنما أحب الفتاة لأنها تشبه أمها حين كانت في الثامنة عشرة
من عمرها ، وحين كان يحبها ويهواها . وحين حيل بينه وبين
الاقتران بها . وهي تطلب إليه الآن شيئاً عظيماً ، تطلب إليه
ألا يسافر ، تطلب إليه أن يتزوج الفتاة . . . يصعقه هذا الطلب
فيجن جنونه ويتهم صاحبتة بالجنون و فقدان الرشيد ، وكيف
يستطيع أن يتزوج هذه الفتاة وهو عشيق أمها !! أليس في ذلك
منكر لا يعدله منكر ! وليس من الحق أن هذه الفتاة تستطيع
أن تسعد بهذا الزواج فستفكر أبداً في أمها ، وستعلم من غير
شك أن أمها قد كذبتها . وسيقوم ذلك الحب الآثم في سبيل
هذا الحب المشروع . ولكن الأم مطمئنة تعلم حق العلم أن الفتاة
ستسعد ، وأنه هو سيسعد أيضاً ، وأن الفتاة ستجهل هذا الحب
الآثم ، وأنه هو سينساه . تلح في الزواج ، ويلح في الإباء ،
ويكون بينهما حوار لا أحاول تلخيصه فوق التلخيص ، ولكنها
عجزت عن إقناعه فوكلت إليه هو أن يعلن رفضه إلى الفتاة .

وتدعو الفتاة ، فتقبل فرحة مبهجة وتحييه تحية الواثقة المطمئنة إليه ، فإذا أعلن إليها أنه مسافر إلى حيث لا يعود ظهر عليها من الاضطراب واليأس شيء لم يستطع هو أن يحتمله ، وكأنها تصدق ما سمعت ، وإذا هو يعلن إليها أنه سيعود ويعلن إليها ما يفهم منه أنه قبل الزواج ، وهي فرحة قد طارت فرحا إلى خالتها تدعوها لتسمع هذا النبأ . وخلا العاشقان لحظة ، فإذا هو يعترف بعجزه عن مواجهة الفتاة بالحق . وإذا هي تقر الزواج مضحية بـجـبها في سبيل ابنتها . . .

— إنى لأقدسك !

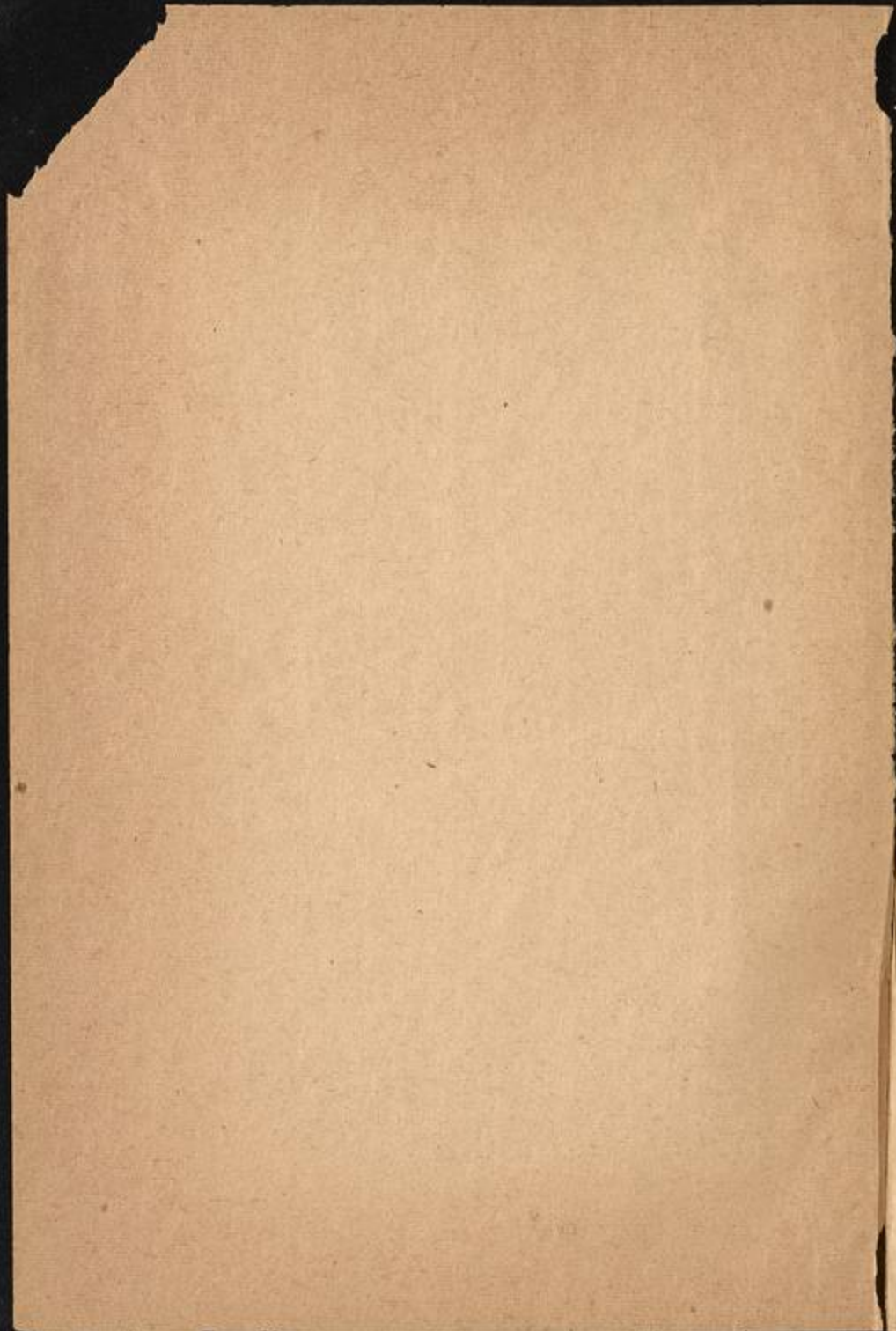
— إن أنا إلا امرأة شقية . . .

مايو ١٩٢٤

فهرست

ص	العذراء المفتونة
٥	
٢٧	الأم المفتونة
٥٥	المتجردة
٧٧	الفضيحة
١٠١	الاغراء بالرحيل
١٢٥	الحبيب
١٥٣	المصاييح
١٨٣	القبر تحت قوس النصر
٢٠٥	عشاق
٢٣١	الخطر الآخر

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢



893.7H954

S7

10660224

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58873686

893.7H954 S7

Lahazat.